اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السابع والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٥

* (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ
عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا) : أى لا يتوقعون لقاء حسابنا ولا يبالون بالإنذار به .

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ) : أى أضمروا الاستكبار فى قلوبهم عنادا للحق وكفرا به .

(وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) : هى كلمة استعاذة ، وكانت معروفة عند العرب فى الجاهلية ، فكان الرجل إذا لَقِىَ من يخافه قال : حجرا محجورا ، أى : حَرَامًا مُحَرَّمًا ومحجورا ، وصف لحجراً للتأكيد كقولهم : موتٌ مائت ، وهُو من الحَجْر ، بمعنى : المنع ، وسيأتى تفصيل ما قيل فى ذلك .

(وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ) : أى وعمدنا إلى ما عمله الكفار من أعمال البر .

(فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) : أى تافها لا سبيل إلى الانتفاع به ، فهو شبيه بالهباء الذى يُرى فى الكوة مع ضوء الشمس مُفرَّقا هنا وهناك .

(وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) : أى وأحسن منزلًا ، ومأوى، للاسترواح ، والاستقرار .

التفسير

٢١ - (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا . . .) الآية .

هذه الآيات تحكى بعضا آخر من أقاويل الكفار الكاذبة ، وتبين ردها وبطلانها - تحكيها - عقب حكاية أباطيلهم فى أمر التوحيد والنبوة والقرآن التى ذكرتها الآيات السابقة ، وأتبعتها ما ينقضها ، ويظهر فسادها .

ولما كان ما حكى عنهم قد بلغ الغاية فى الشناعة والقبح ؛ نبّه سبحانه على أن ما قالوه لا يصدر إلّا عمن لا يتوقعون الرجوع إليه سبحانه بالبعث والحشر ، فالمراد من عدم رجائهم لقاء ربهم : أنهم لا يتوقعونه أصلًا لإنكارهم البعث والجزاء بالكلية ، لا أنهم لا يتوقعون حسن اللقاء ، ولا يخافون سوء العذاب ، فإنهم ينكرون البعث والجزاء إنكارًا تامًّا .

أى : وقال الذين ينكرون لقاءنا يوم الجزاء : هلّا أُنزل علينا من السماء الملائكة ، فتخبرنا بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو تبلغنا أمر الله ونهيه بدل محمد - عليه الصلاة والسلام - ، أو نرى ربنا أمامنا ، ليخبرنا بما يريده منا ، بغير وسيط بيننا وبينه أو يخبرنا بصدق محمد فى رسالته . وفيما نطقوا به إمعان بالغ فى التكذيب ، والعناد ، يعرب عنه قوله سبحانه :

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) :

أى : اعتقدوا فى أنفسهم أنها كبيرة القدر ، رفيعة الدرجة زهوًا وغرورًا ، وقد دفعهم ذلك إلى أن يسألوا الشطط ؛ لأن الملائكة لا ترى إلّا عند الموت ، أو عند نزول العذاب . والله سبحانه : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[1] .

وتعقيب حكاية باطلهم بالجملة القسمية ؛ مشعر مع التأكيد بأن ما هم عليه من استكبار وعتوّ ؛ غاية فى القبح والغرابة ، بحيث يحتاج إلى توكيده .

والمعنى : والله لقد بالغوا فى كبرياء أنفسهم ، وفى الظلم والطغيان مبالغة تجاوزوا فيها الحد تجاوزا كبيرًا بلغ أقصى غاياته ، حتى اجترأوا على التفوّه بمثل هذه العبارة الشنعاء

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٣

حيث طلبوا إنزال الملائكة لتشهد بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو لتبليغ أمر الله ونهيه بدلًا منه ، أو أن يروا الله عيانًا ليخبرهم بما يريده منهم أو ليشهد بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا كل ذلك وطلبوه ؛ مستكبرين أن ينقادوا لبشر مثلهم أيده الله بما يوجب إيمانهم بما جاءهم به من الحق المبين ، ولو أنزل الله إليهم الملائكة لما آمنوا ، كما قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ[(١)] ».

٢٢ - (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَآئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) :

استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند موتهم بسبب كفرهم : أى : اذكر حال هؤلاء المجرمين يوم يرون الملائكة عند الموت ؛ لا بشرى لهم بخير يومئذ منهم ، بل تبشرهم بالنار وغضب الجبار فتقول للكافر عند خروج روحه : أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث اخرجى إلى سموم ،وحميم ،وظلّ من يحموم ؛كما يقول تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَآئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ »[(٢)] .

وهذا بخلاف حال المؤمنين وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ،وحصول المسرّات كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ »[(٣)] .

وقيل : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَآئِكَةَ) : يعنى يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما وما تقدم أولى ، وهذا لا يمنع من أنهم لا يبشرون بخير يوم المعاد ، فإن الملائكة فى هذين اليومين : يوم الممات ويوم المعاد ،تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ،

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١١

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٩٣

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٠

وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، وكان يمكن أن يقال : لابشرى يومئذ لهم ، بالإضمار ، ولكن إظهارهم بعنوان المجرمين ، لتعليل سلب البشرى عنهم بإجرامهم .

(وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) أى : وتقول الملائكة للمجرمين إقناطا لهم : جعل الله تبشيركم بالغفران ،والرحمة ،أو بالجنة ،حراما محرما ، وقال بعضهم : إن المجرمين يطلبون البشرى من الملائكة فيقولون لهم ذلك .

وقيل : إن الضمير للكفار ،أى : ويقول أولئك الكافرون للملائكة : (حِجْرًا مَّحْجُورًا) وهى : كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو موتور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، والمقصود من الآية على هذا : بيان أن الملائكة الذين يطلبونهم لتبليغهم لن ينزلوا إلا لتعذيبهم ، حتى إذا رأوهم عند الموت كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا ، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول أمر فظيع ، وحلول بأس شديد : حجرا محجورا ، ومنعا ممنوعًا ،مما نراه من العذاب .

وقوله : (مَّحْجُورًا) صفة لِحجْرًا واردة للتأكيد .

٢٣ ــ (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) :

أى : وعمدنا إلى ما عمله الكفار من خير كانوا يعملونه فى الدنيا كصلة رحم وإغاثة ملهوف ، وقِرَى ضيف ، وعفو عن أسير ، وغير ذلك من محاسنهم .

(فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) : حيث أبطلنا ثوابها بسبب كفرهم ،فلا ينتفع به فى الآخرة وصار فى عدم الجدوى منه شبيها بالهباء المنثور ،وهو :ما يرى فى شعاع الشمس يخرج من الكوة منثورا ، بحيث لا يمكن الانتفاع به ، وقيل : هو ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ، قاله قتادة وابن عباس ، وقال ابن عرفة : الهبوة والهباء : التراب الدقيق .

وكل هذه المعانى للهباء المنثور تشير إلى أن الله تعالى أَحْبَطَ أعمالهم الطيّبة إحباطًا تامًّا ، وجعلها لا وزن لها ولا تقدير ،كالهباء المنثور ، كما قال سبحانه : « وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا »[1] .

ولو صدرت عنهم فواضل الأعمال وهم مؤمنون ، لأُثيبوا عليها أجزل الثواب .

(١) سورة النور ، من الآية : ٣٩

٢٤ - (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) :

أى : أن أهل الجنة وهم المؤمنون الصادقون؛ يكونون يوم الجزاء أفضل من هؤلاء المكذبين مستقرًّا ومقيلًا ، والمستقر : هو المكان الذى يستقرون فيه أكثر الأوقات للتجالس ، والتحادث والمقيل : هو مكان الاسترواح ، والتمتع ينعمون فى هذين المكانين بما أتيح لهم من خير ونعيم وسُمّى المكان الثانى مقيلًا ؛ لمَا أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالبًا ، وهو ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار ، قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار وتفضيل أصحاب الجنة على أصحاب النار فى المستقر والمقيل ، إما بالإضافة إلى ما للكفرة المنعّمين فى الدنيا ؛ على معنى : أن نعيم المؤمنين فى الآخرة خير من نعيم الكفرة فى الدنيا ، وإما بالإضافة إلى حالهم فى الآخرة على سبيل التهكم والتقريع ، ويجوز أن يكون أفعل التفضيل على غير بابه ، فيكون المراد : أن أصحاب الجنة سعداء فى كل حال ، على عكس ما عليه أهل النار من الكفار ، فهم فى أسوأ حال .

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ) : الباء فى قوله : (بِالْغَمَامِ) بمعنى عنْ ، فهما يتعاقبان ، كما تقول : رميت بالسهم ، وعن السهم أى : واذكر يوم تتفتح السماء عن الغمام ، وهو سحاب أبيض رقيق مثل الضباب .

(وَنُزِّلَ الْمَلَآئِكَةُ تَنزِيلًا) : من السماء إلى الأرض بصحائف الثقلين .

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) : أى أن يوم القيامة صعب شديد على الكافرين .

وفعله من بابي قرُب وفرِح . تقول : عسُر الأمر - بضم السين - عُسْرا وعَسَارة فهو عسير وعسِر - بكسر السين - عَسَرًا فهو عسِرٌ .

التفسير

٢٥ - (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا) :

يوجه الله النظر إلى هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، أى : واذكر أيها النبى يوم تتشقق السماء المظلة للخلق ؛ حيث تتفتح عن الغمام ، وهو سحاب أبيض رقيق مثل الضباب ، وهو المذكور فى قوله تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ » [1] والمراد بالسماء فى الآية : ما يعم السموات كلها ، قال مقاتل : إن المراد بالسماء ما يعم السموات كلها ، وتنشق سماء سماء وروى ذلك عن ابن عباس .

فإذا انشقت السماء وانتقض تركيبها ، وطويت ، ونُزِّلت الملائكة تنزيلا عجيبا ، بصحائف الأعمال - نزلت من خلال ذلك الغمام إلى حيث يجتمعون فى صعيد واحد حول الإنس والجن ، وجميع الخلائق ، فيحيطون بهم فى مقام الحشر ، ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

٢٦ - (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) :

أى : أن الملك الحقيق الثابت دائما صورةً ومعنًى ، ظاهرا وباطنا يكون للرحمن وحده ، يومئذ تتشقق السماء بالغمام وتتنزل الملائكة ؛ لأنه سبحانه له السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى التام فى الآخرة ، وأما الملْك فى الدنيا للمالكين من الناس فليس ملكا حقًّا ، فإن الله هو الملك الحق فى الدنيا والآخرة ، ولكنه تعالى ملَّكهم ظاهرا ؛ ملك تصرف وإدارة ، يبقى ببقائهم ، ويزول بزوالهم .

ووصْفه تعالى بالرحمة للإيذان بأن اتصافه تعالى بالرحمة الشاملة لعباده جميعا فى دنياهم ؛ لا ينبغى أن يُطيقهم فيها فى أخراهم ، لعدم استحقاقهم لها بما اقترفوه من أسوأ الأعمال ، ولذا عقبها بقوله : (وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) : أى : وكان ذلك اليوم صعبا شديدا على الكافرين لطوله ، ولِما ينالهم فيه من الأهوال ، ويلحقهم من الخزى والهوان ، كما قال تعالى : « فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » [2] . وفى ذلك

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢١٠ (٢) سورة المدثر ، الآيتان : ٩ ، ١٠

إشارة إلى أنه يكون على المؤمنين سهلًا يسيرا ، يقبلون عليه بنفوس مطمئنة ، ووجوه مستبشرة ، كما قال تعالى : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ »[1] .

كما أنه لتيسيره عليهم يخفف الله عنهم مشقة طوله ، يدل على ذلك ما نقله الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما قيل له : ما أطول هذا اليوم ، فقال : « والذى نفسى بيده ، لَيُخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩))

المفردات :

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ) : عض اليدين والأنامل كناية عن شدة الغيظ ؛ لأن عض اليدين يحدث غالبا عندها[2] .

(اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) : أى سببا وصلة تصلنى به ، أو طريقا إلى الجنة .

(يَا وَيْلَتَىٰ) : كلمة جزع وتحسر ، تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة والخطب الجسيم .

(لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) : فلانا وفلانة بغير (ال) كناية عن الإنسان ، والفلان والفلانة بالألف واللام كناية عن الحيوانات كما قال الراغب . وخليلا : صديقاً ، والجمع : أخلاء

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٣ (٢) ولفظ (يعض) من باب فرح يفرح .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً[١]) : أى أن الشيطان مبالغ فى ترك نصرة الإنسان وإعانته .

التفسير

٢٧ - (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) :

قيل : إن (ال) فى الظالم للعهد ، ويراد به هنا : عقبة بن أبى معيط ، ويراد بفلان المذكور فى الآية التالية : أبى بن خَلَف .

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : كان عقبة بن أبى معيط قد هم بالدخول فى الإسلام فمنعه منه أبىّ بن خلف وكانا صديقين ، وقد قتلهما النبى - صلى الله عليه وسلم - قتل عقبة يوم بدر صبرا ، وطعن أبىّ بن خَلَف فى المبارزة يوم أُحد فرجع إلى مكة ومات وقد ذكر ذلك القشيرى والثعلبى سببا فى نزول الآيتين .

والظاهر : أن ال فى الظالم للجنس ، فيعم كل ظالم ، ويدخل فيه عقبة بن أبى معيط دخولا أوليا ، وأن فلانا : كناية عن كل خليل ظالم من شياطين الإنس والجن ، وعموم اللفظ لا ينافيه خصوص السبب[٢] .

والمعنى : أن كل ظالم فارق الصراط المستقيم ، وأعرض عما جاء به الرسول من الحق البيِّن الذى لا مرية فيه فإنه يندم يوم القيامة حيث لا ينفعه الندم ، ويعض على يديه ، ويطبق أسنانه على أنامله حزناً وألماً شأن المَغِيظ المُحْنَق .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) : فى الدنيا باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبذل كل جهد فى نصرة الدين دفاعاً عنه ، وحفاظاً على أهله حتى يكون ذلك العمل طريقاً إلى الجنة ، وجملة (يَقُولُ يَا لَيْتَنِى . .) إلخ فى مَوضع الحال من الظالم ، أو مستأنفة بيانا لما قبلها .

---

(١) وفعله من باب قتل ، يقتل ، يقال : خذله وخذل عنه : ترك نصرته ، فهو خاذل وخذلة كهمزة ، وخذول المبالغة .

(٢) وقال القرطبى : هو أمية بن خلف .

و (ال) فى الرسول للجنس فيعم كل رسول ،أو المعهود :فيكون المراد به رسول هذه الأمة محمدا ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ .

٢٨ ـ (يَاوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً) :

ينادى الظالم فى موقفه اليائس الحزين : ويْلَتَهُ ـ أى ـ : هلاكه ، تعبيرا عن حزنه وحسرته ، وهى كلمة تقال عند وقوع الداهية العظيمة ،والخطب الجسيم ، فكأنه يقول : احضرى يا هلكتى فهذا أوانك ،ثم يقول : (لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً): ليُبْرز بهذا التمنى ندمه ، مع نوع من التعلل والاعتذار بإلصاق جنايته على نفسه بغيره ، الذى عَبَّر عنه بفلان مريداً به الشيطان ،أو كل من أضله فى الدنيا ،أى : ليتنى لم أتَّخذ فى الدنيا كائنا من كان صديقاً أتَّبعه وأثق به ، وأسلك سبيله :سبيل الكفر والطغيان التى قادتنى إلى مهاوى الهلاك والخسران .

٢٩ ـ (لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً): تعليل لتمنيه السابق ، وتوضيح لتعلله ، وتصديره بلام القسم ؛ للمبالغة فى بيان خطئه ، وإظهار حسرته وندمه ،لأنه استمع إليه فى إضلاله عن الحق الذى جاءه به رسوله .

أى :والله لقد أضلنى من اتخذته فى الدنيا خليلا ؛عن القرآن والإيمان به ، بعد إذ جاءنى به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً) : أى أنه مبالغ فى خذلان الإنسان ،حيث يُواليه حتى يؤدى به إلى الهلاك ،بما يزيِّن له من سوء وقبح ، ثم يترك نصرته ومعاونته ودفع الضرر عنه وقت الحاجة إليه ، وقد كان هذا الإنسان يظن فيه الظهير والنصير .

وجملة « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا » مقررة لمضمون ما قبلها ، إما من جهته تعالى ، وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى » وإما من تمام كلام الظالم ،على أنه

سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالإضلال الذى هو أخص أوصاف الشيطانية ، فيشمل كل مضل صد عن سبيل الله وكان مُطاعا فى المعصية أو أراد به إبليس بخاصة ،ووصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يَعِده فى الدنيا ،ويُمنِّيه بأن ينصره فى الآخرة ،ويؤازره ،ثم تبرأ منه ،وتخلى عنه عند نزول العذاب ،وحلول البلاء ،كما قال تعالى : « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم »[1] .

(وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾)

المفردات :

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآن مَهْجُوراً) : أى متروكا فلم يؤمنوا به ، من الْهَجْرِ - بفتح الهاء- أو :مهجورا فيه ، من الهُجر - بضم الهاء- وهو :الهذيان ،وفحْش القول ،كقولهم : إنه أساطير الأولين اكتتبها ، أو :بالسخرية واللغو حين يقرأ حتى لا يسمع ، والفعل من باب قتل . (عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ) : أى عدوا واحدا أو متعددا . فهو يقع على الواحد والجمع مذكرا ومؤنثا .

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٢٢

التفسير

٣٠ – ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ :

هذا القول معطوف على قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه ، وبيان ما يحيق بهم فى الآخرة من أهوال شداد ، ويجوز أن يكون استئنافًا يحكى شكوى النبى لربه من قومه ، أى : وقال الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – : يبث شكواه من قومه لربه – عز وجل – إثر ما شاهده منهم من الترك ، والإهمال ، حيث اتخذوا هذا القرآن متروكا ، ومن جملته الآيات الناطقة بتحذيرهم ، بما يصلونه على صنيعهم من فنون العقاب ، والنكال فى الآخرة .

أو اتخذوه مهجورًا فيه ، بمعنى : أنهم قالوا عنه غير الحق ، فوصفوه بأنه سحر ، أو شعر أو أساطير الأولين اكتتبها ، أو مضوا فى الهذيان واللغو فيه إذا قرئ حتى لا يسمع ، كما قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » [1] . وقد تسبب هذا فى أنهم لم يؤمنوا به ، ولم يرفعوا له رأسا ، ولم يتأثروا بوعيده .

وفى الآية تلويح بأن من واجب المؤمن أن يكون كثير الرعاية للقرآن الكريم والاهتمام بتعهده ، والذود عنه ، كما أن فيها من التحذير والوعيد ما لا يخفى ، فإن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – إذا شكوا إلى ربهم ظلم قومهم عاقبهم على ظلمهم .

٣١ – ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ :
تسلية للنبى – صلى الله عليه وسلم – بما وقع للأنبياء والمرسلين قبله حتى يهون عليه ما يلقاه منهم من عداوة وإجرام .

أى : وكما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ، ويفعلون ما يفعلون كأبى جهل وأحزابه ، جعلنا لكل نبى من الأنبياء أصحاب الشرائع الداعين إليها أعداء من مرتكبى الآثام ، ومقترفى الجرائم ، كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

(١) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »[١] فاصبر أيها النبي على أباطيلهم ، كما صبر الأنبياء قبلك على ضلال المجرمين من أقوامهم .

(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) : وعد كريم لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بهدايته إلى بلوغ كافة مطالبه التي تيسر له النصر على أعدائه ، أي : وحسبك أن تلقى تأييد ربك الذى هو مالك أمرك ، وأن تظفر بهدايته إياك إلى ما يصلح شأنك ، ويحقق نصرك على أعدائك ، لتبلغ غاية الكمال ، وتصل إلى أسمى الغايات التي من جملتها تبليغ ما أنزل إليك ، وإجراء أحكامه في ربوع الدنيا ، وبين جنباتها إلى أن يبلغ الكتاب أجله .

وقيل : المعنى وحسبك أن يكون ربك هاديًا لمن آمن بك ، واتبع الكتاب الذى أنزل عليك ، ونصيرًا لك على غير هؤلاء المؤمنين .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) : أي لنجعل له الثبات والاستقرار بسببه .

(وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) : أي فرقناه آية بعد آية ، يقال : رتله القارئ : تمهل في قراءته ولم يعْجل به .

(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) : أي بيانًا ، تقول : فَسَرْتُ الشيء - بفتح السين مُخَفَّفَةً - فَسْرًا من باب ضرب ، بمعنى بينته وأوضحته ، كفسّرته - بشد السين - .

(١) الأنعام ، من الآية : ١١٢

(أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا) :أى ذوو سُوء وظلم وفساد أكثر من غيرهم ،وأصله :أشَرُّ ،حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وفعله : من باب تَعِب ، وفى لغة من باب قَرُب .

التفسير

٣٢ـ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ . . .) الآية .

يخبر الله بذلك عن تعنت الكافرين ، وتمسكهم بما لا يعنيهم ،سواء أكان ذلك المعترض كفار قريش،كما قال ابن عباس ، أم طائفة من اليهود قالوا حين نزل القرآن مفرقًا : هَلَّا أُنْزِل عليه جملة واحدة،كما أُنْزِلت التوراة على موسى ،والإنجيل على عيسى ،والزبور على داود ؟ فأجاب الله تعالى أولئك القائلين بقوله تعالى : (كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) ، فهو استئناف لردّ مقالتهم الباطلة ،وبيان الحكمة فى تنزيله التدريجى ،أى :مثل ذلك التنزيل المفرّق الذى قَدحوا فيه،واقترحوا خلافه ،نزلناه عليك ، لا تنزيلًا كما أرادوه ، ليقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك ، فتعيه ويتيسر لك حفظ لفظه ، وفهم معانيه ، وضبط أحكامه ، والوقوف على تفاصيل ما روعى فيه ، مما يحتاج إلى توضيح وبيان ،كالتشريعات والمصالح ، أو إلى دحض مطاعن الكافرين وإبطالها بعد حكايتها وعرضها ،فى حين أنك رجل أمى ، وتفريقه هو المناسب لحالك .

فكلما جَدَّ جديد نزل منه ما يناسبه ،ويُبيِّن فيه من الحُكم مايوافقه ، مطابقًا لمقتضى الحال .

لكل هذا ، أنزل الله القرآن منجما على النبى الأُمى ــ صلى الله عليه وسلم ــ رعايةً له وعناية به ، وإشفاقًا عليه حتى لا يلحقه مشقة فى حفظه وتدبره وتبليغه ، وليستمر الإيناس له برسول ربه جبريل ــ عليه السلام ــ (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) : أى فرّقناه آية بعد آية ، قاله النخعى والحسن وقتادة ، وقيل : بيّناه بيانًا تامًّا ، فيه تَرَسُّلٌ وتَثَبُّت. كما قال ابن عباس : يعنى بيناه شيئًا بعد شيء ، وقيل : قرأناه عليك بلسان جبريل ــ عليه السلام ــ شيئًا فشيئًا على تُؤَدة كما قال تعالى : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا »[1] .

(١) سورة الإسراء، الآية : ١٠٦

٣٣ـ (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) :

المراد بالمثل : أقوالهم التي يلتمسون بها معارضة القرآن والقدح في نبوته -صلى الله عليه وسلم- ومن جملة هذه الأقوال ما حكى عنهم من اقتراحات خارجة عن حد المعقول ، جارية لغرابتها مجرى الأمثال كقولهم : « لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ[1] . . . »

والمعنى : ولا يأتونك بكلام عجيب هو مثل في البطلان (إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) : أي بالجواب الثابت الذي لا محيد عنه في مقابلة ما يصدر عنهم ، محوًا لأباطيلهم ، وقضاء على أكاذيبهم التي أرادوا بها الطعن في رسالتك وحسمًا لمادة القيل والقال التي دارت على ألسنتهم ، قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوة لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه . ا هـ

(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) : أي جئناك بالحق ، وبما هو أحسن بيانا ، وتفصيلا لما بعثناك به من الهدى ، حتى لا يكون للباطل الذي جاءوا به حقيقة ولا ظل ، كما قال تعالى : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[2] .

٣٤ـ (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ) :

إخبار من الله تعالى عن حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوإ حال .

والمعنى : أن هؤلاء المكذبين تسحبهم الملائكة وتجرهم على وجوههم إلى جهنم ، وقيل : الحشر على الوجوه مجاز عن الذلة والمهانة والخزي ، وعقب ذلك بقوله تعالى : (أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) أولئك الذين يزعمون أنك كاذب فيما دعوتهم إليه ، واقترحوا في تحديك ما اقترحوا ، أولئك أسوأ مكانا في الكذب وسوء الحال ، وأضل سبيلا ، من كل ضال وهذا الأسلوب على سبيل مجاراتهم فيما زعموا فإنه -صلى الله عليه وسلم- منزه عن كل شر وضلال .

(١) سورة الإسراء ، الآيات : من ٩٠ : ٩٣

(٢) سورة الإسراء : آية ٨١

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ
وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ
تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ
لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ
أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
نُشُورًا ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(هَٰرُونَ وَزِيرًا) : أى معاونا ومساعدا له فى حمل أعباء الدعوة .

(فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) : أى أهلكناهم إهلاكا مدمرا .

(لِلنَّاسِ آيَةً): علامة ظاهرة على قدرتنا يعتبر بها .

(وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ) : أى أعددنا وهيأنا لهم .

(وَأَصْحَابَ الرَّسِّ) : الرسّ ؛ بئر غير مبنيّة كانت لبقية من ثمود .

(وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ) : القرن؛ الجيل من الناس ، قيل : ثمانون سنة ، وقيل : غير ذلك .

(وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ) : هي سدوم أعظم قرى قوم لوط

(مَطَرَ السَّوْءِ) : فقد أمطرت القرية بالحجارة من السماء فهلكت ، والسَّوء -بالفتح- مصدر (ساءه) وبالضم : اسم منه .

التفسير

٣٥- (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) :

شروع في بيان قصص بعض الأنبياء مع أممهم ، وانتقام الله ممن كذبهم ، تهديداً لِمَنْ كذب رسوله - صلى الله عليه وسلم - من مشركي قريش وكل من خالفه وأعرض عن دعوته ؛ وتحذيراً لهم مما أحله بالأمم السابقة التي كذبت رُسُلها ، وتأكيداً لما مرَّ من التسلية له - صلى الله عليه وسلم - والوعد بالهداية والنصر ، في قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا » . وقد بدأ سبحانه بحكاية ما جرى لموسى - عليه السلام- فبين أنه ابتعثه مؤيداً بالتوراة التي أنزلها عليه ، وجعل معه (أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) :أي بعثه معه يؤيده ويشد أزره ، وهو تابع له ، كما يتبع الوزير سلطانه .

وبدأ الحديث معه باللام وقد؛ لإفادة التأكيد ، أي : ولقد أنزلنا التوراة على موسى - عليه السلام - وأيدناه بأخيه هارون .

٣٦- (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) :

المراد بالقوم هنا : قوم فرعون ، أي : فقلنا لهما : اذهبا إلى قوم فرعون؛ الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة في الأنفس والآفاق ، أو كذبوا بالآيات التي جاءهم بها يوسف عليه السلام ، أما حَمْلُ التكذيب على أنه بالآيات التسع؛ التي ذكرت في قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ »[1] فإنه لا يناسب المقام؛ لأنها لم تظهر إلا بعد

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١٠١

ذهابهما إليهم ، وفى الكلام طَىٌّ لكلام يقتضيه المقام ، تقديره : فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ، ودعَوَاهم إلى الإيمان فكذبوهما .

واستمروا على تكذيبهما بعد أن أيدهما الله بآياته (فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) : عجيبًا هائلًا إثر ذلك التكذيب المستمر - دمرناهم - بعذاب ماحق ، لا يدع ولا يذر شيئًا إلَّا أتى عليه وجعله أثرًا بعد عَيْن .

٣٧- (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً . . .) الآية .

أى : أن قوم نوح كذبوا جميع الرسل بتكذيبهم رسولهم إذ لا فرق بين رسول ورسول ؛ لاتفاقهم جميعًا على التوحيد وأصول الشرائع ، إذ لم يرسل إليهم إلَّا نوح - عليه السلام - وقد لبث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم عذابه ، فما آمن معه إلَّا قليل ، وقد عاقبهم الله عقوبة لم يسبق لها مثيل ، حكاها الله بقوله : (أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً) أى:أغرقناهم بالطوفان؛ الذى تفجرت مياهه ، وتلاحقت أمواجه عالية شامخة كالجبال العظيمة ، وجعلنا إغراقهم أوقصتهم علامة ناطقة ببالغ قدرتنا؛ لتكون عبرة لكل من شاهد آثارها ، أو سمعها (وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) : المراد بالظالمين الذين أعدّ الله لهم العذاب هم أولئك القوم الموصوفون بالتكذيب من قومه ، أو جميع الظالمين من الكافرين الذين لم يعتبروا بما نزل بهؤلاء من العذاب فيدخل فيهم قريش دخولًا أوليًّا أى : وأعددنا للظالمين وهيأنا لهم فى الآخرة عذابًا بلغ أقصى غاية فى هوله وتأثيره .

٣٨- (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا) :

أى : ودمرنا عادًا قوم هود - عليه السلام - وثمود قوم صالح - عليه السلام - وأصحاب الرسّ؛ وهم قوم شعيب - عليه السلام - ويقال لهم أيضًا : أصحاب الأيكة ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فكذبوا شعيبًا وآذوه ، فبينا هم حول الرسّ خُسِف بهم وبديارهم فهلكوا جميعًا ، وكانت بإنطاكية الشام كما نقله القرطبى .

وقال وهْب والكلبى وقتادة : أصحابُ الرسّ ، وأصحاب الأيكة[1] :قومان أرسل إليهما

(١) وهى غيضة تنبت الشجر .

شعيب - عليه السلام - وكان أصحاب الرسِّ قومًا من عبدة الأصنام ، وأصحاب آبار ومواش ، فدعاهم إلى التوحيد ، فتمادوا فى طغيانهم ، وفى إيذائه ، فبينما هم حول الرسِّ - كما روى عن أبى عبيدة - انهارت بهم وبديارهم ، فهلكوا ، وقيل: هم قوم قتلوا نبيهم ورسُّوه فى بئرهم أى : دسُّوه فيها ، وقيل غير ذلك .

(وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا) : أى ودمرنا كذلك أهل قرون جاءوا بين قوم نوح وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرسِّ ، وكان عددهم كثيرًا لايعلم مقداره إلَّا العليم الخبير ، أُرسل إليهم رُسُل فكذبوهم فأُهلكوا .

والقرون : جمع قرن ومقداره سبعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل : مائة ، ويطلق مجازا على القوم المتعاصرين ، وقال الزجاج : الذى عندى - والله أعلم - أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبىّ ، أو طبقة من أهل العلم قلَّت السنون أو كثُرت .

٣٩ - (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) :

أى وكلَّ قوم من المكذبين ذكَّرنا وحذرنا ، حيث بيَّنَّا لهم القصص العجيبة الزاجرة لما هم عليه من الكفر والمعاصى ، ووضحنا لهم الأدلة الصحيحة الهادية ، ولكنهم كذبوا وأعرضوا فاستحقوا الدمار ، والهلاك ، كما قال تعالى : (وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) : أى وكل قوم منهم أهلكناه هلاكًا ماحقًا ؛ لتماديه فيما هو عليه من إفك وطغيان .

٤٠ - (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. .) الآية .

استئناف مسوق لبيان مشاهدة المشركين من أهل مكة لآثار الأُمم المُهْلكة وعدم اتعاظهم بها وصُدِّر بالقسم لتأكيده وتقرير مضمونه ، والمراد بالقرية الجنس الشامل لجميع قرى قوم لوط ، يعنى أن قريشًا مروا بها كثيرًا فى أسفارهم بمتاجرهم إلى الشام ، وكانت هذه القرى قد أمطرها الله بالحجارة من السماء ، فأُهلكت كما قال تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ »[١] . وكانت قراهم خمسًا ، وروى عن ابن عباس أن واحدة منها نجت لكون أهلها لايعملون العمل الخبيث . والله أعلم بصحة هذا الخبر .

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١٧٣

(أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) : توبيخ لهم على ترك التذكر ، والتأمل عند رؤية مايوجبهما ، ويدعو إليهما .

أى : أعموا عنها فلم يكونوا يرونها فى مرورهم المتكرر عليها ، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب ، ودلائل النكال ؛ الذى حلَّ بأهلها فأهلكهم ، ودمرها تدميرًا؟ فالمنكر عدم الرؤية الداعية إلى التفكر والعبرة ، مع وقوع النظر الموجب لذلك (بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا) : إضراب انتقالى من التوبيخ على ماهو أعظم وأقبح ، وهو إنكارهم البعث المستتبع للجزاء الأخروى ، إنكارًا مبالغًا فيه بحيث لا يتوقعونه أصلًا ، فمعنى «لا يرجون» على ذلك : لا يتوقعون .

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) : أى ، ما يتخذونك إلَّا موضع هزء وسخرية ، يقال : هزأ منه ، وبه ، كسمع ومنع : هزءًا - بضم الهاء مع سكون الزاى أو ضمها - سَخِر واستهزأ .

(إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا) : أى إنه قرب أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا .

(لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا) : حبسنا أنفسنا على عبادتها .

(مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ) : أى صيَّر ميله المذموم كأنَّه إلٰهه الذى يتبعه ، والهوى : ميل النفس إلى الشيء ، ثم استعمل فى الميل المذموم ، وهو مصدر هَوِىَ ، كفرِح .

(وَكِيلًا) : أى حفيظًا ، يقال : وكلت الأمر إليه وَكْلًا ؛ ووُكولًا : فوضته إليه ، وفعله من باب وعد يَعِد .

التفسير

٤١ ــ (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) :

روى أن الآية نزلت فى أبى جهل ومن معه من زعماء مشركى قريش ؛ أى أن هؤلاء إذا رأوك ما يتخذونك إلَّا مهزوءًا بك[1] أو موضع سخرية واستهزاء ، بمعنى : أنهم يقصرون فعلهم معه ــ عليه الصلاة والسلام ــ على ذلك ، قائلين على سبيل التنقص ، والازدراء : (أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) : أى أهٰذا الذى بعثه الله مرسلًا إلينا ؟.

والتعبير باسم الإشارة بعد الاستفهام ، يريدون به الاستخفاف بدعواه أنه رسول بعثه الله إليهم؛ والتعجب منه ، والآية فى معنى قوله تعالى : « وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ »[2] .

٤٢ ــ (إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا . . .) الآية .

أى : قال هؤلاء المشركون : إنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قارب أن يَثنيهم عن عبادة أصنامهم ويبعدهم عنها ، لا عن عبادتها فقط ؛ لولا أنهم تجلَّدوا، وحبسوا أنفسهم على عبادتها ، وهذا اعتراف منهم بأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ قد بلغ غاية الاجتهاد فى الدعوة إلى التوحيد ، وإقامة الحجج البينات التى تنير سبيل الهدى والرشاد ، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام؛ لولا فرط إصرارهم ، وغاية عنادهم ، ولهذا لجئوا إلى سلاح الاستهزاء ، حتى يحولوا دون تأثر نفوسهم على رغم منهم بدعوته .

(١) تنفرد (إذا) بوقوع جوابها المنفى بإن أو ما أو لا ــ تنفرد بوقوع جوابها هنا ــ غير مقترن بالفاء بخلاف غيرها من أدوات الشرط ، نقله أبو حيان وغيره .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٦

(وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) :جواب من جهته تعالى عن قولهم: « إن كَادَ لَيُضِلُّنَا » وردٌ لما ينبىء عنه ، ويشير إليه من نسْبته - عليه الصلاة والسلام -. إلى الضلال فى ضمن إضلاله إياهم .

أى : وسوف يعلمون البتة ؛ حين يرون العذاب يوم القيامة على كفرهم ، وعنادهم ، من هو الضال ، ومن هو المهتدى ، وأنهم قد باعوا أخراهم بدنياهم .

وفى الآية تنبيه ؛ على أنه تعالى إن أمهلهم فإنه لا يهملهم .

٤٣ - (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) :

تعجيب لرسوله - صلى الله عليه وسلم - من شناعة تمسك أولئك المشركين بشركهم ، وإصرارهم عليه ؛ بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال ،التى باءوا بإثمها ، وبيان ماينتظرهم من سوء المصير ، وتنبيه على أن ذلك من الغرابة ؛ بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه[1]

أى : أرأيت منْ جعل هواه إلٰها لنفسه ، بأن أطاعه فيما يأتى ويذر ، وبنى عليه أمر دينه ، مُعرضًا عن البرهان الساطع ، والحجة القاطعة ، فهو لا يرى معبودًا إلّا هواه؟ والمعنى : انظر إليه وتعجب منه .

(أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) : استبعاد لكونه - صلى الله عليه وسلم - حفيظًا على من اتبع هواه ، يحفظه من متابعة هواه ، ويرده عن عبادة ما يهواه ؛ أى : ليست ضلالته وهداه موكولتين إلى مشيئتك لترده إلى الإيمان ، وتحفظه من الفساد ، وإنما الذى وُكل إليك هو الإنذار ، والتبليغ وقد فعلت .

٤٤ - (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . . .) الآية .

انتقال من إنكار الله عليهم أنهم اتخذوا الهوى إلٰههم ، إلى بيان أنه لا سبيل إلى ظنه - صلى الله عليه وسلم - أنهم يسمعون ؛ أو يعقلون ما يقول .

---

(١) وقدم المفعول الثانى وهو إلٰهه على الأول وهو هواه للاعتناء به من حيث إنه هو الذى يدور عليه أمر التعجيب .

والمعنى : بل أتظن ـ أيها الرسول ـ أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات؟ أو يعقلون ما تشير إليه تلك الآيات من الزجر عن القبائح ، والدعوة إلى المحاسن ، فتهتم بشأنهم ، وتطمع فى إيمانهم ؟

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) : جملة مستأنفة لتأكيد انصرافهم عن الحق ، وبعدهم عن الاستماع والتعقل فهم فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وزواجرها ، وانصرافهم إلى الأكل والشرب ـ هم فى ذلك ـ كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة والضلالة (بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) : أى بل هم أشد ضلالة من الأنعام لما أنها تطيع من يطعمها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يقسو عليها وتطلب ما ينفعها ، وتجتنب ما يضرها ، وتهتدى لمأكلها ومشربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم الذى خلقهم ورزقهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذى هو شر المضار ، ولا يهتدون للحق الذى هو المورد العذب ، فهم لذلك كله معطّون لقواهم العقلية ، مضيعون للفطرة الأصلية التى فطر الله الناس عليها ، بالغون بما صنعوا درجةً جعلت الأنعام خيرًا منهم حيث لا تقصير منها فى طلب ما يصلحها ، وإنما ذكر الأكثر لأنَّ منهم من لم يصده عن الإسلام إلَّا حب الرياسة ، ومنهم من أسلم .

(أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾)

المفـردات :

(كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) : أى كيف جعله ممتدًا مبسوطًا .

(لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : أى لصيَّره ظلاًّ ثابتًا دائمًا على حاله .

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ) : أي أزلنا ومحونا ما أنشأناه ممتدًا .

(قَبْضًا يَسِيرًا) : سهلًا .

التفسير

٤٥ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) :

شروع فى بيان الأدلة الناطقة بوجوده تعالى ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة إثر بيان جهالة المعرضين عنها وقبح ضلالتهم ،والخطاب لكل متأمل فى عجائب الكون ، والهمزة للتقرير ،والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - لتشريفه ، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته تعالى ورحمته .

ويقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية :

ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ؟ ومعنى (مدَّ الظِّلَّ) :جعله يمتد وينبسط ، فينتفع به الناس ، (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : أى لاصقًا بأصل كل مُظِل من جبل وبناء وشجر غير منبسط ، فلم ينتفع به أحد ، سمى انبساط الظل وامتداده تحركًا منه ، وعدم ذلك سكونًا . اهـ .

والمقصود : تنبيه الناس إلى عظيم قدرته ، وبالغ حكمته فيما يشاهدونه من مَدِّ الظل وقبضه ، وقال ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ومجاهد وغيرهم : المراد بالظل : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، قالوا : ويدل على ذلك كون هذا الوقت لا يوجد أطيب منه ، فإن فيه يجد المريض والمسافر وكل ذى حاجة راحته واستقراره ، وأن الظلمة الخالصة تنفر منها الطباع ، وشعاع الشمس يجعل الجو ساخنًا ، والبصر كليلًا ، ولهذا كان ظلّ الجنة ممدودًا ، كما فى قوله تعالى : (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)[١] .

وجملة (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : اعتراضية للدلالة من أول الأمر على أنه لا مدخل للأسباب العادية فيه ، أى : ولو شاء -سبحانه- لجعله ظلاً دائمًا لا يزول ،بألّا يدع للشمس

---

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٣٠

سبيلًا إليه (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)[1] : أى جعلناها علامة يستدل بها وبأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل من كونه يحدث فى مكان ، ويزول من آخر ، ويتسع ويتقلص كذلك ، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك .

وقبضه إياه : أنه ينسخه بضِحّ الشمس[2] انظر الزمخشرى .

وقال قتادة والسُّدى : المعنى ؛ جعلنا الشمس دليلًا عليه ، تتلوه وتتبعه حتى تأتى عليه كله .

٤٦ ـ (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا) :

أى : ثم أخذنا ذلك الظل الممدود إلى حيث أردنا ، ومحوناه بمحض قدرتنا عند إيقاع شعاع الشمس على موقعه ، لايشاركنا أحد فى إزالته ، كما لم يشاركنا أحد فى إنشائه ، فهو منّا وإلينا ، وكان قبضه إلينا يسيرًا علينا غير عسير ؛ حيث قبضناه جزءًا جزءًا وفق موضع الأرض من الشمس التى تأتى عليه ، وقال الضحاك : قبضًا سريعًا .

ويحتمل أن يكون قبضه عند قيام الساعة بقرينة إلينا ، وذلك بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تُلقِى الظل ، كما أن إنشاءه كان بإنشاء أسبابه ، والتعبير بالماضى لتحققه ، والإتيان بثُم فى هذه الآية والتى سبقتها للتراخى الزمنى بين المعطوف والمعطوف عليه .

---

(١) هذه الآية تظهر عناية الخالق وقدرته ؛ فه الظل يدل على دوران الأرض وعلى ميل محور دورانها ، ولو أن الأرض سكنت بحيث إنها ظلت غير متحركة حول الشمس ، وانعدم دورانها حول محورها لسكن الظل ، ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض ، بينما يظل النصف الآخر ليلاً ؛ مما يحدث اختلاف التوازن الحرارى ، ويؤدى إلى انعدام الحياة على الأرض وكذلك لو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وجد الظل ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التى تحتاج إليه . اهـ . من هامش المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، الطبعة السابعة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) الضِّح ـ بالكسر ـ : الشمس وضوءها : القاموس .

(وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ
ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(الَّيْلَ لِبَاسًا) : اللباس : ما يلبس ، وفعله : من باب فرح .

(وَالنَّوْمَ سُبَاتًا) : السُّبات : الثقيل لتكمل به الراحة ، من السبت : بمعنى القطع ، وقد يطلق السُّبات على الموت ، وفعله : من باب نَصَر ينصُر .

(النَّهَارَ نُشُورًا) : أى حياة تزاولون فيها أعمالكم ، يقال : نَشَرت الأرْضُ نشورًا بمعنى حَيِتْ وأنبتت ، وفعله كقَعَد ، وضرب .

(بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) : أى مبشرات ، جمع بَشُور كرسول ، وأصله : بُشُر - بضم الشين - ثم خفف بالإسكان .

(مَاءً طَهُورًا) : صالحًا للتطهر به ، كطاهر مع المبالغة فى طهارته ، ويقول الفقهاء : هو الطاهر فى نفسه المطهِّر لغيره ، وهو الماء المطلق والذى لم يختلط بِنَحْو خَلٍّ وعِطْر ، فإن خالطه مثل ذلك فليس بطهور وإنما هو طاهر. ولو كان معناهما واحدًا لقيل : ثوب طهور وخشب طهور وهو ممتنع .

(وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا) : جمع أنسى ، ككُرسِى ، أو جمع إنسان ، فقلبت النون فى الجمع ياء وأدغمت الياء فى الياء .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ) : أى صرفنا المطر بين الناس فى البلدان والأوقات المختلفة ليعلموا آيات قدرتنا ، أو بينا آيات القرآن ببيان ما فيه من عقائد وحلال وحرام .

التفسير

٤٧ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) :

بيان لبعض ما أسبغه الله - عز وجل - على خلقه من آثار قدرته العظيمة ، ورحمته الواسعة التى أفاضها عليهم ..

أى : جعل الله لكم - أيها المخاطبون - الليل ساترًا يستركم بظلامه ، كما يستركم اللباس الذى تلبسونه ، وجعل لكم النوم العميق الذى يقع فى الليل غالبًا - جعله - قطعًا لأعمالكم التى تثقلكم وتضنيكم لتستريح من متاعبها أبدانكم وأرواحكم ، (وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) أى : تنتشرون فيه لمعايشكم ومكاسبكم ولأداء سائر أعمال الحياة ، كما قال تعالى : « وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[1] فهو زمان بعث باليقظة من ذلك السُّبات كبعث الموتى بالنشور ، وجُوِّز أن يراد بالسُّبات الموت ؛ لما فيه من قطع الإحساس بالحياة ، وعُبِّر به عن النوم لما بينهما من المشابهة فى انقطاع أحكام الحياة كما فى قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا » كما عبر عن اليقظة بالنشور والبعث .

٤٨ - (وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) :

وهذا أيضًا من آثار قدرته التامة وسلطانه العظيم ، أى : أنه سبحانه يرسل الرياح مبشرات بمجىء السحاب المؤذن بإنزال المطر ، لأنه ريح فسحاب فمطر ، وَوَرد المطر بعنوان الرحمة لحاجة كل مخلوق إلى مائه ، لأن فيه رزقًا للعباد ، وبه تحيا الكائنات الحية ، (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) .

والالتفات إلى نون العظمة فى قوله سبحانه : (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) ، لإبراز كمال العناية بإنزال الماء بمعنى : أنزلنا بعظمتنا ورحمتنا ماء طاهرًا فى نفسه مطهرًا لغيره ، فالمياه المنزلة من السماء والمودعة فى الأرض طاهرة مطهِّرة ، ووصفه بطهور إعظامٌ للمنّة وأنه أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل هذا الوصف ، كالخل والسُّكر والمِسْك .

(١) سورة القصص ، آية : ٧٣ .

٤٩ - (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا) :

أى لنحيي بالمطر بلدة أماتها الجدب والمَحْلُ حتى أصبحت أرضها هامدة لانبات فيها ولازرع ، وهو روحها يحييها الله به كما قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . اهـ.

وإحياؤها بإنبات النبات فيها ، كما يشير إلى هذا قوله تعالى : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[1] .

ووصف البلدة - وهي مؤنثة بـ(ميتًا) وهو مذكر - على إرادة البلد أو المكان (وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ[2] أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا) : أى نسقى ذلك الماء الطهور الذى يجرى فى الأنهار وفى العيون والآبار ، نسقيه أنعامًا وأناسىَّ كثيرًا ممن خلقنا .

وقُدِّم إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسى لأن حياتها سبب لحياتهم ، وتخصيص الأنعام من بين الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأُناس ومعايشهم منوطة بها .

وقال : (كَثِيرًا) : ولم يقل كثيرين ، لأن ما كان على وزن (فعيل) قد يراد به الكثرة نحو قوله تعالى : « وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا »[3] .

٥٠ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) :

أى ولقد بينا وكررنا هذا القول للناس فى هذا القرآن ، وفى سائر الكتب المنزلة ، وهو إرسال الرياح وإنشاء السحاب ، وإنزال المطر ، وهو مفهوم من السياق ، وذلك ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا كمال قدرته تعالى ، وواسع رحمته ، فيشكروه عز وجل ، ويعلموا أنَّ مَنْ أنعم بهذه المنن والآلاء لايجوز الإشراك به .

وقيل : الضمير للمطر ، وهذا القول مروى عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، وعكرمة ، بمعنى : ولقد صرفنا الماء المنزل من السماء بين الناس المتقدمين والمتأخرين فى البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطَلٍّ ورذاذ وغيرها

(١) سورة الحج ، آية : ٥

(٢) و(من) فى قوله : « مما خلقنا » إما بيانية - أى : ونسقيه مخلوقا لنا أو : تبعيضية ، أى : نسقيه بعض مخلوقاتنا .

(٣) سورة النساء ، من الآية : ٦٩

ينزله بأرض ، ويمسكه عن أخرى حسبما يريد ويشاء ، وتلك من دلائل القدرة الباهرة التى تدعو إلى الإيمان بالله ، ومجافاة الكفر به ، ولكنهم لم يفقهوا (فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : أى : أبى أكثرهم ممن سلف وخلف إلَّا كفر النعمة وجحدها وعدم الاكتراث بها ، بأن يقولوا : مطرنا بِنَوْءِ كذا ، معرضين عن ذكر صنع الله ، ورحمته ، اعتقادًا منهم أن النجوم لها الفاعلية والتأثير ، وهذا – والعياذ بالله – كفر ، كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال لأصحابه يومًا على إثْرِ سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « أصبح من عبادى مؤمن وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بِنَوءِ كذا وكذا ، فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب » .

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(نَذِيرًا) : أى رسولًا ينذر أهلها .

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ) : فى دعوتهم إياك إلى اتباع آلهتهم .

(جِهَادًا كَبِيرًا) : أى دائمًا مستمرًا لا يخالطه فتور .

التفسير

٥١ – (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا) :

أى رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله – عز وجل – لتخفَّ عليك أعباء الرسالة ، ولكنا لم نفعل ، بل جعلناك نذيرا إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ، كما

قال تعالى : « قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا »[1] تكريما لك ورفعا لمنزلتك لتنال بجهدك المبذول أوفى الجزاء ، وأكرم المثوبة ، فقابل هذه النعمة الجليلة بالشكر والصبر على جهاد المعاندين المتكبرين بكل ما أوتيت من قوة ، مع المبالغة فى إنكار ما يدعونك إليه كما قال تعالى :

٥٢ ـ (فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا) :

أى فلا تطعهم فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم وهو دَفْعٌ له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين على التشدد معهم والمبالغة فى الإنكار عليهم (وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا) : أى وجاهدهم بعون الله وتوفيقه ، أو بالقرآن ، كما قال ابن عباس ، وذلك بتلاوة ما فيه من الحجج والبراهين ، والقوارع والزواجر ، والمواعظ اللافتة إلى عاقبة الأمم التى كذبت رُسُلَها لإظهار عجزهم ، وتبصيرهم بسوء مصيرهم ، وكأنه نُهى بهذه الآية عن الملاينة ، وقد كان المشركون يدعون الرسول إلى مهادنتهم وملاينتهم والكف عن تسفيه أحلامهم وآلهتهم ، فجاءت هذه الآية لقطع أطماعهم ، وحثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مجاهدتهم وملاحقتهم بالإنذار والوعيد دون فتور ، كما قال تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ »[2] .

وكان جهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ كبيرا ؛ كما أمره الله ـ عز وجل ـ فلم تلن له معهم قناة ، مع مابذلوه معه من الأمانى الفسيحة إن أطاعهم ، ولامع قسوتهم الشديدة عليه وعلى أصحابه حينما رفض عروضهم السخية .

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٨

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٧٣

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) : أجراهما وخلّاهما ، من « مرجت الدابة » إذا خلّيتها ترعى .

(الْبَحْرَيْنِ) : الماءين : العذب والمِلْح ، من غير تخصيص ببحرين معينين .

(مِلْحٌ أُجَاجٌ) : شديد الملوحة والحرافة ، من أجيج النار ، كما قال الراغب .

(بَرْزَخًا) : حاجزا يمنع أن يغلب أحدهما على الآخر كما فى قوله تعالى : « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّايَبْغِيَانِ » .

(حِجْرًا مَّحْجُورًا) : أى تنافرا مفرطا ، كأن كل واحد منهما ينفر من الآخر ، ويتعوذ منه بتلك المقالة على عادة العربى الذى كان إذا رأى شيئا يكرهه يقول : (حِجْرًا مَّحْجُورًا) والمراد : لزوم كل منهما لصفته من العذوبة والملوحة .

(خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا) : المراد بالماء « نطفة الرجل ونطفة المرأة .

(فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) : أى فقسم الماء قسمين ذوى نسب – أى : ذكورا – وذوات صهر أى : إناثا ، فبالذكور يكون النسب ، وبالإناث تكون المصاهرة .

التفسير

٥٣ ، ٥٤ – (وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا . وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) :

هاتان الآيتان من جملة الآيات التى بدأت بقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى

رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » والتى تتحدث عن بعض آيات الله الكونية التى تتعاظم فيها آلاؤه، وتتراءى آثار نعمه على خلقه ، ودلائل قدرته فى تسخير هذه المخلوقات لتذليل السبل فى حياة الإنسان ، وتيسير حاجاته مصداقا لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً »[1] وقوله جل شأنه : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ »[2]. ومعنى « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » : أجرى الماءين العذب والملح ، مع استقلال كل واحد منهما بخصائصه وأوصافه ، هذا عذب فرات مستساغ الطعم وقامع للعطش ، ومنبت للزرع ، وهذا ملح أجاج شديد الملوحة كريه الطعم تجرى فيه السفن ويأكل منه الناس لحما طريا ويستخرجون حلية يلبسونها وجعل بين الماءين « بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً » أى : وجعل الله تعالى بقدرته بين الملح والعذب حاجزا ومانعا لا سبيل إلى رفعه ودفعه ، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر أو يغلب عليه ، فلا يعذب الملح بالعذب لقلة ما يتسرب منه إلى الماء الملح ، ولا يملح الماء العذب بمجاورته للماء الملح فى مصبه ، لأن الله تعالى بقدرته العظيمة ، جعل البحار الملحة فى أغوار منخفضة عن سطح الأرض وعن مجارى المياه العذبة ، بحيث لا يمتد فى مجارى الأنهار إلا جزء قليل مجاور لها فى مستواها ، وهو مصبها ، فبانخفاض البحار وعلو مستوى الأنهار ، حفظ الله طبيعة كليهما ، حتى ينتفع بالملح والعذب فيما خلقهما الله لأجله .

ويجوز أن يراد من الحجر المحجور : اليابس الذى جعله الله بين الماءين ، وحال به بينهما ، لينتفع بكليهما فى موضعه من الأرض .

(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً) :

أى : ومن جملة قدرته ـ تعالى ـ أن خلق من نطفة الرجل والمرأة إنسانا بعد أن طوره فى مراحله المختلفة ، وأداره فى أدوار التكوين فجعله قسمين: ذكرا يُنْتَسَبُ إليه فيقال : فلان بن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وأنثى يُصَاهَرُ أهلها بزواجها فيتحقق بذلك الترابط ، وتتم الصلات الطاهرة بين بنى الإنسان حتى يصيروا شعوبا وقبائل .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٩

(٢) سورة الجاثية ، من الآية : ١٣

وشأن من يقدر على هذه الآيات ، ويبدع هذه المخلوقات المتعددة الأنواع والصفات أن يكون عظيم القدرة لا يعجزه إبداع شيء من حيوان أو نبات أو جماد ، فهو الذى يقول للشيء : « كُن فَيَكُونُ » .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(ظَهِيرًا) : مظاهرا ومعاونا للشيطان على عصيان الله ، والكفر به ، مثل قوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ » ، والمراد بالكافر « الجنس » ، أى كل كافر .

التفسير

٥٥ - (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا) :

لما عددت الآيات السابقة آلاء الله ونعمه ، وأبرزت آثارها على الإنسان فى تيسير حياته ، جاءت هذه الآية تنعى على الكفار بعامة ، وعلى مشركى مكة بخاصة خفة أحلامهم وسفه عقولهم فى إعراضهم عن توحيد الله ، وإنكار ألوهيته مع عظيم آياته ، وروائع آثاره ، وتندد باتخاذهم آلهة من دون الله يصنعونها بأيديهم ، ويشترونها من أسواقهم كما تشترى البهائم والسلع ، ويشاهدون حدوثها واختلاف أحوالها ، ثم يعظمونها بعد ذلك ، ويقدمون لها القرابين من نعم الله وما أفاءه عليهم ، وهى من الضعف والهوان بحيث لاتستطيع أن تجلب لهم نفعاً ، ولا أن تدفع عنهم ضرا ، بل هى من المهانة بحيث لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعا ولا تدفع عنها شرًّا ، وكان الكافر بعبادته لهذه الآلهة الواهنة ظهيرا للشيطان ومعينا له على ربه ، ولن يغلب اللهَ غالبٌ .

(وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(مُبَشِّرًا) : تبشر الذين اتبعوك بالخير فى الدنيا والآخرة .

(نَذِيرًا) : تنذر المكذبين المعارضين لدعوتك وتخوفهم بعذاب بالغ فى الشدة .

(سَبِيلًا) : طريقاً يسلكه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة .

التفسير

٥٦ - (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا) :

هذه الآية جاءت بعد الآية السابقة عليها ، ليتسلى بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا تذهب نفسه حسرات على عناد قومه وإشراكهم .

والمعنى : ما عهدنا إليك بهذه الرسالة التى بعثناك بها إلى قومك ومَنْ وراءهم لتحملهم عليها قسرا ، وإنما أرسلناك مبشرًا بالسعادة والنعيم المقيم فى الجنة لمن أطاعوك ، وصدقوك واتبعوا سبيلك ، ونذيرًا بعذاب شديد متناهى الإيلام لمن خالفوك وعارضوك ، وكذَّبوا دعوتك ، فلا يحزنك هؤلاء الذين يسارعون فى الكفر بغير روية ، ويستمرون عليه بعد ما قمت به من أمر التبليغ على خير وجه ، وأوضح بيان .

٥٧ - (قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلِى رَبِّه سَبِيلًا) :

أى : قل أيها الرسول واعظاً لهؤلاء المشركين ، ودافعاً عن نفسك مظنة الانتفاع : ماأسألكم على ما أدعوكم إليه من توحيده وعبادته أجرًا ، ولا أطلب منكم فى سبيل القيام بتبليغه جزاء ، إلا اهتداء من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، فهذا أعظم أجر يناله الداعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم ..

(وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(تَوَكَّلْ) : اعتمد بقلبك على ربك فى الأمور .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) : نزه ربك عن صفات النقصان حامدا له على نعمائه ، مثنيا على كمالاته .

(خَبِيرًا) : عالما بدقائق الأمور وخوافيها فضلا عن ظواهرها .

(الْعَرْشِ) : عرش الله تعالى وهو لا يحدّ ، ويطلق لغة على سرير الملك ، وعلى العز وقوام الأمر .

(اسْتَوَى) : الاستواء ؛ الاستيلاء

التفسير

٥٨ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) :

أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - فى الآية السابقة أن يقول للمشركين :

إنه لا يطلب بدعوته إياهم أجرا ولا يطمع منهم فى نفع ، وعقبها بهذه الآية ليدعوه بها أن يجعل اعتماده على الله وحده لا يبالى بأحد غيره ولا يأبه بعناد المشركين ، ولا يطمع منهم فى عون .

والمعنى : اعتمد - يا رسول الله - على ربك بقلبك فى اتقاء شرورهم ، والاستغناء عن أجورهم

فإنه - سبحانه - جدير بالتوكل عليه ، والاستغناء به ، فهو الحيّ الباقي الذي لا يدركه فناء ، ولا ينقطع منه رجاء .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) :

أي : نزهه عن صفات النقصان ، مثنياً عليه بصفات الكمال التي تليق بذاته طلباً لرحمته ، وطمعاً في استزادة نعمه بمزيد الاعتراف بها والشكر عليها ، وكفى بالله ، وبعلمه التام خبيرا بذنوب عباده مطَّلِعًا على ماخفي منها وما ظهر لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ليجازي عليها جزاء وفاقا .

٥٩ - (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا .....) الآية .

تضمنت هذه الآية وصفه - تعالى - بصفته الفعلية ، بعد وصفه بصفاته الذاتية ، إبرازًا لكمال قدرته على استجابة من توكل عليه ولجأ إليه ، فإن من يقدر على إنشاء هذه الأجرام العظام على هذا النمط الرائق ، والنسق الفائق في تدبير متين ، وترتيب رصين أحق أنْ يتوكل عليه ، ويفوض الأمر إليه .

والمراد بالعرش في قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » : الملك والسلطان ، وبالاستواء عليه : تدبيره لما خلقه دون شريك .

والمعنى : ثم أحكم سلطانه وتدبيره لما خلقه من السموات والأرض وما بينهما ، دون شريك ولا معين وبهذا أول الخَلَفُ الآية الكريمة ، لأنه تعالى لا يحل بمكان ولأنه موجود قبل أن يخلق العرش ، وعن الصادق والحسن وأبي حنيفة ومالك - رضى الله عنهم - : أن الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر ، والسؤال عنه بدعة [١] .

والمراد بالأيام في قوله تعالى : « فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » غير الأيام المعروفة لنا ، فإن الليل والنهار لم يكونا قبل خلق السموات والأرض ، فهي من أيام الله ، يعلم الله قدرها ، ولا مجال للحديث عنها ، فقد يكون اليوم أكثر من خمسين ألف سنة مما يعدون .

(١) تقدم الكلام مستوفى على معنى قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » في سورة الأعراف .

ومهما يكن فإن قدرة الله لا يعجزها خلق السموات والأرض في أي زمان كان طويلا أو قصيرا ، وهو الذي يقول للشيء : كن فيكون ، وإنما جاء هذا التحديد لحكم جليلة ، وغايات جميلة ، ولتكون الروية والأناة منهج القادرين ، وأسلوب العاملين ، وسبحان من لا تحيط العقول بحكمته ، ولا تدرك أسرار صنعته .

وقوله تعالى : « الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » جملة مستأنفة ، تقديرها : هو الرحمن ، سيقت مساق المدح لتقرير رحمته التي وسعت كل شيء بعد ما ثبت له من الصفات السابقة تأكيدا لوجوب التوكل عليه .

« فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » الأمر موجه إلى كل مكلف أي : فاسأل بالرحمن خبيرا — والمراد بالسؤال به تعالى : السؤال عن تفصيل رحمته وشئونه في خلقه ، والخبير : هو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

والمعنى الإجمالي للآية : الذي خلق السموات والأرض بأجزائهما وما استقر فيهما ، وخلق الكواكب التي زين بها سماواته ، وخلق ما بين السماء والأرض من الهواء والأشعة الكونية وما يعلمه الناس وما لا يعلمونه فاسأل عن الرحمن الذي أبدع هذا الكون العظيم ، وشمل من فيه برحمته — اسأل عنه أيها المكلف رسوله محمدا — صلى الله عليه وسلم — فهو وحده الخبير الذي يعلم شئون ربه في خلقه ، وهو وحده الذي يجيبك بحق وصدق ، فإنه « لَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ » فما يقوله عنه فهو حق ، وما يخالفه فهو مردود على قائله .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾) ۩

المفردات :

(نُفُورًا) : تباعدا عن الإيمان ، وإصرارا على الكفر .

التفسير

٦٠ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) :

ذكرت الآية السابقة إطلاق وصف الرحمن على الله تعالى ، وجاءت هذه الآية بعدها تنعى على المشركين جحودهم لهذا الاسم ، وإصرارهم على الكفر به ، ونفورهم من أمرهم بالسجود له .

والمعنى : وإذا قال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - : اسجدوا للرحمن تبليغا عن ربه قالوا على سبيل التعجب، أو السخرية والتجاهل أو الإنكار :وما الرحمن؟ قالوا ذلك لما أنهم كانوا لا يطلقون هذا الاسم على الله تعالى . ومعنى قولهم وما الرحمن ؟: وما هذا الاسم الذى تسمى به الله ولا نعرفه ؟ .

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا) : أى لا نسجد للذى تأمرنا بالسجود له وتسميه الرحمن فنحن لا نعرفه ، ولا نُقِرُّ به ، ولا نطيع لك فيه أمرا ، وزادهم الأمر بالسجود نفورا عن الإيمان وإصرارا على الكفر .

وكان سفيان الثورى يقول فى هذه الآية : « إلهى : زادنى لك خضوعًا ، مازاد أعداءك نفورا » .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

(بُرُوجًا): منازل للشمس والقمر ، وهي المنازل الاثنا عشر [١] ، مفردها برج ، والبرج : كل مرتفع ، سميت بذلك تشبيهًا لها بالقصور العالية .

(سِرَاجًا): المراد به الشمس لقوله تعالى : « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » وقرئ سُرُجًا بصيغة الجمع ، فيكون المراد بالشمس : الجنس الشامل لكل ما ماثل شمسنا فى المجرة التى تتبعها .

(مُنِيرًا) : مضيئا ليلا ، ووصفه بمنيرا . دون مضيء يشعر بأن نوره مستمد من الشمس (خِلْفَةً) : أى يخلف كل منهما الآخر (يَذَّكَّرَ) : يتعظ ، وأصله : يتذكر ، أدغمت تاء الافتعال فى الذال بعد قلبها ذالا .

(شُكُورًا) : شكرا كثيرا لله تعالى على نعمه .

التفسير

٦١ - (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا) :

هذه الآية والتى بعدها تُؤَكِّدَان تنزيه الله ، وتعظيمه ، وتُعَدِّدَانِ آيات قدرته وبدائع صنعه واستحقاقه السجود له .

---

(١) وهى منازل الكواكب السبعة السيارة : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

والمعنى : تنزه الله وتعالى واستحق كل تعظيم وتمجيد ، وكل إذعان وطاعة لما أحكم من صنعه إذ جعل فى السماء منازل اثنى عشر لنزول الشمس والكواكب ، وجعلها على أربعة أقسام : ثلاثة ربيعية ، وثلاثة صيفية، وثلاثة خريفية ، وثلاثة شتوية ، وبهذا يختلف الزمان حرارة وبرودة ، ويختلف الليل والنهار طولا وقصرا ولا يخفى أثر ذلك فى إنبات النبات ، وإنضاج الثمار والزروع وملاءمة أحوال الناس فى أعمالهم ومهنهم ، كما جعل فى السماء شمسًا تضىء الأرض كما يضىء السراج المكان الذى يسرج فيه ، وجعل فيها قمرًا ينسخ ظلام الليل ، ويخفف من عتمته ، فيهتدى بذلك السارى ، وتقل به الوحشة ؛ قال تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » .

والضمير فى قوله تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » يعود على البروج لقربها ، ويجوز أن يكون عائدا على السماء ؛ لأنها الأصل .

٦٢ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) :

أى : وهو الله الذى توافرت نعمه ، وتعاظم فضله ، فجعل تعاقب الليل والنهار وفاء بمتطلبات الحياة واحتياجات خلقه فى إنبات النبات ، وإنضاج الثمار والزروع وتقلبهم فى أعمالهم وأسفارهم وإخلادهم إلى الراحة ، وفى هذا غاية العبرة لمن أراد أن يعتبر بتأمله فى محكم آياته ، وجلائل تدبيره ، فيعلم أن لابد لهذا الكون من إله قادر وصانع حكيم ، كما أن فيه أوسع مجال لمن أراد أن يتعاظم حمده لربه ، ويتزايد شكره لخالقه على توافر نعمه ، وتزايد آلائه ، وقال ابن كثير : جعلهما يتعاقبان توقيتا لعبادته ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل» .

(وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) : أى مشيًا لينا بسكينة ووقار وتواضع .

(الْجَاهِلُونَ) : المراد بهم السفهاء .

(قَالُوا سَلَامًا) : أى قالوا للسفهاء تسليمًا منكم ، ومتاركة لكم وبُعدًا عنكم .

(غَرَامًا) : هلاكا لازما ، وشرًّا دائمًا ، من قولهم : هو مُغْرم بكذا ، أى : يلازمه ملازمة الغريم .

(مُسْتَقَرًّا) : مكان استقرار وسكن .

(مُقَامًا) : دار إقامة ، من أقام بالمكان ، إذا سكنه ولزمه .

التفسير

٦٣ - (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) :

هذا كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف المؤمنين الصادقين بعد بيان أحوال المشركين الجاحدين لوحدانية الله ، النافرين من عبادته والسجود له ، وبضدها تتميز الأشياء .

وعباد الرحمن : من العبودية التى هى إظهار التذلل والخضوع ، مع القيام بمقتضياتها من حسن الطاعة وجميل الانقياد والامتثال ، والتعبير عن المؤمنين الصادقين بلفظ :

(عباد) وإضافتهم إلى الرحمن فيه تقدير لإيمانهم ، وحسن أعمالهم وتشريف لهم ، وتبكيت للمشركين الذين أنكروا اسم الرحمن ، وأعرضوا عن السجود له ، وقوله تعالى : « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » : معناه يسيرون فى تقلبهم لتحصيل معايشهم ، والسعى فى حاجاتهم سيرا هيِّنا لينا لا بَغْى فيه ولا استعلاء ، فكلمة : (هونا) مصدر وقع وصفا لموصوف محذوف ، وقيل : المشى الهون يقابل السريع وهو مذموم ؛ لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخرجه أبو نعيم ، وابن النجار عن ابن عباس : « سرعة المشى تذهب بهاء الرجل ».

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ) : معناه إذا تكلم معهم السفهاء بالسوء أو بكلام يؤذيهم ويكرهون سماعه أعرضوا عنهم تحلما وسماحة ، وقالوا ردًّا عليهم : تسلُّما منكم ومتاركة لكم ، فليس معنى : (سَلَامًا) السلام المعروف لأن الآية فى مشركى مكة فلا سلام عليهم ، والذى يظهر من الأسلوب أن المفهوم من قولهم سلاما هو سداد الردِّ مع البعد عن التفحش ومجاراة السفهاء .

وقيل معناه : إذا سفه عليهم الجاهلون بالسوء ، لم يقابلوهم بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، وقوله تعالى :

٦٤ ـ (وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) :

معطوف على قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا . . . . » الآية داخل معه فى حيز الخبر لقوله تعالى : « وَ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ » وفيه بيان لحالتهم مع ربهم ، بعد بيان سلوكهم مع السفهاء خفاف الأحلام من مداراتهم وعدم مجاراتهم ، وكان الحسن يقول : إذا قرأ الآية الأولى : هذا وصف نهارهم ، و إذا قرأ هذه الآية قال : « هذا وصف ليلهم » ويبيتون من البيتوتة ـ وهى الدخول فى الليل وإدراكه بنوم أو بلون نوم .

والمعنى : وعباد الرحمن الذين يحيون ليلهم بالصلاة قائمين ساجدين لربهم ، وتقديم السجود على القيام مع تأخره عنه فى الأداء إيماء إلى شرف السجود لما فيه من غاية الخضوع وفضل التذلل ، وقد ورد : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وقد حرم منه إبليس ، وأباه المشركون ، ونفروا من أدائه . هذا فضلا عن مراعاة رءوس الآى .

٦٥ - (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ) :

معناه : والذين يتجهون إلى الله فى أعقاب صلاتهم ، وفى أوقات تهجدهم وفى جميع أحوالهم - يتجهون إلى الله بالدعاء - قائلين : يا ربنا وإلهنا الذى نلجأ إليه فى سرائنا وضرائنا أبعد عنَّا عذاب جهنم وقنا إياه .

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) : هذه الجملة مقولة على لسان الداعين فيما يظهر، لتعليل دعائهم السابق بأن يقيهم الله عذاب جهنم ، أى : اصرف عنا عذابها ؛ لأنه هلاك لازم وشر دائم .

٦٦ - (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) :

تعليل ثان لدعائهم بأن يقيهم الله عذاب جهنم ، أى : إن جهنم قَبُحتْ وبئست دار استقرار وإقامة لمن هو فيها ، يكتوى بلظاها ، ويحترق بسعيرها ، قال الحسن : كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم .

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾)

المفـردات :

(يُسْرِفُوا) : يُفَرِّطوا فى الإنفاق حتى يضروا باحتياجات معيشتهم ، ومصدره : الإسراف ، وهو التبذير فى النفقة ، والاسم منه : السَّرفُ - بفتحتين - وهو ضد القَصْد .

(يَقْتُرُوا) : يُضَيِّقُوا فى النفقة على أنفسهم وعيالهم تضييق الشحيح ، وماضيه : قَتَر ، من باب : ضرب ودخل ، ويقال : قَتَّر وأَقْتَر .

(قَوَامًا) : وسطًا وعدلًا .

التفسير

٦٧ـ (وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا ....) الآية .

تناولت الآيات السابقة فى وصف عباد الرحمن أنهم مع السفهاء والجاهلين يُتَارِكونهم ولا يجاهلونهم ، ومع الله تعالى يتواضعون ويشتغلون بعبادته ويشفقون من عذاب جهنم ويتعوذون منها ، ثم جاءت هذه الآية تملحهم بالاعتدال والقصد فى شئون معاملاتهم وإنفاقهم واختلف المفسرون فى تحديد معنى الإسراف والتقتير ، فذهب جماعة إلى أن الإسراف هو الإفراط ومجاوزة الحد فى الإنفاق دُنْيا ودِيناً ، فصفة عباد الرحمن : القصد والتوسط فإذا أنفقوا من أموالهم على أنفسهم وعيالهم ، أو تصدقوا منها على الفقراء والمساكين ، أو بذلوا فى وجوه الخير ، والمصالح العامة التى تعود بالنفع على المسلمين، التزموا الاعتدال والوسط ، فلم يجاوزوا الحد ، ولم يُفْرِطوا فى الإنفاق إلى حد الإسراف لكيلا يفتقروا ويضيعوا أنفسهم وعيالهم ، ولم يبالغوا فى التقتير والتضييق ، ولم يبلغوا درجة البخل والشح

بين تبذير وبخل رتبة وكلا الحالين إن عام قتل

وذلك هو القوام ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُورًا » والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فيما رواه حذيفة : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة » وقد قيل : « إن الْمُنْبَتَّ لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » .

وذهب جماعة إلى أن الإنفاق فى طاعة الله ليس سرفاً مهما بلغ ، ولهذا ترك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيدنا أبا بكر يتصدق بماله كله ، وأقره عليه ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « من أنفق مائة ألف دينار فى حقٍّ فليس بسرف ، ومن أنفق درهماً فى غير حقه فهو سرف » ومن منع فى حق عليه فقد قتَر » قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معناه : « أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله ـ عز وجل ـ فهو الإقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله تعالى فهو القوام » وسمع رجل رجلا يقول : لا خير فى الإسراف فرد عليه بقوله : « ولا إسراف فى الخير » .

والرأى الفقهى فى هذا أن يترك المؤمن لذويه ما يقيهم العوز ، لقوله – صلى الله عليه وسلم – : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » وهو الظاهر من معنى الآية .

(وَقَوامًا) : – بالفتح – وسطاً وعدلًا ، وسمى قواماً ، لاستقامة الطرفين وتعادلهما ، وقرىء : قِواما – بكسر القاف – فقيل :هما لغتان بمعنى واحد ، وقيل : القِوام – بالكسر – : ما يقام به الشىء ، ومعناه هنا ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص .

(وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾)

المفردات :

(أَثَامًا) : عقابا شديدا لا يقادر قدره على إثمه ، والكلام على حذف مضاف ، أى : يلق جزاء أثام .

(يَخْلُدْ) : يقيم فيه أبدا ، وأصل الخلود فى اللغة : المكث الطويل .

(مُهَاناً) : حقيرا ذليل النفس .

(مَتَاباً) : رجوعا عظيم الشأن مرضيا عنه .

التفسير

٦٨ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . . .) الآية .

هذه الآية تتمة لمدح عباد الرحمن ، وقد امتدحهم الله فى الآيات السابقة بما تحلوا به من أصول الطاعات ، والاجتهاد فى تحصيل الفضائل وامتدحهم فى هذه الآية بالبعد عن فعل الكبائر ، ومجافاتها ، والتنصيص على تركهم هذه الكبائر بخصوصها لتهويل أمرها ، وتفظيع جرمها ، وللتعريض بمشركى مكة الذين دأبوا على ارتكابها وأمعنوا فى اقترافها .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الذين شرفهم القرآن فأضافهم إلى الرحمن بالعبودية مخلصون فى عبادته ، فلا يشركون معه إلها آخر على عادة المشركين الذين كانوا يشركون آلهتهم فى العبادة مع الله ، كما أنهم لا يقدمون على قتل النفس الإنسانية ، التى حرم الله قتلها لأى سبب من الأسباب إلا بحق يقتضيه كحد أو قصاص يقيمه السلطان عليها ، وكذلك من فضائل صفاتهم أنهم لا يقربون الزنى فإنه يهتك الأعراض ، ويخلط الأنساب ، ويشيع الفاحشة والفساد ، وقد صح عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ . . . » الآية .

وقوله تعالى : « وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ » أى : ومن يفعل ذلك المذكور من الإشراك ، وقتل النفس ، والزنى - كما هو دأب الكفرة - يلق فى الآخرة عذابا شديدا لا يقادر قدره على إثمه ، فالكلام على تقدير مضاف محذوف ، أى : يلق جزاء آثامه .

٦٩ - (يُضَاعَفْ[1] لَهُ الْعَذَابُ . . .) الآية .

أى : أنه تعالى يعذبه على ارتكاب أى ذنب من هذه الذنوب عذابا مضاعفا إذا كان معه الكفر ، أما إذا فعله غير الكافر فلا يضاعف عذابه ، لقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » ، ومعنى : (وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا) : يقيم فى هذا العذاب مهينا ذليلا ، يجمع إلى

(١) يضاعف : بدل من (يلق) .

عذاب البدن عذاب الروح ، وتدوم إقامته فى هذا العذاب أبدا إن ضم إلى فعل هذه المعاصى الكفر كما يشعر به قوله تعالى : « إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ . . . » الآية .

٧٠ - (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً . . .) الآية .

أى : أن من رجع عن كفره وأقلع عن إشراكه وآمن إيمانا صادقا لا غش فيه ولا نفاق - من تاب وآمن - من هؤلاء وأولئك وأتبع إيمانه بالعمل الصالح ، وداوم على فعل المأمورات ، وترك المنهيات ، والاستزادة من عمل الخيرات ، واستباق المحامد والفضائل ، فأولئك يتجلى الله عليهم بفيض رحمته ، فيبدل سيئاتهم حسنات ، بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم ، أو يبدّل سبحانه ملكة السيئات ودواعيها فى النفس بملكة الحسنات .

(فَأُولَٰئِكَ [١] يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً) :

أى : فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله عظيم المغفرة كريم العفو ، واسع الرحمة بعباده يتفضل بإثابة الطائعين وقبول توبة التائبين .

٧١ - (وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً) :

ترتبط هذه الآية بالآية التى قبلها ارتباط العموم والخصوص ، فالآية الأولى فى خصوص التوبة عن الكفر والكبائر والمعاصى المذكورة فيها ، وهذه الآية فى عموم التوبة الشاملة لتوبة عصاة المؤمنين .

والمعنى : كل من تاب إلى الله ، وأخلص فى الرجوع إليه وأقلع عن فعل المعاصى كلها وندم على ما فرط فى جنب الله ، وعلى تقصيره فى تحصيل طاعة الله ، ثم شمر عن ساعد الجد فى إخلاص العبادة والإخلاص فى الطاعة ، فإنه بذلك يكون قد رجع إلى الله تعالى رجوعًا عظيم الشأن مرضيًا عند الله [٢] ، ماحياً للعقاب محصلًا للثواب .

---

(١) قوله تعالى : « فأولئك يبدل الله » إشارة إلى الموصول المتقدم فى قوله : « إلا من تاب ... » إلخ باعتبار معناه ، كما أن الإفراد فى الأفعال الثلاثة : تاب وآمن وعمل باعتبار لفظه ؛ لأن الموصولات المشتركة لفظها دائما مفرد ، ومعناها يكون مفردا ومثنى وجمعا ومذكرا ومؤنثا بحسب ما تقع عليه .

(٢) وبتقييد المتاب بالمتاب المرضى عنه عند الله يتضح ما يظهر من اتحاد الشرط والجواب فى قوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا »

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) : أى ، لا يؤدون الشهادة الكاذبة الباطلة ، و (الزُّورَ) : الباطل .

التفسير

٧٢ـ (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) :

أى : ومن صفات عباد الرحمن التى امتدحوا بها أنهم لا يؤدون شهادة الزور ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ليحصلوا على ما ليس لهم ، أو يضيعوه على من يستحقه ، وقيل : لا يشهدون مجالس الزور ، ولا يقفون عليها ، وإذا اتفق لهم أن مروا على مجالس الأقوال الماجنة التى لا تليق بكرام الناس مروا مرورًا عابرًا مكرمين أنفسهم عن سماعها ، والوقوف عندها والخوض فيها ـ عن ابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة قال : « بلغنى أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ مرّ بلهو معرضًا ، ولم يقف ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريمًا » ثم تلا إبراهيم : (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) .

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(يَخِرُّوا) : من الخرور ، وهو السقوط على غير نظام .

التفسير

٧٣ - (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) :

أى : والذين إذا ذكرهم أحد بآيات ربهم المنطوية على المواعظ ، الموجهة إلى الاهتداء ، لما فيه سعادة الدنيا والآخرة أكبوا عليها سامعين لها بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية ولم يسقطوا عليها صمًّا لا يسمعون ، وعميانًا لا يبصرون .

والتعبير عن إقبالهم على آيات الله والانتفاع بها بقوله : (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) تعريض بما يفعله الكفار إزاء سماعهم إياها ، من الإعراض عن الاستفادة بها ، كأنهم صم وعميان .

وقيل : الضمير فى (عليها) للمعاصى ، المنوه عنها باللغو ، على معنى : أنهم إذا وعظوا بآيات ربهم المتضمنة للنهى عن المعاصى ، والتخويف من ممارستها ، لم يستجيبوا لتلك المعاصى ، وكانوا كالصم الذين لا يسمعون لها داعيا ، والعمى الذين لا يبصرون لها مرتكبا .

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(قُرَّةَ أَعْيُنٍ) : من القُرّ - بالضم - وهو : البرد ، كناية عن السرور ، لأنهم يقولون : دمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن ساخنة ، وقيل : من القرار ، لأن السرور تقر به العين وتسكن ، والحزن يضطرب له النظر ويزيغ ، ولفظ : (الأعين) استعمل فى القرآن كله فى العين الباصرة ، ولفظ : (عيون) استعمل فى العين الجارية . (إِمَامًا) : قدوة يقتدون بنا فى إقامة مراسم الدين ، ولفظ : (إمام) يستعمل فى المفرد والجمع ، وهو فى هذا المقام يراد به الجمع ، وروى عن مجاهد أن : (إِمَامًا) : جمع آم ، بمعنى قاصد ، كصيام جمع صائم ، وكذلك ذكر القاموس .

التفسير

٧٤ - ‏(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ . . .) الآية .

هذه الآية انتقال من أوصاف عباد الرحمن فى أنفسهم إلى أمانيهم فيمن يحبونهم ، ويرتبطون بهم .

والمعنى : أن من صفات عباد الرحمن ألّا ينسوا وهم فى شغلهم من عبادة الله ، والانهماك فى طاعته ، لا ينسون أهلهم ، وأولادهم ، يتوجهون إلى الله بالدعاء لهم ، وطلب هدايتهم - وهذا شأن الصالحين من الآباء ، بل إن من الآباء من يقدم ولده على نفسه ، ويؤثره بالخير له ، وخير الآخرة عند الصالحين أفضل ما يرجى للأهل ، والأولاد ؛ لأنه الأبقى ، وإن المؤمن إذا ساعده أهله وولده فى طاعة الله ؛ اشتد سرور قلبه ، وقرت عينه ، لما يشاهده منهم من مشاركتهم فى مناهج الدين ، وتوقع لحوقهم به فى نعيم الآخرة ، طمعا فى عِدَةِ الله تعالى بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقد ذكروا أنه كان فى أول الإسلام يهتدى الأب والابن كافر ، ويهتدى الزوج والزوجة كافرة ، فلا يطيب عيش ذلك المهتدى ، فكانوا يدعون هذا الدعاء .

ولهذا كان من الصفات التى امتدح الله بها عباده أنهم يتجهون إليه بالدعاء لصلاح أزواجهم وذرياتهم ، يقولون : ربنا ارزقنا وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما يسرنا وتقر به أعيننا من توفيقهم للطاعات ، واحيازهم للفضائل التى هى غاية ما نرجوه لصلاح ديننا ودنيانا ، أما زهرة الدنيا وزينتها فلا تغلبنا على أخرانا .

ثم يعودون إلى أنفسهم بالدعاء لها بقولهم : ‏(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) : أى اجعلنا بحيث يقتدى بنا المتقون ؛ فى إقامة مراسم الدين بتعلم العلم ، والتوفيق فى العمل .

وعن مجاهد : اجعلنا قاصدين للمتقين ، مقتدين بهم ، وهذا المعنى : مبنى على أن (إمَامًا) : جمع آمٍّ ، بمعنى : قاصد ، والمعنى الأول أوفق ، وفيه - على المعنى الأول - أن الرياسة فى الدين ؛ ينبغى أن تطلب لمن يأنسُ فى نفسه حسن القيام بها ، وتحقيق مقتضاها بعدل وأمانة .

(أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾)

المفـردات :

(أُولَٰئِكَ) : إشارة إلى الموصوفين بجميع الصفات السابقة ، وهو مبتدأ خبره الجملة التي بعده وما عطف عليها ، وجملة أولئك يجزون . . . إلخ خبر عن (عبادالرحمن) .

(الْغُرْفَةَ) : الدرجة العالية من المنازل ، وكل بناء مرتفع ، وقيل : أعلى منازل الجنة ، و « ال » فيها للجنس ، والمراد بالغرفة الجمع ، فألْ فيه للاستغراق ليوافق قوله تعالى : « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » .

(تَحِيَّةً) : دعاء بإطالة الحياة .

(وَسَلَامًا) : دعاء بالسلامة من كل ما ينغص عليهم طيب إقامتهم .

التفسـير

٧٥ – (أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . . .) الآية .

أى : أولئك الموصوفون بما سبق من الصفات الجميلة يجزون الغرف العالية فى الجنة ينعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر – أولئك يجزونها – بسبب صبرهم على مداومة الطاعات ، واجتهادهم فى أعمال الصالحات ، ومجاهدتهم فى مقاومة الشهوات ، وتتلقاهم الملائكة ، أو يتلقى بعضهم بعضا بالتحية المتضمنة دوام إقامتهم ، والسلام المتضمن معافاتهم ؛ من كل ما يكدر صفو نعيمهم أو ينغص نعيم إقامتهم تكريماً لهم وابتهاجا بحلولهم ، وزيادة فى أنسهم ، وإدخال السرور عليهم .

٧٦ - (خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) :

هذه الآية تأكيد لما تقرر فى الآية السابقة ، وزيادة فى طمأنتهم ، ومعنى : « خَالِدِينَ فِيهَا » مقيمين فى الجنة أو فى الغرفة إقامة دائمة لاتنقطع فلا يموتون ولايخرجون ، وقوله تعالى فى شأن الجنة مقر المؤمنين : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً » فى مقابلة قوله تعالى فى شأن جهنم مقر المشركين : « سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً » ، ومعنى « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا » : طابت دار سكن واستقرار ، ومقام راحة ونعيم ؛ لمن اكتملت لهم الصفات الكريمة ؛ التى اشتملت عليها الآيات السابقة ، وهى كما يلى :

١ - معاملتهم الخلق بالتواضع ولين الجانب فى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » .

٢ - التسامح ، والصفح ؛ فى معاملة السفهاء ، والجاهلين ، فى قوله تعالى : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » .

٣ - التهجد ليلًا والاجتهاد فى العبادة فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » .

٤ - الخوف من الله ، والإشفاق من عذاب جهنم فى قوله تعالى : « رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ . . . » الآية .

٥ - الاعتدال ، والقصد فى الإنفاق ؛ فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا . . . » الآية .

٦ - الإيمان الجازم بوحدانية الله ، واحترام حرمة النفس البشرية والعفة فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ . . . » الآية .

٧ - اتباع الحق ، وتجنب شهادة الزور ، ومجامع اللهو فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ . . . » الآية .

٨- الاتعاظ بآيات الله تعالى وحسن تلقيها، والانتفاع بها في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . . . » الآية.

٩- التماس صلاح الأهل والذرية بالدعاء لهم في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا . . . » الآية.

(قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾)

المفردات:

(مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي): ما استفهامية، والمعنى: أيُّ عبء يعبأ بكم ربي، وأي اعتداد يعتد بكم؟ تقول: ما عبأت به، أي: ما اكترثت.

(لِزَامًا): لازمًا ثابتًا لا ينفك.

التفسير

٧٧- (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ . . .) الآية.

في هذه الآية أمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلًا.

والمعنى: قل يا رسول الله لعامة الخلق - مشركين ومؤمنين - مشافهًا لهم: (مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي) أي عَبْء، ولا يكترث بكم أي اكتراث، وأنتم العبيد الضعفاء، والمخلوقون الفقراء، لولا دعاؤكم وعبادتكم ربكم، فإنكم ما خلقتم إلا لعبادته مصداقًا لقوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ».

وقوله : «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ» معناه : فقد كذب الكافرون منكم ،وإذا كان التكذيب حالهم مع قيام الحجة عليهم فسوف يكون العذاب لازماً ثابتاً لهم .

واختار غير واحد أن الآية كلها خطاب لكفار قريش ، والمعنى على هذا قل لهؤُلاء المشركين : ما يعبأُ بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى التوحيد تقويمًا لوجودكم ، وتنظيمًا لسلوككم ، وارتفاعًا بأعمالكم عن العبث ،حتى لا تكونوا هملًا كالبهائم تسيرون لغير غاية ، وتعملون لغير هدف ، وتنتهون إلى النار ،فقد كذبتم مع قيام الحجة عليكم فكان العذاب لزاماً لكم مابقيتم على كفركم .

وهكذا : تنتهى سورة الفرقان ، وقد تضمنت آياتها تصنيف الخلق إلى صنفين : صنف كذب وأغرق فى الكفر ، والعناد ، ومعارضة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقال : القرآن أساطير الأولين ، وعاب أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشرا يأْكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، واقترح نزول الملائكة أو رؤية الله تعالى وعارض نزول القرآن مُنجّما ،وعَمِيَ بصره وطمست بصيرته عن تدبر آيات الله فى كونه ؛ فاستحق عذاب جهنم خالدا فيها ساءت مستقرًّا ومقاما .

وختمت بصنف آخر استجاب للدعوة ، وصدق الرسالة والرسول - صلى الله عليه وسلم - وأخلص فى العبادة والتوحيد ، وجد فى الطاعة فروضها ونوافلها ، وجانب المحرمات ، وخالف الشهوات ، وتحلَّى بكريم الصفات ، فاستحق الجزاء الكريم ، فى نعيم الجنة خالدا فيها حسنت مستقرًّا ومقاما .

بسم الله الرحمن الرحيم

« سورة الشعراء »

هذه السورة مكية ، وآياتها سبع وعشرون ومائتان ، وسميت بهذا الاسم لأن الله ذكر فيها طرفًا من أحوال الشعراء فى قوله تعالى : « وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . . . » إلخ .

وهذه السورة لها اتصال وثيق بالسورة التى قبلها : (سورة الفرقان) فكلتاهما بدأهما الله بالإشادة بالقرآن العظيم ، وفيهما أيضًا تسلية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – عما يبدر من قومه من ألوان الإيذاء والإعراض ، فضلًا عن أن فى هذه السورة بسطًا وتفصيلًا لبعض ما مر فى سورة الفرقان من أخبار الرسل – عليهم السلام – مع من أرسلوا إليهم .

محتويات هذه السورة

١ – أنها نوهت بفضل القرآن ووصفته بالكتاب المبين ، وأشارت إلى إعراض قريش عن الإيمان به ، وتألمه – صلى الله عليه وسلم – لذلك : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) .

٢ – أنها عُنِيَتْ بأخبار وقصص بعض رسل الله – عليهم السلام – مع أقوامهم ، وبسطت بعضها كقصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه ، وقصة سيدنا إبراهيم مع أبيه وقومه ، وما جرى بينه وبينهم من مجادلات ومحاورات أيد الله فيها خليله بالبراهين الساطعة فبهت الذى كفر ، ثم جاء فيها ذكر لقصص بعض الأنبياء : كنوح ، وهود ، وصالح ، وغيرهم وأن الله أيدهم وكتب لهم الغلبة والفوز على أقوامهم الذين تمادوا فى غيهم وكيدهم ، وكيف كانت الدائرة عليهم ، حيث أيد الله رسله – عليهم السلام – ونصرهم على أعدائهم ومكَّنَ لهم .

٣ – أنها أشادت فى آخرها بالقرآن الكريم .

قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ » وأفحمت المشركين وأبطلت زعمهم من أن القرآن من وحى الشياطين ، وكانت نهاية السورة متلاقية مع بدئها بيانًا لمنزلة القرآن العالية ومكانته السامية ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ
نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ
مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟
فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى
ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩)

المفردات :

(الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : القرآن الواضح الدلالة .

(بَاخِعٌ نَّفْسَكَ) : مهلكها .

(آيَةً) : معجزة .

(ذِكْرٍ) : موعظة تذكرهم .

(مُحْدَثٍ) : مجدَّد لم يسبق نزوله .

(زَوْجٍ كَرِيمٍ) : صنف طيب للمفيد .

التفسير

١ - (طسٓمٓ) : يقول سلف هذه الأُمة الإسلامية فى هذه الكلمة وفى أمثالها : إنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، وقيل : إنها للإيقاظ والتنبيه إلى سماع القرآن ؛ فإنها لفظ لاتألف الآذانابتداء الكلام به فيلفتها إلىالإصغاء ، وقال قوم : إن المقصود : هوالتحدى للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم ،فهو يشير إلى أن القرآن مكون من هذه الحروف التى تتركب منها كلماتهم ومع ذلك لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ،وقد سبق الكلام مستوفًى على مثله فى أول سورة البقرة ، وآل عمران وغيرهما ، فارجع إليه إن شئت .

٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

(تِلْكَ) : إشارة إلى أن آيات القرآن الكريم قد سمت منزلتها ، وعلا قدرها ، وعظم شأنها ،وجلت عن أن يدانيها كلام البشر ، فهى آيات الكتاب المنزل منعند الله الذى أبان فيه الحق وأظهر الأحكام وتحدث عن أخبار الأُمم السابقة ،وعن آيات الله الكونية بأُسلوب أعجز الجن والإنس : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[١] .

٣ - (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) :

كلمة (لَعَلَّ) تستعمل لغة فى إشفاق المتكلم ، ولما استحال فى حقه سبحانه ، وجهوه إلى المخاطب، ولما كان غير واقع من النبى - صلى الله عليه وسلم - أيضًا ، قالوا : المراد الأَمْرُ به ، لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه ، فكأَنه قيل له : أشفق على نفسك أن تقتلها وتهلكها حسرة وكمدًا لاستمرار قومك على الكفر[٢] ، وتمسكهم بما ورثوه عن آبائهم من الضلال والزيغ والبعد عن الحق ، فأَمر هدايتهم ليس لك وإنما مرده إلى الله

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨

(٢) وقال العسكرى : هى فى مثل ذلك موضوعة موضع النهى،والمعنى : لاتبخع نفسك،وقيل :وضعت موضع الاستفهام ، والتقدير : هل أنت باخع نفسك .. إلخ - انظر الآلوسى .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ »[1] ، « إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ »[2] .

٤ـ (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) :

يبين الله تعالى فى هذه الآية الكريمة السر فى أمره لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يترفق بنفسه ويشفق عليها فلا يقتلها فيقول له : إن أردنا أن نأتى بآية ننزلها عليهم من لدنا تقهرهم وتلجئهم إلى الإيمان وتكرههم عليه فتذل له رقابهم وتخضع له نواصيهم وينقادون إليه دون إرادة منهم فلا يستطيعون فكاكًا ولا هربًا ، وتَقْسِرُهُمْ على الطاعة فلا يلتفتون إلى معصية أبدًا ، لو أردنا ذلك لفعلنا ، ولكن حكمتنا اقتضت أن نبين طريق الخير ونهدى إليه ، وتوضح سبيل الشر ونحذر منه ، ونختبر العباد بذلك لنعلم الذين صدقوا ونعلم الكاذبين ونحاسب كُلاًّ بما يتفق مع عمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، وحسبهم ما أنزله الله تعالى على رسوله من معجزة القرآن الكريم ، فهى أقوى المعجزات فى عصر العلم .

٥ـ (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) :

هذا بيان لشدة عنادهم وتماديهم فى باطلهم وإصرارهم على ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب ، فقد لجوا فى الطغيان وتجاوزوا الحد فى الضلال ، وعموا وصموا عمَّا يأتيهم من الآيات والمواعظ التى يجدد الرحمن إنزالها لهم من مكنون غيبه وقديم كلامه[3] حسبما تقتضيه حكمته البالغة ورحمته الواسعة ، وذلك ليردهم إلى الحق ويهديهم سواء السبيل ، ولكنهم لا يقابلون ذلك إلَّا بالتَّولِّى والإعراض ، وفى ذلك ما فيه من الحماقة ورداءة التفكير وسوء التقدير ، فرحمة الله ينبغى أن تقابل بالشكر والطاعة لا بالعصيان والإعراض .

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٥٦

(٢) سورة الغاشية ، من الآية : ٢١ ، والآية : ٢٢

(٣) يقول الإمام البوصيرى ـ رضى الله عنه ـ :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

٦ - (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

أى : لم يقتصر أمر هؤلاء الذين لم يؤمنوا بك من قومك على الإعراض والانصراف عما يأتيهم من الذكر والموعظة ، بل تجاوزوا ذلك إلى التكذيب الصريح فجعلوا القرآن الكريم تارة سحرًا ، وأخرى أساطير الأولين ، ومرة شعرًا ، وقد هددهم وأنذرهم عذابًا منكرًا ينزل بهم ، وقارعة تحل بساحتهم ينتشر خبرها ، ويذاع أمرها ، فيجمع الله عليهم بين العذاب الأليم ، وكشف أمرهم بين الناس حتى يتحدثوا بما نزل بهم من نكال وخزى جزاء وفاقًا لاستهزائهم وسخريتهم ، وقد رتب الله - سبحانه - نزول العذاب على استهزائهم فى قوله : « فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ . . . » الآية ، مما يؤذن ويدل على أن العذاب واقع لا محالة ، فقد أصابتهم فى بدر هزيمة منكرة قتل فيها وأسر صناديدهم ، ويجوز أن يراد من الأنباء : أخبار انتشار الإسلام وعلو شأن القرآن الذى كانوا به يستهزئون .

ومن أغراض هذا الوعيد أن يترفق النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه فلا يشق عليها ويعرضها للهلاك أسفًا وحزنًا على قوم قد أوغلوا فى الكفر ، وختم الله على قلوبهم فلا تنفذ إليها الهداية ولا يرجى منهم خير .

٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) :

ينكر الله - تعالى - عليهم ما هم فيه من إعراض وتكذيب واستهزاء بآيات الله الكونية بعد أن أعرضوا وسخروا من آيات الله التنزيلية ، أى : أفعلوا ما فعلوا ، وأصروا على الكفر والتكذيب ولم ينظروا إلى الأرض وما فيها من عجائب تدعوهم إلى الإقبال على الله إيمانًا وتصديقًا ، وتمنعهم وتزجرهم عما اقترفوه من السخرية والإعراض عن آيات القرآن الكريم - أفلم ينظروا إليها - وهى تنبت ما يفيد الناس وينفعهم من نبات يختلف صورة ومنافع

فلو أن الأمر لطبيعة الأرض ، لما أنبتت نباتًا ، فإنها لا عقل لها ، ولا تدبير ولا قدرة ولا إرادة وقوله : (كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) : استئناف لبيان ما فى الأرض من أمور تثير العجب وتدعو إلى الإيمان بالواحد الديان ، أى : أنبتنا فى الأرض من كل صنف جليل النفع عظيم الفائدة ، يدرك ذلك كله من أنعم الله عليه بنعمة الفهم الدقيق والإدراك السليم ، وأمده ببصيرة نافذة نيرة ، ويغفل عنه الغافلون فلا يعقلون .

وفى الأرض أصناف وأنواع لم يعرف نفعها البشر ، وتتجلّى لهم منافعها على الأيام عندما يحتاجون إليها فى أمور معاشهم وصلاح حالهم ، كما أن هناك أشياء يظنها الناس ضارة لا نفع فيها ولكن الحاجة قد تلح فى طلبها ، وتدفع إليها ، ولا يغنى عنها سواها فى إصلاح أمر أو علاج علة أو إبراء مريض « ومن السموم الناقعات دواء » .

٨ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : إن فيما سبق من إنبات الأرض لكل الأصناف والأنواع التى تعين الإنسان وتقيم حياته ، وتكون متاعًا له ولأنعامه مع عجزه عن تدبير ذلك ، إن فى ذلك لدلالة واضحة وبرهانًا ساطعًا ، على قدرة الله ، وأنه - سبحانه - هو الجدير وحده بأن يؤمن به الناس كافة : « فى كل شىء له آية : تدل على أنه الواحد » ولكن أكثر هؤلاء استمر على الكفر والتكذيب مع عظم الآية وسطوع البرهان ، وانبلاج الحجة التى توجب أن يكونوا مؤمنين منقادين مذعنين .

٩ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : وإن الله الذى يرعاك ويكلؤك هو صاحب العز الغالب والسلطان القاهر ، وصاحب الرحمة الشاملة والنعمة السابغة ، ومن رحمته أنه قد أمهلهم فلم يأخذهم بسبب كفرهم وإعراضهم واستهزائهم بما جئت به مع قدرته الكاملة وعزه الذى لا يقهر ولا يغالب ، وإنما أكرمهم الله برحمته ، وفاء بوعده لرسوله - صلى الله عليه وسلم - « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[1] .

والآيتان : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » ، « وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » كررهما سبحانه فى هذه السورة ثمانى مرات ، أولاها هذه ، والسبع الباقيات عقب قصص موسى ، وإبراهيم ، وقوم نوح ، وعاد مع هود ، وثمود مع صالح ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة مع شعيب .

والحكمة فى تكرارها : تنبيه كفار مكة وغيرهم إلى أن فى كل قصة من هذه القصص عبرة وعظة توجب الإيمان ، وتزجر عن التكذيب والعصيان .

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٣٣

(وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ
فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾
وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ
عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ
إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾)

التفسير

١٠ - (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

فى هذه الآية وما يليها من الآيات يحكى الله قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وقومه ، تسلية لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ليشفق على نفسه فلا يهلكها غمًّا وحزنًا لعدم إيمان قومه، فهو يأمره أن يذكر لقومه وقت نداء المولى - تبارك وتعالى - موسى - عليه السلام - ليبلغ فرعون وقومه رسالة ربه ، وما ناله بعد ذلك من مكروه ، وما حقق له ربه من انتصارٍ لحقِّهِ على باطل أعدائه ، وفى ذلك ما فيه من تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ببيان أن تكذيب قريش له ليس بأول تكذيب لرسول ، فلست يا محمد أنت وقومك بدعًا من الرسل والأمم قبلك .

والمعنى : واذكر - يا محمد - لقومك أن الله أمر نبيه موسى أن يأتى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ، وظلموا بنى إسرائيل بالإذلال والاستعباد وقتل الأبناء ، واستحياء النساء .

١١ ــ (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) :

بين الله ـ سبحانه ـ القوم الظالمين الذين أمر نبيه موسى أن يأتيهم ـ بينهم ـ فى هذه الآية أنهم فرعون وقومه ؛ لأنهم تناهوا فى الظلم وأوغلوا فى الطغيان حتى صاروا علمًا عليه وعنوانًا له ، وقد دعا الله إلى العجب من ظلمهم وعدم تقواهم فقال : « أَلَا يَتَّقُونَ » الله ـ عز وجل ـ فلا يصدر منهم معصية ولا استعلاء ، وهذا يتحقق بهجرهم كل المعاصى والمظالم ، وكأن سائلًا سأل : هذا ما نادى الله به موسى ، فماذا قال موسى جوابًا لهذا النداء ؟ فكان الجواب هو قوله تعالى حكاية عنه :

١٢ ، ١٣ ، ١٤ ــ (قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) :

أى : قال موسى ـ عليه السلام ـ وهو فى مقام الضراعة إلى بارئه رب العالمين : يارب إنى أخاف أن يكذبنى هؤلاء حين آتيهم ، ولا يؤمنوا برسالتى ، ولا يصدقوا بِنُبُوَّتِى ، إنى يارب يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى لما ينالنى من العى والحَصَر وحبس اللسان بسبب ما يلحقنى من الحزن .

وهذا الذى صنعه موسى ـ عليه السلام ـ ليس تشبثًا بالعلل ، ولا للاستعفاء من امتثال أمر ربه ـ عز وجل ـ وتلقيه بالسمع والطاعة ، بل هو موقف ضراعة وابتهال ، وتمهيد عذر بين يدى رجاوته أن يعينه على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه ، ولهذا التمس من ربه أن يبعث جبريل أمين الوحى إلى هارون ويجعله نبيًّا ووزيرًا له من أهله يشركه فى أمره ليشد أزره ويقوى عضده .

ويجأر موسى إلى ربه فيبدى له أن هناك أمرًا آخر يخشاه ويخافه إذ يقول : إن هؤلاء القوم ـ فرعون وملأه ـ يرون أن لهم علىَّ تبعة ذنب ، وجريرة جرم ، ذاك أننى قتلت واحدًا منهم ، حين وكزته غير قاصد قتله لما استغاث بى أحد شيعتى ، فهم يُحَمِّلُونَنِى وزر ذنب لم أقصده ، فأخاف إذا ذهبت إليهم وحدى ليس معى عضد ولا سند أن يفتكوا بى بسبب تحميلى دم القبطى ، وأريد أن أؤدى الرسالة ، فادفع عنى يارب أذاهم المرتقب وكيدهم المتوقع ، باختيار أخى هارون نبيًّا لك ووزيرًا مساعدًا لى ، وأعنا على تبليغ دعوتك .

وقد استجاب الله لموسى فحقق رغبته ، وأناله طَلِبَتَهُ بما حكاه القرآن بقوله :

١٥ ـ (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ) :

قال الله لموسى : كلَّا ، لا تخف؛ لن يقتلوك ولن يصيبك مكروه ، فالعناية معك والله يعصمك من الناس فلا يترددْ فى صدرك هذا الخاطر ولا يَجُلْ فى نفسك هذا الظن ، فاذهب أنت وأخوك بآياتى الباهرة ومعجزاتى الخارقة فإن فيها أمنًا لك من خوفك وتثبيتًا لقلبك وتأييدًا لدعوتك وأنا معكم جميعًا بسمعى وعلمى أحيطكما بالرعاية والتأييد والنصر ، وأمدكما بالعون وأما فرعون فسأكون ضده بالتخذيل والتخويف فلا يصل إليكما ولا ينال منكما .

١٦ ـ (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

فاذهبا ياموسى أنت وأخوك هارون إلى فرعون ذلك الذى يدعى الألوهية ويقول : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى »[1] فقولا له قولاً لينًا لا غلظة فيه ولا قسوة ؛ لعله يتذكر ما قد أنساه سلطانه وجبروته من أنه مربوب لله رب العالمين ، ليقل كل منكما له : إنه رسول رب العالمين[2] ، وفى ذلك رد لدعوى فرعون أنه إله ، وإشعار له بأن للعالمين ربا واحدا هو الذى بعثهما إليه ، وفى هذا الأسلوب حمل لطيف لفرعون على أن يمتثل أمر ربه رب العالمين .

١٧ ـ (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) :

أى : أطلق سراح بنى إسرائيل وفك إسارهم ودعهم يذهبوا معنا حيث نذهب ، وهو يقصد بذلك توجههم إلى فلسطين .

---

(١) سورة النازعات ، من الآية: ٢٤

(٢) ويجوز أنه أفرد مع أنهما رسولان ؛ لأنه مصدر وصف به ؛ ولهذا أفرد تارة وثنى أخرى ؛ ومن استعماله مصدرا قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ؛ ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى : برسالة .

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا
إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ
لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(تَمُنُّهَا عَلَيَّ) : تعدها نعمة وفضلا .

(عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) : اتخذتهم عبيدا .

التفسير

١٨ - (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) :

قال فرعون موجها كلا مه إلى موسى بعد أن نفَّذ موسى وأخوه هارون أمر الله وأبلغا فرعون الرسالة ، وطلبا إليه أن يرسل معهما بنى إسرائيل - قال فرعون ردا عليه - :

ألم نقم على رعايتك والعناية بك فى منزلنا طفلا مولودا ، وذلك بعد أن تم التقاطك على يد أهلنا وخدمنا ، وبقيت يا موسى تقيم بيننا كواحد منا السنين من عمرك ، وكان الأولى بك والأجدر - تقديرا لنعمتنا عليك - أن تكون معنا وأن تؤمن بنا ، لا أن تكون داعياً لنا وموجها ، وكلام فرعون هذا يوحى بالتقريع والتوبيخ لموسى -عليه السلام- ، ولذا عقبه بقوله :

١٩ - (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

وصنعت ياموسى تلك الفعلة التى أنكرناها عليك ، حيث قتلت القبطى انتصارا لشيعتك ، واستهانة بنا ، وأنت بذلك كافر بنعمتنا عليك متنكر لما أسديناه لك جاحد

لما أسلفناه من تربية ورعاية ، أو : وأنت من الذين كفروا بديني ، أو بألوهيتي بعد عودتك من الجهة التي فررت إليها ، فعظم بذلك ذنبك عندنا .

والواقع أنه - عليه السلام - لم يكن على دينهم قبل فراره ، ولكن سكوته عنهم من باب التقية ، فكفره بدين فرعون قديم قبل الهجرة ، والمستحدث إنما هو الإعلان عنه بعد العودة ، والرأى الأول هو الظاهر ، وهو ما قاله ابن زيد .

٢٠ - (قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ الضَّآلِّينَ) :

قال موسى - عليه السلام - فى مقام الرد على ما أثاره فرعون - : فعلت تلك الفعلة ووكزت القبطى تلك الوكزة التى قضت عليه ، والحال أنى من الجاهلين بما تفضى إليه تلك الضربة إذ ماكنت أعتقد أنها تقضى على القبطى وتقتله ، وكان هدفى هو الانتصار لمظلوم وتأديب باغ ومعتد ، ولو كان الأمر كما تظن وأنى قاتل مفسد - كما تدعى - لاستجبت لمن استصرخ بى وكررت تلك الفعلة وانتصرت له ، ولكنى بعدت ونأيت عنه وقلت له : « إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ » .

٢١ - (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

ومع أن فعلتى - التى عددتها عظيمة وأثيمة - لا تقتضى المؤاخذة ولا تستدعى التقريع والتوبيخ والرمى بالكفر والجحود ، فإنكم تآمرتم على قتلى ودبرتم اغتيالى وإزهاق روحى ، ففررت منكم بعد أن أخبرنى ناصح أمين بما انتويتم وما دبرتموه بليل ، هربت منكم إلى ربى .

خرج موسى وهرب فراراً بنفسه وخوفا من حيف يلم به ، أو ظلم ينتظره ، أو قتل يُعَدُّ له ، وأسلم نفسه لربه فملأ قلبه حكمة وعقله رشدا ، وجعله من خاصة خلقه فاصطفاه الله له كليما ، ولعباده رسولا ، وكان - عليه السلام - من أولى العزم من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - .

٢٢ - (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ) :

تلك : إشارة إلى تربية موسى فى منزل فرعون المستفادة من قوله لموسى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

وَلِيدًا »أى : أن تلك الرعاية التى ظفرتُ بها فى كنفك هى نعمة ظاهرة لديك وواضحة عندك ولكنها فى الحقيقة ليست نعمة ، فالسبيل إليها تعبيدك بنى إسرائيل ، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم ، فإنه السبب فى وقوعى عندك ووجودى فى تربيتك .

وقيل : إنه مقدر بهمزة الإنكار ، أى : أو تلك نعمة تمنها علىَّ ، وهى أن عبدت بنى إسرائيل ، وعلى كلا الوجهين فالمقصود : أن عناية الله – سبحانه – ألقت به إليه وأنه المتسبب فى وصوله إلى منزله ، وأنه – تبارك وتعالى – سخره للعناية به والقيام على شأنه ومنعه من قتله حتى قالت امرأته : « قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا »[1] فالمنة والفضل لله وحده .

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾)

التفسير

٢٣ – (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا[2] رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

بعد أن دعا موسى – عليه السلام – فرعون إلى الإيمان برب العالمين تحقيقاً لأمره تعالى بدعوته : « فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » بعد أن دعاه موسى

(١) سورة القصص ، من الآية : ٩

(٢) ما : استفهامية وغالبا ما تستعمل فى غير أولى العلم ، وهى هنا فى الاستفهام عن رب العالمين ، على تأويل : ما شأن رب العالمين ، أو أنها بمعنى من ، كما فى قوله تعالى : « والسماء وما بناها » : أى ومن بناها .

قال فرعون مستنكرا ما قاله موسى ومستهزئا به : ما هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ وقد كان فرعون يدعى أنه ليس هناك إله غيره .

« مَاعَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى »[1] ولكن نبى الله موسى رد عليه بما حكاه الله بقوله :

٢٤ــ(قَالَ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) :

قال موسى لفرعون ردًّا على استفهامه : رب العالمين هو رب السموات وما فيهن من الكواكب الثوابت ، والسيارات النيرات ، ومن الأرض وما فيها من بحار وقفار وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بينهما من الهواء والطير وما سوى ذلك مما لا نشاهده ولا ندركه ، كل ذلك مربوب لله خاضع لسلطانه ــ سبحانه ــ « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ »[2]

(إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) : أى إن كانت لكم قلوب صالحة لليقين ، وبصائر نيرة تهدى إلى الصراط المستقيم ، أو إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره ووضوح دليله ، لأن الله ــ سبحانه ــ له فى كل شىء آية تدل عليه وترشد إليه :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

فما يدعيه فرعون من الألوهية محض كذب وافتراء ، فليس فى قدرته أن يخلق شيئًا .

٢٥ــ(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ) :

قال فرعون لمن حوله من وجوه القوم وأشرافهم وأعيانهم وعليتهم الذين حضروا وشهدوا هذا الحِجَاجَ : (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) إلى قول موسى الذى يدعو إلى العجب ويبعث على السخرية والاستهزاء ، وذلك بادعائه أن هناك إلٰها غيرى وربا سواى؟ .

وإيراد فرعون كلامه على هذا النحو ليهوّن من شأن موسى ، وينال منه ، وذلك منعا لقومه أن يميلوا إلى موسى وينعطفوا نحوه ويعاضدوه .

(١) سورة القصص ، من الآية : ٣٨

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٨

٢٦ - (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) .

قال موسى على سبيل التوضيح والتصريح لما اشتملت عليه إجابته السابقة ، وليضع فرعون بكل جبروته وصلفه فى موضعه الصحيح ، وينزله من مرتبة الألوهية التى ادعاها لنفسه إلى مرتبته الحقيقية ، مرتبة العبودية التى يتساوى فيها مع الناس جميعاً : الله ربكم يا فرعون ومن معك ، ورب آبائكم الأقدمين ، فلا سبيل لك إلى ادعاء الربوبية لأحد من خلق الله : فما أنتم إلا عباد له سبحانه كسائر عباده .

٢٧ - (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) :

اتسم هذا الأسلوب بالسخرية والاستهزاء إمعاناً فى صد القوم عن موسى - عليه السلام - فقد أضاف رسالة موسى إلى المخاطبين فقال : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ » . وترفّع أن يكون رسولا إليه ، كما ترفع وتكبر أن يذكر موسى - عليه السلام - باسمه فقال : (الَّذِي) ثم كان منه أن رماه بالجنون ، ليكون أبلغ فى صد الناس وصرفهم عن اتباعه ، فكأنه يقول لهم : كيف يليق بكم - وأنتم العقلاء - أن تصدقوا معتوها ، وتتبعوا مجنونا ، إن فرعون يريد من وراء هذا إثارة غضبهم على موسى واحتقارهم له .

٢٨ - (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) :

لم يكترث موسى بما وجهه له فرعون من نقائص ، بل جابهه بالحق إذ قال : رب العالمين هو رب المشرق والمغرب وما بينهما ، فهو رب السماء بما حوت من الثوابت والسيارات التى دبرها تدبيرا محكما ، وقدرها تقديرا متقنا فى نظام مستمر دائم على وجه عجيب دقيق ، وهذا لا يكون إلا من مدبر حكيم قدير عليم ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغربا والمغرب مشرقا .

(إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) : أى إن كنتم تعقلون شيئًا ، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلت وبينت لكم وأرشدتكم ، فآمنتم بى رسولا لله رب العالمين .

وفى الكلام تلميح إلى أنهم لا عقل لهم فكأنَّ موسى قال لهم : أنتم أولى بما وصفتمونى به من جنون ، ومارميتمونى به من عَتَه .

(قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(بِشَىْءٍ مُّبِينٍ) : معجزة واضحة .

(ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) : أى ثعبان لا شك .

(الْمَلَإِ) : أشراف القوم وساداتهم .

التفسير

٢٩ـ (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) :

أحس فرعون صلابة موسى وقرأ فى عينيه أنه لا يحيد عن دعوته ولا يتخلى عن رسالته ، وأفحمه موسى وأعجزه ، فلم يستطع جوابا ، فلجأ إلى التهديد بالتعذيب ، وهذه

آية العجز وأمارة الضعف عند مقابلة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، فالمتسلط الجبار عندما يعوزه الدليل وتتأبى عليه الحجة يجنح إلى البطش والتنكيل حفاظاً على هيبته وإبقاء على مكانته، فقال له: لئن جعلت لك إلٰهاً سواى، وتماديت فى دعواك أنك رسول رب العالمين، لأجعلنك من المسجونين الذين تعرفهم، وتعرف ألوان العذاب التى أنزلها بهم.

ولكن موسى - عليه السلام - لم ينقطع أمله فى إيمان فرعون فتلطف به وقال ما حكاه الله بقوله:

٣٠- (قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ):

أى: أتجعلنى من المسجونين الذين تعلمهم وتعاملنى معاملتهم ولو جئتك بشىء هائل عظيم موضح لصدق دعوتى، مؤيد لرسالتى؟ فتحداه فرعون بما حكاه الله بقوله:

٣١- (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ):

قال فرعون: فأت بهذا الشىء إن كنت صادقا فى دعواك أنك رسول رب العالمين، وما أظنك إلا كاذباً فيما تدعيه.

طابت نفس موسى واطمأن إلى نصر الله الذى أعلمه أن عصاه ستصير ثعبانا عظيما.

٣٢- (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ):

فألقى موسى عصاه ورمى بها إلى الأرض، فإذا هى بقدرة الله ثعبان واضح الحيوانية الثعبانية، لا تمويه فيه ولا تخييل، فليس مما يفعله السحرة.

٣٣- (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ):

أخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء لها شعاع قوى يبهر الناظرين، فماذا قال فرعون وقد بهرته آية موسى؟ ماذا قال وقد فقد الأمل فى الانتصار عليه بحجاجه ومناقشته؟

٣٤- (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) :

قال فرعون لزعماء قومه وكبرائهم حين وجودهم حوله مهونا من أمر موسى ومن الآيات البينات المصدقة له فى دعواه الرسالة من رب العالمين - قال - : إن هذا المدعى لساحر بارع فى علم السحر ، فائق فيه ، حاذق له ، متقن لقواعده وأصوله ، فما جاء به اليوم أمامكم ليس معجزة إلهية كما يدعى ، وإنما هو أمر يأتى به الساحر العليم فليس هذا دليلا على صحة ما يدعيه من رسالته ، ومن وجود إله غيرى ، ثم هيجهم وحرضهم على الخروج عليه ومخالفته والوقوف فى وجهه والكفر به ، فقال :

٣٥ - (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) :

(يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ) :

أى : يريد موسى أن يستولى على قلوب الناس ويميلها معه بسحره هذا حتى يكثر أعوانه وأنصاره ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم ، ويستعبدكم فتذهب عزتكم ويزول سلطانكم وتكونوا أتباعاً وخدما بعد أن كنتم سادة أعزة .

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)[1] :

بَهَرَ سلطان المعجزة فرعون وحيره حتى نزل به عن ذروة ادعاء الربوبية بقوله : «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ»[2] فاستأمر الملأ من قومه وأظهر حاجته إلى رأيهم بعد أن كان مستقلا بالرأى مستبدا بالتدبير ، وذلك لأنه استشعر الخوف من استيلاء موسى على ملكه ، قال لهم : أشيروا على فى أمره : ماذا أصنع به حتى أجنبكم شر إخراجكم من دياركم ، وتفريق جمعكم ، والقضاء على عزكم وجاهكم ؟ فإن من أصعب الأشياء على النفوس أن يذل المرء بعد العز ، فكان أن أشار عليه أصحاب الرأى فى قومه بما يحكيه قوله تعالى :

٣٦ ، ٣٧ - (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) :

أى : أجّل أمر موسى وأخيه ، وأخِّر البت فى شأنهما فليس الأمر هينا سهلا ، إنه فى حاجة إلى أن تجمع من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك ، كل ضالع فى السحر عليم بضروبه

(١) (تأمرون) إما من الأمر ، فيكون قد طلب من زعمهم عبيده أن يأمروه ، وإما من المؤامرة والمشاورة وسياق مزيد إيضاح لذلك .

(٢) سورة النازعات ، من الآية : ٢٤

وأنواعه ، بصير بفنونه ، كي يقابلوا موسى ويأتوا بنظير ماجاء به ، أو بأشد منه تأثيرًا فتغلب أنت ، وتكون لك النصرة والتأييد .

وكان هذا من تسخيرالله - تعالى - لهم أن نطقوا بما نطقوا ، وأتوا بمشورتهم هذه ليجتمع السحرة مع الناس فى صعيد واحد ، وتظهر آيات الله ومعجزاته قاهرة لجميع السحرة أمام الناس فى وضح النهار .

٣٨ - (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

جَمع رجالُ فرعون وأعوانه السحرةَ من جميع مدائن مملكته لوقت معين هو الضحى ، من يوم معلوم هو يوم الزينة ، وهو الوقت الذى حدده موسى - عليه السلام - « قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى »(١) ولعله كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ، ويجتمعون له ، وقد اقترحه موسى - عليه السلام - لإظهار كمال قوته ، وكونه على ثقة من أمره ، وعدم مبالاته بهم ، ليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود .

تكامل عقد السحرة ، واجتمع شملهم ، فيما حدد من زمان ومكان .

٣٩ - (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) :

قيل للناس استبطاء لهم ، وحثا ودفعا على المبادرة والإسراع إلى الاجتماع الذى جمع له السحرة البارعون الممتازون - قيل لهم - : (هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) فهذا الاستفهام مجاز عن الحث والدفع ، فكأنه قيل لهم : أسرعوا بمشاهدة هذا اللقاء بين سحرتنا وموسى(٢) وهذا الحث يشعر بأن فرعون مطمئن إلى نجاح سحرته الذين جلبهم وجمعهم من مدائنه .

٤٠ - (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) :

لعلنا بعد أن نشهد هذا التحدى الكبير نتبع السحرة إن غلبوا موسى ، وكان قد قوى أملهم واشتد رجاؤهم أن لا يتحولوا عن دينهم خوفاً مما زعمه فرعون من قضاء موسى على سلطانهم بإخراجهم من ديارهم ، فليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة ؛ فهم متبعوه ، وإنما مرادهم أن لا يتبعوا موسى - عليه السلام - لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية ، حملا لهم على الاهتمام والجد فى مغالبة موسى والانتصار عليه .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥٩ .

(٢) ويشبه ماجاء فى قول الشاعر تأبط شرا :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا   أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فإنه يريد : ابعث لنا أحدهما سريعاً ولا تبطىء ، ودينار : اسم رجل .

(فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾)

التفسير

٤١ ، ٤٢ — (فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا[1] لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) :

لما عرض موسى معجزتَي العصا واليد أمام فرعون ارتاع فرعون ونسى ربوبيته ، وقال لأتباعه على الفور مستغيثاً بهم ، وهابطا عن كبريائه : « مَاذَا تَأْمُرُونَ » يعنى أىّ أمر تأمروننى فأُنفذه ، حتى لا يضيع ملكى .[2]

فأشاروا عليه أن يجمع السحرة من أطراف ملكه – هذا ما حكته الآيات السابقة – وجاءت هاتان الآيتان لتحدثنا عن حضور السحرة وما تلاه .

---

(١) (إذًا) هنا حرف اقترن به الجواب والجزاء وليس ظرفاً ، قيل : هو ظرف الزمان الماضى ، وتنوينه عوض عن جملة ، أى : إذا غلبتم . راجع الآلوسى .

(٢) ويصح أن يكون الأمر هنا من المؤامرة بمعنى المشاورة ، فكأنه قال : ماذا تشيرون به علىّ ، والوجه السابق أنسب بمقام الانبهار الذى جعله ينحط إلى أن يطلب الأمر ممن كان يأمره فيطيع .

ولعل رسله إلى السحرة وعدوهم بحصولهم على أجر جزيل من فرعون إن هم غلبوا موسى – عليه السلام – فأرادوا أن يستوثقوا من ذلك بما حكاه الله عنهم بقوله : « أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » .

والمعنى الإجمالى لهاتين الآيتين : فلما جاء السحرة من أطراف المملكة ، تلبية لدعوة فرعون لينصروه على موسى وأخيه بسحرهم – لما جاءوا لذلك – قالوا لفرعون سائلين مستيقنين : أحق مؤكد أنك جعلت لنا مكافأة وأجرا ، إن كنا نحن الغالبين لموسى لظهور سحرتنا وغلبتهم لعصاه فى يوم الزينة على رءوس الأشهاد ؟ فأجابهم قائلا : نعم لكم أجر جزيل على ذلك ، وإنكم مع حصولكم على الأجر لمن المقربين عندى ، لأنكم نصرتمونى على عدوى الذى أخشاه على ملكى .

٤٣ – (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ) :

جاء فى سورة الأعراف أن السحرة قالوا لموسى : « يَامُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ، قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ »[1] ومن هذا النص نفهم أن موسى – عليه السّلام – لم يقل لهم : « أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ » إلا بعد أن خيره السحرة بين أن يبدأ بإلقاء عصاه ، وبين أن يبدأوا بإلقاء سحرهم ، وقد خلت سورة الشعراء من هذا التخيير ، كما أن صورة الإذن بالإلقاء فى سورة الأعراف « أَلْقُوا » وفى سورة الشعراء « أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ » وقد عرفنا من سورة الأعراف أن السحرة لما ألقوا ما معهم « سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » فى يوم الزينة الذى احتشد له الناس ليشاهدوا المعركة بين الحق والباطل وآثارها ، ولم يأت ذلك هنا ، وبالجملة فقد اشتملت سورة الأعراف على مفارقات عديدة فى قصة موسى مع فرعون ، وكلما وجدت قصة موسى وفرعون فى سورة ، وجدت فيها مفارقات بالنسبة لسورة أخرى ، ومثل ذلك يحدث فى قصص غيره من المرسلين مع أممهم .

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١١٥ والآية : ١١٦ .

وبالجملة فإن القصص القرآنى جاء فى بعض السور مختصرا ، وفى بعضها مبسوطا ، وأن العبارات فى الموقف الواحد قد تختلف فى سورة عنها فى سورة أخرى .

ويرجع ذلك إلى أن لغة الرسل وأقوامهم لم تكن عربية ، وأن ما جاء فى القرآن عن قصصهم إنما هو ترجمة عربية لما جرى بين الأنبياء وأممهم بلغتهم ، وأن هذه الترجمة تعود إلى أصل المعنى الذى دار عليه الحوار ، أما الحوار نفسه فقد يكون واسع الأطراف كثير الجدل ، متعدد اللقاءات ، متطاول السنين ، فلا غرابة فى أن تجد القرآن الكريم فى سورة يقتصر فى حكاية الحوار وما حوله على المبدأ الأساسى الذى دار عليه الحوار ، وترتبط به العظة المقصودة من سَوْقِ القصة ، وأن نراه فى سورة أخرى يحكى الحوار بصورة أخرى فيها بعض البسط ، ليجد القارئ فى إعادة القصة جديداً لم يره فى سورة أخرى ، فيضيفه إلى معلوماته السابقة فى القصة .

وبالجملة فالقرآن الكريم يكمل بعضه بعضا ، وهذا أسلوب بديع تفرد به القرآن بين الكتب السماوية ، لما فيه من إعادة التذكير والوعظ ، مع التشويق إلى تتبع القصة فى مظانها من القرآن ، للاستزادة من المعرفة ، حتى لا يمل من إعادة القصة إذا كانت بأسلوب واحد

وليعلم القارئ أن القصص القرآنى ليس الغرض منه بيان تاريخ الأمم ، بل العظة بما حدث لهم عندما أعرضوا عن رسله ، ولذا احتاج الأمر إلى تكرار قصصه مع التلوين فى حكايتها وسردها .

ومعنى الآية : قال موسى للسحرة لما اجتمعوا فى يوم الزينة : ألقوا ما أنتم ملقونه من أنواع سحركم فلست أبالى بكمه ولا بكيفه .

٤٤ - (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) :

أى : فألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وسلطوا عليها سحرهم ورُقاهم ، فانقلبت أفاعى مخيفة ، وثعابين مزعجة وجاءوا بسحر عظيم سحروا به أعين الناس واسترهبوهم وما هو إلا حبال وعصى فى الحقيقة ، فلو لم تسحر عيون الناس لرأوها كذلك ، وقال

السحرة حين رأوا ضخامة سحرهم وأثره فى عيون ووجوه مشاهديهم ـ قالوا حينئذ ـ : نقسم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون لموسى ، ولا سبيل لغلبته إيانا .

قال ابن عطية ـ بعد أن ذكر أن ما قاله السحرة قَسَمٌ بفرعون ـ قال ابن عطية : والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذ كانوا يعبدونه . . الخ .

ومما يؤسف له أن هذه العدوى تسربت إلى المسلمين ، فتركوا الحلف بالله إلى الحلف بآبائهم وأوليائهم وبغير ذلك مما لا يجوز الحلف به ، فلا حلف إلا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته .

٤٥ ـ (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) :

فألقى موسى عصاه الخشبية الوحيدة ، عقب ثقتهم بسحرهم ، وقسمهم بعزة فرعون إنهم لَهُمُ الغالبون ، ففوجئوا بالأمر الخطير الذى لم يتوقعوه ، وهو أنها انقلبت ثعباناً كبيرا سريع الحركة كأنها جان ، وجعلت تبتلع حبالهم وعصيهم التى أفكوها ، وزعموا أنها أفاعى وثعابين حقيقية ، وما هى إلا حبال وعصى سحروا بها العيون ، فتخيلتها كما يزعمون .

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ـ (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ • قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ • رَبِّ مُوسَى وَهَٰرُونَ) :

أى : فخرَّ السحرة ساجدين لعظمة الله ، كأنهم من فرط تأثرهم بالحق واستجابتهم له ، لم يتمالكوا أنفسهم ، فكأن حالهم كحال من أُخذوا فطرحوا على وجوههم ، أو أنه تعالى ألقاهم بما وفقهم إليه من التأثر ببرهان الحق ، فقد عرفوا أن مثله لا يُأتى بطريق السحر ، وعلى هذا فالإلقاء مجاز عن التوفيق لسبب السجود وهو معرفة الحق .

قال الآلوسى : وذكر بعض الأجلة أنهم إنما عرفوا حقيقة ذلك ، بعد أن أخذ موسى ـ عليه السلام ـ العصا فعادت كما كانت ولم يروا لحبالهم وعصيهم أثرا ، وقالوا : لو كان سحرا لبقيت حبالنا وعصينا ، ولعلها على هذا صارت أجزاء هبائية ، وتفرقت أو عدمت لانقطاع تعلق الإرادة بوجودها . انتهى .

والمعنى الإجمالى : فخر السحرة على وجوههم ساجدين لرب العالمين ، إذ عرفوا أن العصا آية لموسى من ديان يوم الدين ، وليست من قبيل سحر الساحرين ، قالوا حين سجودهم : آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ، وبذلك الإيمان سقطت ربوبية فرعون من نفوسهم ، واهتزت بين المشاهدين لهم .

(قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ) : وذلك بقطعه اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس . (لَا ضَيْرَ) :لا ضرر . (مُنقَلِبُونَ) : راجعون .

(أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) : لكوننا أول من آمن من أتباع فرعون .

التفسير

٤٩ - (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ[١] تَعْلَمُونَ . . .) الآية .

أى : قال الجبار فرعون للسحرة بعد هزيمتهم ، وقد رآهم يستجيبون لموسى ويخرون لله سجدًا - قال لهم حينئذ - : صدقتم بلين موسى لأجله ، دون أن يصدر لكم بذلك إذن

(١) اللام فى قوله : « فلسوف تعلمون » لام الابتداء دخلت على الخبر ، وأصل الكلام من جهة المعنى : فلأنتم سوف تعلمون ، وليست لام القسم : لأنها لاتدخل على المضارع المثبت إلا مع نون التوكيد ، وقيل : إنها للقسم ، ولم يؤكد الفعل بالنون للفصل بينها وبينه بلفظ (سوف) و قيل غير ذلك : انظر الآلوسى .

منى ، إن موسى لكبيركم الذى علمكم السحر ، فتواطأتم معه على أن تُغلبوا أمامه ، فهو مكر مكرتموه معا فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، فلسوف تعلمون ما يحل بكم من النكال والوبال .

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) :

فى هذه الجملة بيان للعقاب الذى توعدهم به فرعون إجمالا فى قوله : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : لأقطعن اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس ، ولا أقتصر على ذلك ، لأصلبنكم على جذوع النخل وأربطكم بالحبال عليها ، كما قال تعالى فى سورة (طه) حكاية عنه : (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى) [1]

٥٠ ــ (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) :

قال السحرة بعد سماع وعيد فرعون الخطير غير مبالين به : لا ضرر علينا فى قطع أيدينا وأرجلنا وتصليبنا ، فالموت فى سبيل الله أسمى أمانينا ، لأننا إلى ربنا الذى آمنا به راجعون حين تقتلنا ، فنرى لديه من الكرامة والعز ، لصبرنا على تعذيبك إيانا ، واستشهادنا فى سبيله ، فلا يزعجنا وعيدك وتهديدك فما أحلى الموت فى سبيل الحق .

ويرحم الله خبيب بن عدى حين قال لآسريه الذين أرادوا قتله وصلبه ، لثأر لهم عند المسلمين :

ولست أبالى حين أُقتَلُ مُسْلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأْ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ .

وإنما أصر فرعون على صلب السحرة بعد تقطيع أطرافهم ، زيادة فى التنكيل بهم . وأن يكونوا عبرة لغيرهم .

٥١ ــ (إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) :

هذا تعليل آخر لانتفاء الضرر على السحرة بقتل فرعون وصلبه إياهم ، أى : لا ضرر علينا حين تنفذ وعيدك فينا ، فإننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا التى حدثت منا أيام الكفر ، لكوننا أول المؤمنين من أتباع فرعون .

وهكذا تهون الأرواح ويُسْتَلَذُّ العذاب فى سبيل مرضاة الله رب العالمين .

---

(١) من الآية : ٧١ .

* ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفردات :

(لَشِرْذِمَةٌ) الشرذمة : الجماعة القليلة من الناس ، والجمع : شراذم .

(لَغَائِظُونَ) : لفاعلون ما يغيظنا ويغضبنا . (حَاذِرُونَ) : متأهبون متيقظون .

التفسير

٥٢ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ) :

لما ظهر أمر موسى وانتصر على السحرة وأسرعوا إلى الإيمان به نكل بهم فرعون وأعد العدة للقضاء على موسى ومن معه قبل أن يستفحل أمرهم ويتفاقم خطرهم ، ولكن موسى ظل يكافح طغيانه ، ويمده الله من آن لآخر بآياته ، كالطوفان والجراد والقُمَّل وغيرها ، فلا يزداد فرعون إلا كفرًا وإمعاناً فى البغى والأذى ، فلهذا أمر الله نبيه موسى أن يخرج بعباده بنى إسرائيل من مصر إنقاذًا لهم من الاستعباد والأذى ، وأرشده إلى الخروج بهم ليلا حتى يسلموا من بطش جنوده ومتابعتهم إياهم .

والمعنى : وأمرنا موسى بوحى منا إليه أن يخرج بعبادى بنى إسرائيل ليلا لأنَّهُمْ مُتَّبَعُون من فرعون وجنوده ، فليسبقوهم إلى النجاة قبل أن يدركوهم ، وليجعلوا الليل ساترا لهم حتى لا ينكشف أمرهم .

٥٣ - (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) :

أى : فأسرى موسى بالمؤمنين ،أى :خرج بهم ليلا امتثالا لأمر ربه ، ولما أصبحوا وليس فى الديار أحد منهم ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل فأرسل سريعاً فى

مدائن مملكته وقراها من يحشر الجند ويجمعهم كالنقباء والحجاب ليتبعوهم ، وبذلك يحول بين موسى وقومه وبين ما يقصدون من الهجرة والخروج من البلاد .

٥٤ - (إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) :

لفظ (هؤلاء) إشارة تحقير لبنى إسرائيل ، أى :قال فرعون لمن حضر مجلسه : إن بنى إسرائيل الذين فروا مع موسى لطائفة قليلة من الناس تشتمل على أسباطهم ، وهم بالنسبة لأعدادقومنا وجنودنا قليلون ، وليس هناك ما يمنعنا من اقتفاء أثرهم والانقضاض عليهم والحيلولة دون هجرتهم ، وعقابهم على فرارهم .

٥٥ - (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ) :

وإن موسى ومن معه - مع قلتهم وذلتهم - لصانعون بنا ما يغيظنا ويثير الحقد والغضب فى نفوسنا ، لأنهم خالفوا أمرنا وخرجوا دون إذننا ، وحملوا معهم فى مكر وحيلة ودهاء حُلينا وأموالَنا وحُلَلَنا .

٥٦ - (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ) :

وإنا لجمع طبيعته أن يحذر ويحترس ويتيقظ لكل ما يتوقع من جانب العدو ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى تأديبه وإلزامه الطاعة لأمرنا ، فلنا القوة ، وفينا الكثرة .

(فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(وَكُنُوزٍ) : وأموال حفظوها . (وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) : ومساكن حسان يقيمون بها .

(كَذَٰلِكَ)[١] : الإشارة إلى مصدر الفعل ، أى : أخرجناهم إخراجاً مثل هذا الإخراج العجيب ، أو إلى مقام كريم مثل ذلك المقام الكريم .

(مُشْرِقِينَ) : داخلين فى وقت شروق الشمس .

(تَرَآءَ الْجَمْعَانِ) : تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما الآخر .

(لَمُدْرَكُونَ): لملحقون . (كَلَّا): كلمة ردع لهم .

التفسير

٥٧ - (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) :

أى :فأخرجنا فرعون ومن معه من بساتين غناء ورياض فيحاء فيها عيون الماء الجارية .

٥٨ - (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) :

أى : وأخرجناهم أيضا من كنوز خزنوها وادخروها ، ومن مساكن طيبة وأماكن شريفة كانوا يقيمون بها منعمين بجمالها وحسن رونقها وبهائها وجميل مرافقها - أخرجناهم من هذه النعم - لأنهم لم يشكروها بالإيمان واتباع الرسول بل كفروا وحاربوا الحق ، وناصبوا الرسل ومن معهم من المؤمنين العداء ، وحاولوا إهلاكهم والقضاء على دعوتهم فحرمهم الله من نعمه وسلبها منهم ؛ لأن المعاصى تزيل النعم .

٥٩ - (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) :

(كَذَٰلِكَ) : أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج العجيب الذى وصفناه (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) قال صاحب المنار عند تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ»[٢] :

تعدد فى القرآن التعبير عن استخلاف الله قوما فى أرض قوم بالإيراث على سبيل المجاز .

(١) (كذلك) قال الزمخشرى : يحتمل ثلاثة : (أ) النصب على : أخرجناهم إخراجا مثل ذلك الإخراج الذى وصفناه .

(ب) الجر على أنه وصف لمقام - أى : مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم .

(ج) الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٧

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر ـ أعطيناهم ـ مشارق ومغارب الأرض التى باركنا فيها بالخصب والخير الكثير ، وهى : فلسطين تحقيقاً لوعدنا « وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ[1] » روى عن الحسن البصرى وقتادة أنهما قالا فى تفسير مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها هى : أرض الشام ، وعن زيد بن أسلم قال : هى قرى الشام ، وعن عبد الله بن شوذب : فلسطين ، ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى فى إبراهيم ـ عليه السلام ـ : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ[2] » وقوله سبحانه : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ[3] » وربما يتراءى أن إرادة أرض مصر هى الظاهر المتبادر من قوله تعالى فى سورة الشعراء : « فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ[4] ».

وقوله فى سورة الدخان : « كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ[5] » ولكن الأمر ليس كذلك ، بل المراد أنهم أورثوا بعض أملاك فرعون ، فلقد كانت بلاد فلسطين والشام تابعة لمصر وفراعنة مصر ، ولقد أعطى الله بنى إسرائيل بدلا عن مصر التى أمرهم بتركها فلسطين التى فى الشام . ا هـ عن تفسير المنار ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ الجزء التاسع ، بتصرف .

ويؤيده : أنه لم يثبت تاريخيا وأثريا أن بنى إسرائيل ملكوا مصر واستولوا على أرضها ، بل الثابت الذى يحدثنا به التاريخ أنهم بعد أن كانوا مستضعفين فى مصر وخرجوا منها مع موسى لم يرجعوا إليها ولن يرجعوا ـ بإذن الله ـ ومكثوا يتيهون فى الأرض أربعين سنة لمخالفتهم لله ورسوله وتقاعسهم عن قتال الجبارين كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم

---

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٥ ، ٦
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٧١
(٣) سورة الإسراء ، من الآية : ١
(٤) سورة الشعراء ، الآيات : ٥٧ — ٥٩
(٥) سورة الدخان ، الآيات : ٢٥ — ٢٨

٦٠ - (فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ) : تبع وأتبع بمعنى واحد .

أى :فتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل قاصدين إهلاكهم حين أشرقت الشمس .

٦١ - (فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) :

(فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ) : أى فلما تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) : أى لملحقون فهالكون على أيدى هؤلاء الذين جدُّوا فى السير وراءنا يريدون إعادتنا للاستعباد أو إهلاكنا ، وقد أكدوا مخاوفهم هذه بالجملة الإسمية المؤكدة بإنَّ واللام .

٦٢ - (قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ) :

أى : لن يدركوكم (إِنَّ مَعِىَ رَبِّى) بالنصرة على العدو والحفظ والعون.

(سَيَهْدِينِ) قريباً إلى مافيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم،لأن الله دبر الأمر وسيحقق النصر فهو الذى أوحى إلىَّ بالإسراء ووجهكم للخروج وسيقضى عليهم ،وعَبَّر بقوله : «إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ » دون أن يقول : « إِنَّ مَعَنَا رَبَّنَا سَيَهْدِينَا » للإيذان بأن بنى إسرائيل مكرمون بالهداية إلى النجاة من الغرق تبعا لرسولهم موسى وكرامته على ربه ، أما هم فليسوا جديرين بالحفظ من الغرق والنصر على العدو ، فإنهم عقب نجاتهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً كآلهة الشعوب حولهم ، وعبدوا العجل الذى قدمه السامرىُّ لهم ، وقالوا لموسى : « اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وهم الذين أفسدوا فى الأرض وعلوا علوًّا كبيرا ، ولأجل هذا المقصد حكى الله عن نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لأبى بكر وهما فى الغار ،والمشركون على بابه ،والخطر محدق بهما والحزن يملأُ قلب أبى بكر خوفاً على الرسول : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » فإنه تعالى كان مع رسوله وصديقه لوفائه لربه ونبيه .

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾
وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

المفردات :

(فَانفَلَقَ) :فانشق . (فِرْقٍ) : فى المختار الفِرْقُ ؛ الفَلْق من الشىء إذا انفلق ،ومنه قوله تعالى : « فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ» وفى القاموس (الفِرق) :القسم من كل شىء. (الطَّوْدِ) :الجبل العظيم . (أَزْلَفْنَا) : قربنا. (ثَمَّ) :- بفتح الثاء - هناك ، ويشار به إلى المكان البعيد . (الْآخَرِينَ) : المراد بهم فرعون ؛ وجنوده .

التفسير

٦٣ - (فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) : لما عظُم البلاء على بنى إسرائيل ورأوا من الجيوش ما لاطاقة لهم بها أمر الله -سبحانه وتعالى- موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وذلك أنه -عز وجل- أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله تثبيتًا لإيمان من آمن من قومه ، وقضاء على الشك عند من شك منهم ، وإلا فضرب العصا ليس بفالق للبحر ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله -عز وجل- ولما انفلق عقب الضرب مباشرة صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماء بينهما كالجبل العظيم ، فلما خرج أصحاب موسى ،

وتكامل آخر أصحاب فرعون داخله انصب عليهم الماء وغرق فرعون ، فقال بعض أصحاب موسى :ما غرق فرعون ، فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه ، والمراد بالبحر :القلزم على الصحيح ، والظاهر أن هذا الإيحاء بضرب البحر بعصاه كان بعد القول المذكور ولم يكن مأمورا بالضرب يوم الأمر بالإسراء بقومه ،وجاء إنجازا لتدبير الله وتحقيقاً لوعده بنصر المؤمنين وإغراق الطغاة .

٦٤ - (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ) :

أى : وقربنا فرعون وجنوده من قوم موسى -عليه السلام- حتى دخلوا البحر على أثرهم ويجوز أن يراد : قربنا بعض قوم فرعون من بعض ، وجمعناهم لئلا ينجو منهم أحد ، وفى التعبير عنهم بالآخرين ترفع عن ذكر اسم فرعون الذى ظن نفسه شيئاً ، وليس بشىء أمام قدرة الله .

٦٥ - (وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ) :

أى :وأنجيناهم من الهلاك والوقوع فى أيدى أعدائهم ، ومن الغرق بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البر .

وقوله : سبحانه (وَمَن مَّعَهُ) إشارة إلى أن إنجاءهم كان ببركة هذه المعية ومصاحبة موسى -عليه السلام- لهم ، وقيل: ليشمل من آمن به -عليه السلام- من القبط، إذ لو قيل : وقومه لتبادر إلى الذهن بنو إسرائيل دون سواهم .

٦٦ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) :

أى :ثم أغرقنا فرعون وجنوده المحقرين بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى -عليه السلام - ومن معه ، وثم للتراخى الزمنى فى أصل وضعها ، ولكن الظاهر أنهم أغرقوا فور خروج بنى إسرائيل ، فلهذا تحمل هنا على التراخى المعنوى لما بين المعطوفين من المباعدة المعنوية ، فما أبعد الفرق بين الإنجاء والإغراق.

٦٧ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً) :

أى :إن فيما ذكر من معجزة البحر وما كان قبله من معجزات العصا واليد وغيرهما

وسجود السحرة لرب العالمين-إن فى ذلك كله-لآية عظيمة على قدرة الله ونصره لرسله ، وخذلانه لأعدائهم ، وتحذيرا من عاقبة الكفر بالله ورسوله .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : وما كان أكثر قوم فرعون الذين أمر موسى - عليه السلام - أن يأتيهم وهم القبط على ما استظهره أبو حيان حيث لم يؤمن منهم إلا القليل ، ومنهم آسية امرأة فرعون ، فلهذا استحق جنودهم الإغراق مع فرعون .

وقيل : ضمير (أكثرهم) للموجودين بعد الإغراق والإنجاء من قوم فرعون الذين لم يخرجوا ومن بنى إسرائيل ، والمراد بالإيمان المنفى عنهم : التصديق اليقينى الجازم الذى لا يقبل الزوال أصلا ، أى : وما كان أكثر الموجودين بعد تحقق هذه الآية العظيمة وظهورها مُصَدِّقاً ، فإن الباقين بمصر من القبط لم يؤمن أحد منهم ، وأكثر بنى إسرائيل كانوا غير متيقنين ولهذا عبدوا العجل وسألوا موسى بقرة يعبدونها وطلبوا رؤية الله جهرة ..... الخ

وقيل : المراد بالضمير فى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) قوم نبينا - صلى الله عليه وسلم - أى : وما كان أكثر من دعاهم النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى الإيمان - ما كان أكثرهم مؤمنين برسالته ، بعد أن ساق لهم تلك القصص العجيبة التى لا سبيل له إلى العلم بها إلا عن طريق الوحى ، وكان عليهم أن يعتبروا بها ويؤمنوا برسولهم الذى أخبرهم بها ، وقد عرفوه بالصدق والأمانة ، وأنه أُمِّى لا يقرأ ولا يكتب ، واختار هذا الرأى الآلوسى لأن أول السورة وآخرها فى الحديث عنه وتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما قالوه فى القرآن العظيم ، ونهيه صريحاً وإشارة عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات ، كل ذلك يقتضى رجوع الضمير إلى قومه - عليه السلام - دون الرجوع إلى الأقرب لفظاً ، ليكون الارتباط على هذا بين الآيات أقوى .

٦٨ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : وإن خالقك ومربيك وحده دون غيره هو الغالب على كل ما يريده من الأمور التى من جملتها الانتقام من الكفرة : (الرَّحِيمُ) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل

بعقوبتهم مع عدم إيمانهم ، أو العزيز فى انتقامه ممن كفر ، الرحيم لمن تاب وآمن ، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - لتشريفه - عليه السلام - وتقديم العزيز ؛ لأنه أظهر فى بيان القدرة ، وهكذا شاءت إرادة الله ولا راد لمشيئته أن ينصر الحق وأهله وأن يذل الباطل وحزبه ، وأن يخلص بنى إسرائيل من براثن فرعون .

(وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) : النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة الذى يحصل به علم أو غلبة ظن كما قال الراغب .

(عَاكِفِينَ) : مقبلين عليه مع المواظبة .

(الأَقْدَمُونَ) : السابقون الواغلون فى القدم .

التفسير

٦٩ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) :

أمر الله تعالى نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يتلو على أمته نبأ إبراهيم الذى يدينون له بالولاء والنبوة ، ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له والتبرؤ

من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره فإنه منذ شب أنكر على قومه عبادة الأصنام ، وقد حكى الله قصص الأنبياء فى هذه السورة بطريقة الإخبار ، أما قصة إبراهيم فقد تغير الأسلوب فيها من الإخبار إلى أمر الرسول بتلاوتها على قومه ، لزعمهم أنهم على شريعة إبراهيم الذى ينتسبون إليه ويفتخرون به ، مع أنهم بعيدون عن منهجه فى العقيدة كل البعد ، فهو إمام الموحدين ، وهم أئمة الوثنيين.

٧٠ - ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ :

تضمنت هذه الآية أن إبراهيم - عليه السلام - ، سأل قومه عما يعبدون ، لا لجهله بمعبوداتهم ، بل ليبنى على جوابهم أنها بمعزل عن استحقاق العبادة .

والمعنى : واتل - يا محمد - على قومك من قريش خبر إبراهيم العظيم - خبره - حين قال لقومه سائلا عن معبوداتهم : أى شيء تعبدونه ؟

٧١ - ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ :

قالوا بطريق المباهاة : نعبد أصنامًا فنقيم على عبادتها تعظيمًا لها وتمجيدًا ، ولم يقتصروا فى جوابهم على بيان أنهم يعبدون أصناما فحسب ، بل أطنبوا فى وصفها حيث بينوا تمسكهم بها ، ودوام عكوفهم على عبادتها مع أنه لم يسألهم عن هذه التفصيلات ، فعلوا ذلك قصدا إلى إظهار ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك .

والمراد بالظلول : الدوام ، كما فى قولهم : لو ظل الظلم هلك الناس ، وقيل : فعل الشيء نهارا ؛ فقد كانوا يعبدونها بالنهار والكواكب بالليل ، واختار بعضهم الأول لتبادره وكونه أكثر مناسبة للمقام ، واختار الزمخشرى الثانى ؛ لأنه أصل المعنى وهو مناسب للمقام أيضا ؛ لأنه يدل على إعلانهم عبادتها ، وجاء النظم الحكيم على هذا النسق فقال : « فَنَظَلُّ لَهَا » دون (فنظل عليها) لإفادة معنى زائد ، كأنهم قالوا : فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها .

٧٢ - ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ :

أى : قال إبراهيم معقبا على إيمانهم مبكتا لهم : هل تسمعكم هذه الآلهة المزعومة حين تدعونهم فى قضاء حاجاتكم ، أو حين تعبدونهم ؟

وهذا الأُسلوب أبلغ فى التبكيت، والقصد منه : التنبيه على فساد عقلهم وسوء حالهم وأمرهم ، وأن عبادتهم الأَصنام وافتخارهم بذلك سفه وسوءُ رأى .

٧٣ـ (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) :

أى: هل ينفعونكم بسبب عبادتكم لهم أو يضرونكم بترككم لعبادتهم ؟ إذ لابد للعبادة من مقصد من هذه المقاصد؛ حيث كانت على ما وصفتم من المبالغة فيها والحفاوة بها والإقامة عليها ، فهل لأَصنامكم التى آثرتموها بالعبادة صفة النفع أو الضر ؟ .

وتقرع كلمات إبراهيم آذانهم ملجمة لهم ، وتظهر حجته على فساد مسلكهم ، مفحمة إياهم حيث لا تجيب الأَصنام دعاء ولا تسمع نداء ولا تأْتى بخير ولا تدفع بلاء ، فيجيبون بما حكاه الله بقوله :

٧٤ـ (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) :

أى :ليس لآلهتنا شىء من ذلك ، وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم وقلدناهم فيما يفعلون .

٧٥ ، ٧٦ـ (قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ) :

قال إبراهيم مبكتا لهم : أى : أتأَملتم فعلمتم حق العلم أى شئ كنتم تقيمون على عبادته أنتم ومن سبقكم من آبائكم القدامى ، فهل تقليد الآباء يصلح الاحتجاج به على صحة العبادة وألوهية المعبود ؟ .

٧٧ـ (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ[1] الْعَالَمِينَ) :

فى هذه الآية بيان لحال ما يعبدونه من دون الله ، من الضرر العائد من جهتهم على عابديهم بعد بيان غفلة العابدين عن ذلك ، فهو يريد بعداوتها له عداوتها لعابديها ، فإنهم يتضررون بعبادتها ، أى : فاعلموا أَيُّها العابدون أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى ، لتضررهم من جهتهم فوق ما يتضرر المرءُ من جهة عدوه ، وصور إبراهيم عليه

(١) قال الزجاج فى إعراب : « إلا رب العالمين » استثناء من الضمير العائد على (ما تعبدون) باعتباره شاملا لله عز وجل .

السلام ـ الأمر فى نفسه تعريضا بهم ، كما فى قوله تعالى : « وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[1] ليكون أبلغ فى النصح وأدعى للقبول ، وأبعث على الاستماع لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بهذه المثابة ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح مالا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل .

وكلمة (عدو) تستعمل فى الواحد والجمع ، ولذا أخبر بها عن ضمير الجمع .

(إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) : استثناء منقطع من ضمير (فَإِنَّهُمْ) واختاره الزمخشرى ، أى : لكن رب العالمين ليس عدوًّا لى فإنه ـ سبحانه ـ ولى من عبده فى الدنيا والآخرة .

والمعنى : فإن الذين تعبدونهم من دون الله عدو لى ولكم ، فلا أعبدهم لكن أعبد خالق العالمين ومُرَبِّيهم .

(ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(أَطْمَعُ) : أرغب .

(يَوْمَ الدِّينِ) : يوم الجزاء ، مأخوذ من دانه بمعنى جازاه .

التفسير

٧٨ ـ (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ) :

(الَّذِى خَلَقَنِى) : صفة لرب العالمين ، ووصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته ـ تعالى ـ زيادة فى الإيضاح فى مقام الإرشاد ، وتصريحًا بالنعم ،

---

(١) سورة يس ، الآية : ٢٢

وتفصيلا لها لكونها أدخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى ، وقصر الالتجاء فى جلب المنافع ، ودفع المضار العاجلة والآجلة على الله سبحانه .

(فَهُوَ يَهْدِينِ) : عطف على الصلة ، أى :فهو يهديني وحده -جل شأنه- إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الحياة الدنيا وشئون المعاد هداية متجددة مع الاستمرار من مبدأ الحياة كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع ،فإنه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له هداية يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره ، إما طبعا وإما اختياراً ،مبدؤها بالنسبة للإنسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ،ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم.

٧٩- (وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ) :

الموصول عطف على الموصول الأول ، وإنما كرر الموصول فى المواضع الثلاثة مع كفاية عطف ما فى حيز الصلة من الجُمَل على صلة الموصول الأول ، للإيذان بأن كل واحدة من هذه الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم ،حقيق بأن يتصف بها- سبحانه- ويشكر عليها ، ويعبد من أجلها .

أى :فهو خالقى ورازقى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن وأنزل الماء عذبا زلالا وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد .

وجىء بلفظ (هو)فى صدر الصلة دون ذكره مع الخلق لشيوع إسناد الإطعام والسقى إلى غيره -عز وجل- فلهذا أعاد الحق فى الإطعام والسقى إلى مصدره والمنعم به سبحانه ، بخلاف الخلق فإنه لا يستعمل فى غيره ، فلهذا لم يحتج إلى ضمير ، فالله سبحانه هو الذى ينبت لعباده طعامهم وغذاءهم وينزل لهم من السماء ماء ليسقيهم ، ولا دخل لهذه الآلهة فى شىء من ذلك ، فكيف أعبد سواه؟ .

٨٠- (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) :

عطف على (يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ) نظم معهما فى سلك الصلة لموصول. واحد ، لأن الصحة والمرض ينجمان عن الأكل والشرب غالبا ، ونسب المرض الذى هو نقمة إلى نفس العبد ،والشفاء الذى هو نعمة إلى الله -عز وجل - لمراعاة حسن الأدب ، كما حكاه

القرآن الكريم عن الخضر–عليه السلام– بقوله : «فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا»[1] وقال : «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا»[2] ولا يرد إسناد الإماتة – وهى أشد من المرض إليه–عز وجل– فى قوله تعالى : (وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) لإمكان الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله–عز وجل– على سائر البشر ، وحكم عام فالتأسى بعموم الموت يسقط أثر كونه نقمة ، فيسوغ الأدب نسبته إليه تعالى ، وليس المرض كذلك فقد يتفق وقد لا يتفق .

والمعنى : وإذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر عليه من الأسباب الموصلة إليه .

٨١– (وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) :

المعنى : والذى يميتنى إذا جاء أجلى ، والذى يحيينى مرة أخرى للحساب والجزاء ، وقيل : إن الموت لأهل الكمال وسيلة إلى نيل ما أعده الله لهم من نعيم دائم تحتقر معه الحياة الدنيوية وفيه تخليص للعاصى من اكتساب السيئات ، فلهذا يعتبر نعمة فلذا أسند إليه سبحانه .

٨٢– (وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ) :

لم يكن لإبراهيم–عليه السلام– خطايا ، لأنه أبو الأنبياء وخليل الرحمن ، وإنما أضاف الخطيئة إلى نفسه بالنسبة إلى ربه أمام قومه ، هضما لنفسه وتنبيها لأبيه وقومه أن يتأملوا فى أمرهم ليعلموا أنهم من سوء الحال فى درجة شديدة ، وهم مع ذلك بعيدون عن الرجوع إلى الله بالتوبة من الشرك والمعاصى ، وليعلم المسلم أن الأنبياء دائما يطلبون المثل الأعلى فى عبادة الله وطاعته ، وكلما ارتقوا إلى درجة أعلى استصغروا ما كانوا فيه وعدوه قليلا واعتبروه من الخطايا مع أنهم لم تحدث منهم معصية على الإطلاق .

ومغفرة الخطايا سابقة فى علم الله ، وإنما علق إبراهيم–عليه السلام– المغفرة بيوم الدين ؛ لأن أثرها يظهر ويحدث يومئذ ، ولأن فى ذلك تهويلا وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر .

(١) الكهف ، من الآية : ٧٩
(٢) الكهف ، من الآية : ٨٢

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(حُكْمًا) : حكمة وكمالا فى العلم والعمل . (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) : المراد بالصالحين الأنبياء ، والمراد من إلحاقه بهم : أن يجمع بينه وبينهم فى الجنة .

(لِسَانَ صِدْقٍ) : ذكرا حسنًا وثناء جميلا .

(الآخِرِينَ) : القرون التى تأتى بعدى .

(وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) : لا تهنى على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، من الخزى بمعنى الهوان .

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : خالص من الشرك والشك .

التفسير

٨٣ - (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) :

لما ذكر لهم من صفاته - عز وجل - ما يدل على كمال لطفه تعالى به ، حمله ذلك على مناجاته سبحانه ودعائه .

ومعنى الحكم : الحكمة التى هى كمال القوة العلمية بأن يكون عالما بالخير لأجل العمل به ، وقيل : يجوز أن يكون المراد بها كمال العلم المتعلق بذات الله وصفاته وسائر شئونه وأحكامه التى يتعبد بها ، والمراد بإلحاقه بالصالحين : أن يوفقه لأعمال تجعله ينتظم

فى سلك الكاملين الراسخين فى الصلاح ، المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ، حتى يكون أهلا لخلافة الحق ورياسة الخلق .

وقدم الدعاء الأول على الدعاء الثانى لأن القوة العلمية مقدمة على القوة العملية ، ولأن العلم صفة للروح ، والعمل صفة البدن ، ولقد دعا إبراهيم -عليه السلام- بدعائه هذا وهو نبى هضمًا لنفسه ، وطلبا للمزيد من الكمالات ، وكان من دعاء رسولنا -صلى الله عليه وسلم- : « اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين » .

٨٤ - (وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ) :

أى : اجعل لى ذِكرا صادقًا فى جميع الأمم إلى يوم القيامة .

أى : خلّد ذكرى الجميل فى الدنيا وذلك بتوفيقه للأعمال الصالحة وهدايته إلى السنن المرضية التى يقتدى بها الآخرون ويذكرونه بالخير بسببها وهم صادقون - قال عكرمة : كل أمّة تحبه وتتولاه ، ولا بأس بأن يطلب تخليد ذكره ومدحه لأن الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى للعبد ورضاه عنه ، قال تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى »[1] وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا »[2]) أى : حبًا فى قلوب عباده وثناء حسنا .

ويجوز أن يراد بالآخرين : أمة يبعث فيها نبى ، وأنه -عليه السلام- طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم بأن يبعث منهم نبى يجدد أصل دينه ، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد ، معلنا أن ذلك ملة إبراهيم -عليه السلام- فكأنه طلب بعثة نبى فى آخر الزمان لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة ، وليس ذلك إلا بعثة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد طلب بعثته -عليه السلام- بما هو أصرح من ذلك وهو قوله تعالى: « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ »[3] ولذا قال -صلى الله عليه وسلم- : « أنا دعوة إبراهيم عليه السلام » .

ويكون المعنى حينئذ : واجعل لى صاحب لسان صادق فى الآخرين ، أو اجعل لى داعيًا إلى الحق صادقًا فى الآخرين ، واستدل الإمام مالك بهذه الآية على أنه لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه ، والأمور بمقاصدها .

(١) سورة طه ، من الآية : ٣٩ (٢) سورة مريم ، الآية : ٩٦ (٣) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٩

٨٥ - (وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ[١]) :

قال ابن كثير : بعد أن طلب أن ينعم الله عليه فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعده طلب أن ينعم عليه فى الآخرة بأن يجعله من ورثة جنة النعيم ، وذلك لأن المؤمنين يرثون منازل الكفار فى الجنة ، لأنهم قاموا بما وجب عليهم لله من عبادته وحسن طاعته وعدم الإشراك به دونهم ، فأحرزوا نصيبهم فى الجنة ، عن أبى هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما منكم أحد إلا وله منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قول الله - عز وجل - : « أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » ويجوز أن يسمى الحصول على الجنة وراثة لحصولهم عليها دون غيرهم ، ولأنهم يتصرفون فيها كما يتصرف الوارث فى ميراثه .

واستدل بدعائه - عليه السلام - بهذا مع ما تقدم من الأدعية على أن العمل الصالح لا يوجب دخول الجنة ، وكذلك كون العبد ذا منزلة عند الله - عز وجل - وإلا لا ستغنى - عليه السلام - عن طلب الكمال فى العلم والعمل والإلحاق بالصالحين ذوى الزلفى ، وأنت تعلم أنه يحسن الإطالة فى مقام الابتهال .

والمعنى : واجعلنى من عبادك الذين منحتهم نعيم الجنة ثوابا على إيمانهم بك وعبادتهم لك .

٨٦ - (وَاغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ) :

والمعنى : وفقه للإيمان ، كما يلوح به تعليله بقوله : (إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ) : أى المشركين أى : اجعل أبى أهلا للمغفرة ، بتوفيقه للإسلام ، قال ابن عباس فى تفسيرها : امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك ، وكان أبوه آزر قد وعده بالإيمان ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وكف عن الدعاء .

---

(١) قال الراغب : الوراثة والإرث : انتقال قنية إليك من غيرك من غير عقد ولا ما يجرى مجرى العقد ، وسمى بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية الموروثة : ميراث وإرث ويقال : أورثنى الميت كذا وأورثنى الله كذا قال تعالى : « وأورثنا القوم » ويقال لكل من حصل له شىء من غير تعب : قد ورث كذا ، وقال صاحب القاموس : أورثه أبوه وورثه جعله من ورثته ، والوارث : الباقى بعد فناء الخلق ، وفى الدعاء : أمتعنى بسمعى وبصرى واجعله الوارث منى ، أى : أبقه معى .

٨٧ - (وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ):

أى : أجرنى من الخزى والهوان يوم القيامة ، حين يبعث الخلائق أولهم وآخرهم فلاتؤاخذنى على ما فرط منى من التقصير عن رتبة الكمال ، ويجوز أن يكون ذلك تعليما لغيره .

٨٨ - (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ) :

بدل من يوم يبعثون ، جىء به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء ،أى : لا تخزنى يوم لا ينفع مال يفتدى به المرء نفسه من عذاب الله ولو كان ملء الأرض ذهبا ، ولا ينفعه بنون مهما كان عددهم ، فكل امرىء بما كسب رهين .

٨٩ - (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) :

أى :أنه لا ينفع أحدا يوم القيامة ماله ولا بنوه إلا من جاء ربه حينئذ بقلب برىء من مرض الكفر والنفاق وغيرهما من سائر أمراض القلب ، وفيه تأكيد لكون استغفار إبراهيم لأبيه ، كان المراد منه أن يغفر له بعد توبته من كفره ، لامتناع طلب المغفرة له وهو كافر مصر على كفره، والقلب السليم كما قال سعيد بن المسيب : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن لأن الكافر والمنافق مريض،قال الله تعالى: «فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ »[1] وخص القلب بالذكر ، لأنه إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت ، وهذه أولى صفات يوم القيامة يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، فالناس فيه جردوا من مالهم وحولهم وطولهم،ونَجَاتُهُمْ هناك وعزهم بقلب خلى من الزيغ وفساد الاعتقاد ، نقى من الشرك والران .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٠

(وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا
لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ
إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

(أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ) : قُرِّبت وأُدنيت . (بُرِّزَتِ) : أُظهرت . (الْجَحِيمُ) : جهنم .

(لِلْغَاوِينَ) : للكافرين الذين ضلوا ، والغواية – بفتح الغين – : الضلال .

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا) : فرمى بعضهم على بعض فى الجحيم منكبين على وجوههم .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : زيغ عن الحق واضح . (كَرَّةً) : عودة ورجعة إلى الدنيا .

(صَدِيقٍ حَمِيمٍ) : حبيب قريب يهتم بهم ، من الاحتمام بمعنى : الاهتمام .

التفسير

٩٠ – (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

أى : قُرِّبَت الجنة من المتقين الذين اتقوا الكفر وسائر المعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم الذاهبون إليها ، وأما المؤمنون العصاة

الذين غلبت معاصيهم على طاعاتهم ، فإنها لا تقرب منهم إلا بعد عقابهم على معاصيهم ، ما لم يعف الله عنهم .

٩١ـ (وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ) :

أى : أظهرت وكشف عنها للذين ضلوا عن طريق الحق والإيمان بحيث يرونها ويبصرون أهوالها ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها ، المحشورون فيها ، ويوقنون بأنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا .

والتعبير فى جانب الجنة بالإزلاف الذى هو غاية التقريب للإيذان بقرب دخول المتقين إليها ، أما فى جانب النار فقد عبر بالإبراز للإيذان بأنها تبدو للغاوين ولو من بعيد ، تعجيلا بمساءتهم .

٩٢ ، ٩٣ـ (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ) :

أى : يقال لهم على سبيل التوبيخ : أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها من دون الله وتزعمون أنهم شفعاؤكم فى هذا الوقت ؟ .

(هَلْ يَنصُرُونَكُمْ) : بدفع ما تشاهدون من الجحيم وما فيها من العذاب الشديد وعظيم الأهوال (أَوْ يَنتَصِرُونَ) : بدفع ذلك عن أنفسهم .

أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئا ولا تدفع عن أنفسها فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون .

٩٤ـ (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) :

أى : ألقى الأصنام فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى (فالكبكبة) تكرير لكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم يكب مرة بعد أخرى حتى يستقر فى قعرها ، وضمير الجمع فى قوله : « كبكبوا » لما يعبدون من دون الله وهم الأصنام ، وأكد بالضمير المنفصل أعنى (هم) ، وكلا الضميرين للعقلاء ، واستعملا فى الأصنام تهكما ، والغاوون هم الذين عبدوها ، والتعبير عنهم بهذا العنوان دون (العابدون) تسجيل لوصف الغواية عليهم ، وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون

فى الكبكبة عنها ليشاهدوا سوء حالها وضعفها وهوانها وضعتها ، فيقطع رجاؤهم فى النجاة قبل دخول الجحيم ، وقيل : ضمير (فكبكبوا) للمشركين مطلقا ، والغاوون هم القادة المتَّبعون .

٩٥ - ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ :

المراد من جنود إبليس : من يساعدونه على إغواء البشر من شياطين الجن والإنس أى : ألقى فيها الأصنام والغاوون الذين عبدوها ، وجنود إبليس ألقى فيها هؤلاء أجمعون ليعذب كل منهم على جريرته ، أما الأصنام ، فإنها تشاركهم النار لاعقابا لها ، بل لبيان أنهم لا قدرة لهم على نفعهم ، كما لا قدرة لهم على إنقاذ أنفسهم .

٩٦ - ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ :

استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عما قبله ، كأنه قيل : كبكب الآلهة والغاوون - عبدتها - والشياطين الداعون لها فما الذى حدث بعد ذلك ؟

أى : قال الغاوون من العبدة يخاصمون آلهتهم ، ويلومون أنفسهم على عبادتها ، ويتحسرون على تقديسها حيث يجعلها الله أهلا للخطاب يومئذ ، وقال الزمخشرى : ويجوز أن يجرى ذلك التخاصم بين العصاة والشياطين .

٩٧ ، ٩٨ - ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(إنْ) فى قوله : « إن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ؛ والمعنى : والله إن شأننا أننا كنا فى دنيانا فى ضلال عن الحق واضح ، حين سوينا كم أيها الأصنام برب العالمين فى استحقاق العبادة ، مع أنكم أدنى مخلوقاته وأذلها ، يقولون ذلك تحسرا على مافاتهم من أسباب النجاة ، وبيانا لخطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق ، وقد أكدوا ذلك بالقسم ، واستعملوا فيه حرف التاء المفيدة للتعجب كما قاله بعض النحاة .

٩٩ - ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ :

بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم .

أى : وما أضلنا عن الحق إلا المجرمون من شياطين الجن والإنس الذين زينوا لنا عبادة الأصنام . فأنت تراهم فى هذا الاعتراف ينفون عن الأصنام إضلالهم ، ويحيلونه على المجرمين من الشياطين ، وذلك بعد أن اتضح لهم الحال فإن الأصنام لاتباشر إضلال عابديها .

١٠٠ ، ١٠١ ـ (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) :

أى : فما لنا شفعاء يشفعون لنا كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، ولا صديق قريب مشفق يهمّ لأمرنا كما نرى لهم أصدقاء لأنه لايتصادق فى الآخرة إلّا المؤمنون ، وأمّا أهل النار فبينهم التعادى والتباغض والمراد : تأسّفهم على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه أو صديق شفيق يهمه ذلك ، وقد تدرجوا فى التأسف لمزيد انحطاط حالهم حيث نفوا أولا أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا ثانيًا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلّصهم .

قال صاحب الكشاف : جمع (الشافع) لكثرة الشفعاء ، ووحد (الصديق) لقلته . اهـ

ويجوز أن يراد بالصديق الجمع فإنه يطلق عليه لأنه على زنة المصدر أو لأنه نكرة فى سياق النفى فتعمّ .

١٠٢ ـ (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لو مستعملة فى التمنى بدليل نصب قوله تعالى : (فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فى جوابها .

والمعنى : فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنكون من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبعثنا مثل ما نحن فيه من العذاب الذى لا ينفع فيه أحد ـ ليت لنا عودة إلى الدنيا مرة أخرى فنصحح خطأنا ونحطم أصنامنا ونعبد ربنا ونكون من المؤمنين به وحده ، فإذا كان البعث قربت لنا الجنة وشفع لنا الملائكة والأنبياء وكان إلى جوارنا الأصدقاء والأخلاء .

قال الزمخشرى : وما أحسن مارتب إبراهيم ـ عليه السلام ـ كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها

بأنها لاتضر ولاتبصر ولا تسمع ، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأبطله وأخرجه من أن يكون شبهةً ، فضلا عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة فى نفسه دونهم ، حتى تخلص منها إلى ذكر الله - عز وجل - فعظّم شأنه وعدّد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع مايرجى فى الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين - ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى الكرّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

١٠٣ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ)أى : فيا ذكر من نبأ إبراهيم-عليه السلام-ومحاجته لقومه وإقامة الحجج عليهم فى التوحيد (لآية) عظيمة ودلالة واضحة على خطأ عبادة الأصنام ، وبخاصة أهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم-عليه السلام-فعليهم أن يجتنبوا كل الاجتناب ما هم عليه من عبادتها خوف أن يحيق بهم هذا العذاب بحكم الاشتراك فيا يوجبه .

ويجوز أن يكون المعنى : إن فيا ذكر من نبأ إبراهيم-عليه السلام-على حقيقته من غير أن تسمعه يا محمد من أحد لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم-وهو صادق-نازل من عند الله تعالى موجب للإيمان .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى :وما كان أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم نبأ إبراهيم مؤمنين ، بل هم مصرون على ماهم عليه من الكفر والضلال ، وقيل :ضمير(أكثرهم)لقوم إبراهيم ،وليس بشىء .

١٠٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : لهو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكن يمهلهم رحمة بهم ليؤمن منهم أو من ذرياتهم من شاء الله إيمانه .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾)

قص الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما تقدم قصة موسى ، وقصة إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وفى هذه الآيات إخبار من الله ـ عز وجل ـ عن قصة عبده ورسوله نوح ـ عليه السلام ـ إلى أهل الأرض بعد أن عبدوا الأصنام ، وتكذيبهم لرسالته وعقابهم بالطوفان على هذا التكذيب .

والحكمة فى ذكر هذه القصص :

(١) تسلية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كانت شفقته على قومه سببا فى جهده وألمه بسبب كفرهم .

(٢) تخويف قومه بما وقع على الأمم السابقة من عذاب بسبب كفرهم وعصيانهم لأنبيائهم .

التفسير

١٠٥ ـ (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) :

قال صاحب المختار : القوم : الرجال دون النساء .

وقال زهير :

وما أدرى ولست إخال أدرى   أقومٌ آل حصن أم نساء

وقال تعالى : « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ »[(١)] ثم قال : « وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ » وربما دخل فيه النساء على سبيل التبع كما هنا ، لأن قوم كل نبى رجال ونساء ، والقوم يذكر ويؤنث لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث مثل الرهط والنفر والقوم ، قال تعالى : « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ »[(٢)] وقال هنا : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ) اهـ : من مختار الصحاح .

(١) سورة الحجرات ، من الآية : ١١ (٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٦٥

وتكذيب قوم نوح المرسلين باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التى لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار ، فمن كذب رسولاً فقد كذب الرسل ، ويجوز أن يراد بالمرسلين :نوح -عليه السلام- بجعل اللام للجنس، كما يقال : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبردة .

١٠٦ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) :

(إِذْ قَالَ لَهُمْ) : ظرف للتكذيب ،والمراد بأخوته لقومه أنه ابن أبيهم ،فهوشريكهم فى أخوة النسب ، وقيل :من قول العرب :يا أخا تميم يريدون واحدا منهم .

(أَلَا تَتَّقُونَ) : أى ألا تخافون الله - عز وجل - حيث تعبدون غيره .

١٠٧ - (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) :

أى : إنى رسول من الله إليكم ،صادق فيما أبلغكم عن الله من شريعة ، لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، وقيل :أمين فيما بينكم لأنهم عرفوا أمانته كما عرفت قريش أمانة محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة وكانت تلقبه بالصادق الأمين .

١٠٨ - (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى : اجعلوا أنفسكم فى وقاية من عذاب الله بطاعته ، وأطيعونى فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله ، وقدم الأمر بتقوى الله على الطاعة لأن التقوى سبب الطاعة .

١٠٩ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

وما أسألكم على ما أنا متصدٍّ له من الدعاء والنصح أجرا من مال أو سواه ، وما أجرى فى دعوتى لكم إلى الحق (إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) فهو سبحانه الذى يؤجرنى على ذلك تفضلا منه ، لاغيره .

١١٠ - (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى : وإذا كنت لا أسألكم على دعوتكم أجرا ، فذلك برهان على صدق ،فاتقوا الله وخافوه وامتثلوا أوامره ، وأطيعونى فيما بلغتكم عنه .

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثامن والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٦

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩ج - ١٩٨٤س - ٢٥٠٢٤

* ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي
بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات :

(الْأَرْذَلُونَ): جمع الأرذل : وهو الدُّون الخَسيس ، وقد يطلق على الردئ من كل شيء .

(لَوْ تَشْعُرُونَ) : لو تحسون . (نَذِيرٌ مُبِينٌ) : منذر مبين للحق .

التفسير

١١١ - (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) :

قال قوم نوح يردون دعوته : لا نؤمن لأجلك ولا نصدق بك وقد اتبعك هؤلاء السفلة الأخساء من الناس ، يقصدون أن الذين اتبعوه أدنى منهم جاهًا ونسبًا ومالا ، كأهل الحرف الدنيئة والصناعات الوضيعة ومن لا شأن له من الناس ، فلا يكونون أهلا لاجتماعهم بهم في شأن سبقوهم إليه ، ولا أسوة يقتدون بهم .

وهذا العذر الذى انتحلوه لكفرهم ، برهان على جهلهم وقلة عقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق ضآلة من اتبعه ، فإن الحق فى نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أم الأراذل ، على أن سبق الأسافل إليه برهان على أنهم هم الشرفاء العاقلون ، والذين يأبونه هم الأراذل الجاهلون ، فمن بَطَّأ به عمله لم يسرع به نسبُه .

وواقع الحياة والتاريخ شاهد على أن الضعفاء يسبقون إلى الحق لفقدان ما يشغلهم عنه ، وأن يتقاعس عنه الأغنياء وذوو الجاه لكبريائهم . وفى ذلك يقول الله تعالى :

«وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ»[1] والحق أن الفقر ليس من الرذالة فى شىء ؛ قال الشاعر :

قد يدرك المجدَ الفتى ورداؤه خَلَقٌ وجَيْبُ قميصه مرقوعُ

وخسة الصناعة مع تقوى الله ، لاتلحق بصاحبها نقصًا ، قال أبو العتاهية :

وليس على عبد تَقِىٍّ نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم[2]

ومثلها ضَعَةُ النسب فقد قيل :

أَبِى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولمَّا سأل هرقل أبا سفيان بن حرب قائلا : أأشراف الناس اتبعوا محمدًا أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هؤلاء هم أتباع الرسل ، ولما كان وصفهم لمن اتبعوا نوحًا بأنهم أرذلون ، فيه تعريض بأنهم لم يَتَّبعوه إخلاصًا له أو لدينه ، بل ليرفعوا خسَّتهم ، أو ليصيبوا بإيمانهم بعض المنافع ، فلهذا رد عليهم نوح بما حكاه الله بقوله :

١١٢ - (قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : ليس لى علم بما كانوا يعملون بإيمانهم ، وهل عملوه إخلاصًا أو طمعًا فى غرض دنيوى ، وأى شىء يُلزمنى بالبحث عن نية هؤلاء بإيمانهم ، فليست وظيفتى إلَّا اعتبار الظواهر ، وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم ،والشق عن قلوبهم، أما معرفة القلوب والحساب على ما انطوت عليه فهى لله تعالى ، كما قال سبحانه :

١١٣ - (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ) :

ما محاسبتهم على إيمانهم وأعمالهم ، وجزاؤهم عليها إلَّا على ربى ، فهو سبحانه المطلع على البواطن ، العليم بما تخفى الصدور ، المحاسب والمؤاخذ عليها ، لو كنتم من أهل الشعور والإدراك لعلمتم ذلك ، لكنكم لستم كذلك فقلتم ما قلتم .

---

(١) سورة الزخرف : ٢٣

(٢) حاك : معناه نسج ، ومصدره الحياكة ، وحجم لى : امتص الدم من العضو بعد حجمه بالمحجم لدفع الألم عنه ، والحجامة : حرفة الحجام .

١١٤ـ ﴿ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ :

ولست بطارد المؤمنين عنّى لضعفهم تطييبًا لنفوسكم ، وطمعًا فى إيمانكم ، وهو جواب عما أشعر به كلامهم من رغبتهم فى طردهم ، كشرط لإيمانهم به . وقيل : إنهم طلبوا منه طردهم فأجابهم بذلك ، ويشير إلى هذا ما جاء فى سورة هود على لسان نوح : « وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (٢٩ـ٣٠) . وقد فعل مثل ذلك رؤساء قريش مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله له : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ »[1] .

فهذا وذاك يدلان على أن شريعة السماء تحرص على المؤمنين ، ولو ضعف شأنهم بين قومهم .

١١٥ـ ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ :

فى هذه الآية الكريمة تحديد لوظيفة الرسول ، وهى كالتعليل لما قبلها ، أى : وما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصى ، سواء أكانوا من الأعزاء أم من الأذلاء ، فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لإرضاء الأغنياء ؟

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٢

(قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾)

المفردات :

(مِنَ الْمَرْجُومِينَ) : من المقتولين رجما بالحجارة . (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) : أى فاحكم بينى وبينهم حكما . (الْفُلْكِ) : بوزن القُفل، ويطلق على السفينة الواحدة ، وعلى السفن المتعددة بلفظ واحد، ويعرف المقصود بالقرائن ، قال تعالى فى الجمع : « وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ » أما هنا فهو للواحد، ولذا وُصِفَ بالمشحون، أى : المملوء، من شَحَن السفينة – كمنع – : ملأها ، كأشحنها . (الْعَزِيزُ) : الغالب الذى يَقهر ولَا يُقهَر .

التفسير

١١٦ – (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) :

طال مقام نوح – عليه السلام – بين قومه ، يدعوهم إلى الله تعالى – ليلا ونهارا وسرًّا وجهارًا ، وكلما كرر الدعوة لم يزدادوا إلَّا عنادًا وإصرارًا ، ثم لجئوا إلى التهديد ، وذلك ما حكاه الله فى هذه الآية .

ومعناها : قال قوم نوح : لئن لم ترجع يا نوح عن دعوتك إيانا إلى دينك لنرجمنك ، يقصدون تهديده بالقتل رجمًا بالحجارة ، ولما استحكم اليأس عند نوح من إيمانهم ، بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا يدعوهم ، دعا عليهم دعوة استجاب الله لها ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

١١٧، ١١٨ - (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لم يقصد نوح - عليه السلام - إخبار ربه - تعالى - بتكذيب قومه له ، لأنه يعلم أن ربه بهم عليم ، ولكنه يقصد الاعتذار عن دعائه على قومه ببيان سببه .

والمعنى : قال نوح بعد أن صبر على قومه دُهُورًا وهم يجادلون ولا يؤمنون - قال - : يارب إن قومى استمروا على تكذيبى فى دعوتى إياهم إلى الحق وأصروا على ذلك دهورًا ، فاحكم بينى وبينهم حكمًا يهلك به من جحد توحيدك وكذب رسولك ، ونجنى ومن آمن معى من العذاب الذى تنزله بهم ، وهذه حكاية إجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح.

١١٩، ١٢٠ - (فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) :

أى : فأنجينا نوحًا ومن آمن معه فى السفينة المملوءة بهم ، وبما لا بد منه من الطعام والشراب والحيوان ، وقد حمل فيها من كل زوجين اثنين ، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين على الكفر ، أو الباقين خارج السفينة لكفرهم .

١٢١ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

إن فيما ذكره القرآن من نبأ نوح وقومه لبرهانًا وحجة على قدرة الله وغضبه لمحارمه ، وعلى صدق الرسول فى نبوته ، حيث حكى عن نوح ما لا سبيل له إلى علمه سوى الوحى ، وما كان أكثر أمة نوح مؤمنين ، فلذلك أهلكهم وأنجى المؤمنين ، فلماذا لا يعتبر مشركو مكة بقصتهم ، ويرجعوا عن غيهم ، حذرًا من أن يبطش الرب الجبار بهم ، كما بطش بهؤلاء المشركين قبلهم .

١٢٢ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو الغالب على ما يريده ، القادر على استئصال أعداء دينه ، فكل شىء دونه مقهور مغلوب لقدرته ، وهو الرحيم المنعم بدقائق النعم ، الكثير الرحمة ، فلذا أخر العقوبة عنهم أحقابًا ودهورًا ، ولم يقطع الرزق عنهم مع قبح فعلهم .

(كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم
بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ
ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾)

المفردات :

(رِيعٍ):الريع ـ بالفتح والكسر ـ : مسيل الوادى ، وكلُّ مرتفع من الأرض ، والجبلُ (تَعْبَثُونَ):العبث ؛ ما لا فائدة له (مَصَانِعَ) : مآخذ المياه ونحوها ، وخشب يحبس الماء ويمسكه حينًا ، أو المبانى العظيمة من القصور والحصون ، أو القُرى ، قال الأصمعى : العرب تسمى القُرى مصانع ، (تَخْلُدُونَ) : تبقون وتدومون ، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد فهو خالد . (بَطَشْتُمْ):البطش ؛ الأخذ بشدة وعنف ، وفعله : بطش يبطش كضرب ونصر ، (جَبَّارِينَ) : عتاة قاهرين قساة القلوب . (أَنْعَامٍ) : جمع نَعَم ـ

- بفتح العين ، وقد تسكن - : الإبل والبقر والغنم ؛ ويكثر استعمالها فى الإبل خاصة ، (أَوَعَظْتَ): الوعظ : التذكير بما يلين القلوب . (خُلُقُ الْأَوَّلِينَ) أى : سجيتهم وطبيعتهم .

التفسير

١٢٣ - (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) :

لما قصَّ الله - سبحانه - على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - خبر نوح - عليه السلام - تسلية له عما يلقاه من قومه ، قصَّ عليه أيضًا نبأ هود - عليه السلام - مع قومه ، وزمانهم بعد قوم نوح - عليه السلام - كما جاء فى سورة الأعراف : (وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً)(١) . وقد كانوا أقوياء الأجساد شديدى البطش ، فى سعة من الأولاد والأموال والبساتين والأنهار والزروع والثمار والخيرات التى لا تحصى ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله - تعالى - وكان أمرهم مع هود - عليه السلام - ما قص الله فى هذه الآية وما بعدها .

والمعنى : كذبت قبيلة عاد جميع المرسلين ، فإن تكذيبهم لرسولهم هود - عليه السلام - يعتبر تكذيبًا لجميع الرسل ، لاتحاد دعوتهم فى أصولها وغاياتها ، وتأنيث الفعل هنا باعتبار أن المراد بعاد (القبيلة) وهو فى الأصل اسم لأبيهم الأقصى ، فأطلق عليهم .

١٢٤-١٢٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

يرى القارئ فى قصص نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب - يرى القارئ - فى هذه القصص الخمس أنها قد بدئت جميعًا بالأمر بالتقوى والطاعة ، وقول الرسول لقومه : إنه لا يسألهم أجرًا على تبليغه الرسالة إليهم ، وتصديرُها بذلك للتنبيه على أن الرسالات السماوية قائمة على الدعاء إلى تقوى الله ومعرفة الحق ، وطاعة الرسل فيما أمروا به أو نهوا عنه جلبًا للثواب ودفعًا للعقاب ، والتنبيه إلى أن الرسل لا يبتغون من وراء تبليغ رسالاتهم أجرًا وجاهًا ، وليعلم القارئ أن الرسل وإن اتفقوا على العقائد وأصول الشرائع ،

(١) من الآية ٦٩

فهذا لا يمنع من حدوث الاختلاف فى بعض فروعها كمًّا أو كيْفًا تبعًا لاختلاف العصور وأهلها .

١٢٨ - (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ) :

أتشيدون بكل مكان عال من أرضكم بناء شامخًا تتفاخرون به وتعبثون بإقامته دون أن تكونوا فى حاجة إليه ، أفلا فكرتم فى أخراكم فآمنتم بربكم وعملتم لمرضاته ، لأنكم إليه صائرون ، وعلى عقائدكم محاسبون .

١٢٩ - (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) :

المصانع : جمع مصنعة - بفتح النون وضمها - وهى كالحوض يجتمع فيها ماء المطر ، وهذا يؤذن بأنها فوق الأرض ، ولعلهم كانوا يتخذون السدود لحبس مياه المطر ، كما فعلت سبأ بإنشائها سد مأرب ، وتطلق المصانع أيضًا على مآجل الماء تحت الأرض[1] ، ولعله يشير إلى المعنى الأول للمصانع قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بَعْدَنا والمصانع

وفسرها بعض اللغويين بالقصور الشاهقة والحصون المنيعة ، ومنه قول الشاعر :

تركنا دورهم منهمْ قفاراً وهدمنا المصانع والبروجا

والمعنى على الوجهين : وتتخذون سدودًا لحبس المياه أوحصونًا منيعة وقصورًا مشيدة مؤملين الخلود فى الدنيا ، كأنكم لا تعرفون الموت ولا تحسُّون بسكان القبور ، والمقصود من ذمهم وتوبيخهم على الوجهين : اهتمامهم بدنياهم ، دون العمل لأخراهم ، فلو عملوا لهما جميعًا لما عيب عليهم ما صنعوه لدنياهم فى غير سرف ولا مَخِيلة .

١٣٠ - (وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) :

وإذا عاقبتم سواكم : أسرفتم فى البغى عليهم جبارين غاشمين ، تقتلون وتخربون بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العواقب ، وعن الحسن : تبادرون تعجيل العذاب لا تتثبَّتون متفكرين فى العواقب ، وقال ابن كثير : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت .

---

(١) وبه قال قتادة .

١٣١ ـ (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) :

فخافوا الله واتركوا هذه الأفعال ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه ؛ فإنه أنفع لكم .

١٣٢-١٣٤ ـ (وَاتَّقُوا الَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) .

أى : واحذروا غضب الله الذى بسط لكم يد إنعامه ، بالذى تعلمونه من أنواع النعماء وأصناف الآلاء ، أمدكم بالإبل والبقر والغنم ، وأمدكم بالبنين لتكثروابهم ، وليعاونوكم فى حفظ أنعامكم وتنميتها ، وليحملوا عنكم بعض أعبائكم ،وأمدكم ببساتين مثمرات ، وعيون بالماء جاريات .

قال الزمخشرى : بالغ فى تنبيههم على نعم الله ،حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم ، وبذلك أيقظهم من سِنَة غفلتهم عنها ، ونبههم إلى أنه تعالى كما قدر أن يتفضل عليهم بهذه النعم ، فهو قادر على الثواب والعقاب ، فعليهم أن يتقوه . انتهى بتصرف .

١٣٥ ـ (إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

إنى أخاف عليكم إن لم تقوموا بشكر هذه النعم عذاب يوم عظيم فى الدنيا والآخرة ، فإن كفران النعم موجب للعقاب بإزالتها أو تقليلها ، كما أن شكرها سبب فى زيادتها ، قال تعالى : « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ »[1] .

وهكذا دعاهم نبيهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، وبين لهم أنه كما قدر على أن يعطيهم هذه النعم متفضلا ، فهوقادر على سلبها عادلا ، وأنه بذلك تعرف قدرته على ثوابهم إن أحسنوا وعقابهم إن أساءوا ، ولم ينفعهم وعظه وتذكيره كما حكاه بقوله :

١٣٦ ـ (سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ) :

قالوا استخفافًا وعدم مبالاة بما يقول : سواء لدينا أبالغت فى وعظنا وتذكيرنا أم لم تكن من الواعظين ، فإنا لن نرعوى عما نحن عليه .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٧

ولم يقولوا : أوعظت أم لم تعظ – مع أنه أخصر – للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه ؛ لأن المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن من أهله ومباشريه أصلا .

١٣٧ ، ١٣٨ – (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

أى : ما هذا الذى جئتنا به إلا اختلاق الأولين وعادتهم ، إذ كانوا يلفقون مثله ويسطرونه كما قال مشركو مكة للنبى – صلى الله عليه وسلم – : « وَقَالُوٓا۟ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

أو ما هذا الذى نحن عليه إلا خلق الأولين – أى : دينهم وعادتهم – ونحن بهم مقتدون ، كما قال مثله غيرهم : « إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ »[1] فنحن تابعون لهم سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، وما نحن بمعذبين فلا بعث ولا جزاء .

١٣٩ – (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : فاستمروا على تكذيبهم وعنادهم ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية شديدة البرد ، فكان سَببُ إهلاكهم من جنس جبروتهم ، إن فى ذلك الذى أنزله الله بعاد جزاء تكذيبهم لبرهانًا على قدرة الله ، وما كان أكثر الذين تتلو عليهم ، يامحمد – نبأ عاد مؤمنين برسالتك مع قيام الحجة عليهم .

١٤٠ – (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك – أيها الرسول – لهو القاهر للجبارين ، الرحيم بالمؤمنين .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ
وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾)

المفردات :

(ثَمُودُ) : اسم عربي عند الأكثرين ، وعدم صرفه لأنه اسم قبيلة ، وهو فعول من الثَّمْد وهو الماء القليل . (طَلْعُهَا هَضِيمٌ) :الطلع : أول ما يبدو من ثمرة النخل ، كنصل السيف ، فى جوفه شماريخ القنو ، والهضيم : اللطيف اللين ، أو المنضم بعضه إلى بعض ،

سأل نافع بن الأزرق ابن عباس -رضى الله عنهما- عن معنى (هضيم) فقال: هو المنضم بعضه إلى بعض، فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول امرئ القيس:

دارٌ لبيضاء العوارض طَفْلَةٌ مهضومةُ الكَشْحيْن ريًّا المعْصَم

وقيل: المراد من الطلع الهضيم: الطَّيِّب اللين النضيج من الرطب. (تَنْحِتُونَ): النحت: البَرْىُ، أى يبرون الأحجار، والنُّحاتةُ: البُراية. (فَارِهِينَ): ماهرين حاذقين وفعله: فَرُهَ ككرُم، فراهة وفراهية، أما فَرِهَ بوزن فرح، فمعناه: أشر وبطر. (الْمُسَحَّرِينَ): السَّحْر - بسكون الحاء ويحرك -: الرئة، والسِّحر - بكسر السين -: كل ما لطف مأخذه ودقَّ، وفعله كمنع. (شِرْبٌ): الشرب - بالكسر -: الماء، والنصيب منه، والمورد، ووقت الشرب. (فَعَقَرُوهَا): فذبحوها، والعقر: الذبح والجرح، وعَقَر النخلة: قطع رأسها.

التفسير

١٤١-١٤٥ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ):

هذا إخبار من الله عن ثمود قوم صالح - عليه السلام - بأنهم كذبوا المرسلين بتكذيب نبيهم وأخيهم صالح حين دعاهم إلى تقوى الله فإن المرسلين جميعًا جاءوا برسالة موحدة، هى الدعوة إلى التوحيد والإيمان بيوم النشر، وتقوى الله، فمن كذب أحدهم فقد كذب سواه ضمنًا.

ومساكن ثمود بالحِجْر، بين وادى القرى وبلاد الشام، وقد مر النبى - صلى الله عليه وسلم - بها فى طريقه إلى غزوة تبوك.

والمعنى: كذبت قبيلة ثمود المرسلين بتكذيبهم نبيهم صالحًا، مع أنه أخوهم، ومن بينهم فهم يعرفون صدقه - كذبوه - حين قال لهم: ألا تتقون عقاب الله فتؤمنوا به إلهًا واحدًا لا رب سواه، إنى لكم رسول من الله أمين على رسالته، وأمين فى أمره كله،

فاتقوا الله وأطيعونى فى دعوتكم إلى الحق ، وما أطلب منكم على ذلك أجرًا وثوابًا ، فما أجرى إلّا على رب العالمين ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

١٤٦-١٤٩ـ (أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ . فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ) :

إنكار ونفى لأن يتركوا مخلدين فى نعيمهم لا يزالون عنه ، أو تذكير بالنقمة إذا تخلى الله عنهم ، فتقضى على ما يتنعمون به من الجنات وما هم فيه من الأمن والدعة .

والمعنى : أتظنون أن تتركوا فى دياركم هذه آمنين فى حدائق مثمرات ، وعيون جاريات بالماء الفرات ، وزروع يانعات ، ونخل ثمرها لين نضيج ، وتنحتون من الجبال بيوتًا حاذقين فى نحتها منها ، متفاخرين بها ، أتتركون فى ذلك آمنين من نقم الله ، وأنتم مقيمون على الكفر والمعاصى ؟ !

١٥٠ـ (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى : فأقبلوا على تقوى الله وطاعتى فيما آمركم به عن الله ؛ فإن ذلك هو الذى يعود نفعه عليكم فى دنياكم وأخراكم ، فبه تبقى النعم ، وتبعد النقم ، وتحسن العاقبة يوم يقوم الناس لرب العالمين .

١٥١ ، ١٥٢ـ (وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) :

ولا تطيعوا أمرزعمائكم الذين أسرفوا على أنفسهم بالترف واتباع الشهوات والإغراق فى الكفر والضلال ، الذين يعيثون فى الأرض فسادًا ، ولا يصلحون فى شئون البلاد والعباد .

١٥٣ـ (قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) :

قال قوم صالح ردًّا على وعظه ونصائحه : ما أنت إلّا من الذين سُحروا كثيرًا حتى غلب السحر على عقولهم ـ وبه قال مجاهد وقتادة . أو من المخلوقين الذين لهم سَحْر ، أى : رئة ، يَعْنُون أنه من بنى آدم مثلهم ولا فضل له عليهم ، وبه قال ابن عباس ، واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا مِمَّ نحن؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المُسَحَّر

١٥٤ - (مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

ما أنت إلّا إنسان تماثلنا فى البشرية ، فكيف أوحى إليك دوننا ، فَأْتِ بحجة على صدقك فيما تدعيه من الرسالة عن الله ، إن كنت فيما تدعيه من جملة الصادقين فيما يقولون .

١٥٥ - (قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

قال صالح لقومه حينما أعطاه الله الناقة معجزة له : هذه ناقة الله أخرجها لكم آية ، لها ماء يوم معلوم ، ولكم ماء يوم معلوم ، فإذا كان يوم مائها فلا تشركوها فيه ، وإذا كان يوم مائكم فلا تشرككم فيه .

وقد كانت تشرب الماء كله فى يومها أول النهار ، وتسقيهم من لبنها آخر النهار ، أما فى يومهم فكانت تترك الماء كله لأنفسهم ومواشيهم .

١٥٦ - (وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

ولا تلحقوا بها أذى ، فيهلككم عذاب يوم عظيم ، ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من وصف العذاب به .

وبعد هذا التحذير مكثت الناقة حينًا ترد الماء وتأكل من أوراق الشجر والعشب فى يومها ، وتمنحهم من لبنها ما يكفيهم شربًا وريًّا ، دون أن تعدو عليهم ، ومكثوا هم مقتصرين على شربهم فى يومهم ، فلما طال عليهم الأمد ، ضاقوا بمنعهم عن الماء فى يومها ، فتمالئوا على عقرها .

١٥٧ - (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) :

فذبحوا الناقة مخالفين بذلك ما اتفقوا عليه مع صالح - عليه السلام - فأصبحوا على ما فعلوا نادمين خوفًا من حلول العذاب بهم ، لا توبة من ذنبهم ، أو توبة منه عند معاينتهم لمبادئ العذاب ، حيث لا ينفع المتاب .

١٥٨ - (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

فأهلكهم العذاب الذى كان نبيهم صالح قد توعدهم به إذا مسوها بسوء ، إن فى قصتهم لدلالة على قدرة الله على إهلاك الكافرين المعاندين لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وما كان أكثر ثمود مؤمنين .

قال البيضاوى : وفى ذلك إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب : اهـ.

١٥٩ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو الغالب فلا يستطيع الفكاك من عقابه الجبارون ، الرحيم فلا ييئس من رحمته التائبون .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾
وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾)

المفردات :

(عَادُونَ) : جمع عادٍ ، وهو المتعدى فى ظلمه بتجاوز الحد فيه .

(الْقَالِينَ) : جمع قَالٍ ، من قلاه ، كَرَمَاهُ ، أو من قَلِيَه ، كَرَضِيَهُ ، قِلًى وقَلاءً :

أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه ، أو قلاه فى الهجر ، وقَلِيَهُ فى البغض .

(الْغَابِرِينَ) : الباقين ، من غبر بالمكان ، غبورًا : أقام به ، وقد يستعمل الغبور بمعنى المضى والذهاب ، فهى فى الشىء وضده . (دَمَّرْنَا) : الدمور والدمار والتدمير : الإهلاك .

التفسير

١٦٠-١٦٤- (كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

لما قص الله تعالى على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – خبر موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح – عليهم السلام – تسلية له عما يلقاه من عنت قومه ، قص عليه نبأ لوط مع قومه وتكذيبهم له وإيذائهم إياه ، ولقد كان قوم لوط من الشر بمكان خطير ، كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، ولا يستحون أن يأتوا فى ناديهم هذا المنكر القبيح ، وقد نصحهم لوط فأمرهم بتقوى الله وطاعته ، وبين لهم قولا وعملا أنه لا يسألهم على تلك النصائح أجرًا ، وإنما يبتغى الأجر من رب العالمين ، وقد سبق الكلام على مثل هذه الآيات فى القصص السابقة .

١٦٥ – (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) :

قال لوط لقومه على سبيل التوبيخ والإنكار : أتأتون الفاحشة مع الذكران من بنى آدم ، فلا حياء عندكم يمنعكم عن قريب أو غريب ، كأن النساء أعوزتكم ؟ !

١٦٦ – (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ) :

وتتركون ما خلق الله لاستمتاعكم من أزواجكم الحلائل ، قال الزمخشرى :

(مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) تبيين لما خلق الله ، أو للتبعيض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منهن ، فكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم .

(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) : بل أنتم قوم معتدون مجاوزون الحد فى جميع المعاصى ، وهذا من أفحشها ، أو متجاوزون حد الشهوة ، فزدتم فيها على سائر الناس وعلى الحيوان .

١٦٧ - (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) :

قالوا : لئن لم تنته يا لوط عن توبيخنا وتقبيح أمرنا ، أو عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوتنا إلى الإيمان بها ، وتترك ما أنكرته من أمرنا ، لتكونن من جملة من أخرجناهم من بين أظهرنا وطردناهم من بلدنا ونفيناهم ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال ، من تعنيف واحتباس مال ، وغير ذلك مما يفعله الظالمون إذا نفوا بعض من يغضبون عليهم ، كما كان أهل مكة يفعلون بمن يريد الهجرة إلى المدينة .

١٦٨ - (قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) :

قال لوط - عليه السلام - مخاطباً قومه : إنى لعملكم هذا من المبغضين غاية البغض ، ولم يقل : إنى لعملكم قالٍ بالإفراد ، للإيذان بأنه كان يوجد من كرام الناس من يبغض حالهم ، ثم أعرض عنهم بعد أن بالغ فى نهيهم ولجأ إلى الله تعالى قائلا :

١٦٩ - (رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ) :

دعا لوط ربه أن ينقذه وأهله مما يعمل هؤلاء الجاهلون - : أى من عقوبة أعمالهم - وشؤمها .

١٧٠ ، ١٧١ - (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ) :

فاستجاب الله دعاءه ونجاه وأهله الذين اتبعوا دعوته بإخراجهم من بيوتهم ليلا قبل حلول العذاب بالمكذبين ، إلا عجوزاً هى امرأة لوط كانت فى الغابرين ، أى : مقدراً كونها فى الباقين فى العذاب ، لأنها كانت كافرة بربها ، منافقة لزوجها ، والتعبير عنها بالعجوز ، للإشارة إلى أنها بقيت فى الكفر إلى أن صارت عجوزاً .

١٧٢ - (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ) : أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

١٧٣ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) :

أى وأنزل الله على شرار قوم لوط مطراً من الحجارة فأهلكتهم ، وفى ذلك يقول الله

فى سورة هود: « فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ . . . »[1] .

« فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ » مَطَرُهُمْ ، إذ نزل بأشد أنواع الهلاك والدمار ، ولا شك أنهم جديرون بذلك ، فقد ابتدعوا عادة مستهجنة تهبط بالرجولة إلى الحضيض وتصيب ذويها بأمراض جسمية ونفسية وخلقية ، من تخنث وميوعة ، وتخالف ناموس الحياة الذى شرعه الله للتوالد والتكاثر .

وعقاب اللياط فى الشريعة الإسلامية القتل ، والخلاف إنما هو فى طريقته ، ومن عجب أن بعض الأمم التى تدعى الحضارة فى البلاد الأوربية اعترفت بالشذوذ الجنسى (اللياط) رسميا ، ولايستحون من إتيانه سرا وعلانية .

١٧٤ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

إن فى ذلك العقاب الذى نزل بقوم لوط لدليلا على تمام قدرة الله ، وماكان أكثر هذه الأمة مؤمنين ، فلذلك لحق بهم مالحق .

١٧٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو الغالب على كل شىء المتصف بالرحمة ، فيعاقب المجرمين المصرين ، ويثيب التائبين المصلحين .

(كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾)

---

(١) الآيتان : ٨٢ ، ٨٣

التفسير

١٧٦ - (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) :

الأَيكة : الغيضة التى تنبت ناعم الشجر ، وهى غيضة بقرب مَدْيَنَ ، يسكنها طائفة من المشركين ، بعث الله لهم شعيبًا - عليه السلام - وكان أجنبيًّا منهم ، ولذا قيل : « إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ » ولم يقل : أخوهم . وقد أُهلكوا بعذاب يوم الظلة ، وأُهلك أهل مدين بالصيحة والرجفة .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصحاب الأَيكة هم أهل مدين ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا : (أخوهم شعيب) ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأَيكة - وكانت شجرًا ملتفًّا -[1]

وقيل : شجرة معينة منها - فقطع نسب الأخوة بينهم وبينه للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبًا . وهذا هو الصحيح ، فقد وصفوا بتطفيف الكيل والميزان الذى وصف به أهل مدين ، ونهوا عن ذلك ، مما يدل على أنهم جميعًا أمة واحدة . وذلك كقوله تعالى فى سورة هود : « يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » الآية ٨٥

١٧٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ) : ألا تخافون عاقبة ما تفعلون من كفر وتطفيف ، وعلّل أمرهم بالتقوى بقوله :

١٧٨ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) :

إنى مرسل لهدايتكم وإرشادكم ، أمين على رسالة ربى إليكم .

١٧٩ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) : فاحذروا عقوبة الله وأطيعونى باتباع أوامر الله والبعد عما يغضبه .

١٨٠ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

وما أطلب على تبليغ الرسالة لكم أجرًا ، فما أجرى إلّا على رب العالمين .

---

(١) من السدر والأراك ونحوها .

* (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾)

المفردات :

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) : أى من الذين ينقصون الكيل والوزن . يقال : أخسر الميزان إخسارًا : نقص الوزن ، وخَسَره خسْرًا من باب ضرب لغة فيه .

(بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى الميزان السوى ، والقُسطاس -بضم القاف وكسرها- : الميزان . قيل : هو عربى مأخوذ من القِسْط وهو العدل ، وقيل : هو رومى معرب .

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) : أى ولا تنقصوها ، أو : ولا تعيبوها . يقال : بخسه بخسًا من باب نفع : نقصه أو عابه .

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى وَلَا تفسدوا فيها مبالغين فى الإفساد ، والعُثُوّ : الإفساد أو أشده ، ويقال : عثا يعثو -من باب قال يقول- وَعَثِيَ يعثَى -من باب تَعبَ يَتْعَبُ- أى : أفسد ، فهو عاثٍ .

(خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) : أى أوجدكم وأوجد الخليقة من الناس السابقين لهم .

التفسير

١٨١ ، ١٨٢ - (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) :

نزلت هذه الآية وما بعدها حكاية لما وجهه نبي الله شعيب إلى قومه أصحاب الأيكة وهم أهل مدين على الصحيح - من الأمر بإيفاء المكيال والميزان والنهى عن التطفيف فيهما - كما مر بيانه كان قد شاع فيهم وانتشر بينهم سوء المعاملة فى الأخذ والإعطاء ، فكانوا إذا اكتالوا من الناس للشراء ونحوه يأخذون مكيلهم وافيًا وافرًا، وإذا اكتالوا لهم للبيع ونحوه ينقصون مكيلهم ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة : « أَوْفُوا الْكَيْلَ . . . » : أى إذا دفعتم إلى الناس الكيل فأتموا الكيل لهم ولا تعطوه ناقصًا لأنكم ملزمون أن تعطوه كما تأخذون كاملًا وافيًا بلا تفرقة بين الأخذ والإعطاء إحقاقا لشريعة العدل التى شرعها الله فى المعاملة بين عباده .

والكيل للناس إما واف وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهى عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، وتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن .

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى يجب عليكم التزام العدل فى الموزونات أخذا وإعطاء ، وذلك بأن تزنوا بالميزان السوى حيث لا حيف فيه ولا ظلم .

والأمر بوفاء الوزن وإتمامه يشير ضمنًا إلى النهى عن النقص فيه دون النهى عن الزيادة ، ولم يذكر النهى هنا اكتفاء بذكره صريحًا فى الآية السابقة ، لاتحاد الغرض فى المأمور به هنا والمنهى عنه فى الآية السابقة ، وهو الأمانة فى الكيل والميزان ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : أن معنى « وَزِنُوا . . . » الآية وعدلوا أموركم كلها بميزان العدل الذى جعله الله تعالى لعباده ، ويدخل فيه طلب العدل فى الميزان المعروف دخولًا أوليا حتى يستقيم أمرهم .

١٨٣ - (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

أى ولا تنقصوا الناس شيئا من حقوقهم ، أى حق كان ، كبر أو صغر ، هان أو عظم ،

وهذا تعميم بعد تخصيص لبعض المراد بالذكر فى الآيتين السابقتين لغاية انهماكهم فيه واقترافهم لمساوئه بيعا وشراء ليكمل لهم بهذا التعميم فى النهى البعد عن شريعة الله التى شرعها لهم فى كل شأن من شئونهم .

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى ولا تبالغوا فى الإفساد فيها بقطع الطريق والقتل والسلب ، وإهلاك الزرع ، وكانوا يفعلون ذلك ، فنهوا عنه بالتنصيص رَدْعا لهم ، وتقبيحًا لصنيعهم السوء الذى ينفر منه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

١٨٤ - (وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) :

يخوفهم شعيب - عليه السلام - بأس الله - تعالى - الذى أوجدهم ، أوجد الجبلة : أى الخليقة الأولين ، ويراد بها العدد الكثير من الأمم الماضية فى الأزمان المتعاقبة كما يشير إلى ذلك قوله - سبحانه وتعالى - : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً »[1] .

والمعنى : اتقوا الله - سبحانه - فهو بعظيم قدرته وواسع سلطانه أوجدكم من عدم ، وأوجد أممًا تقدمت عليكم كثيرة العدد ، ومع ما هم عليه من كثرة وعُتُوّ لم يعجزوه جل شأنه بل أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وفى ذلك الدليل الساطع على تفرده بالألوهية والدافع القوى على عبادته وتقواه ، وهو سبحانه عزيز ذو انتقام ممن استحب العمى على الهدى ، واستمرأ الضلال ، واستهواه الإعراض والتكذيب لدعوة الأنبياء والمرسلين .

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة يس .

(قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾)

المفردات :

(قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) : الذين سحروا كثيراً حتى غلب السحر عليهم ، أو من البشر الذين لهم سَحْرٌ ، والسَّحْرُ : الحلقوم والرئة ، وسحر بهذا المعنى على وزن فَلْسٍ وسببٍ ، وقُفْلٍ .

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ) : أى قطعا من السحاب ، وقرئ : « كِسْفا » - بسكون السين - ومع فتح السين وسكونها فهى جمع كِسْفة ، كقِطْعة ، وقال الأخفش : من قرأ كِسْفا - بسكون السين - جعله واحدا ، ومن قرأ كِسَفا - بفتحها - جعله جمعا .

(عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) : الظلة سحابة بَدَت لهم أرادوا أن يستظلوا بها ، فكانت عذابا لهم ، وسيجىء شرح ذلك .

التفسير

١٨٥ ، ١٨٦ - (قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) :

أجابوا بذلك شعيبًا - عليه السلام - مبالغين فى تكذيبه ، حيث جمعوا له بين غلبة

السحر على عقله حتى اضطرب ، وهو مناف للرسالة ، وبين البشرية التى يرونها منافية لها كذلك ، للإيذان بأن اجتماعهما ينافى الرسالة أشد المنافاة . (وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) أى : وإن شأنك يجعلنا نظنك من الكاذبين فيما تدعيه ، ومرادهم أنه – عليه السلام ، وحاشاه – من الراسخين فى الكذب المعتادين له ، فلا يصدقونه فى دعوى الرسالة ، أو فيها وفى دعوى نزول العذاب بهم الذى يشعر به الأمر بالتقوى فى قوله – سبحانه – فيما سبق : « وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ . . . » الآية . فإنه يأمرهم بأن يقوا أنفسهم من عذابه .

وظاهر حالهم أنهم أرادوا من ظنهم كذبه فى قولهم : « وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » الجزم بوقوعه منه ، لأنه أصبح له عادة وطبيعة فى زعمهم ، ولهذا أكدوا الظن بلام التأكيد فى قولهم : « لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » . واستعمال الظن بمعنى اليقين والعلم لغوى وقد جاء به القرآن فى مواطن ، كقوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[1] .

١٨٧ – (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

حكى الله فى الآية السابقة اتهامهم لشعيب – عليه السلام – بالكذب حسبما تخيلته نفوسهم المريضة ، وجاءت هذه الآية تحكى ما بنوه على هذا الاتهام الكاذب .

والمعنى : إن كنت صادقًا فى أنك نبى ، فادع الله أن ينزل علينا قطعًا من السحاب وأجزاء منه عقابًا لنا على تكذيبك . قال السدى : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى : عذابًا واقعًا عليهم من جهة السماء ، وهذا شبيه بما قالته قريش للنبى – صلى الله عليه وسلم –: « وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا » إلى أن قالوا : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا »[2] ، وقولهم : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[3].

ومن هنا يتضح أن جواب المكذبين لرسلهم متقارب فى المعنى .

(١) سورة البقرة من الآية ٢٤٩

(٢) ٩٠ ، ٩١ من سورة الإسراء .

(٣) الآية : ٣٢ من سورة الأنفال .

١٨٨ - (قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

تهديد لهم بتفويضه أمرهم إلى الله ، أى قال لهم : ربى أعلم بكم ، وبما تقترفون من الكفر والمعاصى ، وبما تسرون وتعلنون من قول وعمل ، وبما تستحقون من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لامحالة ، أما أنا فرسول ، وليس لى أمر العذاب الذى طلبتم أن ينزل بكم .

١٨٩ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى فلما أقاموا على تكذيب نبيهم شعيب - عليه السلام - وأصروا على هذا التكذيب مرة بعد مرة جعل الله عقابهم من جنس ما اقترحوه بإسقاط الكسف من السماء عليهم .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما عن ابن عباس أن الله - تعالى - بعث عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم فخرجوا منها هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس - وهى الظلة - فوجدوا لها بردًا ولذة ؛ فنادى بعضهم بعضًا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم نارًا فأكلتهم جميعًا .

وكان هذا اليوم من أشد أيام الدنيا عذابا لما وقع فيه من الهول المذهل ، والداهية التامة التى لايقادَرُ قدرها ، وفى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفس الظلة إيذان بأن لهم عذاباً آخر غير عذاب الظلة ، ترك بيانه تهويلًا لشأنه .

١٩٠ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى إن فى هذه القصة وما سبقها من قصص الأنبياء السابقين لعظة وعبرة لمن له قلب واع ، وفكر مستنير ، وما كان أكثر قريش مؤمنين .

وقصة شعيب - عليه السلام - مع قومه هى آخر القصص السبع التى أوحيت للرسول - صلى الله عليه وسلم - لصرفه عن الحرص البالغ على إسلام قريش ، وقطع رجائه بشأنه لإعراضهم عن الحق واستمساكهم بالباطل ، وإلى ذلك يشير مضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة : « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » . فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته - تعالى - بموجب رحمته الواسعة يدعوهم إلى ترك العناد

بعدما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة ، وفيها من الدواعى إلى الإيمان ، والزواجر عن الكفر والطغيان ما يصرفهم عما هم عليه ، ولكنهم أعرضوا عن التأمل فيها واستمروا على تكذيبهم : « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » كأنهم لم يسمعوا شيئًا منها يردعهم عن ذلك أصلا ويحبب إليهم الإيمان بمحمد — صلى الله عليه وسلم — ويزينه فى قلوبهم ، ومن كان أمرهم على ذلك فلا تبالغ فى الحرص على إيمانهم .

وقيل : المراد بالضمير فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » قوم شعيب — عليه السلام — نُقل أنه لم يؤمن به سوى تسعمائة نفر ، ذكر ذلك القرطبى فى تفسيره ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٩١ — (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

فهو — سبحانه — العزيز فى انتقامه من الكفار ، الرحيم فى ثوابه بعباده المؤمنين .

(وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾)

المفردات :

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) : هو جبريل — عليه السلام — فإنه أمين وحيه — تعالى — إلى أنبيائه . (عَلَىٰ قَلْبِكَ) : لتحفظه . (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) : أى بلغة عربية واضحة المعنى ظاهرة المدلول . (لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) : والزُّبُر : جمع زَبُور ، كرسول ، وهو الكتاب ، والمعنى : أن ذكره ثابت فى جميع الكتب السماوية .

التفسير

١٩٢ — ١٩٥ — (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) :

فى هذه الآيات تنويه بالقرآن العظيم الذى تقدم ذكره أول السورة ، وَرَدٌّ لما قاله المشركون فيه .

أى : وإن هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه منزل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين جبريل – عليه السلام – .

نزل به (عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) : أى يتلوه الروح الأمين على سمعك فيعيه قلبك حفظًا ، وفهمًا ، وثباتًا ، لتكون به من جملة الرسل الذين ينذرون قومهم ، فهو حجتك وآيتك ، وقد نزل به بلسان عربى واضح ، ليقطع أعذار قومك ويلزمهم الحجة ، ويحملهم على المحجة[1] .

ولو نزل بلسان أعجمى لتجافوا عنه ، ولقالوا : ما نصنع بما لم نفهمه ، ولم ندرك كنهه ، ولتعذر عليك الإنذار ، حيث يكون بذلك نازلًا على سمعك لا على قلبك ، فتسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ، ولا تعى مراميها .

وفى حكاية القرآن الكريم لهذه القصص التى لا سبيل لنبى أمى لم يقرأ ولم يكتب أن يعلمها ، دليل واضح على صدق نبوته – صلى الله عليه وسلم – فلا سبيل له إلى علمها إلا الوحى الذى نزل به الروح الأمين .

وقد سجل الله هذا المعنى فى قوله – تعالى – : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »[2] .

١٩٦ – (وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) :

أى : وإن القرآن الكريم لمذكورٌ فى كتب الأنبياء السابقين ، وقيل معناه : إنه لفى الكتب المتقدمة باعتبار العقائد والأحكام ؛ فإن التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات ، وكثيرًا من المواعظ والقصص والأحكام والأخلاق مسطور فى الكتب السابقة .

---

(١) أى : الطريق .

(٢) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

أو : وإنَّ محمداً – صلى الله عليه وسلم – لم تخل من ذكره كتب الأولين كما قال – تعالى – : « الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ »[1] ، وفى قوله – تعالى – : « يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ »[2] .

(أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً) : الآية: العلامة الواضحة .

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) : جمع أعجم أى : على رجل لا يفصح ولا يبين ، وإن كان عربيًّا ، وقرأ الحسن (على بعض الأعجميين): جمع أعجمىٌّ بياء النسب ، والأعجم والأعجمى : غير الفصيح وإن كان عربيًّا ، والعجمى ما كان من جنس العجم وإن كان فصيحًا ، وأجاز الفراء أن يقال : رجل عجمىٌّ بمعنى أعجمىّ[3] .

(كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) : أدخلنا القرآن فى قلوب مشركى مكة

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦ من سورة الصف .

(٣) انظر القرطبى .

إدخالاً مثل ذلك فى التكذيب عنادا ومكابرة ، والفعل من باب نصر ، والسَّلْكُ : إدخال الشىء فى الشىء .

(هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) : أى مؤخرون وممهلون ؟ يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون .

التفسير

١٩٧ - (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) :

الهمزة للإنكار والنفى ، كأنه قيل : أغفلوا ولم يكن لهم علامة على صدق القرآن أن يعرفه علماء بنى إسرائيل بنعوته فى كتبهم المذكورة فذلك آية واضحة على أنه تنزيل رب العالمين ، وإلى علم علماء بنى إسرائيل به يشير قوله - تعالى - : « وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ »[1] والمراد من علماء بنى إسرائيل : العدول منهم ، وهم من أسلموا ، قال مجاهد : يعنى عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما ممن ، ذكره القرطبى ، وذلك أن جماعة منهم أسلموا ، ونصوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وهذا يقتضى أن الآية مدنية ، وعن قتادة أن الضمير فى (أَن يَعْلَمَهُ) للنبى - صلى الله عليه وسلم - وذكر الثعالبى عن ابن عباس أن أحبار يثرب ، بعث إليهم أهل مكة يسألونهم عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : هذا زمانه ، وذكروا المواضع التى ذكر فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى التوراة ، وهذا ما يقتضيه كون السورة كلها مكية .

١٩٨ ، ١٩٩ - (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) :

أخبر الله عن شدة كفر قريش ، وقوة شكيمتهم فى المكابرة ، وعنادهم للقرآن العظيم . فقال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ . . . » الآية .

أى : نحن نزلنا القرآن على رجل عربى مبين ، ففهموه وعرفوا فصاحته ، وأنه معجز ، وانضم إلى هذا شهادة علماء بنى إسرائيل على أن كتبهم ذكرت صفته وقصصه ، وصح

---

(١) القصص ، الآية : ٥٣

بذلك أن قصص الأنبياء فى القرآن من عند الله ، وليست بأساطير كما زعموا ، ومع هذا لم يؤمنوا به ، وقالوا : إنه سحر أو شعر ومن افتراء محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ولو نزلناه عربيا على أعجمى لا يعرف العربية ، ونطق به نصيحًا ، ما آمنوا بأن هذا القرآن من عند الله مع أن هذا الأعجمى لا يتوهم أحد أنه يستطيع الإتيان بمثله ، ولا قراءته بفصاحته ؛ لأنهم قوم معاندون يتمسكون بدين آبائهم ، ويقتفون أثرهم كما قال تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »[1] .

وقد وصف الله عنادهم بقوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ »[2] .

٢٠٠-٢٠٣ - (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) :

المراد من المجرمين : مشركو مكة ، وقد يراد من المجرمين : جنس المجرمين . فيدخل فيه مشركو مكة دخولًا أوليا .

والمعنى : مثل هذه الحال من الإصرار على التكذيب والكفر بالقرآن سلكنا القرآن وأدخلناه فى قلوب المجرمين ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحود ومكابرة كما قال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ »[3] ، وقوله سبحانه وتعالى : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى : لا يزالون على الكفر حتى يبصروا العذاب الشديد الملجىء إلى الإيمان به .

أو المراد : أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ، ففهموا معانيه ، وعرفوا فصاحته ، وأنه خارج عن قدرة البشر من حيث النظم المعجز ، والإخبار عن الغيب ، واتفاق علماء بنى إسرائيل على أن كتبهم المنزلة قبله تضمنت البشارة بإنزاله ، ورسالة من أنزل عليه بذكر أوصافه.

---

(١) من الآية ٢٣ سورة الزخرف . (٢) سورة الحجر : ١٤-١٥
(٣) الآية ٧ سورة الأنعام .

أدخلنا القرآن مثل ذلك الإدخال ، لكنهم لم يؤمنوا به ، فقوله تعالى : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » على هذا الرأى استئناف مسوق لبيان حالهم من أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به ، بل يستمرون على ما هم عليه حتى يعاينوا العذاب المكره لهم على الإيمان فجأة من غير توقع وانتظار وهم لا يشعرون بإتيانه .

وقرئ : فتأتيهم بالتاء ، والمراد : فتأتيهم الساعة ، وأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها عليهم ، ولكثرة ما فى القرآن من ذكرها .

وقال رجل للحسن وقد قرأ (فتأتيهم) : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب فانتهره وقال : إنما الساعة تأتيهم بغتة . ا هـ من تفسير القرطبى وغيره .

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) : أى فيتمنون حين يرون العذاب ، التأخير والإمهال ليعملوا بطاعة الله تداركًا لما فاتهم تفريطًا وإهمالًا فلا يجابون إلى ما أملوه مما يملأ نفوسهم حسرة وحزنًا ، كما قال الله تعالى : « وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ »(١) .

وهذه الآيات تصوير وتمثيل لحال مشركى مكة الذين ماتوا على الكفر قبل فتح مكة سنة ثمان من الهجرة .

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾
ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ
وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾)

(١) آية ٤٤ من سورة إبراهيم .

المفردات :

(إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) : أى إن أخرناهم سنين وجعلناهم ينتفعون بالمتاع ، ويطلق على كل ما ينتفع به من مأكل ومشرب وأثاث ونحوها . (مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) : من العذاب ، والوعد: مع المفعول يستعمل فى الخير وفى الشر ، فإذا أسقطوا المفعول وهو الخير والشر قالوا فى الخير: الوعد والعدة ، وفى الشر: الإيعاد والوعيد ، فإذا جاءوا بالباء فى الشر جاءوا بالهمز فقالوا : أوعده بالسجن . ا هـ : مختار الصحاح بتصرف .

(إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ) : أى مخوفون من العقاب .

(وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) : أى واضعين الشىء فى غير موضعه حينما أنزلنا بهم العذاب .

التفسير

٢٠٤-٢٠٧ - (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) :

الآيات توبيخ للمشركين وإنكار عليهم فى قولهم للرسول تكذيبًا واستبعادًا : « فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] ، وقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »[2] .

قال مقاتل : قال المشركون للنبى – صلى الله عليه وسلم – : يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب فنزلت هذه الآيات .

ومعناها : كيف يستعجلون عذابنا تكذيبًا به ، واستبعادًا لوقوعه ، وهو لاحق بهم لا محالة لكفرهم مهما طال عليهم الأمد ، أخبرنى – أيها العاقل – عن هؤلاء المكذبين إن متعناهم سنين متطاولة بمختلف أنواع المتع الدنيوية التى أملوها ، فطالت أعمارهم ، وصحت أبدانهم ، وكثرت أموالهم وأولادهم ، وتحققت كل رغباتهم ، ثم أتاهم الذى كانوا يوعدونه من العذاب ، فأى شىء أغنى عنهم ما كانوا فيه من متاع الدنيا؟ إنه لا يغنى عنهم شيئًا فى دفع العذاب أو تخفيفه ، وإنما هم فى العذاب خالدون . وفى هذه الآية : « مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

(٢) من الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

روى عن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن - رضى الله عنه - فى الطواف. وكان يتمنى لقاءه ، فقال له : عظنى ، فلم يزد على تلاوة هذه الآيات ، فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت.

٢٠٨، ٢٠٩ - (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ . ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

أى : وما أنزلنا الهلاك بقرية من القرى إلا بعد أن بعثنا إليها رسلًا منذرين أنذروا أهلها بالعقاب إن خالفوا أوامر الله ونواهيه ، حتى لا تكون لهم على الله حجة (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) : ولسنا مجاوزين الحق فى الجزاء ، فنهلك غير الظالمين ، لأنه ليس من شأننا أن يصدر عنا بمقتضى الحكمة ما هو ظلم بأن نعاقب من لم يظلم أو بأن نعذب أحدًا قبل إنذاره ، كما قال تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا »[1] .

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾)

المفردات :

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) : أى لم تتنزل الشياطين بالقرآن الكريم ، والشياطين : جمع شيطان ، من : شاط بمعنى احترق أو من : شَطَنَ بمعنى بَعُدَ .

(وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ) : أى أن التنزل بالقرآن لا يصح أن يكون من شأنهم .

(لَمَعْزُولُونَ) : أى لممنوعون عن السمع .

التفسير

٢١٠ - ٢١٣ - (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ . فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) :

(١) من الآية ١٥ من سورة الإسراء .

ردٌّ لما زعمه كفار قريش أن لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ تابعًا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة ، وأن القرآن مما ألقاه إليه التابع ، أى : لم يحدث ما زعمتموه من نزول الشياطين بالقرآن ، لما أشار إليه قوله سبحانه : (وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) : أى ما يصح ولا يليق أن يحملوه وينزلوا به ؛ لأن من سجاياهم الإفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الإصلاح وهداية العباد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو نور وهدى للعالمين ، فبينه وبين الشياطين منافاة بينة ، ولهذا حيل بينهم وبين السماء حال نزول القرآن على الرسول ، فقد ملئت حرسا شديدا وشهبا ، فكيف يستطيع أحد أن يخلص إلى استماع حرف منه ؟ إنهم منعوا من ذلك ؛ رحمة بعباده ، وحفظًا لشرعه ، وصيانة لقرآنه من تخليط الشياطين وإضلالهم ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه : (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) فى هذه الآية تعليل لنفى تنزلهم بالقرآن ، أى : أن الشياطين عن السمع لما يتكلم به الملائكة فى السماء لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا مُمَكَّنِينَ منه ، كما قال تعالى مخبرًا عن الجن: « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا »[1] .

أو : إنهم عن السمع لمعزولون لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة ، حيث إن ذوات الملائكة نورانية ، وصفاتهم خيِّرة ، ونفوس الشياطين خبيثة ظلمانية ، وصفاتهم شريرة ، غير مستعدة إلا لقبول ما لا خير فيه ، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن المنطوى على الخير والهدى والرشاد ؟ فلهذا صان الله كتابه ، فأنزله بالروح الأمين على قلب رسوله الأمين ، ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، وحرمه من الشياطين .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) : خوطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعلم الناس أن الله تعالى لا يقبل الإشراك من أحد ، فهو فى الحقيقة خطاب لجميع المكلفين ببيان أن للإشراك من القبح والسوء ما يجعله حقيقا بأن يُنْهى عنه من لا يمكن صدوره منه ؛ فكيف بمن عداه ؟ أو خوطب به والمراد أمته ، فهو فى الحقيقة خطاب للأمة فى شخص إمامها ونبيها .

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الجن .

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾
وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾)

المفردات :

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) : العشيرة ؛ القبيلة ، والجمع : عشيرات وعشائر ، والمراد بها قريش ، وقيل : عبد مناف . (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ) : الجناح ؛ اليد والعضد والإبط والجانب وهو المراد هنا ، ؛ أى ألن جانبك ، وجمع الجناح : أجنحة وأجنُح .

(الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) : إلى الصلاة ، أو حيثما كنت .

(وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ) : المراد بالساجدين ؛ المصلون ، : أى ويرى تصرفك وتغيرك من حال كالجلوس إلى حال كالقيام بين المصلين إذا أممتهم .

التفسير

٢١٤ ـ ٢١٦ ـ (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينذر عشيرته الأقربين ويخوفهم من العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى ؛ فإن الاهتمام بشأنهم أهم ، وليكونوا اللبنة الأولى للأمة الإسلامية ، أو ليعلموا أنك لاتغنى عنهم من الله شيئاً وأن النجاة فى اتباع شرعه دون قرابته .

روى مسلم من حديث أبى هريرة : لما نزلت هذه الآية :(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشاً فاجتمعوا ، فعمَّ ، وخصَّ ، فقال : « يا بنى كعب ابن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار . يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار .

يا بنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة : أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا ، غير أن لكم رحِما سأبُلُّها بِبَلالها »[1] .

ويؤخذ من الحديث أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، وأنه لا مانع من أن يصل المؤمن الكافر وأن يقدم له النصيحة والإرشاد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »[2] .

ثم أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالتواضع ولين الجانب ، وإحسان المعاملة مع من اتَّبعه وصدَّق به وذلك فى قوله تعالى : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى : وألن جانبك للذين آمنوا بك إيمانًا حقيقيا من عشيرتك الأقربين ومن غيرهم ، ومِنْ للبيان .

٢١٦ – (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أى : فإن أعرضت عنك عشيرتك الأقربون ولم يتبعوك بعد إنذارهم ، فقل لهم : إنِّى برىء من عملكم الشامل لاتخاذكم مع الله إلهًا آخر ، والمراد بهم : من تمسك بالشرك من عشيرته الأقربين مع إنذارهم ، والمراد من براءته – صلى الله عليه وسلم – من عملهم : أنه ليس مسئولًا عنه ، وإنما يسأل عنه صاحبه ، وذلك قبل أن يؤمر النبى – صلى الله عليه وسلم – بجهاد المشركين كافة .

٢١٧ – (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) :

أى : وفوض أمرك إليه – سبحانه وتعالى – فإنه القادر بعزه وسلطانه على قهر أعدائه ، ونصر أوليائه .

قال الجنيد رحمه الله : التوكل ؛ أن تقبل بالكلية على ربك ، وتعرض بالكلية عما دونه فإن حاجتك إليه عزَّ وتعالى فى الدارين .

(١) البلال : الندى ، والمراد به هنا الخير ، والمعنى : سأصلكم بالخير اللائق لها .

(٢) الآية ٨ من سورة الممتحنة .

وتقديم وصف العزة المنبىء بقهر أعدائه - صلى الله عليه وسلم - وإهلاكهم أوفق بمقام التسلى والصبر على المشاق اللاحقة به من هؤلاء المشركين .

٢١٨ ، ٢١٩ - (الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ) :

المراد من الساجدين هنا : المصلون ، أى : الذى يراك حين تقوم للصلاة ، وتتصرف فيما بين المصلين بقيامك وركوعك وسجودك وقعودك إذا أممتهم . هكذا قال ابن عباس .

وقيل : يراك حين تقوم للتهجد ، ويرى تقلبك بين المتهجدين بذهابك ومجيئك فيما بينهم ؛ لتصلح أحوالهم ، ولتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ؛ لتعلم كيف يعملون لآخرتهم [١] .

وقال مجاهد : يراك حيثما كنت .

٢٢٠ - (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) : أى السميع لأقوال عباده ، ولكل ما يتعلق به السمع ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، وبكل ما يتعلق به العلم ، ويندرج فيه ما تنويه وتعمله ، كما قال تعالى : « وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ . . . » الآية [٢] .

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾)

المفردات :

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) : أى هل أخبركم ، وفعله نبأ . يقال : نبأه الخبر ، وبه .

(عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) : أى على كل من اتصف بكثرة الإفك وهو الكذب ،

(١) روى أنه - عليه السلام - لما نسخ فرض قيام الليل طاف - عليه السلام - تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم ، فوجدها كبيوت الزنابير ، لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن .

(٢) سورة يونس ، من الآية : ٦١

وبكثرة الإثم وهو أن يعمل ما لا يحل ، ويطلق عليه : الذنب ، وفعله أَفَكَ كضرب وعلم ، إفكا - بكسر الهمزة وفتحها ، وَأَفَكًا بالتحريك - وأُفُوكا كأُفُك ، أي : كذب ، وأَثِيم : فَعِيل من أَثِم كعلم إثمًا ومأْثمًا فهو آثم وأثيم وأثَّام .

التفسير

٢٢١-٢٢٣ - ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ :

الآيات استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد بيان امتناع نزولهم بالقرآن فيما سبق ، وللرد على قول المشركين الذين قالوا : إن ما جاء به محمد ليس حقًّا ، وإنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أتاه به رَئِيٌّ ، أي : تابع من الجن . تنزيهًا من الله سبحانه وتعالى لجناب رسوله عما قالوه كذبًا وافتراء ، وتنبيهًا على أن الذى جاء به هو من عند الله نزل به ملك كريم ولم تأت به الشياطين ، فإنهم لا رغبة لهم فى مثله ، ولا ينزلون إلا على من يشابههم ويشاكلهم ، كما قال تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » : أى هل أخبركم على مَنْ تتنزل الشياطين ، تتنزل على كل من اتصف بالكذب الكثير والذنب العظيم من الكهنة والمتنبئة وما جرى مجراهم من الفسقة والفجرة أمثال : سطيح ، وطليحة ، ومسيلمة ، فلا تتنزل الشياطين إلا على مثلهم فلا يتجاوزهم ، ولا ينفك عنهم إلى غيرهم من الصالحين وبخاصة الأنبياء ، وحيث تنزهت ساحته - صلى الله عليه وسلم - عن نزولهم اتضح أن الذى نزل بالقرآن عليه ملائكة الله المقربون .

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) : أى يلقى الأفاكون سمعهم إلى الشياطين ، ويتلقون وحيهم إليهم ، وإلقاء السمع مجاز عن شدة الاهتمام والمبالغة فى الإصغاء إلى ما يلقى إليهم ... إلخ .

أو المراد : يلقى الأفاكون ما سمعوه من الشياطين إلى أتباعهم وأوليائهم .

وأكثر الأفاكين مفترون كاذبون ، يفترون على الشياطين ما لم يخبروهم به ، على معنى أنهم قلَّما يصدقون فيما يحكونه عن الجنيّ ، وإنما هم فى أكثره كاذبون ، فقد جاء فى الحديث

أن الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه ، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ، ولا كذلك محمد — صلى الله عليه وسلم — فقد أخبر عن مغيبات كثيرة وصدق فى جميعها ، والمراد من أكثرهم فى قوله تعالى : (وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) :جميعهم ، أو غالبهم ، وهذا كاف فى عدم الاطمئنان إلى أقاويلهم .

وقيل : المراد من قوله تعالى : (يُلْقُونَ السَّمْعَ) :هم الشياطين ، وكانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يتسمعون إلى الملإ الأعلى ، فيخطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلع عليه الملائكة من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من الإنس ويزيدون على ما يسمعون أكثر من مائة كذبة فيصدقهم الناس فى كل ما يقولون .

روى البخارى من حديث الزهرى قال : أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة — رضى الله عنها — : سأل الناس النبى — صلى الله عليه وسلم — عن الكُهّان ؟ فقال : « إنهم ليسوا بشىء » فقالوا : يارسول الله إنهم يحدثون بالشىء يكون حقًّا ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيُقَرْقِرُها (أى : يرددها) كقرقرة الدَّجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة . وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم ؛ لأنهم يُسْمِعُونهم ما لم يسمعوا من الملائكة لشرارتهم ، أو لقصور فهمهم ، أو لأنهم لا يسمعون حقًّا وإنما هو كذب واختلاق » .

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾)

المفردات :

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) : أى شعراء الكفار ومن ماثلهم من أهل الضلال .

(فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) : أى هم متحيرون ، فلا يهتدون إلى الجادة ، يقال : رجل هائم وهيوم بمعنى متحير . (انتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) : أى عالجوا أسباب النصر بوسائل الحق حتى تحقق لهم . (أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) : أى أىَّ تحوُّل وتغير يصيبهم بين يدى الله . فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر الثواب ، والفعل : قَلَبَه من باب : ضرب ونصر : حوَّله ظَهْرًا لبطن ، والمنقَلَب : اسم زمان أو مكان ما يحيق بهم .

التفسير

٢٢٤–٢٢٧ – (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) :

الآيات استئناف مسوق لإبطال ما قاله المشركون فى حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر ، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله – عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام – تنزيهًا عن الاتصاف بما وصفوه به حيث قال سبحانه : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) : أى أن من يحق وصفهم بالشعر هم شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ويقولون فيه كل كذب وباطل ، والذين يشيعون بشعرهم الفحش والخنا

فيمزقون الأعراض ، وينشرون المثالب ، ويقدحون فى الأنساب ، ويفرطون فى الثناء والهجاء ابتغاء عرض زائل ، ومنزلة حائلة ،ومع كل واحد غواة قومه — وهم السفهاء— يجارونهم ويسلكون مسلكهم ، وعن ابن أبي طلحة : هم ضلال الجن والإنس ، وشعر هؤلاء — كما يقول القرطبي فى تفسيره — : ضلال وباطل لا يبيحه خلق ولا دين فلا يحل سماعه ولا إنشاده فى مسجد وغيره كمنثور الكلام القبيح ونحوه .

أما شعر غيرهم من أهل الرشاد والنُّهى المهتدين إلى طريق الحق المنافحين عن دين الله فلا بأس به قولًا أو سماعًا ، فمثل شعرهم كان يقبل على سماعه الرسول والتابعون ، ولا ينكر الشعر الحسن فى مبناه ومعناه أحد من أهل العلم ، وكثير منهم قاله وتمثل به ، أو سمعه فأنصت إليه وأثنى عليه ، حيث كان حكمة وعظة ، ولم يكن هجرًا ولا أذى لمسلم . روى عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على المنبر يقول : « أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » أخرجه مسلم ، وزاد : « وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسْلم »[1] ذكر ذلك القرطبي . وقال — صلى الله عليه وسلم — فى الشعر الذى يرد به حسان على المشركين : « إنه لأسرع فيهم من رشق النبل » أخرجه مسلم .

وما أحسن قول الماوردى : الشعر كلام العرب ، مستحب ، ومباح ، ومحظور ، فالمستحب : ما حذر من الدنيا ورغب فى الآخرة ، وحث على مكارم الأخلاق ، والمباح : ما سلم من فحش وكذب ، والمحظور : ما كان كذبًا وفحشًا ، وجعل الروياني منه ما فيه الهجو لمسلم سواء كان بصدق أو كذب .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) :الاستفهام للتقرير ، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للإيذان بأن حالهم من الظهور والوضوح بحيث لا يختص برؤيته راء ، أى : ألم تر أن الشعراء يهيمون على وجوههم فى كل واد من أودية الغى والضلال ، وفى كل مسلك من مسالك الزور والبهتان وفى كل شعْب من شعاب الوهم والخيال ، لا يهتدون إلى الحق الذى

(١) كان أمية كثير العجائب يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قريبًا من أهل الكتاب وهو من شعراء الطائف. ا هـ : من فحول الشعراء لابن سلام الجمحى .

يدعو من اتبعه إلى التثبت والتروى والصدق ويحول بينه وبين شهوة الشهرة التى تطمس على قلبه وبصيرته ، فلا يكترث بما فعل ، ولا يبالى بما قال ، ولا يستبين طريق الحق التى تدعوه إلى الإقلاع عما تعوده من كل خلق قبيح ، وأسلوب ذميم ، وإفراط وتفريط (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) من الأفاعيل التى ذكروها فى شعرهم ، ورددوها فى قصيدهم غير مكترثين بما يستتبعه صنيعهم من لوم وتقريع كما كانوا يحثون فى قولهم على الكرم والجود والمواساة وإغاثة الملهوف مع أنهم من كل ذلك بَراء ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

فكيف يتوهم أن ينتظم الرسول فى سلكهم وقد تنزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبة الاتصاف بشىء من الأمور المذكورة ، فقد كان معروفًا بمحاسن الصفات ، وكريم الخلال ، وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجميع الملكات الإنسية ، ولم يكن أتباعه كأتباعهم سفهاء ضالين ، وإنما هم هداة مرشدون ، لهم فى رسول الله أسوة حسنة .

روى ابن عباس أن الآيات نزلت فى شعراء المشركين : عبد الله بن الزِّبَعْرى ، وهبيرة ابن أبى وهب المخزومى ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبى عَزَّة الجمحى ، وأمية بن أبى الصلت . قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونه ، ويجتمع لهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ، وهم الغاوون .

والظاهر من السياق أنها نزلت عامة شاملة لجميع شعراء الكفار ، ويدخل فيهم هؤلاء الشعراء دخولًا أوليًا .

ثم استثنى — سبحانه — بقوله : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . . الآية) شعراء المؤمنين الذين كانوا يدعون إلى التوحيد ويثنون على الله — تعالى — ويحثون على امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وقد ابتغوا فيما آتاهم الدار الآخرة ، ولم يُغْفلوا نصيبهم من الدنيا ، وذكروا الله كثيرًا ، ولو وقع منهم فى بعض الأوقات هجو ، وقع منهم بطريق الانتصار إلى الحق ، وبما حده الله عز وجل من غير ظلم أو زيادة على ما قيل فيهم افتراء وعدوانًا .

وقيل : المراد بالذين استثناهم الله سبحانه وتعالى شعراء المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وَيُقَبِّحُون بهجائهم هُجَاةَ قريش ، واستدل لذلك

بما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة : أن هذه الآية نزلت في رهط من الأنصار هَاجَوْا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منهم : كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، كما استدل عليه بما أخرجه جماعة عن أبي سالم حسن بن البراء أنه قال : لما نزلت « وَالشُّعَرَآءُ . . . » الآية ، جاء عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وهم يبكون ، فقالوا : يارسول الله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلم أنَّا شعراء فأنزل الله (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . .) الآية . فدعاهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتلاها عليهم .

وقد سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الشعر ، وأجاز عليه ، وكان يقول لحسان ابن ثابت : « اهجهم – يعني المشركين – وإن روح القدس سيعينك » ، وفي رواية : « اهجهم وجبريل معك » ، وعن كعب بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « اهجهم فوالذى نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل » ذكر ذلك أبو السعود ، والآلوسي في تفسيريهما .

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) : تهديد شديد لكل من انتصر بظلم يشير إليه الإبهام والتهويل في قوله تعالى : (أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) . وقرأ ابن عباس : أى منفلت ينفلتون ، من الانفلات وهو النجاة .

والمعنى على القراءتين لا يختلف في غايته ، فهو على القراءة الأولى : وسيعلم الذين ظلموا من الشعراء وغيرهم أى مصير يصيرون ، وأى مرجع يرجعون ، لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع ، ويومئذ لا تنفعهم معذرتهم عما فرطوا في جنب الله . كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ »(١) .

---

(١) الآية : ٥٢ من سورة غافر .

وعلى القراءة الثانية : أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى ، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات ينفلتون إليه من عذاب الله طمعًا فى النجاة حيث توصد فى وجوههم كل الطرق والمسالك ، ويساقون إلى النار فهى مصيرهم وإلى العذاب مرجعهم .

وكون الآية عامة فى كل ظالم هو الصحيح كما قال ابن أبى حاتم ، وقيل : المراد بالظالمين أهل مكة فهو عام أريد به خاص .

« سـورة النمـل »

مكية وآياتها ثلاث وتسعون

مقاصدها :

بينت هذه السورة أن القرآن هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة معذبون أسوأ العذاب وهم الأخسرون يوم الدين .

وتحدثت عن قصة موسى وأهله عند رجوعه من مدين إلى مصر بعد هجرته إليها ، فذكرت أنه رأى نارًا وأنه ذهب إليها ليأتيهم بقبس منها يستدفئون به ، فلما وصل إلى مكان النار سمع نداء يقول : « بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » .

ثم تحدثت عما جرى بينه وبين فرعون وقومه على سبيل الإجمال ، حيث ذكرت أنهم جحدوا بآياته وزعموها سحرًا ، فساءت عاقبتهم بسبب كفرهم .

وتحدثت عن داود وسليمان بأن الله آتاهما علمًا فضلهما به على كثير من عباده المؤمنين ، وأن سليمان خلف أباه داود فى النبوة والملك ، وأن الله – تعالى – علمه وأباه منطق الطير وأعطاهما طرفًا من كل شيء .

وذكرت أنه – تعالى – جمع لسليمان جنودًا من الجن والإنس والطير ، فلما أتوا على وادى النمل قالت نملة لجماعتها آمرة ومحذرة : « ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » فضحك سليمان لقولها هذا ، ودعا ربه أن يعينه على شكر نعمته التى أنعمها عليه وعلى والديه ، ويوفقه لصالح العمل الذى يرضيه وأن يدخله برحمته فى عباده الصالحين .

وذكرت أنه تفقد الطير التى جعلها الله من جنوده ، فلم يجد الهدهد ، فعجب لتخلفه عن موقعه ، وتوعده بالتأديب الشديد، ما لم يأته بسبب مقبول يقتضى تخلفه ، فلم يطل غيابه ، بل حضر إليه وأخبره بخبر عجيب ، إذ قال : « أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . » الآيات .

فلما فرغ من حديثه العجيب قال له سليمان : « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » وبعث معه رسالة إلى ملكة سبأ ، وأمره بمراقبتها بعد وصول خطابه إليها ، ليعلم منه كيف تتصرف عندما يحدق بها الخطر ، فحمل كتابه وألقاه إليها ، فجمعت أشراف قومها قائلة : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » وطلبت منهم الإفتاء وبذل المشورة فى هذا الأمر الخطير ، إذ قالت : « أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » ، فردوا قائلين : « نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » فلما أحست منهم الميل إلى القتال دفاعًا عن البلاد قالت : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً . . . » ورأت المصالحة بإرسال هدية إلى سليمان — عليه السلام — لترى أثرها عنده ، فلما وصل الرسول بهديتها ردها سليمان إليها ، وأخبرها بأن الله أعطاه خيرًا مما أعطاها ، ولم يقبل منها سوى الاستسلام ، حتى لا يأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ، فيخرجوا من بلادهم أذلة صاغرين .

ثم طلب من جلسائه أن يحضروا لها عرشها قبل أن تأتيه مسلمة ، فكان أسرعهم مَنْ عنده علم من الكتاب ، حيث جاء به قبل أن يرتد إليه طرفه فشكر الله — تعالى — على تلك النعمة ، وطلب من أتباعه أن يُنكِّروه لها لتغيير هيئته ليعرف مقدار فطنتها « فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » ، ثم قيل لها : ادخلى القصر ، فلما دخلته رأت صحنه كأنه ماء ، فكشفت عن ساقيها ، فقال : إن ما تظنينه ماء هو صرح أملس من

زجاج ، وحينئذ قالت معترفة بخطئها فى عبادة الشمس : « إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ثم حكت السورة قصة هود مع نبيهم صالح وكفرهم . . . وتآمرهم على قتله وأن الله عاقبهم على مكرهم بإهلاكهم أجمعين وأنجى صالحًا ومن معه من المؤمنين .

وذكرت قصة قوم لوط ، وقد جاء فيها لومه إياهم على إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » : أى يتنزهون عن أفعالنا ولا يرضونها لأنفسهم ، فأنجاه الله وأهله المؤمنين ، وأهلك سواهم من الكافرين وفيهم امرأته .

ثم ناقشت المشركين وقارنت بين معبوداتهم الضعيفة وبين الله الواحد القهار ، وبدأت المناقشة بقوله تعالى : « آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » وبينت آثار قدرة الله ونعمه : فذكرت أنه خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة ، وأنه جعل الأرض قرارًا وجعل خلالها أنهارًا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزًا دون أن يكون مع الله إله فى خلق هذه الكائنات والنعم العظيمة .

ثم عقبت ذلك ببيان كثير من النعم الجليلة التى لم ينعم بها سوى الله ، وساءلتهم فى كل ذلك منكرة عليهم شركهم : « أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ » .

ثم عابت عليهم شكهم فى الآخرة وقولهم : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ » وزعمهم أن أمر الآخرة من أساطير الأولين ، وردت عليهم بقوله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » ودعت نبيه — صلى الله عليه وسلم — إلى عدم الاهتمام بإعراضهم ، فذكرت قول الله — تعالى — : « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » وتوعدتهم بقوله تعالى : « قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ » وبقوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » .

ثم بينت أن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون ، وأمرت النبى بالتوكل على الله بقوله — تعالى — : « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ » وبينت

أن خصومه يشبهون الصم العمى ، فما هو بمسمعهم ولا هاديهم : « إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ » .

وذكرت أنه إذا قرب وقوع القول عليهم — وهو ما وعدوه من البعث والعذاب — أخرج الله دابة من الأرض تكلمهم ، وتكون حجة عليهم ، لأن الناس صاروا بآيات الله لا يوقنون ، وسيأتى بسط الحديث فى شأنها فى موضعها من السورة .

ثم بينت أنه يوم ينفخ فى الصور يفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، ممن يثبتهم الله يومئذ ، وأن الجبال فى هذا اليوم تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، وأن أصحاب الحسنات يجازون يومئذ بخير منها ، وأصحاب السيئات من الكفار يكبون على وجوههم فى النار .

ثم ختمت السورة ببيان أن الله — تعالى — أمر نبيه أن يعبد رب هذه البلدة التى حرمها وهى مكة ، وله كل شىء ، وأمره أن يكون من المسلمين وأن يتلو القرآن ، وأن يقول لقومه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ⑤)

المفردات :

(تِلْكَ) : إشارة إلى السورة . (آيَاتُ الْقُرْآنِ) : أى آيات من القرآن ، فالإضافة على معنى مِنْ . (مُبِينٍ) : موضح للأحكام والأخلاق والعظات ، من : أبان غيره ، : أى أوضحه ، أو الواضح بإعجازه ومعانيه ، من : أبان اللازم بمعنى اتضح . (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون ويترددون .

التفسير

١ - (طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) :

« طس » اسمان لحرفين من حروف المعجم ، هما الطاء والسين ، وقد مضى الكلام بشأن مثلهما فى أوائل سور : البقرة وآل عمران ويونس وهود وغيرها ، فارجع إليها إن شئت ، ونزيد على ذلك أن بعض المعْنِيِّين بإعجاز القرآن الكريم أثبتوا بالآلات الحاسبة (الكمبيوتر) أن كل سورة بدئت بمثل هذه الفواتح ، تغلب فيها الحروف التى بدئت بها على سائر الحروف التى تكونت منها كلمات السورة ، وبما أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أُمِّىٌّ لا يقرأ ولا يكتب فذلك شاهد على أن القرآن ليس من تأليفه - كما زعم أعداء الحق - بل هو من عند الله العزيز الحكيم .

والمراد بقوله : « وَكِتَابٍ مُبِينٍ » القرآن نفسه ، وتنكيره للتعظيم والتفخيم ، وقد وصف به على سبيل العطف للإيذان بأنه جامع بين صفتين : إحداهما ، أنه معجزة مقروءة على الدوام، وثانيتهما : أنه كتاب مبين لما اشتمل عليه من الحِكَم والأحكام ، وأحوال القرون الأولى والمعجزات الكونية ، وأحوال الآخرة ، والعقائد النظيفة التى لا تناقض فيها ولا استحالة، وكما أنه موضح لما ذكر فهو واضح لكل قارئ ولكل سامع ؛ فلا يصعب فهمه على أحد ، أميا كان أو قارئا .

وقد فاقت معجزة القرآن سائر المعجزات السابقة ، لأنها لا وجود لها الآن ، فأين عصا موسى ، وناقة صالح ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى من عيسى بإذن الله ؟ لقد ذهبت كلها وأصبحت خبرًا بعد عين ، ولولا أن القرآن أيدها لكانت موضعًا للشك والريبة. أما معجزة القرآن فهى باقية ما بقى الزمان ، واضحة الإعجاز والبيان ، لأن شريعته التى جاء بها هى الشريعة العامة للبشرية ، الخاتمة لجميع الشرائع ، فلذلك جعله الله آية باقية مقروءة مكتوبة ، بينة مبينة محفوظة من التغيير والتبديل ، بكفالة العزيز الحكيم : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] .

ومعنى الآية : طس : تلك السورة آيات وعلامات من القرآن وكتاب مبين للعقائد الصحيحة ، والأحكام السليمة ، والأخلاق الرشيدة ، والغيبيات على ما هى عليه ، والكونيات وما ترشد إليه .

٢ ، ٣ ــ (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) :

أى هذا القرآن عظيم الهداية والبشارة للمصدقين ، الذين يضمون إلى تصديقهم به إقامتهم الصلاة فى مواقيتها ، وإيتاءهم الزكاة لمن يستحقها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب مصدقون ، لا يشكون ولا يمارون ولا يجادلون بل يعملون لها مخلصين ، فإن إيمانهم بها يحملهم على صدق النية وإخلاص العمل ، خوفًا من العقاب ، ورغبة فى جميل الثواب .

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

والمراد من الزكاة هنا : مطلق الصدقة ؛ فإن الزكاة بمعناها المعروف فرضت بعد الهجرة فى حين أن هذه السورة مكية .

٤ـ(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) :

فى هذه الآية والتى بعدها بيان لحال الكفرة ومآلهم بعد بيان أحوال المؤمنين وعاقبتهم .

ومعلوم أن الشيطان هو الذى يزين القبائح والمعاصى لأصحابها فيقبلون عليها كما قال ـ تعالى ـ فى سورة النحل : « تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » الآية ٦٣

وإسناد التزيين هنا إلى الله تعالى مجاز عن تخليه عن معونتهم وتركهم لشياطينهم وغرائزهم الشريرة ، التى تزين الكفر والمعاصى إلى نفوسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر بالآخرة .

والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء ، وظنوا أن الحياة هى الحياة الدنيا فانصرفوا إليها ، ولم ينفعهم نصح أنبيائهم ، فهؤلاء تخلينا عن معونتهم على الهدى ، وتركناهم لشهواتهم وشياطينهم ، لتزين لهم ما هم فيه ، فهم فى غيهم يتحيرون ويترددون ، والعمى صفة البصر ، والعمه صفة البصيرة ، فبصيرتهم فى ظلام الضلال ؛ لاتدرك ما ينفعها ولا ما يضرها .

٥ـ(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) :

أى ؛ أولئك الذين كفروا بالآخرة وتركناهم فى ضلالهم ، قضينا عليهم بالعذاب السيء فى الدنيا بالقتل والأسر وغير ذلك من محن الحياة الدنيا ، وهم فى الآخرة هم الأشد خسرانًا منهم فى الدنيا ، حيث يخلدون فى النار وبئس القرار ، ولا توجد خسارة أفدح من هذه الخسارة .

ويصح أن تكون كلها فى عذاب الآخرة ، على معنى أن لهم العذاب السيء فيها ، وهم أشد الناس خسارة حينئذ ، لحرمانهم من الثواب ، واستمرارهم فى العقاب ، بخلاف عصاة المؤمنين .

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ
قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى
ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ
أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(مِن لَّدُنْ) : من عند . (حَكِيمٍ) : عظيم الحكمة ، والحكمة : إتقان الأمور . (آنَسْتُ) : أبصرت . (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) : بشعلة نار مقبوسة ومأخوذة من النار التى أبصرها . (تَصْطَلُونَ) : تستدفئون . (بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) : جعلت البركة لمن فى البقعة التى فيها النار ، ولمن فى الأماكن التى حولها .

(الْعَزِيزُ) : القوى الذى يَقْهرُ ولَا يُقْهر .

التفسير

٦ - (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) :

بينت الآيات السابقة بعض شئون القرآن ، وجاءت هذه الآية تمهيدًا لما يليها من القصص التى اشتملت عليها ، وهى مستأنفة لهذا الغرض ، وليست معطوفة على ما قبلها ، والذى يُلْقى القرآن على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند الحكيم العليم هو الروح الأمين جبريل - عليه السلام - قال تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ »[1] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٣ - ١٩٥

وقد تضمنت الآية تحقيقًا لنزوله من عند الله وتأكيدًا لذلك وتفخيمًا لشأنه ، فالآية واضحة الإشارة إلى أن هذا القرآن مشتمل على حِكَم عظيمة ، وعلم غزير ، لا يمكن أن يصدرا عن البشر ، وإنما يصدران عن إله حكيم عليم ، ولذلك صُدِّرَتْ بإنَّ واللام فى قوله : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ » وهما للتأكيد ، وجمع بين الحكمة والعلم ، لأن فيه ما هو من قبيل الحكمة كالعقائد الصحيحة والأحكام الشرعية الصالحة لكل زمان ومكان ، وما هو من قبيل العلم المطلق مثل القصص والأخبار الغيبية .

والواقع أن العلم يعم الحكمة وسواها ، ولكنه جمع بينهما للإيذان باشتمال القرآن عليهما جميعًا على أكمل وجه .

ومعنى الآية : وإنك – أيها الرسول – ليلقى إليك القرآن من عند حكيم عظيم الحكمة وإصابة الحق ، عليم واسع الإحاطة بالأمور ما وجد منها وما سوف يوجد ، لأنه فوق مستوى قدرة البشر : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[1] .

٧ – (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) :

كان موسى – عليه السلام – قد خرج من مصر حين علم أن الملأ من قومها يأتمرون به ليقتلوه قصاصًا منه لقتله القبطى الذى اعتدى على رجل من بنى إسرائيل ، فخرج إلى سيناء وانتهى فى رحلته إلى مدين ، حيث عمل أجيرًا عند شعيب فى مقابل تزويجه إحدى ابنتيه ، فلما قضى المدة المتفق عليها ، حنَّ للرجوع إلى مصر ومعه أهله ، فسار بأهله فأدركها المخاض عند الطور ، فوضعت فى ليلة شاتية باردة ، وكان قد حاد عن الطريق لأمر شاءه الله – تعالى– وقد أصبح بحاجة إلى أمرين : أحدهما : أن يوقد نارًا ليستدفئ بها أهله ، وثانيهما : أن يهتدى إلى الطريق الموصل إلى مصر بعد أن حاد عنه ، وقد أدركته عناية الله وهو فى حيرته هذه ، حيث أظهر له نارًا على بعد قليل من الطور كما قال – تعالى – فى سورة القصص : « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا »[2] .

---

(١) سورة النساء ، من الآية : ٨٢ (٢) سورة القصص من الآية : ٢٩

وحينئذ قال لأهله : إنى أبصرت نارًا سآتيكم منها بخبر عن الطريق الذى نصل منه إلى مصر بسؤال من أوقدوا هذه النار ، أو آتيكم بشعلة مقتبسة ومأخوذة من هذه النار التى أراها ، لعلكم[1] بهذه الشعلة المقبوسة تستدفئون إذا جعلتها داخل حطب وأوقدته بها .

وإدخال السين على الفعل فى قوله : « سَآتِيكُم » لتأكيد الوعد وتحقيقه – كما قال الزمخشرى – ولإفادة مجيئه عن قرب حتى لا يستوحش أهله لتركه إياهم فى هذا المكان .

٨ – (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

فى الكلام مضاف مقدر ، أى : فلما جاءها بورك مَنْ فى مكان النار ومَنْ حول مكانها ، والمراد من مكان النار : البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى : « نُودِىَ مِن شَاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ »[2] والمراد ممن فى بقعة النار ومن حولها : كل من فى هذا الوادى وحواليه من أرض الشام التى باركها الله ببعث الأنبياء ودفنهم بها ، ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله فيها موسى – عليه السلام – وقيل : من فى بقعة النار : موسى – عليه السلام – ومن حولها : الملائكة ، وقيل : العكس .

وقد نبه الله على جلال المقام ، وتنزهه – تعالى – عن الحلول وعن صفات البشر ، بأن ختم الآية بقوله – سبحانه وتعالى – : « وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

والنار التى رآها موسى – عليه السلام – لم تكن نارًا حقيقية ، فقد كانت نورًا كما روى عن ابن عباس : (لم تكن نارًا ، إنما كانت نورًا يتوهج) ، وهذا النور من نور الله تعالى – كما روى عنه .

ونقل القرطبى عن ابن عباس والحسن أن المعنى : قدس من فى النار وهو الله – سبحانه وتعالى – عنى به نفسه[3] تقدس وتعالى ، ثم عقبه بقوله : قال ابن عباس ومحمد بن كعب :

---

(١) تستعمل « لعل » للرجاء ، والتعليل ، وهى هنا صالحة لكليهما .

(٢) سورة القصص ، من الآية : ٣٠

(٣) أنكر الإمام هذه الرواية وقال إنها موضوعة ، وقال أبو حيان : إذا ثبتت هذه الرواية عن ابن عباس وغيره ، كان معناها بورك من قدرته وسلطانه فى النار ومن حولها . وقد شرحها القرطبى على هذا النحو حذراً من فكرة الحلول التى يأباها الإسلام ، وينزه عنها ابن عباس وأعلام الصحابة والتابعين ، وقد نقلنا ما قاله القرطبى فى ذلك ، وستراه بعد قليل .

النار : نور الله – عز وجل – نادى الله موسى ، وهو فى النور – قال القرطبي – وتأويل ذلك : أن موسى – عليه السلام – رأى نورًا عظيمًا فظنه نارًا ، وهذا لأن الله – تعالى – ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار ، لا أنه يتحيز فى جهة ، ومثله كمثل قوله – تعالى – : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ »[1] فإنه – سبحانه وتعالى – لا يتحيز فيهما ، ولكن يظهر فى كل فعل فيعلم به الفاعل ، وعلى هذا يكون « بُورِكَ مَن فِي النَّارِ » بمعنى قُدِّسَ مَنْ فى النار سلطانه وقدرته وكلامه : انتهى بتصرف يسير .

ثم نقل القرطبي عن سعيد بن جبير كلامًا يشبه كلام ابن عباس وابن كعب ، إذ قال : كانت النار بعينها فأسمعه الله كلامه من ناحيتها ، وأظهر له ربوبيته من جهتها ، قال القرطبي : وهو كما روى أنه مكتوب فى التوراة : (جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبال فاران)[2] فمجيئه من سيناء بَعْثُه موسى ، وإشرافه من ساعير بَعْثُه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بَعْثُهُ محمدًا – صلى الله عليه وسلم – وفاران (مكة) وسيأتى فى القصص زيادة بيان لإسماع الله كلامه موسى : انتهى بتصرف يسير .

وإليكم تفسير الآية على أن منْ فى النار ومَنْ حولها هو موسى والملائكة فيما يلى :

فلما وصل موسى إلى النار التى رآها وهو بجانب الطور ، نودى نداءً إلهيًّا منبعثًا من الشجرة بأنه بورك موسى الذى فى بقعة النار ، وبورك مَنْ حولها من الملائكة ، وقيل لموسى : سبحان الله رب العالمين ، تنزيهًا له – تعالى – عن أنْ يشبهه شىء من مخلوقاته ، أو يحيط به شىء من مصنوعاته فلا تكتنفه أرض ولا سماء ، ولما وقف موسى مبهورًا متعجبًا من صدور الكلام عن النار ، أعلمه الله أنه – سبحانه – هو المتكلم فقال :

٩ – (يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

الضمير فى « إِنَّهُ » للشأن ، والعزيز الحكيم وصفان للفظ الجلالة ، ممهدان لما أريد إظهاره على يد موسى – عليه السلام – من المعجزة .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣

(٢) جاء فى كتاب (محمد نبى الإسلام فى التوراة والإنجيل والقرآن) المستشار محمد عزت الطهطاوى منقولا عن الإصحاح ٣٣ عدد ٢ من سفر التثنية على لسان موسى – عليه السلام – بلفظ : (جاء الرب من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار ، فى يمينه سنة من نار ، أحب الشعوب ، جميع الأطهار بيده) انظره وشرحه فى ص ٩ من هذا الكتاب ، والمقصود من عبارة (بيده سنة من نار) شريعة الجهاد . التى جاء بها رسوله المبعوث من جبال فاران ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ياموسى إن الأمر والشأن أنا الله القوى القادر على ما لا يقدر عليه غيرى من الأمور العظام التى من جملتها ما سوف أؤيدك به من المعجزات ، الحكيم الذى تصدر أحكامه وأفعاله بغاية الإحكام والسداد .

(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن
ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ
فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا
مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ
أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(تَهْتَزُّ) : تتحرك باضطراب . (كَأَنَّهَا جَآنٌّ) : الحية الخفيفة السريعة .

(وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) : انصرف راجعًا إلى الخلف ولم يَعُدْ ، من : عَقَّبَ المقاتل ، إذا كَرَّ بعد الفرار . (جَيْبِكَ):الجيب : فتحة القميص من أعلاه إلى الصدر ، ليدخل منه الرأس ، واستعماله فى الفتحة التى يوضع فيها كيس الدراهم ونحوه مُوَلَّدٌ .

(فِى تِسْعِ آيَاتٍ) :أى : آية معدودة من جملة تسع آيات . (مُبْصِرَةً) : بينة واضحة ، من أبصر ، بمعنى وضح مجازًا ، أو مُعِينَة على البصر ، أى : على التبصُّر ، من أبصر غيره ، أى : جعله يبصر بقلبه ويهتدى .

التفسـير

١٠ ـ (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . . .) الآية .

هذه الآية من جملة ما كلم الله به موسى من الشجرة ، وقد تضمنت أنه ـ تعالى ـ أمره أن يلقى عصاه من يده ، ليريه آية على أن الذى يكلمه هو الفاعل المختار القادر على كل شىء ، وقد شبهت العصا بعد تحولها بالجان ، وهى ضرب من الحيات أكثرها حركة وأسرعها اضطرابًا ، مع صغر فى الحجم ، وقد جاء تشبيهها بثعبان مبين فى قوله تعالى : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ »[1] والثعبان أكبر حجمًا من الجان ، فهى فى حجم الثعبان جسمًا ، وفى صورة الجان حركة واضطرابًا سريعًا ، فلذا عبر عنها بالكلمتين فى موضعين مختلفين من السوَر .

والمعنى : ونادى الله موسى : ألق عصاك الخشبية من يدك ، فألقاها فانقلبت حية ، فلما رآها تتحرك بشدة واضطراب كأنها جان فى سرعتها وخفتها ، انصرف عنها مدبرًا خوفًا منها ، ولم يرجع إلى المكان الذى كان فيه حين ألقى عصاه فناداه ربه مطمئنًا بقوله :

(يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) : يا موسى لا تخف من هذه الحية التى آلت إليها العصا ، ولا من غيرها فإنه لا يخاف فى حضرتى المرسلون ؛ لأننى أحميهم وأحفظهم من كل شىء .

وفى هذه الآية بشارة له بأنه سيكون من رسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتعليم له بأنه لا ينبغى لمن يرسلهم الله إلى خلقه لهدايتهم ، أن يخافوا أو يخطر الخوف ببالهم عند الوحى إليهم وإن وُجِدَ ما يخاف منه ، لاستغراقهم فى تلقى أوامر الله ، وانجذاب أرواحهم إلى عالم الملكوت ، والتقييد بكلمة « لَدَيَّ » لأن المرسلين يغلب الخوف عليهم فى غير هذه الحالة ، فهم فى سائر أحيانهم أخوف الناس من الله ـ عز وجل ـ فقد قال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[2] ولا أعلم منهم بالله ـ تعالى ـ .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٠٧

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ٢٨

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة وهم فى حضرته ـ تعالى ـ فإنهم لايخافونه خوف عقاب وإن خافوه خوف إجلال ، لأنهم صفوة عباده وأحرصهم على تقواه .

وبعد أن بين الله أن المرسلين لايخافون فى حضرته ـ تعالى ـ عقب ببشارة عامة لكل من أحسن بعد الإساءة من عباد الله ـ تعالى ـ فقال ـ سبحانه ـ :

١١ ـ (إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ولفظ : « إلّا » هنا بمعنى (لكن) وهو ما يسمى فى عرف النحاة بالاستثناء المنقطع ، والمعنى : لكن من ظلم نفسه بارتكاب عمل سيء ، ثم بدل فأتى بعمل حسن بعد عمله السيء تائبًا إلى ربه ، فلايخاف ، فإنى عظيم الغفران واسع الرحمة .

وهذه الرحمة بالتائبين مقررة فى آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى »[١] ، وقوله : « وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا »[٢] ، وقوله : « وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا »[٣] .

١٢ ـ (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

بينت الآية السابقة أن الله ـ تعالى ـ أرى موسى كيف يحول العصا الخشبية إلى حية تسعى ، وجاءت هذه الآية لتبين معجزة أخرى ودليلًا باهرًا على قدرة الله ـ تعالى ـ وأنها مع سابقتها يؤيده الله بهما فى رسالته إلى فرعون وقومه فى ضمن تسع آيات تشهد برسالته ، وتقوم بها حجة الله عليهم إن لم يستجيبوا له ، إذ يعاقبهم على كفرهم أشد العقاب .

والآيات التسع التى أشارت إليها الآية هى : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٨٢

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٠

(٣) سورة طه ، الآية : ١١٢

والطمسة : جعل أبواب رزقهم حجارة ، والجيب : فتحة القميص من جهة الصدر وهى مدخل الرأس فيه ، كما تقدم فى بيان المفردات .

ومعنى الآية : وأدخل يدك فى فتحة قميصك من جهة الصدر ، وأخرجها تخرج بيضاء ساطعة تتلألأ كأنها قطعة من القمر من غير سوء حل بها ، وهاتان الآيتان فى جملة تسع آيات واضحات أؤيدك بهن وأجعلهن براهين على صدقك فى دعواك الرسالة عنا إلى فرعون وقومه ، فإنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن طاعتنا والإيمان بنا ، مع أن يوسف قد دعاهم إلى الحق من قبلك ، ولهم عقول لو فكروا بها فى آياتنا لهدتهم سواء السبيل .

١٣ ـ (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى : فلما جاءهم موسى مؤيدًا بآياتنا المعينة على التبصر والهدى ، قالوا ــ معرضين عن التأمل والانتفاع بها ــ : هذا الذى جئتنا به سحر واضح .

ولما كان الذى قالوه مخالفًا لما وقر فى نفوسهم ، عقب الله مقالتهم هذه بقوله :

١٤ ـ (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) :

أى وكذب قوم موسى بالآيات التى أيده الله بها مع تمام وضوحها ، وقد استيقنتها أنفسهم وآمنت بها قلوبهم ، وكان إنكارها بألسنتهم ظلمًا منهم للحق ولأنفسهم ، وتعاليًا عليه وعلى من جاءهم به من عند ربه ، فانظر ــ أيها المتأمل ــ كيف انتهت إليه عاقبة المفسدين حيث أغرقهم الله بالدخول فى الطرق التى شقها لبنى إسرائيل فى البحر ، وأغرقهم جميعًا فيه بعد انتهاء عبور بنى إسرائيل ، فبئس مصير المتجبرين .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(عِلْمًا) : إدراكًا لعلوم الدين وأصول الحكم وغيرها .

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) : ورثه فى النبوة والملك .

(عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) :منطق الطير : ما تعبر به عن حاجاتها وشئونها من أصوات أو حركات .

(وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ) : مما يحتاج إليه الملك .

التفسير

١٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) :

شروع فى بيان قصة داود وسليمان - عليهما السلام - بعد إجمال الحديث بشأن موسى مع فرعون وقومه ، لتقرير ما تقدم ذكره، من أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - تلقى القرآن من لدن حكيم عليم .

والمراد بالعلم الذى أعطاهما الله إياه : هو علم شريعة الله وسياسة الملك وما يختص به كل منهما من العلوم .

وكان الظاهر أن يقال : (فقالا الحمد لله) بالفاء دون الواو ، كما تقول : أعطيته فشكر ، ولكن التعبير بالواو هنا أبلغ ، لما فيه من الإشعار بأن ما قاله داود وسليمان بعض آثار إيتائهما العلم ، فأضمرت تلك الآثار وعطف عليها الحمد ، فكأنه قيل : ولقد آتيناهما

علمًا فعملا به وعرفا حق النعمة فيه ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين [١] .

وفى الآية دليل على أن العلم من أجلِّ النعم ، حيث شكرا الله على إيتائهما إياه ، ولم يذكرا معه سواه من سائر النعم التى أنعم الله بها عليهما من الملك وغيره ، فإن العلم هو أساس جميع النعم ، وفيها حث للعالم على شكر الله ، وأن لا يتكبر بما أُوتيه من العلم وآثاره على الناس ، فيقول ما قاله قارون : « إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ » [٢] ، كما فيها حث له على أن يعلم أنه وإن أُعطى من العلم ما يفضل به كثيرًا من الناس ، فقد فضل الله به غيره عليه ، فإن العلم لا غاية له .

ومعنى الآية : ولقد أعطينا داود وابنه سليمان علمًا بشئون الدين والدنيا يناسب ما أعطينا كليهما من النبوة والملك ، وقال كل منهما : الحمد لله الذى فضلنا بهذا العلم على كثير من عباده المؤمنين الذين لم يعطوا منه مثل ما أعطينا .

١٦ - (وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ) :

المراد من ميراث سليمان داود : أنه صار نبيًّا وملكًا بعده ، فوراثته إياه مجاز عن ذلك ، ولم يرث عنه المال ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » . رواه أبو بكر وعمر أمام جمع من الصحابة ولم ينكر عليهما أحد ، وهم الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، وأخرج أبو داود والترمذى عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا ولكن وَرَّثُوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

والمراد من الناس : أهل مملكته ، ومن منطق الطير : لغته التى يتخاطب بها بصوت أو بإشارة ، وكان يعرف لغة الحيوانات والحشرات ، ومن ذلك ما روته هذه السورة من قصة الهدهد والنملة .

---

(١) هذه خلاصة ما قاله الزمخشرى فى التعبير بالواو دون الفاء .

(٢) سورة القصص : من الآية : ٧٨

وقد عرض بعض المفسرين لذكر قصص عن طيور مختلفة فهم لغتها وأصواتها ، ولا تعدو هذه القصص أن تكون مجرد حكايات لم ترد عن الصادق المصدوق ، فلهذا لم نذكرها هنا ، التزامًا بما التزمنا به من الاقتصار فى التفسير على المعنى اللغوى أو المأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو ما قاله السلف مما يتفق مع القواعد الشرعية والمعنى اللغوى ، وحسبنا أن الله - تعالى - أطلق تعليم سليمان منطق الطير ، وهذا يتناول فهمه للغته ومراداته منها على أوسع نطاق ، هذا أمر خص الله به نبيه سليمان ، وليس من باب الفراسة ولا مجرد الذكاء ، وإنما هو بتعليم الله إياه ذلك ، كما هو صريح الآية الكريمة ليكون ذلك من المعجزات التى أيد الله بها رسالته .

ومعنى الآية : وقام سليمان بعد أبيه مقامه فى النبوة بوحى من الله ، وفى الملك برضا أمته ، وقال تَحَدُّثًا بنعمة الله ، وإعظاما لقدرها ، ودعوة للناس أن يصدقوه فى نبوته بذكر المعجزة التى أيده الله بها - قال - : يا أيها الناس علمنا الله - تعالى - لغة الطير التى يتخاطب بها ، وأوتينا من كل شىء يحتاج إليه الملك وتؤيد به النبوة ، كتسخير الشياطين والريح ، وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة ، إن إيتاء العلم والإعطاء من كل شىء لهو الإحسان الواضح من الله رب العالمين ، المقتضى لجزيل الشكر ممن أُنْعِمَ به عليه .

واعلم أن قوله - تعالى - : « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » إما أن يكون من كلام الله - تعالى - تعظيمًا للفضل الذى أنعم به على داود وسليمان - عليهما السلام - وإما أن يكون حكاية لكلامهما على سبيل الشكر والاعتراف منهما بعظيم فضل الله عليهما ، لا على سبيل الفخر والمباهاة ، ومثل ذلك كمثل قوله - صلى الله عليه وسلم - : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(وَحُشِرَ): الحشر: الجمع. (يُوزَعُونَ) أى: يحبسون ويمنعون من المضى حتى يتلاحقوا ويجتمعوا، والإيزاع: الحث على الوزع، وهو الكف والمنع[1].

(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ): لا يهلكنكم، وأصل الحطم: التكسير. (أَوْزِعْنِى): ألهمنى، وأصله: من الإيزاع، وهو الحث على الكف والمنع كما تقدم، فكأنه قال: حُثَّنِى وَأَعِنِّى على كف نفسى عن التقصير فى شكر نعمتك.

التفسير

١٧ - (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ):

بين الله فى هذه الآية أن سليمان - عليه السلام - كان له جنود من أصناف ثلاثة: الجن، والإنس، والطير، وهذا شىء خصه الله - سبحانه - به، استجابة لدعائه الذى حكاه الله بقوله فى سورة (ص): «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى إِنَّكَ

(١) ومنه قول عثمان - رضى الله عنه -: (ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن)، وقول الشاعر:

وَمَنْ لَمْ يَزَعْهُ لُبُّهُ وَحَيَاؤُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ شَيْبِهِ فَوْدَيْهِ وَازِعُ

أَنتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ »(١) .

وقد أضافت هذه الآيات من سورة (ص) الريح إلى جنوده المسخرين له فى هذه السورة ، وبهذا اكتمل له عزٌّ وجاه ليس لأحد من العالمين ، لِحِكَمٍ سنعرض لها ــ إن شاء الله ــ عند الكلام على تفسيرها فى سورة (ص) .

وقد بينت الآية هنا أنه حشر له جنود من الأصناف الثلاثة ، ولم تبين الغرض الذى جمعت له ، ولهذا اختلف العلماء فى بيانه ، فقال قائل : إنهم جمعوا ليقاتل بهم من لم يدخلوا فى طاعته ، وقال آخر : بل جمعوا ليذهب بهم إلى مكة ، ليشكر الله ــ تعالى ــ على ما وفقه له من بناء بيت المقدس ، والأول هو الظاهر من المقام ، أما الثانى فلا دليل عليه .

وجمع هذه الأصناف مع كفاية الإنس أو الجن ، لإظهار نعمة الله وأبهة الملك وبث الرعب فى قلوب الأعداء .

والظاهر أن المراد من جمعها جمع طائفة من كل نوع ، لا جمعها كلها ، لأن الذين يخرجون للقتال عادة وسياسة هم بعض الجنود لا كلهم ، ويترك الباقون لحفظ البلاد من الأعداء المتربصين .

والظاهر أن الحاشر لكل نوع من الثلاثة أفراد منهم معلون لمثل ذلك ، ولا غرابة فى أن يكون للطير لغة تتخاطب بها ، وإدراك يعى هذا الخطاب ، فالآية صريحة فى أن للطير منطقاً علمه الله سليمان ــ عليه السلام ــ .

بل لقد أثبت القرآن ذلك بما لا يدع مجالاً للشك فى جميع الحيوانات ، وذلك فى قوله تعالى : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ »(٢) فقد أثبتت الآية أن كل الدواب على الأرض والطيور فى جو السماء ، أمم لها خصائص تماثلنا ، وإن اختلفت فى كيفية هذه الخصائص ومستواها ، والقرآن الكريم لم يقتصر على بيان

(١) الآيات : ٣٥ ــ ٣٨

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨

كونها أممًا أمثالنا ، بل بين أن فيها قادة ينذرونها ويرشدونها ، فقد قال تعالى : « وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »[1] وقد ضرب الله مثلًا لهذا النذير ووظيفته بقوله : « قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ »[2] .

وقد سبق القرآن الكريم بذلك جميع الكشوف العلمية ، وأيدته المشاهدة ، فالنحل له ملكة تدبر أمره ، وتسوسه ، وبلغ من دقة إدراكه أنه يصنع بيوتًا مسدسة الأضلاع لتجميع عسله فيها ؛ بمقاييس فى غاية الدقة ، واختيار المسدس دون غيره ، لأنه هو الشكل الوحيد الذى لا توجد فرج بين وحداته داخل الإطار .

وبالجملة فدراسة مملكة النحل وأمته تحير الأفكار ، ومثلها النمل وجميع الكائنات الحية .

ومن أغرب ما نشاهده فى موسم الشتاء بمصر ، تلك الطيور التى تفد علينا من المناطق الشديدة البرودة ، طلبًا للدفء والرزق فى بلادنا ، وفى مقدمة كل طائفة نذيرها ومرشدها وهى تطير على هدى إدراك داخلى أقوى من (الرادار) فى حين أنها لم يسبق لها الحضور إلى بلادنا .

وكثير من الحيوانات يدرك مجىء الزلازل قبل حضورها ، وتكون له حركات تشنجية منذرة بها ، فى حين أن الإنسان لا يستطيع أن يدركها بحسه قبل أن تفاجئه .

وقد أيدت الكشوف والدراسات العلمية ما صرح به القرآن العظيم منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا ، فما أعظم القرآن ، وصدق الله إذ يقول فيه : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[3] .

ومن أغرب الكشوف العلمية ، أن للنبات إحساسًا وإدراكًا لما يحدث فيه أو حوله ، فقد صنعت آلة تسجيل على أعلى مستوى من الدقة ، وسجلت أنين الشجرة إذا قطع منها غصن ، أو نقلت شجرة مجاورة لها إلى جهة أخرى .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٢٤

(٢) سورة النمل ، من الآية : ١٨

(٣) سورة فصلت ، من الآية : ٤١ ، والآية : ٤٢

ولا نذهب بعيدًا فى هذا الشأن ، فإن النبات المعروف فى مصر باسم (عباد الشمس) تدور زهرته مع الشمس أينما دارت ، وهناك من النبات ما لو لمست ورقة منه أو نفخت فيها انكمشت ، حتى أطلق البستانيون عليها اسم : المُسْتَحِيَة ، كأنها تستحى عند لمسها أو نفخها فتجمع أوراقها وتضم بعضها إلى بعض : «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»[1] .

ومعنى الآية : وجُمِع لسليمان جيشُه وعساكره من أماكنها المختلفة ، وكان جيشه مؤلفًا من الجن والإنس والطير ، تعظيمًا لمقامه وإرهابًا لعدوه ، فهم يوزعون بالكف عن السير حتى يجتمعوا ، فتنتظم صفوفهم وألويتهم طبقًا للنظم العسكرية ثم يؤمرون بالسير .

١٨ - ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[2] :

(حَتَّى):ابتدائية ، وفيها معنى الغاية لما يفهم من الكلام قبلها ، كأنه قيل : فلما اجتمعوا ونُظِّمُوا وأمروا بالمسير ، فساروا حتى أتوا على وادى النمل . . . إلخ .

ووادى النمل : واد بأرض الشام تكثر فيه النمل - كما روى عن قتادة ومقاتل - وقيل : واد باليمن معروف عند العرب ومذكور فى أشعارهم. ولفظ (أتى) فى قوله تعالى : «أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ» يتعدى بنفسه ، فيقال : أتى وادىَ النملِ ، أو بإلى ، كقولك : أتى إلى وادى النمل - وإنما عُبِّر (بعلى) فى الآية الكريمة ، إما لأن إتيانهم إليه كان من مكان عال ، أو لأن المراد من إتيانهم عليه قطعه كله وبلوغ آخره ، والإتيان بهذا المعنى مجاز عن القرب ، من : قطعه ، ولَمَّا يقطعوه بَعْدُ ، ولهذا حذرت النملة أمتها قبل مجيء سليمان إلى مكانها من الوادى ونهتهم بقولها : «لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ» ، فقولها هذا : نهى مؤكد بالنون لجماعتها من النمل عن التعرض لتحطيمها من سليمان وجنوده إن لم تدخل مساكنها فى وادى النمل قبل مجيئهم ، وقد أدركت بإلهام الله لها أنهم لو حطموها وهى فى طريقهم فإنما يفعلون ذلك لا عن شعور بها ، كأنها أدركت عصمة الأنبياء عن الظلم بإبادتها ، وذلك منها أدب

(١) سورة المؤمنون ، من الآية : ١٤

(٢) يرى القارىء الكريم أن الآية استعملت مع النمل ضمائر العقلاء ، تنزيلا لها منزلتهم لفطنتها .

كريم فى حق سليمان وجنوده ، فلعل الناس يتعلمون حسن الظن بأهل التقوى والأدب معهم كما فعلت هذه النملة .

ومعنى الآية : فسار سليمان وجنوده حتى إذا أتوا على وادٍ يكثر فيه النمل ويعرف به ، قالت رائدته لفصيلتها : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم فى جحوركم ، لاتتعرضُنَّ بالبقاء فوق ظهر الأرض لأن يهلككم سليمان وجنوده وهم لايشعرون بإهلاكهم إياكم .

هذا وننقل فيما يلى (المسألة السادسة) من تعليق القرطبى على هذه الآية الكريمة ؛ لأهميته فيما ذهبنا إليه من أن للحيوانات إدراكات عالية .

قال القرطبى : السادسة – لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول ، وقد قال الشافعى : الحمائم أعقل الطير ، وقال ابن عطية : والنمل حيوان فَطِنٌ شمام جداً يدَّخر ويتخذ القُرى ، ويشقُّ الحبَّ قطعتين حتى لا تنبت ، ويشق الكزبرة أربع قطع ، لأنها تنبت إذا قسمت شقين ، ويأكل فى عامه نصف ما جمع ، ويستبقى سائره[1] عُدَّةً ، وقال ابن العربى : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله لها ، قال الأستاذ أبو المظفر شاه نور الإسفراييني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ووحدانية الإله ، ولكنا لا نفهم عنها ولاتفهم عنا . . . إلخ .

ولعل الأستاذ الإسفراييني ذهب إلى ذلك استنباطًا من قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[2] . ونحو ذلك مما جاء فى القرآن فى هذا المعنى .

١٩ – (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) :

نقل الآلوسى فى تفسيره لهذه الآية عن ابن حجر أنه قال : التبسم : مبدأ الضحك من غير صوت ، والضحك : انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفى ، فإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة .

---

(١) أى : باقيه .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية : ٤٤

وعلى هذا يكون المعنى : فتبسم بادئًا فى الضحك ، ومن اللغويين من قال : التبسم : ابتداء الضحك ، والضحك يشمل الابتداء والانتهاء ، ومنهم من قال : هما سواء ، وعلى الرأيين الأخيرين يكون لفظ (ضاحكًا) حالًا مؤكدة ، والراجح الفرق بين التبسم ، والضحك : والمَبْسِمُ : الثغر ، وهو مقدم الأسنان[1] والتبسم : ضحك الأنبياء فى غالب أمرهم ، وفى الصحيح عن جابر بن سمرة ـ وقيل له ـ : أكنت تجالس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال : نعم كثيرًا ، كان لا يقوم من مُصَلَّاهُ الذى يصلى فيه الصبح ـ أو قال : الغداة ـ حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ويأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم .

وقد وردت أحاديث تفيد أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يضحك أحيانًا ، والذى يؤخذ من مجموع الأحاديث أن تبسمه كان أكثر من ضحكه ، وأنه ربما ضحك حتى تبدو نواجذه ، لكن من غير قهقهة ، وفى كون التبسم غالب أحواله عند السرور يقول البوصيرى مادحًا :

سَيِّدٌ ضِحْكُهُ التَّبَسُّمُ وَالْمَشْـ ـىُ الْهُوَيْنَىٰ ونومُه الإِغْفَاءُ

ومعنى الآية : فتبسم سليمان ـ عليه السلام ـ من أجل قولها ، سرورًا بما ألهمها الله إياه من حسن حاله وحال جنوده ، وابتهاجًا بما خصه الله به من سماع قولها وإدراك مقصدها منه ، وتعجبًا من حذرها وتحذيرها جماعتها وإدراكها مصالحها ، وقال : ياربى ألهمنى أن أشكر ما أنعمت به عَلَيَّ وعلى والدىَّ من جلائل النعم الدينية والدنيوية ، واكْفُفْنِى عن التقصير فى شكرها ، ووفقنى إلى أن أعمل صالحًا ترضاه من مثلى ، وأدخلنى برحمتك فى جملة عبادك الصالحين الذين هم أهل لرضوانك والفوز بجناتك ، يقول ذلك هضمًا لنفسه ووالديه واعتبارهم مقصرين عن درجة الصالحين مع أنه وأباه داود ـ عليهما السلام ـ من خيرة المرسلين ، وأمه زوجة نبى وأم نبى ، فكيف لا يكونون فى قمة الصالحين ، ولكنه تواضع الكاملين ـ عليهم السلام ـ .

---

(١) وفعله بسم يبسم كجلس يجلس ، وأطلق التبسم على أول الضحك ؛ لأنه يبدو فيه ما تقدم من الأسنان .

(وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ) : تعرف موجوده من مفقوده .

(الْهُدْهُدَ) : طائر معروف ، ويكنى بأبى الأخبار .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : بحجة واضحة تبين عذره .

(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ) : فلبث زمانًا غير مديد .

(بِنَبَإٍ يَقِينٍ) : بخبر حقيقى .

التفسير

٢٠ ـ (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ) :

أصل التفقد : التعرف على المفقود ، والمراد منه هنا : استعراضه الطير والنظر إليها ليعرف موجودها من مفقودها ، والطير : اسم جمع يطلق على الواحد والمتعدد ، والمراد هنا : جنس الطير وأنواعه ، وكانت تصحبه فى سفره وتظله بأجنحتها ، ولذا استعرضها ونظر إليها ، ليتعرف أحوالها .

ونقل ابن كثير عن ابن إسحاق : أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان ـ فيما يزعمون ـ يأتيه من كل صنف من الطير طائر كل يوم ، فنظر فرأى من أصناف الطير ما حضر ، إلا الهدهد ، فقال : « مَالِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ » أخطأه بصرى بين الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟ :اهـ

ونقل الألوسى عن عبد الله بن سلام أن سليمان – عليه السلام – نزل بمفازة لا ماء فيها ، وكان الهدهد يرى الماء فى باطن الأرض فيخبر سليمان بذلك ، فيأمر الجن فتكشف الأرض عن الماء ، فاحتاجوا إلى الماء فتفقد الطير لذلك فلم ير الهدهد فسأل عنه .

ونقل القرطبى عن أبى مجلز أن ابن عباس قال لعبد الله بن سلام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل ، قال : أتسألنى وأنت تقرأ القرآن ؟ قال : نعم – ثلاث مرات – فقال : لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير ؟ قال : احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه ، وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير . وقد أخذ ابن عباس بما قال ابن سلام . قال مجاهد : قيل لابن عباس : كيف تفقد الهدهد من الطير ؟ فقال : نزل منزلاً ولم يدر ما بُعْدُ الماء ، وكان الهدهد مهتديًا إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت : كيف يهتدى والصبى يضع له الحبالة فيصيده ؟ فقال : إذا جاء القدر عمى البصر . قال ابن العربى : ولا يقدر على هذا الجواب إلّا عالمُ القرآن .

ونحن نقول : إن صَحَّت هذه الفراسة عن الهدهد ، فذلك شأن آخر يختلف عن وقوعه حبيسًا فى الفخ ، فإن فراسته بحسب تكوين الله لا تمتد لإدراك الغيب الذى كتبه الله عليه ، فإنه مستقبل ، أما الماء فهو موجود تحت الأرض وإن كان خفيًّا ، والموجود يدرك بالإحساس الداخلى لبعض الحيوانات ، كالكلاب تدرك الزلازل بأسباب تحسها داخليًّا ، ولكنها لا تدرى أن الطعام الذى قدمه الصياد لها مسموم ليقتلها به ، وبالجملة فمناهج التكوين الإلهى لخليقته عجيبة ، فسبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

ومعنى الآية : ونظر سليمان – عليه السلام – إلى جنوده من الطير ، ليتعرف ما حضر منها وما غاب دون استئذان منه ، فلم ير الهدهد فى جملة الطير التى تظله وتعلوه ، فقال : ما الذى جعلنى لا أراه ؟ أهو موجود بين أنواع الطير ولكنى لا أراه ؟ ثم لاح له أنه غائب فقال متسائلا : بل أكان من الغائبين ، ولما تحقق له غيابه توعده قائلا :

٢١ – (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

أى : لأعذبنه على غيابه دون استئذان منى عذابًا شديدًا ، بنحو نتف ريشه وتجويعه ، أو لأذبحنه أو ليأتينى بحجة قوية مبينة لعذره فى تغيبه عن مكانه بين سائر أنواع الطير .

وإتيانه بسلطان مبين ليس من جملة المحلوف عليه ، فقد حلف على عقابه بالتعذيب أو الذبح ، أما قوله : أَوْ ليأْتِيَنى بسلطان مبين ، فهو فى قوة الاستثناء ، فكأنه قال : إلَّا أن يأْتينى بسلطان مبين فلا أعذبه ولا أذبحه ، لأن سليمان لا يقسم على فعل الهدهد ، قال الآلوسى : إن هذا الشق ليس مقسمًا عليه فى الحقيقة ، وإنما المقسم عليه الأولان ، وأُدخل هذا فى سلكهما للتقابل ، وهذا - كما فى الكشف - نوع من التَّغْليب لطيف المسلك ، ومآل كلامه - عليه السلام - : ليكونن أحد الأُمور الثلاثة ، على معنى : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما ، فأَوْ فى الموضعين للترديد : انتهى كلام الآلوسى .

٢٢ - (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) :

(سَبَإٍ) قرأه الجمهور مصروفًا - أى : منونًا - على أنه اسم لِحَىٍّ من الناس سموا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (مِن سَبَأَ) - بفتح الهمزة غير مصروف - على أنه اسم للقبيلة ، ثم أطلق على الإقليم أو البقعة التى يعيشون فيها بأرض اليمن .

ومعنى الآية : فمكث الهدهد زمانًا غير بعيد خوفًا من سليمان - عليه السلام - ثم عاد وقال لسليمان - عليه السلام - مبينًا سبب تخلفه عن مكانه بين الطير : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، وجئتك من سبأ بخبر حقيقى لا ريب فيه .

واختار الهدهد هذا الأُسلوب فى ابتداء كلامه ، لترغيبه فى الإصغاء إلى اعتذاره ، واستمالة قلبه نحو قبوله ، فإن النفس يشتد إقبالها على تلقى ما لم تعلم ، وتميل إلى قبول عذر من أتاها به بعد غياب دون إذن .

وقال الإمام البيضاوى : وفى مخاطبته إياه بذلك تنبيه على أن فى خلق الله - تعالى - من أحاط علمًا بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر لديه علمه .

ويقول البيضاوى فى سبب غياب الهدهد : روى أنه - عليه السلام - لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج ، فوافى الحرم ، وأقام به ما شاء ، ثم توجه إلى اليمن ، فخرج من

مكة صباحًا فوافى صنعاء ظهيرة ، فأعجبته نزاهة أرضها ،فنزل بها فلم يجد الماء ، وكان الهدهد رائده ؛ لأنه يحسن طلب الماء ، فتفقده لذلك فلم يجده ، إذ حلَّق حين نزل سليمان ، فرأى هدهدًا واقعًا فانحط إليه، فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له ، ثم رجع بعد العصر ، وحكى ما حكى . ا هـ .

ونحن نقول : الله أعلم بحال تلك الرواية ، ألها أصل أم هي من الحكايات التي ليس لها دليل ؟

(إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(عَرْشٌ عَظِيمٌ) : العرش: سرير الملك . (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ) : أي فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله . (يُخْرِجُ الْخَبْءَ) : الخبء : ما خفي في غيره ، وإخراجه : إظهاره .

التفسير

٢٣ – (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) :

بعد أن شوق الهدهد سليمانَ إلى معرفة السر الذي غاب عن مجلسه من أجله بقوله : « أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » بعد أن شوقه إلى ذلك عقبه ببيان هذا السر الذي حكته هذه الآية .

والمرأة التى كانت تملك سبأ اسمها (بلقيس بنت شراحيل) كما يقول المؤرخون والمفسرون ، فقد كانت ملكة عليهم وحاكمة لهم فى إقليم مأرب ، وقد كانت المسافة بين معسكر سليمان فى صنعاء، وبين مأرب مسيرة ثلاث ليال - كما ذكره القرطبي - فكيف خفى أمرها على سليمان وجنوده من الإنس والجن ؟ والجواب : أن الله أخفى أمرها لمصلحة ستُعرف من قصتها ، كما أخفى أمر يوسف على يعقوب ليجده فى النهاية حاكم مصر وسيدها المطاع .

والمراد من إيتائها من كل شيء : أن الله - تعالى - أعطاها من أسباب قوة الملك ما جعل لها سلطانًا قويًّا على قومها وبين جيرانها .

وقد ذكر المفسرون فى وصف طول عرشها وعرضه وارتفاعه وجواهره أمورًا عجيبة لم نجد لها أصلًا فتركنا ما قالوه اكتفاء بوصفه فى الآية بأنه عظيم ، والله أعلم بعظمته كيف كانت .

ومعنى الآية : إنّى وجدت امرأة عظيمة العقل والجاه تملك قومها سبأ وقد أعطاها الله من كل شيء يحقق لها السيطرة على قومها ، والعزة والجاه فيما حولها ، ولها سرير عظيم تجلس عليه فى أبهة الملك ، حينما يلقاها عظماء قومها أو سواهم .

وقد أثار المفسرون لهذه الآية مسألة حكم المرأة وقضائها فى كتب التفسير الموسعة ، وبخاصة التى تعنى بالأحكام الفقهية ، وانتهوا إلى أنها لا تلى شيئًا من ذلك ، مستندين إلى ما رواه البخارى من حديث ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لمَّا بلغه أن أهل فارس قد ملَّكوا بنت كسرى قال : « لن يفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة » .

٢٤ ، ٢٥ - (وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) :

تحكى الآية السابقة بأسلوب الاستئناف ، وهاتان الآيتان بعدها بقية ما رواه الهدهد لسليمان - عليه السلام - عن مملكة سبأ .

والمعنى : وجدت هذه الملكة وقومها يسجدون للشمس عابدين لها ، متجاوزين عبادة الله معرضين عنه ، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم المجافية للحق فى العقائد والسلوك ، فصرفهم عن السبيل الموصلة إليه ، فهم لأجل ذلك لا يهتدون إلى الصواب ــ صرفهم ــ لئلاَّ يسجدوا لله الذى يظهر الخفى فى السموات ، فيجعل الكواكب التى أخفاها النهار تبدو فى الليل ، والشمس التى أخفاها الليل تبدو بالنهار ، والأمطار المحبوسة فى الفضاء تبدو بهطولها ، وغير ذلك مما يكشفه الله من أسرارها ، ويظهر ما اختبأ فى الأرض من الكنوز التى لا تحصى أنواعها ، والنبات الذى لا تعد أجناسه وخصائصه وغير ذلك مما يكشفه لنا من خباياها ، ويعلم ما يخفيه هؤلاء الذين يعبدون الشمس وما يظهرونه ، وليس للشمس شىء من ذلك ، فهى مسخرة لله تعالى ، فكيف ينصرفون عن عبادته إلى عبادتها ؟

٢٦ ـ (اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) :

هذه الآية تحكى آخر ما ذكره الهدهد لسليمان بشأن غيابه عنه دون إذن ، وهى ـ كالتعليل لوصفه الله ـ عز وجل ـ بالقدرة على إخراجه الخبء فى السموات والأرض ، وعلمه بأحوال من يعبدون الشمس من دونه .

والمعنى : الله لا معبود بحق إلَّا هو ، رب العرش العظيم الذى لا حد لعظمته ، فكيف تركوا عبادته لعبادة الشمس التى هى من مقدوراته ومخلوقاته ؟

والعظيم ــ بالجر ــ وصف للعرش ، ويكفى فى الدلالة على عظمته ، أن الكرسى الذى وسع السموات والأرض بالنسبة للعرش كحلقة فى فلاة ، كما ورد فى السنة ــ فأين عظمة عرش ملكة سبأ من عظمة عرش الرحمن ــ سبحانه وتعالى ــ ؟

وبعد ، فإن الإنسان ليقف مبهوراً أمام قصة هذا الهدهد ، كيف استطاع أن يتعرف على أحوال مملكة سبأ وعقائدها بهذه الدقة ، وأن يلومهم على تركهم عبادة الله إلى عبادة الشمس ، مع أنها وعابديها تحت سلطانه وعلمه ــ جل وعلا ــ .

وإن المرء ليعجب من وصول الطير فى العلم بالله إلى هذه الدرجة ، فى حين أن بعض البشر لم يصلوا إلى مثلها ، ولا نجد شيئاً نقوله أمام هذه العجائب خيرا من قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا »[1].

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٤٤

* (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾)

المفـردات :

(سَنَنظُرُ) : من النظر ؛ بمعنى التأمل ، أى : سنتحرّى ونتحقق .

(أَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) : ادفعه إليهم وأوصله لهم . (تَوَلَّ عَنْهُمْ) : تَوَارَ وتَنَحَّ إلى مكان تغيب فيه عن أبصارهم . (فَانظُرْ) : فانتظر أو تعرَّف .

(مَاذَا يَرْجِعُونَ) : أى ؛ بماذا يجيبون ، ويرد بعضهم على بعض فى شأن الكتاب .

التفسـير

٢٧- (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ . . .) الآية .

كلام مستأنف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد .

كأنه قيل : فماذا فعل سليمان - عليه السلام - بعد اعتذار الهدهد ؟

فقيل : قال : سننظر .

والمعنى : قال سليمان - عليه السلام - ردًّا على الهدهد فيما اعتذر به عن غيابه عن مكانه بين الطير بغير إذنه -قال- : سَنَتحرى ونعرف أصدقت فيما قلت ؟ أم أنك كنت من جملة أهل الكذب المعنين فيه ؟ والعدول عن التعبير بقوله : أصدقت أم كذبت إلى قوله : (أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) للإيذان بأن كذبه بهذا الأسلوب المنسق ، ومع نبى الله سليمان يقتضى إيغاله فى الكذب ، وانتظامه فى سلك المتعمقين فيه إن لم يكن له ما يصدقه .

وفى هذا الأسلوب دليل على أن الإمام يجب عليه أن يتحرى عند الاعتذار قبل أن ينزل العقوبة بمن ظاهره الخطأ ، فربما كان صادقًا فى اعتذاره ، وفى الصحيح : « لا أحد أحب إليه العذرُ من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل » .

٢٨ - (اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا . . .) الآية .

الأمر بالذهاب للهدهد ، واختصه به لأنه صاحب العذر . وقوله : « كِتَابِي هَٰذَا » يدل على أن سليمان - عليه السلام - أعدّ الكتاب بعد أن أخبره الهدهد بقصة أهل سبأ .

والمعنى : توجه بكتابي هذا الحاضر بين يدىّ إلى الملكة بلقيس ومن‌هم على دينها من قومها فألقه إليهم ، وادفعه لهم ، ثم تَنَحَّ عنهم إلى‌مكان تختفى فيه عن أبصارهم وتسمع كلامهم ، ثم انظر وتعرف ما يجيبون ، ومايرد بعضهم به على بعض ، وما يجرى بينهم من مراجعة وحوار حول مضمون هذا الكتاب .

وقد جرى الأسلوب بضمير الجمع لأن مضمون الكتاب دعوتهم جميعاً إلى الإسلام وفى قوله : « ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ » توجيه إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه الرسل فى معاملة الملوك ، مع تنبيههم إلى اليقظة ، وحدة الانتباه .

(قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) : أشراف القوم وأصحاب الرأى فيهم .

(كَرِيمٌ) : لكرم مضمونه ، أو لشرف مرسله . (تَعْلُوا عَلَيَّ) : تتكبروا وتتجبروا .

(مُسْلِمِينَ) : مؤمنين ، أو منقادين طائعين .

التفسير

٢٩ - (قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّيَ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) :

روى أن سليمان - عليه السلام - كتب كتابًا ، وختمه بخاتمه ، ودفعه إلى الهدهد ليحمله إلى بلقيس ، فطار به إليها ، وألقاه من كوة فى بيتها ، فقرأته ولم تذكر

هذه التفاصيل ، جريًا على عادة القرآن من الاقتصار على الضرورى للعبرة ، وترك ما هو بدهى ، وللإيذان بكمال مسارعة الهدهد إلى تحقيق ما أمر به .

والمعنى الإجمالى : قالت الملكة لأشراف قومها ، بعد أن أخذت الكتاب وقرأته ، ورأت ما رأت من أمر الهدهد فى دخوله وإلقائه الكتاب إليها وتنحيه ، وغير ذلك مما يعرب عن عظمة مرسله ، قالت : يا أيها الأشراف من قومى إنى ألقى إلىَّ كتاب كريم فى شرفه وشرف مرسله وعلو مكانه .

وفسّر ابن عباس وغيره الكريم هنا بالمختوم ،وهومعنى لغوى ، فكرمُ الكتاب ختمه .

وفى شرح أدب الكاتب لابن المقفع يقال : أكرمت الكتاب فهو كريم ، إذا ختمه وقال ابن المقفع : « من كتب إلى أخيه كتابًا ، ولم يختمه فقد استخف به » .

٣٠ ، ٣١ -(إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) :

أى : إن هذا الكتاب من سليمان نبى الله ، وإن مفتتحه « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » ولم يسبق بها كتاب قبله ، وإن مضمونه ألَّا تعلوا علىَّ وائتونى خاضعين ولا تتكبروا وتتجبروا وتأخذكم العزة بالإثم فتجنحُوا إلى العصيان والتمرد ، أو ائتونى مسلمين ، مؤمنين بدعوتى طائعين منقادين لرسالتى ، فنى هذا أمنكم، وأمانكم، وسلامة دنياكم وسعادة آخرتكم .

وجاء الكلام فى هذه الآية مؤكدًا (بإنَّ) كما جاء مؤكدًا قبل ذلك بها فى قوله : « إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ » - اعتناء بشأن الكتاب ، واهتمامًا بسموّ مضمونه .

(قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(أَفْتُونِى) : أشيروا علىّ بما عندكم من الرأى . (قَاطِعَةً) : قاضية وفاصلة .

(تَشْهَدُونِ) : تحضرونى وتدلون بآرائكم . (أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ) : وفرة فى العدد .

(وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ) : نجدة مفرطة ، وبلاء فى الحرب .

(وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ) : والرأى فى بتّ الأمور إليك موكول .

التفسير

٣٢ـ (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ) :

قالت بلقيس للملأ من قومها وأشرافهم وهم شهود فى مجلسها : يا أيها الملأ أفتونى وأشيروا علىّ بما عندكم من الرأى فى هذا الأمر الخطير الذى جاء برسالة سليمان ، وقد اعتدت أن أسمع رأيكم، وأنتفع بمشورتكم فى كل ما يحدث لى ، ويجدّ فى ملكى ، ما كنت أقطع فى أمر ولا أقضى فيه حتى تحضروا وتشيروا فيه برأيكم، وتكرر نداؤها للملإ من قومها مع وحدة الموضوع ، اهتمامًا بالأمر ، وجذبًا لانتباههم وإثارة لأفكارهم .

٣٣ـ (قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ) :

أى : قال الملأ من قومها ، وقد فهموا أنها تهدف من كلامها إلى الاستيثاق من تأييدهم والاطمئنان على مدى استعدادهم لنصرتها ، والوقوف إلى جانبها إذا رأت عصيان الدعوة ومقاومتها .

قالوا : نحن أصحاب قوة فائقة ، فى العَدَدِ والعُدَد ، وأصحاب شدة وبلاء فى الحروب لا ترهبنا قوة ، ولا ينهنهنا وعيد ، وهذا دورنا وهذه مهمتنا ، وأما البت

فى الأمور فهو موكول إليك تقضين فيه بما تشائين سلمًا وحربًا ، ولك علينا الطاعة فى كل ما تريدين ، وما تأمرين ، فانظرى أى شىء ترينه وتأمرين به نكن فى طاعتك .

(قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً) : أى دخلوها محاربين . (أَفْسَدُوهَا) : خربوها وقلبوا أوضاعها وأتلفوا عمرانها . (أَذِلَّةً) : مُهَانينَ بالقتل ، والأسر ، والإجلاء عنها ، جمع ذليل .

(هَدِيَّة) : عطية عظيمة ، والهدية : اسم لما يهدى ، كالعطية : اسم لما يعطى .

التفسير

٣٤ - (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا . . .) الآية .

قالت بلقيس - تعليقًا على ما قاله الملأ من قومها وقد أحست من لحن قولهم وفحواه الميل إلى الحرب ، والعدول عن سَنَن الصواب ، فأرادت ردهم إلى الرشاد - قالت : إن شأن الملوك وسلوكهم إذا فتحوا قرية - أية قرية - وغلبوا أهلها خربوها ، وأتلفوا ما فيها من أموال ، ونكسوا أحوالها ، وجعلوا أعزة أهلها وسادتها أذلة مُهَانين بالقتل ، والأسر والإجلاء وغير ذلك من صنوف الإهانة والإذلال .

وقوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) يحتمل أن يكون من كلام بلقيس تدعيمًا لرأيها ، وتأكيدًا لما وصفته من حال الملوك الفاتحين ، وتقريرا بأن ذلك من سياستهم المستمرة وسلوكهم الدائم . ويحتمل أن يكون من جهته - عزَّ وجلَّ - تصديقًا لقولها على ما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - .

٣٥ـ (وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ . . .) الآية .

هذه الآية تتمم لكلامها مع الملأ من قومها الذى أرادت به أن تنبئهم بما استقر فى ذهنها من أمر سليمان ـ عليه السلام ـ الذى سخر الله له الجن ، والطير يرسلها إلى مايشاء ، وأنه من القوة بحيث يغلبهم على أمرهم إذا قاتلوه ، فيفسد القرى ، ويذل الأعزة وختمت رأيها بقولها : « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ » عظيمة حافلة تليق بالملوك ، تشبع نهمهم وتطفىء نار حقدهم ، وتطمعهم فى الصداقة ، وتغريهم بالمودة ، روى أنها قالت لقومها : إن كان ملكا دنيويا أرضاه المال ، وعملنا له بحسب ذلك ، وإن كان نبيا لم يرضه المال وينبغى أن نتبعه على دينه . ا هـ وجاء فى ابن كثير عن ابن عباس وغير واحد أنها قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

وقوله تعالى حكاية عنها : (فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) معناه : فمنتظرة بعد وصول الهدية إليهم ، واطلاعهم عليها ـ بأى شىء يرجع إلىّ المرسلون بالهدية فأعمل بما يقتضيه الأمر ، نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال : ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها .

(فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(أَتُمِدُّونَنِ) : تساعدوننى . (لَا قِبَلَ لَهُمْ) : لا طاقة لهم بلقائها ، وأصل القِبَلِ : المقابلة ، ثم جعل فى الطاقة . (صَاغِرُونَ) : مهانون أذلة .

التفسير

٣٦ - (فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ[1] بِمَالٍ فَمَآ آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) :

أى : فلما جاء الرسولُ سليمانَ - عليه السلام - بالهدية قال - موجهًا الكلام إليه وإلى من معه وإلى المُرْسِل إنكارًا عليهم ، وتوبيخا لهم - : أتعطوننى مالًا وعندى منه ومن غيره كثير ، فما أعطانى الله من الملك والمال والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أطمع فى مال ولا أفرح به ، بل أنتم الذين تفرحون بالمال الذى يهدى إليكم وتحرصون عليه ، وتطيب نفوسكم به لقصر همتكم على الدنيا ، وحبكم الزيادة فيها ، والمكاثرة والمفاخرة بها .

٣٧ - (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) :

من جملة كلام سليمان - عليه السلام - لرسول بلقيس ، وأفرده بالذكر لاختصاصه بالرجوع دون من كان معه من المرسلين .

والمعنى : ارجع - أيها الرسول - إلى بلقيس ، وقومها بالهدية ، وبلغهم مقالتى بشأنها ، ووجوب استسلامهم إلينا ، فإن لم يأتوا مسلمين فوالله لنأتينهم ، ولندفعن إليهم بجنود لا طاقة لهم بلقائها ولا قوة لهم على قتالها ، وليكونن لنا الغلب عليهم ، ولنخرجنهم من مملكتهم سبأ أذلة مهزومين وهم صاغرون أسارى مستعبدون .

---

(١) قرأ هكذا حفص بحذف ياء المتكلم تخفيفاً .

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ
مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ
مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا
رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ
أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى
غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

(عِفْرِيتٌ) : مارد خبيث ، ويقال له : عِفْرِية وَعِفْر . (لَقَوِىٌّ) : لقادر لايثقلنى حمله . (أَمِينٌ) : لاأختلس ولا أغيّر فيه . (مِن مَّقَامِكَ) : من مجلسك الذى تجلس فيه للقضاء ، أو من جلستك . (لِيَبْلُوَنِى) : ليختبرنى .

التفسير

٣٨ - (قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ) :

هذا القول يقتضى قولًا آخر يرشد إليه سياق القصة ؛ أى : فرجع الرسول بالهدية إلى بلقيس ، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان فعرفت أنه نبى لا طاقة لها بقتاله ، وتجهزت للمسير إليه ، وعلم سليمان بخروجها إليه فقال : « يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا » أى : يحضره عندى على حاله التى هو عليها قبل أن تأتينى هى وقومها منقادين طائعين ؟

وإنما طلب سليمان ــ عليه السلام ــ إحضار العرش قبل أن يأتوه مسلمين ليريها القدرة التي مكن الله ــ تعالى ــ له فيها ، والآيات التي أيده بها ، فأراد أن يُغرب عليها ، ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده .

وقيل : أراد ــ عليه السلام ــ من إحضار العرش أن يختبر عقلها ، ودقة إدراكها للأمور فيعرضه عليها بعد أن يغير من معالمه ، ويُبَدِّل فى أوضاعه ، فيرى أتعرفه أم تنكره ؟ وما قيل من أنه ــ عليه السلام ــ أراد أن يتملكه قبل أن يعصم الإسلام أنفسهم ، وأموالهم ، لا يناسب مقام النبوة ، ولا يتواءم مع موقفه من الهدية ، والتحدث بنعمة الله ــ تعالى ــ عليه .

٣٩ ــ (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) :

أى : قال خبيث مارد من الجن مجيبًا سليمان ــ عليه السلام ــ : أنا أحضره لك قبل أن ينفض مجلسك الذى تجلس فيه للقضاء من أول النهار إلى الظهر ، كما قيل ، أو قَبْل أن تنهض من جلستك هذه التى تجلسها ، وإنى على إحضاره لك لقوى متمكن لا يثقلنى حمله ، أمين لا أختلس منه ولا أغير فيه .

٤٠ ــ (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..) الآية .

أى : قال الذى عنده علم من الكتاب ، بعد أن سمع مقالة العفريت ، وكأنه رأى أن التوقيت الذى وقّته بعيد بالنسبة لما يُحسُّه فى نفس سليمان ــ عليه السلام ــ قال : أنا آتيك به قبل أن يرجع إليك بصرك الذى تمدّه فى الفضاء لتنظر شيئًا بعيدًا أمامك .

والذى عنده علم من الكتاب قيل : هو آصف بن برخيا وزير سليمان ، وقيل : الخضر ــ عليه السلام ــ وقيل : جبريل ــ عليه السلام ــ أو ملك أيده الله به .

وقال الجبائى : الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، وكان التعبير بهذا الأسلوب للدلالة على شرف العلم ، وأن هذه الكرامة كانت بسببه ؛ ويكون الخطاب فى قوله : « أَنَا آتِيكَ بِهِ » للعفريت لأنه تصدى لدعوى القدرة على الإتيان به من بين الحاضرين ، وإنما لم يأت سليمان بالعرش ابتداء ، بل استفهم ، ثم قال ما قال وأتى به ليريهم أنه يتأتى له ما لا يتهيأ لعفاريت الجن ، فضلًا عن غيرهم ، وقد استظهر هذا القول لوجوه :

أولًا : أن الموصول موضوع فى اللغة لشخص معين بمضمون الصلة المعلومة عند المخاطب ، وهذا هو سليمان – عليه السلام – .

ثانيًا : إحضار العرش فى تلك اللحظة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لأحد من أمته دونه لاقتضى تفضيله على سليمان ، وهذا غير جائز .

ثالثا : لو افتقر سليمان فى إحضاره إلى أحد من أمته لاقتضى قصورَ حاله فى أعين الناس .

رابعًا : وأخيرا أن قوله – عليه السلام – : « هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى » يقتضى أن ذلك الخارق قد أظهره الله بدعائه – عليه السلام – .

وسواءٌ أكان الذى عنده علم من الكتاب سليمان أم غيره ، فإحضار العرش على هذه الصورة مثل عال لقدرة الله – تعالى – أظهره إمَّا معجزة لنَبى ، أو كرامة لولى وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقوله تعالى : (فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى) :معناه ؛ فلما رأى سليمان – عليه السلام – العرش حاضرًا أمامه ، قارًّا فى موضعه حيث أراد ، قال : هذا النصر والتمكين مما تفضل به علىَّ ربى ليتعبدنى ويختبرنى أأشكر نعمته علىَّ أم أكفرها ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ؛ لأن نفع ذلك يعود عليه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها ؛ لقوله تعالى : « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » والشكر قيد النعمة الموجودة ، وصيد للنعمة المفقودة ، ومن كفر فلم يشكر النعمة ، وأبطرته ، فإن الله غنى عن شكره ، كريم فى تفضله على خلقه ، يرزق البار والفاجر والشاكر والكافر ، وحسابهم يوم تبلى السرائر .

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ
هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت
تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا) : غيروا هيئته ، وبدِّلوا أوضاعه . (صَدَّهَا) : منعها وردها .
(نَنظُرْ أَتَهْتَدِى) : نعرف من أمرها وحالها أتهتدى إليه ؟

التفسير

٤١ - (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) :

قال سليمان - عليه السلام - بعد أن رأى العرش مستقرا ثابتًا أمامه - قال - لمن حوله من الجنود والأتباع : غيروا لبلقيس معالم عرشها ، وبدلوا أوضاعه بحيث تختلف فيه الرؤية ، ويختلط النظر لنعرف ونعلم من حالها ، أتهتدى إلى أنه عرشها ، ولم يضللها التنكير والتبديل ؟ « أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » : أى أم تكون من ضعف الملاحظة ، ودقة الإدراك بحيث لا تعرفه ، فتكون من جملة الذين لا يهتدون إلى الجواب الصواب ، وإدراك دقائق الأمور ، روى عن ابن عباس وغيره أن تنكيره كان بالزيادة والنقص فيه ، وقيل : بغير ذلك .

٤٢ - (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) :

أى : فلما جاءت بلقيس سليمان - عليه السلام - ومثلت عنده ، والعرش مستقربين يديه قد جرى فيه من التنكير والتغيير ما أمر به ، قيل لها على سبيل الاختبار : « أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ » ؟ أى : انتبهى ودققى النظر ، أمثل هذا عرشك الذى تركته ببلادك ، وتحفظت عليه بكل أساليب التحفظ ؟

ولم يكن السؤال : أهذا عرشك بغير كاف التشبيه ، زيادة فى إبهام أمره عليها ، ولم يصرح بالقائل لها لأنه لايتعلق بذكره غرض ، ولأن السؤال سؤال تعمية وتلبيس لا يجمل معه ذكر السائل ، وكان جوابها : « كَأَنَّهُ هُوَ » غاية فى دقة الفكر ، وكمال رجاحة العقل ، حيث لم تقطع بأنه هو ، أو ليس هو ، فضلًا عمًّا فيه من مواءمة مافى السؤال من الإبهام والإعجام .

وقوله تعالى : (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) : يحتمل أن يكون من كلام بلقيس على ما اختاره جمع من المفسرين ، كأنها استشعرت من سؤالها اختبارهم لها فأجابت بما يفيد أنها أوتيت قبل هذه المعجزة أو هذه الحالة العلم بكمال قدرة الله تعالى ، وصدق نبوة سليمان بما شاهدت من أمر الهدهد ، وما سمعت من أخبار رسلها ، وكانت مؤمنة بهذه الرسالة منذ ذلك الوقت ، وقيل : إن الكلام من قوله : « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ » إلى قوله : « مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ » مقول على لسان سليمان وقومه ، كأنهم لمَّا سمعوا جوابها : « كَأَنَّهُ هُوَ » استحسنوه ، وقالوا : أصابت ، وعلمت قدرة الله ، وصحة نبوة سليمان وقد أوتينا العلم بذلك من قبلها وكنَّا به مسلمين ، كما قالوا ما تضمنته الآية التالية ، والأول هو الظاهر .

٤٣ ـ (وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ) :

أى : وصد بلقيس عن تعجيل إظهار إسلامها وتصديقها برسالة سليمان ما كانت تدين به من عبادة فى الكفر ، متأصلة فى الوثنية ، فلما حضرت إلى سليمان ، وأمنت بطش قومها أعلنت إسلامها ، وأظهرت ما كانت تضمره منذ ظهرت لها المعجزات .

(قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ
عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾).

المفردات :

(الصَّرْحَ) : القصر ، وكل بناء عال ، ومنه : ابْنِ لِى صَرْحًا ، وقيل : صحن الدار .
(لُجَّةً) : ماء كثيرًا غامرًا . (مُّمَرَّدٌ) : مُمَلَّسٌ . (قَوَارِيرَ) : زجاج ، جمع قارورة .

التفسير

٤٤ - (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا) :

كلام مستأنف بعد الفراغ من امتحانها السابق . كأنه قيل : فماذا كان بعد امتحانها ؟ وطوى ذكر القائل على حد طيه فى قوله : « قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ » .

والمعنى : قيل لبلقيس بعد أن أدت الامتحان الذى أريد لها ، وظهرت رجاحة عقلها ودقة إدراكها للأمور - قيل لها - : ادخلى القصر .

وقد قيل : إن سليمان - عليه السلام - كان قد أمر الجن قبل قدومها فبنوا لها قصرًا على طريقها من زجاج أبيض أملس ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فى الماء ما يكون فيه عادة من حيتان وأصداف ، ووضع سريره فى صدره ، فجلس عليه ، ليزيدها استعظامًا لأمره ، وتحققًا من نبوته ، وثباتًا على الدين ، وماقيل من أنه ذكرت عنده بأنها شَعْرَاءُ[1] فأراد بذلك تعرف حالها ، يجافى مقام النبوة وقداسة الأنبياء ، وقوله تعالى : « فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً » معناه : فلما رأت القصر ، وعاينت هيئته وأحواله ظنته ماء غَمْرًا فكشفت عن ساقيها ، فعل من يريد خوض

(١) أى : فى ساقيها شعر .

الماء حذرًا من أن يبتل طرف ثوبها ، ورأى سليمان منها ذلك ، وأحس دهشتها وحذرها وقال لها : إنه صرح مملس من زجاج أبيض صاف ، فلا تحذرى ولا تخافى بللًا . قالت بلقيس وقد رأت هذه القدرة الفائقة ، والنعمة السابغة على سليمان ـ قالت ـ : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى » : بقيامى على عبادة الشمس ، وتأخير إسلامى ، وأسلمت لله رب العالمين مع سليمان تابعة له .

وفى التعبير بقوله : « لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » دون : (وأسلمت مع سليمان لك) حسب ما يقتضيه سياق الأسلوب ، التفاتٌ إلى الاسم الجليل ، ووصفه بربوبيته العالمين لإظهار ما تم لها من كمال معرفتها الألوهية ، واعترازها بربوبيته ، وتأكيدًا لاستحقاقه التوحيد والعبادة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(السَّيِّئَة) : المراد بها : التكذيب ، أو العقوبة التى تسئ .

(الْحَسَنَة) : التصديق ، أو التوبة .

(اطَّيَّرْنَا) : تشاءمنا ، وأصله : تَطَيَّرنا ، قلبت التاء طاء وأدغمت فى الطاء ، ثم اجتلبت همزة الوصل للتوصل بها للنطق بالساكن .

(طَائِرُكُمْ) : سبب شؤمكم . (تُفْتَنُونَ) : تختبرون .

التفسير

٤٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) :

شروع فى قصة صالح - عليه السلام - بَعْد الفراغ من قصة سليمان ، وقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ » معطوف على قوله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » فى صدر قصة سليمان ، وكلتا القصتين وغيرهما برهان على صحة ما جاء فى أول السورة من قوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » لأن الحديث عن أحوال الأولين وأخبار الأنبياء السابقين ليس مما يعرفه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولاعهد له به .

ومعنى الآية : والله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا يدعوهم إلى توحيد الله ، وعبادته ونبذ عبادة ما عداه .

وبدأت بالقَسم اعتناء بشأن ما اشتملت عليه من أخبار ، وما احتوته من أحوال .

وقوله تعالى : (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) معناه : فتعجلوا العصيان وجنحوا إلى الخلاف والفرقة وفاجئوا بالانقسام إلى فريقين يختصمون : فريق مؤمن مصدق وفريق كافر عاص مما جاء تفصيله فى آيات كثيرة فى سور أخرى ، منها ماجاء فى سورة الأعراف من قوله تعالى :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِالَّذِيٓ آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) » إلى آخر ما جاء من الآيات .

والضمير فى « يَخْتَصِمُونَ » للفريقين : المؤمن والكافر ؛ لأنهما شريكان فى الاختصام ، والاختصام وقع بعد الدعوة ، وظهور الآيات وإيمان فريق منهم .

والفاء للترتيب والتعقيب ، وهو فى كل شىء بحسبه حتى تتأتى المفاجأة بالتفرق والاختصام .

٤٦ - (قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) :

قال صالح - عليه السلام - متلطفا مع قومه ، مستميلا لقلوبهم : يا قوم لِم تبادرون وتستعجلون بالمعصية والتكذيب ، أو طلب العقوبة المسيئة لكم قبل التصديق والطاعة ،

أو قبل التوبة التي تعصمكم من العذاب والعقوبة ؟ هلا تبادرون بالاستغفار رجاء أن تنالكم رحمة الله بقبوله توبتكم ، فإن سنته - تعالى - عدم قبول التوبة عند نزول العذاب : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ » ثم قال : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ » وكانوا لجهلهم ، وفرط غوايتهم يقولون : إن وقع وعيده تُبْنا ، وإلا فنحن على ما كنا عليه .

٤٧ - (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالُوا طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ) :

قال الفريق الكافر رداً على دعوة صالح لهم : تشاءمْنا بك وبالذين اتبعوك ، وكانوا معك ، فمذ قمتَ بدعوتك أصابنا القحط ، وشاعت فينا الفرقة ، واستشرى الخلاف ، قال صالح لهم : سبب شؤمكم ومصائبكم عند الله وبقَدَره ، أو كفركم وعنادكم وسوء أعمالكم المكتوبة عنده .

وأصل التطير : أنه كان من عادتهم إذا خرجوا مسافرين فمروا بطائر زجروه . فإن طار إلى اليمين تيمنوا ومضوا ، وإن مَرَّ بارحا إلى اليسار تشاءموا ورجعوا .

وقوله تعالى :(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) : تعقيب بالحكم عليهم بالعذاب الذى ابتلاهم الله به ، بسبب كفرهم ومعاصيهم ، أى : بل أنتم محكوم عليكم بالفتنة ، أى : العذاب .

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(رَهْطٍ) : أى ؛ رجال ، ولهذا وقع تمييزاً لتسعة فإنها تميز بالجمع المجرور ، وأصل

الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، أما النفر : فمن الثلاثة إلى التسعة[1] .

(تَقَاسَمُوا) : فعل أمر بمعنى احلفوا ، أو فعل ماض بمعنى : تحالفوا .

(لَنُبَيِّتَنَّهُ) : لنهلكنه ليلا . (مَهْلِكَ أَهْلِهِ) : أى ، هلاك أهله ، أوموضع هلاكهم .

التفسير

٤٨ – : (وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) :

استمرار فى عرض القصة ، والمعنى : وكان فى مدينة ثمود وهى فى الحجر – كان فيها – تسعة رجال من أشراف قومها وسادتها ، وقيل : كانوا رؤساء وراء كل واحد منهم جنوده وأتباعه ، منهم قدار بن سالف عاقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وقادة الشر فيهم ، يفسدون فى الأرض ، ويأمرون بالإفساد فيها ، ويتتبعون عورات الناس ومعايبهم ، يظلمون الناس ، ولا يمنعون الظالم عن ظلمه ، ولا يعملون صالحا ، ولا يدعون إليه ، ولا يعرفون طريقه – فعادتهم الدائمة المستمرة الإفساد البحت الذى لا يخالطه شىء من الصلاح فى عمل أو قول .

٤٩ – (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) :

استئناف مبين بعض ما فعلوا من الفساد ، والمعنى : ومن جملة شرهم : أنهم قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح – عليه السلام – : احلفوا وأقسموا وأكدوا قسمكم لنبيتن صالحا وأهله ، أى : لنهلكنه وأهله بياتا وليلا حتى نتخلص من متاعبه ، أو قالوا – حالفين متقاسمين – هذا القول ، ثم لنقولن لوليه الذى يتولى طلب دمه إذا سألنا – نقول له – : ما شهدنا هلاكه وأهله فضلا عن عدم مباشرتنا إهلاكهم ، ونحلف وإنا لصادقون فى حلفنا حيث لم نباشر إهلاكهم بأنفسنا ولم نشاهده ، أو أنهم باشروه وشاهدوه ، ولكنهم حلفوا أنهم صادقون فى تبرئة أنفسهم ، غير مكترثين بحلفهم وهم فى الحقيقة كاذبون ، والشىء من معدنه لا يستغرب .

(١) انظر تفسير أبى السعود .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣ ﴾

المفـردات :

(مَكَرُوا مَكْرًا) : دبروا أمرا فى احتيال وخديعة خفاء ، وهو إهلاك صالح وقومه .

(وَمَكَرْنَا مَكْرًا) : جازيناهم بمكرهم من حيث لا يتوقعون .

(دَمَّرْنَاهُمْ) : أهلكناهم . (خَاوِيَةً) : خالية من السكان والأهل ، أو متداعية مهدمة .

التفسـير

٥٠ - (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

مكرهم : ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكر الله : مجازاتهم وإهلاكهم ، وسميت المجازاة مكرا للمشاكلة ، كما فى قوله تعالى : « يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » وكما فى قوله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ » وكان صالح - عليه السلام - قد توعدهم بالهلاك خلال ثلاث ليال أهلكهم الله فيها بالصيحة فأصبحوا جاثمين ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه .

والمعنى : ومكر قوم صالح فدبروا فى خفاء إهلاكه وأهله ليلا ، وعلم الله مكرهم فقدر إهلاكهم من حيث لا يشعرون أن الله عالم بتدبيرهم ، ومجازيهم ، ولا يحتسبون وقوع الهلاك بهم .

٥١ - (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى : فتعرفْ وتأمل أحوالهم ، وكيف كانت عاقبة ظلمهم وفسادهم وإفسادهم ، لقد

كانت عاقبة ذلك أنا أهلكناهم جميعا تابعين ومتبوعين ، لم يشذ عن إهلاكهم أحد ، ولم ينج فيهم تابع ولا متبوع .

والأمر فى قوله تعالى : « فَانظُرْ » لرسول الله ، أو لكل من يتأتى منه النظر ليعتبر بالحال العجيب التى انتهت إليها عاقبة مكرهم وفسادهم وإفسادهم .

٥٢ـ (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

والمعنى : إذا أردت مزيدا من التصديق والاستيقان فتلك بيوتهم ومساكنهم أمامك خالية من الأهل والسكان ، متداعية متهالكة بسبب ظلمهم وإفسادهم ، وسوء تدبيرهم « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » الذى حل بهم ، وجرى عليهم من سخط وعذاب لعظة وعبرة لقوم أهل علم وفهم ، أو يعلمون عاقبة الظلم والعصيان .

روى عن ابن عباس أنه قال : أجد فى كتاب الله ـ تعالى ـ أن الظلم يخرب البيوت . وتلا هذه الآية ، وفى التوراة : « ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك » وهذا مشاهد كثيرا فى كل عصر ، وحجة الله على الظالمين فى كل جيل .

٥٣ـ (وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) : أى وأنجينا صالحا والذين صدقوه وكانوا يتقون المعاصى ويقيمون على الطاعات . ـ أنجيناهم ـ من العذاب الذى حل بالكافرين منهم .

روى أن الذين آمنوا بصالح كانوا أربعة آلاف ، خرج بهم إلى « حضر موت » وحين دخلها مات فسميت بهذا الاسم ، وبنى المؤمنون بها مدينة يقال لها : (حاضورا) والله أعلم بصحة ذلك .

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(الْفَاحِشَةَ) : الفعلة الشنيعة المتناهية فى القبح .

(تُبْصِرُونَ) : تعلمون عاقبة فعلها ، أو يبصر بعضكم بعضا علانية أثناء الفاحشة .

التفسير

٥٤ ـ (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) :

انتقال من قصة قوم صالح إلى أخبار قوم لوط ـ عليه السلام ـ (ولوطا) منصوب بمضمر معطوف على (أرسلنا) فى صدر قصة صالح ـ عليه السلام ـ داخل معه فى حيز القسم أى : وأرسلنا لوطا ، وقيل : إن (لوطا) منصوب بـ (اذكر) محذوفا .

وقوله : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » ظرف للإرسال ، على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من الأحوال والأقوال .

والمعنى : وأرسلنا لوطا إلى قومه لائما موبخا حين قال لهم : أتأتون هذه الفعلة النكراء المتناهية فى القبح والشناعة ، وأنتم تعلمون مبلغ قبحها وشناعة جرمها وارتكابها ؟ أو وأنتم تعلمون عاقبة العصاة ، ونهاية أمرهم ؟ وقيل : تبصرون ، من الإبصار ، بمعنى النظر بالعيون ، والمعنى : تفعلونها جهارا علانية وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض ، والمراد بالاستفهام فى قوله : « أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ » استبعاد فعلها ، واستنكار ارتكابها .

٥٥ ـ (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) : تكرار للكلام عن فاحشتهم لمزيد الإنكار ، وبيان حقيقتها بطريق التصريح بعد الإبهام ، وتصدير الجملة بحرف التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد ، لكمال شناعته وفظاعة مجانته ، فلهذا احتاج إلى تأكيد وقوعه ، وإعادة همزة الاستفهام الإنكارى معه .

والتعبير بالرجال دون الذكور لمزيد التقبيح ، والإشعار بقلب الحقيقة ، وتنكيس الطبيعة ، وتعليل الإتيان بالشهوة تقبيح على تقبيح ، وتقريع على تحكم الشهوة ، وبهيمية الطبع ، وقوله تعالى : « مِن دُونِ النِّسَاءِ » تنبيه إلى مجاوزة الجنس المخصص للشهوة ، المخلوق للاستمتاع ، انقيادا للنزعات الفاسدة ، وقوله تعالى : (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) : معناه ، بل أنتم قوم تفعلون فعل الجهلاء الذين لايقدرون العاقبة ، والسفهاء الممعنين فى الفحش والمجانة ، وفيه مزيد من التوبيخ بالإضراب الذى يدل على أنهم أهل جهل يعيشون فيه أيامهم ويتجدد معهم خياتهم .

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب التاسع والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٦

* ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ
مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا
ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ٥٨﴾

المفردات :

(أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ) : المراد بهم لوط وأهله ؛ كما يراد من بنى آدم ؛ آدم وبنوه .

(مِن قَرْيَتِكُمْ) : هى سدوم وما حولها ، ويطلق عليها القرى المؤتفكات .

(أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) : أى جماعة يتنزهون من صنيعهم .

(قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَٰبِرِينَ) : أى قدر الله بقاءها فى العذاب مع الباقين فيه ، والغابر : الباقى . يقال : غَبَر الشىء ، يَغْبُرُ ، غُبُورًا : بقى .

التفسير

لما أنذر لوط ـ عليه السلام ـ قومه نقمة ربهم وعذابه على أفعالهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين سخروا وهَزِئوا به ، وأجمعوا أمرهم على إيذائه ، وإيذاء من معه بإخراجهم من وطنهم كما قال ـ تعالى ـ حكاية لما وقع من هؤلاء السفهاء :

٥٦ ـ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا . . .) الآية .

أى : فما كان لهم جواب عن تحذيرهم مما هم فيه من القبائح إلا قولهم : أخرجوا لوطًا ومن انتسبوا إليه ولاذوا به من المؤمنين ـ أَخْرِجوهم (مِن قَرْيَتِكُمْ) وهى سدوم وما حولها من القرى[1] وهى قرية من أرض العرب ، فكانوا يمرون عليها ، ويرون آثار العذاب الذى نزل بها .

---

(١) هاجر لوط وعمه إبراهيم ـ عليهما السلام ـ من أرض بابل فنزل إبراهيم فلسطين ، ونزل لوط الأردن . ا هـ . البحر المحيط لأبى حيان ، وذكر صاحب القاموس أن الصواب سذوم ـ بالذال المعجمة ـ وذكر شارحه أنه مضبوط بالوجهين وأن المشهور فيه إهمال الدال ، وصوبه شيخه فى شرح الدر .

ولم يَجِدْ هؤلاء المجرمون ما يتذرعون به لإخراج آل لوط من ديارهم إلَّا قولهم : (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فهو تعليل لجريمة إخراجهم على وجه يتضمن الاستهزاء بهم كما قال ابن عباس ، أى : إنهم قوم يتنزهون ويتبرأون مما نأتيه ، ويعدونه سفهًا وقذرًا لا ينبغى اقترافه ، قال قتادة : عابوهم — والله — بغير عَيْبٍ ، بأنهم يتطهرون ، وقيل : يتطهرون بمعنى يتكلفون الطهر من أفعالنا رياء وتظاهرًا فحسب .

ولتهوين أمر إخراجهم من القرية وما حولها أضافوها إليهم على طريق الخطاب للإشعار بأن لهم السلطان فيها والتصرف فى شأنها ، والتحكم فى أهلها من غير معارض يحول بينهم وبين ما يبتغون .

والظاهر أن هذا الجواب صدر عن قوم لوط بعد المرة الأخيرة من مرات مواعظ لوط — عليه السلام — التى أمرهم فيها بالطاعة ونهاهم بها عن المعصية ، لا أنه لم يصدر عنه وعنهم كلام آخر غيره .

٥٧ — (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ) :

أى : فأنجينا لوطًا وأهله ، وهم ابنتاه ومن تبعه من المؤمنين ، وقيل : لم يكن معه إلَّا ابنتاه ، كما قال تعالى : « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ »[1] . أما امرأته فكانت من الهالكين كما قال — تعالى — : (إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ) أى : الباقين فى العذاب لكفرها وموالاتها لمن ضل وغوى ، كما قال — تعالى — : « فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ »[2] .

٥٨ — (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ) :

أى : وأمطر الله — سبحانه — على هؤلاء الفاسقين مطر عذاب ونقمة فكان سيئًا لم يعهدوا له مثيلًا ، فهو من حجارة قوية صلبة متتابعة النزول معلَّمة بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض ، كما قال — تعالى — : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ »[3] .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الذاريات.

(٢) الآيتان : ١٧٠ ، ١٧١ من سورة الشعراء .

(٣) من الآيتين : ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود .

(قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ
أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن
تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ
بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ اصْطَفَىٰ) : أى اختار لرسالته وهم الأنبياء – عليهم السلام –

(حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) : أى بساتين ذات حُسْن ، كل بستان عليه حائط ، مِنْ : أحدق بالشيء ، إذا أحاط به ، ثم توسع فيها فاستعملت فى كل بستان وإن لم يكن محوطًا بحائط .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) : عن التوحيد إلى الشرك ، أو يساوون بالله غيره من آلهتهم ، من : العِدْل بمعنى المثل والنظير . (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ) : جبالًا ثوابت .

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) : أى مانعًا بين العذب والملح حتى لا يبغى أحدهما على الآخر.

التفسير

٥٩ – (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) :

بعد ما قص – سبحانه – على نبيه ﷺ القصص الدالة على كمال قدرته ، وعظيم شأنه ، وما خص به رسله من الآيات الكبرى ، والمعجزات الباهرة ، أمره ﷺ بحمده – تعالى – على ما أفاض عليه من نعم عظيمة لا مطمح وراءها لطامح ؛ حيث علمه ما لم يعلم من أخبار أنبيائه السابقين مع أممهم واجتهادهم فى الدين ، وقد بين على ألسنتهم صحة التوحيد

وبطلان الكفر والإشراك ، كما أمره أن يسلم على المختارين من عباده ، ويراد بهم كافة الأنبياء والمرسلين لدلالة المقام ولقوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ »[١] ومن جملتهم الذين قص القرآن أخبارهم ، عرفانًا بفضلهم وأداء لحق تقدمهم ، وقيل : هذا أمر له ﷺ بحمده ـ تعالى ـ على هلاك من هلك من كفرة الأمم ، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الذين اتقوا ربهم اقتداء برسلهم فكانوا من الناجين . .

ويرى ابن عباس أن المراد من عباده المصطفين أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم لنبيه ـ رضى الله عنهم ـ أخرجه عَبْدُ بن حُميد والبزار وابن جرير وغيرهم .

والسلام على غير الأنبياء مما لا خلاف في جوازه إن كان تابعًا للأنبياء ، وقال الحنابلة وغيرهم بجوازه استقلالًا ، وهذا ظاهر قول ابن عباس .

وقال الزمخشرى : أُمِرَ رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين الدالة على وحدانيته ـ تعالى ـ وكمال قدرته ، وأن يستفتح بحمده والتسليم على أنبيائه والمصطفين من عباده ، وفيه تعليم حسن لكل متكلم في أمر ذى بال أن يتبرك بهما وأن يستظهر بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وتوقيف على أدب جميل يحمل على التواضع والإخلاص ، ولقد توارث العلماء والخطباء كابرًا عن كابر ، هذه السنة الحميدة اقتداء برسول الله ﷺ انتهى باختصار .

(« آللهُ خَيْرٌ[٢] أَمَّا يُشْرِكُونَ) : إنكار على المشركين وتوبيخ لهم أن يعبدوا غير الله .

أى : أيهما خير ؟ آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة أم الذى يشركونه به من الأصنام ؟ ومرجع ترديد السؤال بينهما في الخيرية إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى ، وتسفيه آرائهم والتهكم بهم ، وذلك لأنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله ، ولا يؤثر عاقل شيئًا على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة .

---

(١) الآية ١٨١ من سورة الصافات .

(٢) قال أبو حيان : « وكثيرا ما يجيء هذا النوع من أفعل التفضيل (خير) حيث يعلم ويتحقق أنه لا شريك هناك وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيه على الخطأ ، ويقصد بالاستفهام في مثل ذلك إلزامه الإقرار بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر » انتهى : من تفسير الآلوسى .

ومن البين أنه ليس فيما أشركوه به ـ تعالى ـ شائبة خير حتى يوازن بينه وبين من لا خير إلّا خيره، ومع علمهم بذلك فقد دفعهم الجهل المفرط إلى إيثاره هوى وعبثًا وإمعانًا فى الخطأ والضلال .

٦٠ ـ (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً . . .) الآية .

عدد الله ـ سبحانه ـ بهذه الآية والآيات الأربع التالية الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله ، وأشار بها إلى أدلة انفراده ـ سبحانه ـ بالخلق والرزق والتصرف والتدبير وبكل خواص الألوهية إبرازًا لكمال قدرته ، حيث قال ـ سبحانه ـ : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) إضراب انتقالىٌّ عن سؤالهم سؤال تقرير عمن هو خير ، أهو الله القادر أم آلهتهم المزعومة ، إلى إثبات الخيرية لله وحده ، أى : بل من قدر على خلق السمٰوات والأرض خير من جماد لا يقدر على شىء ، ولا خير فيه أصلًا يرجع إلى إرادته .

(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) : خطاب للكفرة لتشديد التبكيت لهم والإلزام ، أى : أنزل ـ سبحانه ـ لأجلكم من السماء نوعًا من الماء وهو المطر ، جعل فيه حياتكم وحياة أرضكم وزروعكم ودوابكم ، كما جعل مما ينبت به ما يكون متاعًا لأنفسكم وراحة لقلوبكم ، وزينة لأبصاركم فأنبت به ـ بعظيم قدرته وعجيب صنعه ـ بساتين ذات حسن ورونق جميل يبتهج بها الناظر إليها ، ويسر بمختلف ألوانها وأشكالها وروائحها ، وطعومها ، مع أنها تسقى بماء واحد ، مما لا يقدر عليه إلّا من تفرد بالخلق والإبداع جل وعلا ، ويشير إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ : (مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَا) أى : ما أمكنكم ، وما استطعتم ـ مهما بذلتم من جهد وأوتيتم من فكر ـ إنبات شجرها ، فضلًا عن ثمرها ، وسائر صفاتها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بالملك المتفرد به دون سواه ، والالتفات من الغيبة إلى التكلم فى قوله : (فَأَنۢبَتْنَا) لتأكيد اختصاص الفعل بذاته ـ تعالى ـ وعجز قوى البشر عن مثله .

(أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ) : أى أإله آخر مع الله فى خواص الألوهية التى لا يقدر غيره عليها حتى يتوهم جعله شريكًا له فى العبادة ، وهذا تبكيت لهم على اتخاذهم آلهة عاجزة مع الله صاحب القوى والقُدَر التى لا تتناهى .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ): انتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى تبكيتهم بطريق الغيبة لبيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم؛ ليعرف أنهم قوم عادتهم الانحراف عن الحق، والعدول عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور، حتى كان من شأنهم ترك التوحيد وهو الحق الواضح، والعكوف على الباطل الظاهر وهو الإشراك بالله سبحانه .

٦١ـ (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ . . .) الآية .

انتقال من تبكيت المشركين بآية من آيات قدرته إلى تبكيتهم بآية أخرى من آياتها العظيمة حيث بسط الأرض وسواها ؛ ليتسنى للإنسان والحيوان الاستقرار عليها، وارتياد أماكنها، وجعل خلالها وفى أوساطها أنهارًا جارية ينتفع بها كل قاطنيها فى شئون حياتهم، وأقام عليها جبالًا ثوابت تمنعها من أن تضطرب بأهلها، فيختل توازنها ويكون سببًا فى فناء من عليها، كما أن لتلك الجبال فوائدها العديدة ومنافعها الكثيرة .

وجعل ـ سبحانه ـ بقدرته مانعًا بين الماء العذب والملح حتى لا يبغى أحدهما على الآخر . قال ابن عباس: جعل بينهما سلطانًا من قدرته، فلا هذا يغيِّر ذاك، ولا ذاك يغيِّر هذا[1] .

(أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ) : أى ليس هناك إله مع الله فهو المختص وحده بالإيجاد والإتقان لهذه البدائع التى أوجدها وهى من لوازم الألوهية التى لا يقدر عليها سواه .

وإذ ثبت أن ذلك ليس فى مقدور آلهتهم ، فلماذا يشركونها به فى العبادة ؟ وهى عاجزة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا ؟ إنَّ صنيعهم هذا عناد وحماقة ؛ لأن أكثرهم يجهلون الحق مع وضوح آياته، ولو علموه لتبين لهم بما لا يدع مجالًا للشك بطلان ما هم عليه من الشرك، أو أن أكثرهم لا يعلمون شيئًا من الأشياء معتدًّا به فهم لذلك لا يعلمون ما يتحتم عليهم معرفته من العلم الحق الذى يوجب عليهم إخلاص عبوديتهم له ـ سبحانه ـ وحده .

---

(١) راجع ما كتبناه تفصيلا على ذلك فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة الفرقان : « وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » ٥٣

(أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن
يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ
يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ) : المضطر ؛ هو ذو الحاجة المجهود .

(وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ) : أى يرفع عنه الظلم والضر . (خُلَفَآءَ الْأَرْضِ) : هم الذين يرثون سكناها والتصرف فيها . (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : أى يرشدكم بالنجوم ونحوها من العلامات . (بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) : أى مبشرات قدام المطر بنزوله .

(تَعَالَى اللَّهُ) : أى تنزه عن شركائهم .

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) : أى حجتكم على أن له شريكًا .

التفسير

٦٢ ـ (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الْأَرْضِ . . .) الآية .

يقرر الله المشركين بذلك على أنه هو المدعو منهم عند الشدائد المرجو عند النوازل ، وأنه يجيب دعوة المضطر ؛ لما عرفوه من أنه ـ سبحانه ـ يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء ، ويوبخهم به على أنهم فى حالة رخائهم وزوال الضرورة عنهم يعودون إلى شركهم .

وكما يجيب ـ سبحانه وتعالى ـ دعاء المضطر إذا دعاه ، فإنه وحده يدفع عنهم ما يعتريهم من مكاره وما يتنزل بهم من خطوب ، ويجعلهم خلفاء الأرض لمن سبقهم يتوارثون سكناها

وينعمون بخيراتها ، والتصرف فيها قومًا بعد قوم ، وجيلًا بعد جيل ،ولو أبقى الله الناس جميعًا ولم يجعل بعضهم خلفاء بعض فإن الأرض تضيق بالخلائق ويحصل لهم فيها من المشقة والعنت مالا قبل لهم باحتماله .

ثم وبخهم على شركهم بقوله ـ سبحانه ـ : (أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) فإذا لم يكن معه إله فى تلك النعم فلماذا أعرضتم عنه ـ تعالى ـ بعد كل ذلك وعبدتم غيره وأنتم تعلمون أنه ليس هناك إله غير الله الخالق المنعم ، قلما تتعظون لقلة تذكركم هذه النعم المذكورة فى الرخاء ، قلة تصل إلى العدم وتجرى مجراه فى عدم الجدوى ، فلو ذكرتموها فى الرخاء لاهتديتم لأنها من الوضوح والظهور بحيث لا يتوقف تذكرها إلا على التوجه إليها ليعلم أنها من خصائص الألوهية التى لا يقدر على الاتصاف بها سواه .

٦٣ ـ (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) :

أى : إن الله وحده هو الذى يرشدكم إلى الطريق فى ظلمات البر والبحر إذا سافرتم ليلًا حيث جعل لكم النجوم وعلامات الأرض لتهتدوا بها ليلًا ، وهداكم إلى علامات بالأرض إذا اشتبه عليكم الطريق ، كما قال تعالى : « وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »(١) .

ويجوز أن يراد من ظلمات البر والبحر ما يحدث فيها من التباس السبيل على المسافرين ليلا أو نهارًا ، بأن تجعل مفاوز الأرض التى لا أعلام لها ، ولجج البحار كأنها ظلمات الليل ؛ لأنها تشبهها فى إيجاد الحيرة والتردد لعدم وجود ما يهتدى به فى أرجائها .

(وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) : أى :أنه ـ سبحانه ـ هو الذى يبعث لكم الرياح أمام السحب الممطرة مبشرات بنزول المطر رحمة منه بعباده ليغيثهم به من الجفاف والجدب ، وذلك بإروائهم ،وإحياء الأرض بعد موتها بمائها لتنبت من كل زوج بهيج ، كما قال ـ سبحانه ـ : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ »(٢) .

---

(١) الآية ١٦ من سورة النحل . (٢) من الآية ٥ من سورة الحج .

وليس مع الله إلٰه يصنع ذلك ، فقد تنزه عن الشريك والنظير بذاته المتفردة بكل خواص الألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال والجلال ، المقتضية لكون المخلوقات جميعها مقهورة تحت سلطانه ، وفى ذلك ما فيه من التحقيق والتقرير وقوة الاستدلال على نفى أن يكون معه — سبحانه — إلٰه آخر .

٦٤ — (أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ . . .) الآية .

كان هؤلاء المشركون يقرون أنه — سبحانه — يبدأ الخلق ويتكفل بالرزق ، وينكرون مع ذلك البعث بعد الموت ، فألزمهم — تعالت أسماؤه — الإقرار بالبعث الذى ينكرونه ؛ لأنه من قدر على الفعل بدءًا كانت الإعادة عليه أهون ، أى : لا أحد سواه يقدر على أن يبدأ الخلق من عدم ثم يعيده بالبعث ، وخوطب به المشركون مع إنكارهم للبعث ؛ لأنه لما وضحت براهينه وتمكنوا من إدراكها جُعِلوا كأنهم معترفون بوقوعه فلم يبق لهم عذر فى الإنكار .

(وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَإِلٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

وهو — سبحانه — القادر وحده على أن يرزقكم من السماء والأرض بأسباب سماوية وأرضية رتبها وفق ما اقتضته حكمته مما يدل على أنه ليس هناك — كما يزعمون — إلٰه آخر موجود مع الله يقدر على فعل شىء يذكر .

فإن تمسك أولئك المشركون بعد هذا بدعواهم فقل لهم — أيها النبى موبخًا لهم ومنكرًا عليهم — : أقيموا لنا برهانًا عقليًا أو نقليًا على صحة ماتَدَّعُونَ إن كنتم صادقين ، ولن يتأتى لهم الإتيان به مهما حاولوا ، كما قال تعالى : « وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ »[1] .

---

(١) من الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

(قُلْ لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ[1] وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ
هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(الْغَيْبَ): كل ما غاب عنك ، وجمعه : غيوب .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى لا يعلمون الوقت الذى فيه يبعثون ، يقال : شعر بالشىء من بابى : نَصَرَ وَكَرُمَ ، شعرًا مثله ، وشعورًا : علم به وفطن له .

(ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ) : أى تتابع علمهم بها عن طريق الأدلة ، وقيل : معناه اضمحل علمهم بالآخرة ، من التدارك وهو التتابع فى الفناء . (بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا) : أى فى تردد من تحقق الآخرة نفسها . (بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) : أى لا يدركون دلائلها مع وضوحها ، كأنهم فقدوا أبصارهم ، ومفرده : عَمٍ .

التفسير

٦٥ - (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) :

بعد أن أثبت الله تفرده - سبحانه - بالألوهية ، وبين الأدلة الواضحة التى تفيد اختصاصه بالقدرة الكاملة ، والحكمة التامة فى الخلق والتكوين ، وإسداء النعم الجزيلة منة منه وتفضلًا على عباده عقبه بذكر ما لا ينفك عن أن يكون من شأنه وحده ، وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله مما انفرد به ، وتمهيدا لما بعده من أمر البعث .

وقيل : إن هذه الآية نزلت لما سأل الكفار الرسول ﷺ عن وقت الساعة التى وعدوها وألحوا عليه - كما فى البحر - .

---

(١) لفظ : (إلا) فى قوله : (إلا الله) بمعنى (لكن) أى : لكن الله يعلم الغيب دون من فى السموات والأرض .

والمعنى : قل لهم – أيها النبي –: لا يعلم أحد ممن فى السموات والأرض الغيب إلّا الله فهو وحده الذى ثبت له علم الغيب على جهة اللزوم والاختصاص ، وانتفى عمن سواه حتى الأنبياء .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى وأحمد وجماعة من المحدثين من حديث مسروق عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : من زعم أن محمداً ﷺ يخبر الناس بما يكون فى غد ، وفى بعض الروايات : يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفِريَة ، والله تعالى يقول : (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . . .) الآية .

وعلم الغيب المنفى عن غيره – جل وعلا – هو ما كان للشخص لذاته فى ثبوته له ، وهذا مما لا يعقل كونه لأحد من أهل السموات والأرض ، وما وقع لبعض الخواص من الإخبار ببعض الغيب فلا يقال : إنهم علموه بقدراتهم الذاتية ، ومن قال ذلك كفر قطعاً ، وإنما يقال : أُظهِروا على الغيب وَأُطْلِعُوا عليه ، ويؤيده أن نسبة علم الغيب إلى غيره – تعالى – لم تجىء فى القرآن الكريم ، وإنما جاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى – سبحانه – من رسول كما قال تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ »[1] .

أمّا ظن الغيب بأمارات فهو ممكن لعباده فلا يُكَفَّر وَلَا يُفَسَّقُ مدعيه ، كما يحصل من علماء الفلك من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر والكواكب ، حين يخبرون بهبوب الرياح شديدة أو معتدلة ، وبكسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وبنزول المطر وارتفاع درجة الحرارة أو اعتدالها أو نحو ذلك ، فيقع الأمر كما قالوا ، فليس ذلك من علم الغيب المنفى ؛ لكونه بأسباب وأمارات ، فهو فى واقعه ليس علماً حقيقياً بما سيحدث وإنما هو ظن وتخمين بأمارات اقتضته ، وقد تتخلف .

أما العراف الذى يتحدث عن المستقبل ادعاء بأنه على علم بالغيب كقوله لمن يستخبره عن مستقبله : ستكسب مبلغ كذا ،أو ستتزوج فلانة ، أو تفقِد كذا فى سفرك ، أو نحو ذلك فهو كافر – كما قال القرطبى – .

---

(١) الآية : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

والمؤمنون منهيون عن إتيان العرافين ، فقد جاء فى صحيح مسلم : « من أتى عرَّافًا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى وما يعلم كل من فى السموات والأرض أى وقت يبعثون فيه بعد موتهم ؛ لأن وقت البعث والنشور من جملة الغيب الذى اختص الله - سبحانه - بعلمه ، فلا يحق لهؤلاء المشركين أن يطالبوا نبيهم ﷺ من آن لآخر ببيان وقته بمثل قولهم : « مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »(١) كما لا يحق لهم أن يستنكروه بمثل قولهم : « أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا »(٢) .

٦٦ - (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) :

بين الله فى الآية السابقة أن الغيب مما استأثر الله - تعالى - بعلمه ، وفى جملته وقت البعث بعد الموت ، فإنه من الغيوب التى اختص بعلمها العليم الخبير .

وجاءت هذه الآية لتبين أن المشركين وإن لم يؤمنوا بالبعث للحساب والجزاء ، فقد تدارك علمهم بأن لهم آخرة ينتهون إليها ، وتتابع وعيهم بأنهم يبعثون على لسان الصادق المصدوق المؤيد بالمعجزات ﷺ ودلت الأمارات على إمكانه ، فإنه من قدر على البدء فهو قادر على الإعادة من باب أولى ، كما شهد العقل بمجيئه ولابد ، فإنه لا يعقل أن تزول الحياة الدنيا ولا تعقبها آخرة يجزى فيها المحسن على إحسانه ، والمسىء على إساءته ، فإن عدالة الله تأبى ذلك .

فهؤلاء المشركون تدارك علمهم وتتابع على هذا النحو ، وكان عليهم أن يؤمنوا بها ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل هم فى شك من مجيئها ، مترددون فى أمرها ، بل هم من ناحيتها عُمْىٌ عن أدلتها ، وكان عليهم أن يطمئنوا إلى مجيئها بقيام الأدلة عليها ، وأن يعملوا لها .

ومن المفسرين من فسر « تَدَارَكَ علمهم بالآخرة » بفناء علمهم بها ، كما يقال : تدارك بنو فلان : إذا تتابعوا فى الهلاك ، وعلى هذا يكون معنى الآية : بل فنى علمهم بشئون الآخرة ، مع توافر أسبابه ودواعيه بقيام الأدلة الواضحة على مجيئها ، قال صاحب القاموس : بل ادارك علمهم فى الآخرة : جهلوا علمها ولا علم لهم بشىء من أمرها ، ا هـ

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة يونس.   (٢) سورة الإسراء ، من الآية ٩٨.

ولهذا ختم الله الآية بقوله : « بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ » حيث قصروا تقصيرًا فاحشًا بتركهم النظر فى أماراتها وتعاميهم عن أدلتها ، مع أنها لا تخفى على ذوى البصائر وأولى الألباب .

وحاصل معنى الآية : أن علمهم بشئون الآخرة ومنها البعث انقطع وانتهى فى الدنيا ، حتى لم يبق لهم علم بشىء من شئونها ، مع توافر الأسباب الواضحة الدلالة عليها .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) : إنكار لإخراجهم مِن قبورهم أحياء .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أى أباطيل الذين سبقوهم ، وهى جمع إسطار – بكسر الهمزة – وأسطورة – بضمها .

(وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) : أى لا يكن صدرك ضيقًا بمكرهم .

التفسير

٦٧ – (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) :

بيان لجهل الكافرين بالآخرة وعَمَاهم عنها بحكاية إنكارهم للبعث ، والمراد بهم : مشركو قريش فقد أنكروا إخراجهم من قبورهم أحياء إنكارًا شديدًا متكررًا مبالغًا فيه .

وتقييد الإخراج بوقت كونهم ترابًا ليس لتخصيص الإنكار الواقع منهم بالإخراج فى هذا الوقت فقط ، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقًا ، وإن كان الجسد على حاله ،

وإنما ذكر لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج فى حالة منافية له فى زعمهم ، وهى كونهم ترابًا ، وكما أنكروا إخراجهم فقد أنكروا كذلك إخراج آبائهم .

٦٨ـ (لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

استئناف مسوق لتقرير الإنكار ، وصُدِّر بالقسم لزيادة التأكيد ، أى : والله لقد وعدنا هذا الإخراج نحن وآباؤنا من قبل أن يعدنا به محمد ولم نر له حقيقة ولم نعلم له وقوعًا فيما مضى ، ذلك لأن هذا الوعد ما هو إلَّا أباطيل الأولين حكاها محمد عنهم ،وليس له حقيقة ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٦٩ـ (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) :

أى : قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المكذبين : سيروا فى الأرض فانظُرُوا بِإِمْعَانٍ وتفكروا كيف كان عاقبة المكذبين للرسل ـ عليهم السلام ـ فيما جاءوا به من الإيمان بالله وحده ، وبالمعاد الذى تنكرونه ، فإن مشاهدة عاقبتهم ، وآثار ما حل بهم من العذاب والنكال اللذين لم يَنْجُ منهما سوى الرسل ـ عليهم السلام ـ ومن اتبعهم من المؤمنين يكفى أن يكون عظة وعبرة لذوى البصائر وأولى الألباب ، ودلالة واضحة على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، وفيه تهديد لهم على التكذيب ، وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم .

٧٠ـ (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) :

تسلية للرسول ﷺ أى : ولا تأسف على المكذبين لإصرارهم على الكفر ، وتذهب نفسك عليهم حسرات ، ويكون صدرك حرجًا من كيدهم وإنكارهم ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك عليهم ، ومظهر دينك فى المشارق والمغارب على من خالفه وعانده : « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ »[1] .

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(رَدِفَ لَكُمْ) : أى لحق بكم ، ويتعدى بنفسه وباللام .

(مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ) : أى ماتخفيه من الأسرار ، تقول : أكننت الشىء إذا أخفيته فى نفسك .

(وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ) : الغائبة ، جميع ما أخفاه الله وغيبه عن خلقه . وتاؤه للمبالغة فى الغيبوبة ، كراوية .

(إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ) :المراد به ، اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ، وهو بَيِّنٌ واضح ، أو مُبَيِّنٌ ما فيه لمن يشاء من ملائكته :

التفسير

٧١ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

يسأل الكفار عن وقت العذاب العاجل الموعود به ، سخرية به ، وإنكارًا له قائلين : متى يحين وقت العذاب الذى وعدتم بأن ينزل بنا إن كنتم صادقين فى إخباركم بأنه آت إلينا ، وواقع علينا ؟ فهموا الوعد بالعذاب من أمرهم بالسير والنظر فى عاقبة أمثالهم المكذبين والجمع فى قوله تعالى : (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) باعتبار شركة المؤمنين للرسول فى الإخبار بذلك .

٧٢ - (قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ) :

أى : قل لهم - أيها النبى - : عسى أن يكون قد اقترب منكم بعض الذى تستعجلون حلوله ، وتطلبون وقوعه من العذاب ، وكان ذلك عذاب بدر ، أو عذاب القبر ، وهذا المعنى قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

وعسى هنا لتحقق الوقوع لما وعدوا به .

قال الزمخشرى : إن عسى ولعل وسوف فى وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده وأنه لا مجال للشك فيه ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله تعالى ووعيده .

وقيل : إن عسى على معناها ، والترجى المفهوم منها قيل : راجع للعباد .

٧٣ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) :

أى : وإن ربك - جل شأنه - لذو إنعام كثير فاضل على كافة الناس مع ظلمهم لأنفسهم ، ومن جملة ذلك ترك المعاجلة بالعذاب لهؤلاء المكذبين مع ما يقترفونه من ذنوب وآثام ، وكان على المنعَم عليهم أن يقوموا جميعًا بشكر ربهم على تفضله عليهم ، ولكن أكثرهم أعرضوا عمّا يطلب منهم من شكر وعرفان جحدًا لفضل خالقهم الذى أسداه إليهم ، ومنهم أولئك المستعجلون للعذاب .

٧٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

أى : وإن ربك - جل شأنه - ليعلم ما تخفى صدورهم من الأسرار ومنها عداوتك ، ويعلم ما يظهرون من القول بلا تفرقة بينهما فى إحاطة علمه بهما كما قال تعالى : « سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِالنَّهَارِ »[1] .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الرعد .

فليس تأْخير العذاب عنهم لخفاء حالهم عليه تعالى ، وإنما لأَن له وقتًا محددًا لايتعداه بتقديره – جل شأْنه – وعلم الله بما تخفيه صدورهم ، وبما تظهره أقوالهم، فيه إيذان بأَن لهم قبائح غير ما حكى عنهم .

٧٥ – (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) :

أى : وما من خصلة شديدة الغيبوبة فى السماء والأَرض إلَّا علمها الله ، وأَحاط بها ، وأَثبتها عنده فى أُم الكتاب ، ذلك الكتاب الواضح البين فى نفسه المبين ما فيه لكل من يطالعه وينظر فيه من الملائكة – عليهم السلام – وهو اللوح المحفوظ ، وقيل : المراد به علم الله – تعالى – فهو المبين لكل معلوم ، وقيل : المراد به القرآن الكريم ، فقد أَشار إلى كل غائبة فى السموات والأَرض ، وبين دلالتها على خالقها – سبحانه وتعالى – .

(إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ) : المراد بهم ، اليهود والنصارى ، وإسرائيل : يعقوب – عليه السلام – .

(عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) : الواضح البين ، أَو الفاصل بين الحق والباطل .

(وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ) : أَى ولا تسمع من يطل سمعه وذهب لسبب من الأَسباب ، وفعله من

باب علم . فالمذكر أصم ، والأنثى صماء ، والجمع صُمٌّ ، مثل أحمر وحمراء وحُمْر ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أصمه الله .

(بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ) : أى عن كفرهم ، يقال : ضل يَضِل ضلالاً وضلالة : مال عن الطريق فلم يهتد .

التفسير

٧٦ - (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

لما ذكر - سبحانه - ما يتعلق ببدء الخلق ، وإعادة المخلوقات بعد الموت بالبعث ، ذكر ما يتعلق بالنبوة ، ولكون القرآن الكريم أعظم ما تثبت به نبوة نبينا محمد ﷺ . أنزل فيه - سبحانه - ما يقص به على بنى إسرائيل - اليهود والنصارى - أكثر ما اختلفوا فيه ، بإظهار حقيقة أمره فى وضوح وجلاء ، مما يدعوهم إلى الإسلام لو تأملوا وأنصفوا ، وأخذوا به ، ولكنهم أعرضوا وكابروا مثلكم أيها المشركون . وتحزبوا أحزابًا كثيرة ، ولعن بعضهم بعضًا ، ووقع بينهم الجدال والتناكر .

ومن جملة ما اختلفوا فيه اختلافًا كثيرًا أمر عيسى - عليه السلام - فاليهود افتروا ونسبوا إلى مريم ما هى منزهة عنه ، وكذبوا عيسى - عليه السلام - والنصارى تغالوا ، فمن قائل : بأنه إله ، ومن قائل : بأنه ابن الله ، ومن قائل : بأنه ثالث ثلاثة إلى غير ذلك .

كما اختلفوا فى أمر النبى المبشر به ، فمن قائل : هو يوشع ، ومن قائل : هو عيسى ، ومن قائل : إنه لم يأت إلى الآن ، وسيأتى آخر الزمان ، كما اختلفوا فى شأن الخنزير ، فقال اليهود بحرمة أكله ، وقالت النصارى بحله ، إلى غير ذلك من أمور .

فجاء القرآن بالقول الوسط ، قول الحق والعدل ، حيث بين أن عيسى عبد من عباد الله وأنبيائه ، ورسله الكرام كما قال تعالى حكاية عنه : « قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا »[1] . وبين أن النبى المبشر به هو محمد ﷺ وأن أكل لحم الخنزير حرام .

وبين كذلك أكثر الأمور التى وقع بينهم الخلاف فيها بيانًا شافيًا يقطع كل ريبة وخلاف ، فكان هدى ورحمة لمن أقبل عليه كما قال تعـالى :

---

(١) الآية ٣٠ من سورة مريم .

٧٧ - (وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى : وإن هذا القرآن لهدى ورحمة لمن أنصف من اليهود والنصارى ، فآمن به ، واهتدى بهديه ، واتبع سبيله ، أو هو هدى ورحمة لكل من آمن به على الإطلاق ، ويدخل فيهم من آمن من اليهود والنصارى دخولًا أوليًّا .

وخص - سبحانه - المؤمنين بالذكر ، مع أنه هدى ورحمة للعالمين ؛ لأنهم المنتفعون به ، أو المراد بهم المستعدون للإيمان بفطرهم النظيفة .

٧٨ - (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) :

أى : إن ربك - سبحانه - يقضى فى الآخرة بين اليهود والنصارى ، فيجازى بحكمه المحق الذى آمن بالقرآن ، والمبطل الذى كفر به ، ويراد بالحكم ما يحكم به ، وهو الحق والعدل ، ولا يقضى - سبحانه - إلا به فسمى المحكوم به حكمًا .

أو يحكم بينهم بحكمته بوضع الأمور فى نصابها ، وإعطائها ما تستحق من جزاء ، ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ « بِحِكَمِه » جمع حِكْمَة ، كنِعَم جمع نعمة .

وقيل : يقضى بينهم فى الدنيا بإظهار ما حرفوه ، وبيان الحق فيما اختلفوا فيه وهو سبحانه « الْعَزِيزُ » أى : الغالب الذى لا يُرَد أمْرُه ، ولا يُعارَضُ قَضاؤُهُ « الْعَلِيمُ » بكل شىء من الأشياء لا تخفى عليه خافية ، أو هو العزيز فى انتقامه من المُبْطلين ، العليم بما بينهم وبين المحقين .

٧٩ - (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) :

أمْرٌ لِلرَّسول ﷺ بالتوكل عليه - جل شأنه - مرَتَّبٌ على ما ذكر من شئونه - تعالى - فإنها موجبة للتوكل عليه وداعية إلى الإنابة إليه ، أى : فتوكَّل على الله الذى عصمك من كيد الكائدين ، وأمدك بتأييده ونصرته على أعدائك ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليهم الشقاوة ، وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ؛ لأنك على الحق البيِّن ، وهو الدين القيِّم الذى تنزه عن كل شك أو شبهة ، وفى ذلك بيان بأن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته لا محالة .

٨٠ـ (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) :

أى : إنك ـ أيها النبى ـ لا تستطيع هداية هؤلاء الكافرين إلى شىء ينفعهم لأنهم كالموتى : حيث إنهم فقدوا الحس والعقل والإدراك فلا يَعُون شيئًا مما يسمعون ، ولا ينتفعون بما يتلى عليهم من القوارع والزواجر ، شأنهم فى ذلك وهم أحياء شأن الموتى فى القبور الذين يستحيل عليك إسماعهم[1] أى شىء ينفعهم ، وذلك موجب لقطع الطمع فى هدايتهم ، وداع إلى تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه .

وهم كالصم الذين فقدوا أداة السمع يصيح بهم الداعى إلى الحق فلا يسمعون النداء مع أنهم صحاح الحواس ، ذلك لأن شأن الأصم عدم السماع ولو كان الداعى أمامه وبمقابلة صماخه فكيف يكون حال هؤلاء الصم إذا ابتعدوا عن الداعى وتولوا عنه مدبرين ؟ لا شك أن عدم سماعهم للدعاء يكون أشد وأقوى ، فإنهم مع صممهم معرضون عن الداعى ، وفى ذلك من التأكيد والمبالغة فى عدم السماع لدعوة الحق ما فيه مما لا يخفى ، وإطلاق الإسماع بعدم ذكر المسموع لبيان عدم سماعهم لشىء من المسموعات .

٨١ـ (وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى الْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ) :

أى : ليس فى وسعك خلق الإيمان فى قلوبهم ، وصرفهم عما هم فيه ، وهدايتهم هداية موصلة إلى المطلوب ؛ لأنهم كالعمى يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويجعلهم مهديين بُصَراء إلا الله تعالى .

(إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا) أى : ما يجدى إسماعك إلا مَنْ علم الله أنهم يؤمنون بآياته ويصدقون بها ، وهم الذين ليسوا موتى ولا صمًّا ولا عميًا .

---

(١) قد احتجت عائشة ـ رضى الله عنها ـ بهذه الآية فى إنكارها أن النبى ﷺ أسمع موتى بدر ، فنظرت إلى الأمر بقياس عقلى ووقفت مع هذه الآية .

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : ما أنتم بأسمع منهم . قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرقة عادة لمحمد ﷺ فى أن الله رد إليهم إدراكا سمعوا به مقاله ، ولولا إخبار الرسول ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقى من الكفرة وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين . اهـ من تفسير القرطبى . ومن أراد الاستزادة فليرجع إليه وإلى غيره فى تفسير هذه الآية ، والآية ٥٢ من سورة الروم .

وجوز أن يراد بالآيات المعجزات التى أظهرها الله -تعالى- على يديه ﷺ الشاملة للآيات التنزيلية والتكوينية ، وأن يراد بها الآيات التكوينية فقط ، والإيمان بها : التصديق بكونها آيات الله -تعالى- وليست من السحر وغيره .

(فَهُم مُّسْلِمُونَ) : تعليل لإيمانهم بالآيات ، أى : فإنهم مطيعون منقادون إلى الحق بسلوك طريقه السوىّ وفق إرشاد آياته .

وقيل : فهم مخلصون لله -تعالى- من : الإسلام بمعنى الإخلاص ، كقوله تعالى : « بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »[1] أى : أخلص .

* (وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾)

المفردات :

(وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ) : قرب وقوع ما وعدوا به من العذاب بعد البعث .

(دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) : هى دابة كبيرة يخرجها الله قرب قيام الساعة تكلم الناس

---

(١) من الآية ١١٢ من سورة البقرة .

ـ من الكلام ـ وقرأ الكوفيون: « تَكْلِمُهُمْ » ـ بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام ـ من: الكلْم وهو الجرح، وسيأتى بيان ذلك فى الشرح. (فَوْجًا) أى: جماعة.

(مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا) المراد بالآيات: إما القرآن، أو ما يعمه وسائر الآيات، مما أقامه الله فى الأنفس والآفاق.

(فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى: فهم يحبس أولهم على آخرهم ويكفون، ليتلاحقوا، يقال: وزعه، أى: كفه، وهو من باب وَضع يَضع، وفسره ابن عباس بقوله: فهم يدفعون، وفسره ابن زيد بقوله: فهم يساقون، وهى معان متقاربة.

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا) أى: حل بهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم.

التفسير

٨٢ـ (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة إنكار قريش للبعث بقولهم: « مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] وذكر أنه ـ تعالى ـ سوف يقضى بينهم بحكمه، وسلى نبيه عن تكذيبهم إياه، بأنه ﷺ لا يُسْمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين، وأنه لا يهدى هؤلاء العمى عن ضلالتهم، وجاءت هذه الآية والآيات التى بعدها لتأكيد مجىء الساعة وقضاء الله عليهم بما يستحقون من العذاب الهون.

والمراد بوقوع القول عليهم: قرب نزول العذاب الموعود بهم فى نحو قوله تعالى: « وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[2] وذلك عندما يصير الناس إلى حد لا تقبل توبتهم، ولا يولد لهم ولد مؤمن، فحينئذ تقوم الساعة ـ كما ذكره الإمام القشيرى ـ وفى معناه ما روى عن حفصة بنت سيرين أنها قالت: سألت أبا العالية عن قول الله تعالى: « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ . . . » الآية، فقال: أوحى الله إلى نوح أنه: « لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ » قالت حفصة: وكأنما كان على وجهى غطاء فكشف،

---

(١) من الآية ٧١

(٢) سورة السجدة : ١٣

قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ، لأن الناس ممتحنون ومؤخرون ، لأن فيهم مؤمنين وصالحين ومَنْ قد عَلِم الله أنه سيؤمن ويتوب ، فلهذا أُمهلوا . . ثم قال : فإذا زال هذا وجب القول عليهم فصاروا كقوم نوح ، حين قال الله تعالى : « وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ »[1] . انتهى كلامه .

والدليل على أن ذلك يكون قرب قيام الساعة : أن الآية ختمت بقوله تعالى : « أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » وتلاها قوله تعالى : « وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » كما يدل عليه ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثٌ إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيرًا : طلوعُ الشمس من مغربها ، والدجالُ ، ودابةُ الأرض »[2] .

والدابة : اسم للحيوان الذى يدب ويتحرك . . والكلام : ما يحصل به التخاطب والتفاهم ، فماذا عسى أن تكون هذه الدابة التى تكلم الناس بما يفهمونه منها ، ويكون ظهورها من علامات الساعة الكبرى ؟ لابد أن تكون دابة عظيمة فى جسمها وفى تكوينها وفيما يصدر عنها ، لتكون آية مقارنة لطلوع الشمس من مغربها ، كما جاء فى صحيح مسلم[3] بسنده عن عبد الله بن عمر أنه قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أولَ الآياتِ خروجًا طلوعُ الشمسِ من مغربها ، وخروجُ الدابةِ على الناسِ ضُحى ، وأيتهما كانتْ قبلَ صاحبتِها فالأُخرى على إثرها قريبًا » .

ويقول السدى فى كلام الدابة : إنها تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام ، وقيل : تكلمهم بما يسوءهم .

وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فتقول : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

قال القرطبى - شارحًا لهذا القول - : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه مَنْ قرُب ومن بَعُد : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، أى : بخروجى ، لأن خروجها من الآيات .

---

(١) سورة هود : ٣٦

(٢) ذكره القرطبى فى تفسير الآية .

(٣) كتاب الفتن فيه .

أما على قراءة «تَكْلِمهم» فهى من: الكَلْم بمعنى الجَرْح، ولا منافاة بينها وبين قراءة جمهور القراء، فإنها تُكَلِّمهم بما يسوءهم ويجرحهم، لانغماس معظم الناس فى الضلال فى آخر الزمان.

وقد جاء فى وصف هذه الدابة آثار متباينة، فلهذا أمسكنا عن ذكرها، وحسب القارئ أن يعلم أنها من علامات الساعة، فلابد أنها شىء هائل يفوق الوصف، وأنها تخرج لإقامة الحجة على الكافرين، وتثبيت المؤمنين، وإغلاق باب التوبة أمام الملحدين.

ومعنى الآية:

وإذا قرب وقوع ما قلناه على الكافرين من قيام الساعة وعقابهم على كفرهم، أخرجنا لهم من الأرض دابة عظيمة هائلة، تكلمهم بما يفهمونه عنها، فتوبخهم على كفرهم وتنعى عليهم أنهم قبل خروجها كانوا بآيات الله وبراهينه لا يصدقون ولا يستيقنون، وأنه قد حان ميقات فنائهم وقيامهم لرب العالمين، لحسابهم وعقابهم على ما كانوا يعملون.

٨٣، ٨٤ـ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن[1] يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾:

هاتان الآيتان للتذكير بما يحدث للكافرين بعد حشرهم من التوبيخ على كفرهم بآيات الله، قبل الحكم عليهم بالعذاب المقيم، والمراد من الحشر هنا: هو الحشر يوم القيامة.

والمعنى: واذكروا يوم نجمع من كل أمةِ نبيٍّ جماعةً كثيرة هم الذين يكذبون بآياتنا، فهم يدفعون ويساقون إلى المحشر الذى يجتمع فيه الخلائق، ويحبس أول الكافرين على آخرهم، حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمساءلة من المحشر، حتى إذا جاءوه قال الله تعالى - موبخًا لهم -: أكذبتم بآياتى التشريعية، والتكوينية بادئ الرأى، غير ناظرين فيها نظرًا يجعلكم تحيطون بها علمًا ويدفعكم إلى الإيمان بربوبيتى ووحدانيتى، أم ماذا كنتم تعملون بعقولكم فى هذه الآيات البينات، حتى وصل بكم التفكير فيها إلى هذا التكذيب الذى أبعدكم عن الحق المبين؟

(١) مِنْ فى قوله: «ممن» بيانية، أى: هم من يكذب بآياتنا.

ولما كان كلا الأمرين لايستوجب تكذيبهم لوضوح تقصيرهم فيهما ، فلهذا لم يستطيعوا أن يجيبوا ربهم بما يخفف عنهم مسئوليتهم فيها فقال الله -تعالى- عقب هذه المساءلة :

٨٥- ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَايَنطِقُونَ ﴾ :

أى : ووجب عليهم العذاب الذى قلناه لهم على ألسنة رسلنا إنِ استمروا على تكذيبهم بآياتنا فهم لايستطيعون النطق بما يدفع حجتنا عليهم .

واعلم أن الحشر يوم القيامة لجميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم ،ولكن هذه الآيات اختصت ببيان حشر المكذبين بآيات الله ومساءلتهم ومصيرهم ، لأن السياق واللحاق يقتضى ذلك الاختصاص .

ويرى الشيعة الإمامية أن لفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : « مِّمَّن يكذب بِآيَاتِنَا » للتبعيض وليس للبيان ، وأن الآية أفادت أن بعض المكذبين بآيات الله يحشرون ، وليس ذلك صفة الحشر يوم القيامة ، إذ يقول الله فى شأنه : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » وهذا يدل على أن هذا الحشر الجزئى يكون فى الدنيا لبعض أعداء الله من الكافرين ، لينتقم منهم على أيدى أوليائه وشيعته عند ظهور المهدى آخر الزمان إذ يرْجِع معه جماعة من أئمة أهل البيت ، ليعاقبوهم بالإذلال والتوبيخ والقتل ، ليفوزوا بثواب نصرة الله ، ويفرحوا بظهور دولته ، وبالجملة فهذه الآية من أشهر ما استدل به الشيعة الإمامية على رجعة أئمتهم، كما استدلوا بأحاديث رووها بهذا الصدد .

والحق أن ما ذهب إليه الشيعة من رجعة أئمتهم أمر خيالى محض ، والاستدلال عليه بالآية رأى فاسد ، فإن الآية ليس فيها عنهم قليل ولا كثير لا فى الرجعة ولا فى غيرها ، والحشر فى لسان الشرع ،هو حشر يوم القيامة ، وهو فى الآية للكافرين جميعًا ، ولفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : « مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا » كما يحتمل أن يكون للتبعيض ، يحتمل أيضًا أن يكون لبيان الفوج الذين يناقشهم الله ويوبخهم ويعاقبهم بعد الحشر ، والحق أن هذه الآيات الثلاث[1] مسوقة لبيان حال المكذبين لرسل الله يوم القيامة ، كما يقتضيه السياق ،

---

(١) وهى قوله تعالى : « ويوم نحشر ... » إلى قوله تعالى : « ووقع القول عليهم » وأرقامها : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

ولا أدل على ذلك من أن الذى يوبخهم ويعاقبهم هو الله -تعالى- وليسوا أئمة الشيعة كما يزعمون، إذ يقول -سبحانه-: « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ » والرجعة التى قال بها الشيعة الإمامية لا يقول بها الشيعة الزيدية بل ينكرونها إنكارًا شديدًا ، وقد ردُّوها فى كتبهم على وجه مستوفى بروايات عن أئمة أهل البيت أيضًا تعارض روايات الإمامية[١] ، فليرجع إلى كتبهم من أراد المزيد من العلم بفساد رأى هؤلاء الإمامية ، والله ولى التوفيق .

٨٦-(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

هذه الآية جاءت لتوجيه نظر المشركين وعقولهم إلى بعض آيات الله الكونية الشاهدة بوحدانيته ، وقدرته على البعث والحشر والحساب التى أنكروها ، والمراد من الرؤية هنا : الرؤية القلبية فإنها هى التى توصلهم إلى الإيمان .

والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المشركون أنا جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه بالقرار والنوم بعد الحركة التى أجهدوا فيها أجسادهم وأرواحهم وعقولهم نهارا ، وجعلنا النهار مضيئًا ليبصروا فى ضوئه طرق التقلب فى أمور معاشهم ، إن فى ذلك التدبير المحكم لأمارات لقوم يريدون الإيمان ، فإنه يشهد بأن الذى دبر هذا التدبير العجيب هو إله واحد قادر على بعث العباد وحشرهم وحسابهم ، فإن من قدر على إبدال الظلمة بالنور ، فإنه يقدر على إبدال الموت بالحياة. وَوَصْفُ النهار بالإبصار بدل الإضاءة ، للمبالغة فى إضاءته وبلوغها من القوة إلى درجة جَعْل الإبصار من صفاته ، وذلك على سبيل المجاز .

(١) راجع ما كتبه الآلوسى فى شأن هذه الرجعة إن شئت ، فقد أسهب فيها وأفاض .

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ
تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ
شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : البوق ، أو جمع صُورة . (فَفَزِعَ) أى : خاف ، وعبر عنه بالماضى لتحققه .

(أَتَوْهُ) أى : جاءوه ، وعبر عنه بالماضى لتحققه . (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) : تظنها ثابتة فى أماكنها .

(دَاخِرِينَ) : صاغرين .

(وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) : تسرع سرعته .

التفسير

٨٧ -(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) :

هذه الآية والتى بعدها مسوقتان لإنذار المكذبين بالبعث وتخويفهم من لقاء رب العالمين ، وللعلماء فى تفسير الصور والنفخ فيه ثلاثة أقوال :

(أحدها) : أنه قَرْنٌ يشبه البوق ، والنفخ فيه على الحقيقة ، وسندهم فى ذلك ما أخرجه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : ما الصُّور ؟ قال : « قرنٌ ينفخ فيه » والمشهور عند أصحاب هذا القول أن صاحب الصور الذى ينفخ فيه هو إسرافيل – عليه السلام– .

(وثانيها) : أن الصُّور – بإسكان الواو – : جمع صورة كالصُّوَر – بفتحها – والمراد بها : صور الخلائق ، والنفخ فى هذا القول كالذى قبله على حقيقته .

(وثالثها) : أن النفخ فى الصور ليس على حقيقته ، وإنما هو صورة بلاغية بطريق الاستعارة التمثيلية ، شبه فيها حال انبعاث الموتى وقيامهم من قبورهم وسيرهم إلى المحشر تلبية لنداء الله لهم - شبه حالهم ذلك - بحال قيام جيش نفخ لهم فى البوق المعهود ، وسيرهم إلى موضع عُيِّنَ لهم ، وتعقيباً على هـذا الخلاف يقول الآلوسى ماخلاصته : أن الأول هو قول الأكثرين وعليه المعول ؛ لأن قوله-تعالى-فى آية أخرى : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ » ظاهر فى أن الصور مفرد مذكر وليس جمع صورة وإلا لقال-سبحانه-: ثم نفخ فيها أخرى بتأنيث الضمير الراجع إليها ، وجَعْلُ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، فيه إنكار لوجود صور حقيقى ينفخ فيه ، وذلك مخالف لما نطقت به الأحاديث الصحاح . . هذه هى خلاصة تعقيب الآلوسى على الخلاف فى حقيقة النفخ فى الصور .

والذى نراه : أن الذى يجب اعتقاده هو أن النفخ فى الصور سوف يكون قطعا ، أما شكل الصور وحقيقته وكيفية النفخ فيه فذلك من الغيبيات التى يوكل علمها إلى علام الغيوب -سبحانه- .

والراجح أن النفخ فى الصور سوف يكون مرتين ، إحداهما يموت عندها الخلائق ، والثانية نفخة البعث التى يقوم الناس عندها لرب العالمين للحساب والجزاء ، كما فى قوله -تعالى- : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(١) » .

واختلف فيما جاء بهذه الآية ، أهى النفخة الثانية ، أم هى النفخة الأولى ؟ وممن ذهب إلى ترجيح أنها النفخة الثانية الإمام أبو السعود ، وقال فى ترجيحه : إنه هو الذى يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه ، وأن المراد بالفزع فى قوله -سبحانه- : « فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ » مايعترى الكل عند البعث والنشور من الرعب والتهيب الضروريين الجِبِلِّيَّيْن بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق . ثم قال : وقيل : المراد بالنفخ هنا : هو النفخة الأولى ، وبالفزع : الخوف الذى ينتهى إلى الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعـالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي

(١) الآية ٥١ من سورة يس .

الأرض » فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها ، دون من مات قبل ذلك من الأمم .
إلى آخر ماقال .

ورجح العلامة الطيبي أنها النفخة الأولى ، وقوله تعالى الآتي : «وكلٌّ أتوه داخرين»
إشارة إلى النفخة الثانية .

ونحن نختار مارجحه العلامة أبو السعود من أن المراد بنفخةالفزع هنا نفخة البعث
مراعاة للمقام ، وفيما يلي تفسيرها على هذا الوجه :

المعنى الإجمالي للآية السابقة :

واذكروا ـ أيها المنكرون للبعث ـ يوم ينفخ في الصور ، ليقوم الناس من قبورهم متّجهين إلى المحشر ، ليحاسبهم الديان على ما كانوا يعملون ـ اذكروا مايحدث من الهول والكرب يومئذ فيفزع له أهل السموات وأهل الأرض ، ويشتد خوفهم واضطرابهم إلا من شاء الله أن يطمئن ، وهم الشهداء كما جاء في حديث صحيح ، ولأنهم عند ربهم يرزقون ، وضم بعض المفسرين إليهم حملة العرش ورؤساء الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والحور العين وخزنة الجنة [1] وكل هؤلاء المبعوثين الفزعين عند هذه النفخة ـ كل هؤلاء ـ يحضرون الموقف بين يدى رب العالمين صاغرين .

٨٨ـ (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) :

نقل القرطبي عن الإمام القشيرى أنه قال : وهذا يوم القيامة ، ثم قال : أى : تمر مرّ السحاب ، حتى لايبقى منها شئ . «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا» [2] ا هـ .

ونحن نوافقه على ذلك مراعاة للسياق .

وإلى هذا الرأى مال صاحب إرشاد العقل السليم فقد قال : إنه مما يقع بعد النفخة الثانية كالفزع المذكور عند حشر الخلق ، يبدل الله ـ تعالى شأنه ـ الأرض غير الأرض

(١) ولكننا لم نجد فى هؤلاء خبرا صحيحا .

(٢) سورة النبأ ، الآية : ٢٠

ويغير هيئتها ، ويسير الجبال عن مقارها على ماذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها أهل المحشر . وهى وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى ، لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى : «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لَّاتَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَاعِوَجَ لَهُ»[1]

وقوله سبحانه : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»[2] فإن اتباع الداعى الذى هو إسرافيل ، وبروز الخلق لله ــ تعالى ــ لايكون إلا عند النفخة الثانية .

ونقل الآلوسى عن بعض المفسرين أن ذلك مما يقع عند النفخة الأولى ، وعقب عليه بما يرجح كونه بعد النفخة الثانية ، والله ــ تعالى ــ أعلم .

ويُعَقِّبُ الله ذلك التغيير الكونى الخطير بقوله ــ سبحانه ــ : «صُنْعَ[3] اللَّهِ الَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» أى : ماتقدم من النفخ فى الصور وماترتب عليه من فزع أهل السموات والأرض إلا من شاء ، ومجىء الخلائق جميعا تلبية لنداء البعث والحشر ، وتحويل الجبال إلى مايشبه العهن المنفوش[4] ، ومرورها مر السحاب فى طريقها إلى الزوال ، كل ذلك صنعه الله الذى أتقن كل شىء ، وبناه على الحكم المستتبعة للغايات الجليلة ، وليس ذلك من باب الإخلال والإفساد دون حكمة .

وقد ختمت الآية بقوله ــ تعالى ــ : «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» وهو تَعليل لما تقدم من النفخ فى الصور وفزع أهل السموات والأرض ومجيئهم إليه صاغرين للحساب ، وقد اعترض بينهما بذكر تحويل الجبال إلى عهن منفوش يسير سير السحاب فى طريقه إلى الزوال بعد أن كانت جامدة ، توفية لمقام الحديث عن الأهوال التى تحيط بيوم الحساب والجزاء .

---

(١) سورة طه ١٠٥ ــ ١٠٨ (٢) سورة إبراهيم : ٤٨

(٣) قال الآلوسى : (صنع الله) مصدر مؤكد لما قبله ، وعقبه بكلام جيد خلاصته ما كتبناه فى تفسير هذه الجملة والله الموفق . (٤) أى : الصوف المنشور .

وقال العلامة الطيبى [١] : قوله : «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ . . » إلخ .

استئناف وقع جوابا لقول من يسأل فماذا يكون بعد هذه القوارع ؟ فقيل : إن الله خبير بعمل العاملين ، فيجازيهم على أعمالهم ، وفصّل ذلك بقوله ـ سبحانه ـ : «مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا . . » إلخ .

وهذا الذى قاله الطيبى قريب مما اخترناه فى موقع الجملة مما قبلها ، وربما كان الذى قلناه أقرب وأولى ، والله أعلم .

المعنى الإجمالى للآية : وترى الجبال ـ أيها الإنسان وأنت فى الموقف بعيد عنها ـ تظنها جامدة ثابتة فى مكانها ، ولكنها قد سُحِقَتْ وأصبحت كالعهن المنفوش ، وقد سيّرها الله ـ سبحانه ـ فوق سطح الأرض وجعلها تمر فوقها فى طريقها إلى الزوال ، لتبرز الأرض التى كانت تواريها ، وهى فى سرعتها تمرّ كما يمر السحاب فى طريقها إلى الزوال ، لتبرز السماء التى كانت تحجبها ، صَنعَ ذلك الصُّنْعَ العجيبَ اللهُ الذى أتقن كل شىء بناء وإزالة لحكم يعلمها ، ومنها : أن يرى الظالمون عظيم جبروته الذى لم يكترثوا به فى دنياهم ، وأن يحاسبهم على أرض جديدة تحقيقا لوعيده : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» [٢] ولن يصعب عليه حساب عباده ، فإنه خبير بما كانوا يفعلونه فى دنياهم .

---

(١) نقله الآلوسى فى تفسيره لقوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها) .

(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ — ٥١ .

(مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ): بالفعلة المستحسنة شرعا . (مِن فَزَعٍ) الفزع : الخوف.

(وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ) المراد بها هنا: الشرك ، كما سيأتى بيانه .

(فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ) : الوجوه معروفة ، أو هى كناية عن الأنفس ، وكبها : إلقاؤها ، وسيأتى مزيد بيان لذلك.

التفسير

٨٩- (مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) :

لما ذكر الله - سبحانه - فى الآية السابقة أنه عليم بما يفعله عباده جاء بهذه الآية والتى تليها لبيان مايترتب على علمه بها من جزائهم عليها . . وفسر ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من السلف - فسروا - الحسنة بشهادة التوحيد ، بناء على ماروى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - من تفسيره إياها بذلك ، والظاهر أنه ﷺ فسرها بأكملها ، وهذا لاينافى أن كل حسنة من الأفعال لها جزاء فى الآخرة خير منها ، والمراد من الفزع الذى يأمنه أصحاب الحسنات : الخوف من العقاب بالنار ، وهو ماجاء فى قوله تعالى : «لَايَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» وحكى عن الحسن أن ذاك حين يؤمر بالعبد إلى النار ، وهذا لاينافى مايحدث لجميع المكلفين عند البعث بعد النفخة الثانية ، فإنه عام لجميع من فى السموات والأرض كما جاء فى قوله تعالى : «وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ» فلا فرق بين أهل الحسنات وأهل السيئات فى الشعور بالفزع والتهيب والرعب عندما يرون أهوال يوم القيامة عقب البعث ، فإن ذلك أمر جِبِلِّى لايكاد يخلو منه أحد .

ومعنى الآية : من جاء بالفعلة الحسنة من توحيد وصلاة وصيام وزكاة وغيرها ، فله جزاء أعظم منها ، حيث يجزى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ماشاء الله ، جزاء دائما فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وهؤلاء المتقون المحسنون آمنون من خوف العذاب يومئذ مطمئنون ، وثوقا بوعد الله الذى لاسبيل إلى الخلف فيه «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا».

٩٠ـ (وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

المراد بالسيئة هنا : الشرك ، وغلبة السيئات على الحسنات ، ويبقى كل منهما فى النار على حسب حاله ، فالكافر خالد فيها أبدا كما جاء فى وعيده فى القرآن والسنة ، والمؤمن الفاسق يخرج منها بعد أن ينال نصيبه من العقاب فيها ، فإنه لايبقى فى النار من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ، كما جاء فى صحاح السنة ، ولهذا ختمت الآية بقوله ـ سبحانه ـ : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : لايجزون إلا على حسب أعمالهم .

ومعنى الآية : ومن جاء بسيئة الشرك أو طغت سيئاته على حسناته ، فألقوا فى النار على وجوههم [1] قيل لهم : هل تجزون إلا بعقاب مماثل لما كنتم تعملونه من السيئات ؟ «وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا» . «وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَايُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا».

(إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾)

(١) ويجوز أن يكون المعنى : فألقيت نفوسهم فى النار بإطلاق الوجه على النفس مجازا ، كما أطلقت الأيدى عليها مجازا فى قوله ـ تعالى ـ : « ... بما كسبت أيديكم» وقوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

المفردات :

(هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ) المراد بها : مكة . (مِنَ الْمُسْلِمِينَ):من المنقادين لملة التوحيد .
(سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) : سيجعلكم تشاهدون أمارات سلطانه فى الدنيا والآخرة .

التفسير

٩١- (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

بينت الآيات السابقة أحداث الساعة وأحوالها وفزع أهل السموات والأرض عندما يفاجأون بها إلا من شاء الله ، ومجيئهم جميعا لحساب ربهم صاغرين ، وأن من جاء بالحسنة فله ثواب خير منها ، ومن جاء بالسيئة عوقب بها جزاء ماكانوا يعملون فى الدنيا ..

وجاءت هذه الآية وما بعدها فى ختام السورة لتقرر أمر التوحيد والبعث اللذين دار عليهما الحوار بين النبيين وأممهم فى ثناياها .

ومعنى هذه الآية : إن الله - تعالى - ما أمر نبيه محمدا ﷺ فيما جاء به من عنده ، إلا بأن يعبد الله رب هذه البلدة - مكة - التى جعلها الله حرما آمنا منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - وله وحده كل شىء ، فلا يصح أن يعبد معه سواه ، وما أمَرَهُ الله - سبحانه - إلا بأن يكون من المسلمين المنقادين لشريعة الإسلام، فلا سبيل له ولا لغيره أن يحيدوا عن توحيد الله ، ولا أن ينصرفوا عن دين الإسلام .

٩٢- (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ):

وكما أمر الله نبيه بذلك أمره بتلاوة القرآن وتكرار الإرشاد به ، لتنكشف للناس الحقائق المخزونة فى آياته ، فإن المواظبة على قراءته والوعظ به ، من أسباب انكشاف الفيوضات الإلهية والأسرار القدسية ، فمن اهتدى بما يسمعه من عظات القرآن ونصائحه ، وبتلاوته من آن لآخر -كما يفعله الرسول - فمن اهتدى بذلك فما تعود مَنفعة اهتدائه

إلا على نفسه ، ومن ضل عن الحق بمخالفته فى هذه النصيحة ، فوبال ضلاله مختص به ، ثم أمره أن يقول لهم : ما أُمرت فى شأْنكم وفى شأْن غيركم إلا بالإنذار والتخويف من عقوبة الخلاف ، أما استجابتكم لدعوتى فليست من شأْنى بل هى من شأْنكم وشأْن الله معكم ، فما علىَّ إلا البلاغ وقد فعلت .

٩٣ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَارَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

وقل - أيها الرسول - لقومك : الحمد لله على نعمائه ، حيث أعاننى على تبليغ رسالته إليكم ، وتلاوة القرآن دائما عليكم ، ومتابعة الإنذار لكم ، وإقامة الحجة عليكم ، مع شدة معارضتكم ومخاصمتكم ، سيريكم الله آياته فى دنياكم وأُخراكم ، فتعرفون أنها برهان الحق ودليل الصدق ، وما ربك - يامحمد - بغافل عما تعملون - أيها المشركون - فسوف تكون آيات عذابه جزاءً وفاقا لأَعمالكم .

وقد حقق الله وعيده لمشركى قريش فى دنياهم ، بما حدث لهم فى غزوة بدر الكبرى ، وسائر انتصارات رسوله عليهم ، وحصول القحط لهم بدعائه ﷺ حيث قال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، فأَصابهم جوع عنيف اضطرهم إلى أكل الكلاب والجيف والعلهز [1] وسوف يرى أشد منه فى أُخراه من مات منهم على كفره « وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .

---

(١) يطلق العلهز على القراد الضخم ، وعلى طعام من الدم والوبر يؤكل فى المجاعة ، وعلى نبات ينبت ببلاد بنى سليم . اهـ : من القاموس .

« سورة القصص »

من السور المكية ، وآياتها ثمان وثمانون ، ووجه مناسبتها لما قبلها أنها تشتمل على شرح بعض ما أجمل فى قصة موسى فى سورتى الشعراء والنمل ، وقد روى عن ابن عباس وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم النمل ثم القصص .

وقد ذكر الله فى السورة السابقة سؤال الكفار يوم القيامة على جهة التوبيخ ، وفى هذه السورة سؤالهم وتوبيخهم بما هو أوسع مما جاء فى سورة النمل ، كما ذكر هنا فى أمر الليل والنهار أكثر مما ذكر هناك ، إلى غير ذلك من المناسبات .

مقاصدها :

اشتملت هذه السورة المباركة على التنويه بآيات القرآن المبين ، وحكاية ما حدث لقوم موسى من جبروت فرعون ، حيث كان يذبح أبناءهم ويستبقى بناتهم ، وأنه -تعالى- شاء إنقاذهم من هذه المحنة فنجى موسى من القتل ، حيث ألهم أمه أن تصنع له تابوتًا وتلقيه فى النيل ففعلت ، فدفعته المياه إلى قصر فرعون ، فالتقطه آله ليكون لهم عدوًّا وحزنًا ، وليخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون وأعوانه ويجعل هلاكه وجنوده على يد من رباه فى كنفه ، وقد ربط الله على قلب أمه فصبرت ، وفرحت به امرأة فرعون وأوصت بعدم قتله قائلة : « لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا » وأوصت أمه أختًا له أن تتبع أثره ففعلت ، وحرم الله عليه المراضع فقالت أخته لأهل فرعون : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ » فقبلوا نصيحتها ، فرده الله بذلك إلى أمه : « كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ » .

ولما بلغ أشده آتاه الله حكمًا وعلمًا ، وجعل من همه إنصاف بنى إسرائيل : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ » واستغفر ربه من ذلك فغفر له : « فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ».

ثم أراد أن يبطش بعدوه فقال له : « أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » فخرج منها متجهًا إلى مدين : « وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » وانتهى أمره مع أبيها إلى الزواج من إحدى ابنتيه على أن يكون أجيرًا عنده ثمانى سنين فإن أتم عشرًا فمن عنده ، فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله رأى نارًا بجانب الطور وكانت امرأته بحاجة إلى الاستدفاء بالنار لشدة البرد ، وحينئذ : « قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّيٓ آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » وهنا شرفه الله بالرسالة إلى فرعون وملئه فرد قائلًا : « إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ » وطلب من الله أن يشرك معه أخاه فى رسالته ليكون عونًا له فإنه أفصح منه لسانًا ، فاستجاب له ربه قائلًا : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » .

فلما جاءهم موسى بآياته وصفوه بالسحر ، وقالوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ آبَآئِنَا الْأَوَّلِينَ » وطلب فرعون من وزيره هامان أن يبنى له صرحًا ليبلغ به إلى حيث يطلع إلى إله موسى ، وقال : إنه يظنه من الكاذبين . وظل أمرهما فى صراع فترة طويلة ، فلما لم تغنه النذر انتقم الله منه ومن جنوده بما حكاه فى قوله سبحانه - : « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » ، ثم بين الله - تعالى - ما لهذه القصة من الدلالة على نبوة محمد ﷺ فقال : « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ » ثم قال : « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

ثم عابَتْ هذه السورة عليهم أنهم لما جاءهم القرآن الحقُّ من عند الله معجزة لنبيهم محمد ، سألوه أن يأتيهم بكتاب من السماء جملة واحدة ، كما جاء موسى قومه بالتوراة جملة واحدة ، فأفحمهم الله بأنهم كفروا بما أوتى موسى من قبل قائلين : « سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ » فلا همٌّ لهم إلَّا المكابرة والعناد ، ثم بينت أن بعض أهل الكتاب لما تُلِيَ عليهم آمنوا به قائلين : « إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا » وأنهم إذا سمعوا لغوهم فيه أعرضوا عنه ، ثم نعت عليهم شركهم ، وذكرت أن الله تعالى أمر نبيه أن يستخبرهم عمن يأتيهم بضياء يبصرون فيه إن جعل الله عليهم الليل مستمرًّا وسرمدًا إلى يوم القيامة ، أو يأتيهم بليل يسكنون فيه إن جعل عليهم النهار كذلك ؟ وأنه — تعالى — هو الذى تفضل عليهم برحمته فجعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتغوا فيه من فضله ولعلهم يشكرون وأنه سوف يناديهم يوم القيامة فيسألهم : « أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » وأن الحق سوف يظهر لله عليهم ، بشهادتهم على أنفسهم .

ثم حكت قصة قارون ، فبينت أنه من قوم موسى ، فلما أغناه الله بغى عليهم وطغى وأعرض عن الآخرة ، وزعم أن ما أوتيه على علم عنده ، فلم يسند الفضل فيه لرب العالمين ، فخسف الله به وبداره الأرض ، وما نفعه ماله ولا كبرياؤه ولا أتباعه ، ثم ذكرت أن الدار الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين .

ثم تحدثت عن فضل الله وعدله فى قضائه يوم القيامة ، فذكرت أن : « مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . ثم ختمت السورة بدعاء كل مكلف إلى توحيد الله : « وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ
أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : القرآن الواضح ، من : أبان بمعنى اتضح ، والمبين للأحكام ، من : أبان غيره أى : أوضحه ، وأطلق الكتاب على القرآن لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، أو لأنه يكتب فى الصحف . (مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ) : بعض خبرهما .

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : يصدقون حالًا واستقبالًا . (عَلَا فِى الْأَرْضِ) : استكبر فى أرض مصر .

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) أى : جعلهم أصنافًا يَسْتخدم كل صنف منهم فيما يريد ، أو أحزابًا يعادى بعضهم بعضًا ، وللكلام بقية فى التفسير .

(يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ) : هم بنو إسرائيل .

(وَيَسْتَحْيِى نِسَآءَهُمْ) : يبقى إناثهم دون قتل .

التفسير

١ ، ٢ - (طسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

تقدم الكلام على أسماء الحروف التى بدئت بها بعض السور فارجع إلى مثله فى أوائل سورتى البقرة وآل عمران وغيرهما ، كما تقدم الكلام على (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) فى سورتى يوسف والشعراء فارجع إليها إن شئت .

والمعنى الإجمالى : طسم : هذه الآيات التى جاءت بسورة القصص آيات القرآن المكتوب فى اللوح المحفوظ الواضح الدلالة على الحق ، المبين للحلال والحرام وقصص الأنبياء ، ونبوة محمد ﷺ وأحوال البعث والحشر والنشور والحساب والجزاء .

٣ - (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

نقص عليك - أيها الرسول - بعض أخبار موسى وفرعون وقوميهما قصصًا متصفًا بالحق لقوم يصدقون به حالًا واستقبالًا ، لينتفعوا بما جاء فيها ويتعظوا بمواعظها .

فى قصة موسى مع قومه يعلمون أن قرابة موسى مع قارون لم تنفعه مع كفره ، وفى قصته مع فرعون يعرفون أن كبرياء فرعون وعلوه وبطشه لم تعصمه من نقمة الله القوى الجبار المتكبر .

٤ - (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) :

فرعون : لقب قديم لكل ملك كان يحكم مصر من أهلها . علوه فى الأرض : تجبره على أهلها ، كما قاله ابن عباس ، وقال قتادة : علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره ، وادعى الربوبية والمراد من الأرض : أرض مصر ، والشِّيَعُ : جمع شِيعَة ، وتطلق على كل قوم أمرهم واحد ، يتبع بعضهم رأى بعض ، وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، والمراد من جعل فرعون أهل مصر شيعا : أنه جعلهم أصنافًا يتبعونه فى تحقيق غاياته ومآربه من الشر والفساد ، أو من مختلف الأغراض والغايات من بناء وحرث وحفر وغير ذلك ، أو أنه فرق بينهم وجعل بعضهم عدوًّا لبعض حتى يشتغلوا بأنفسهم ، ويتم له بذلك السيادة عليهم ، وفقًا للقول المعروف عن الجبارين : فَـرِّقْ تَسُد .

والمراد بالطائفة المستضعفة : بنو إسرائيل ، فهم الذين كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، والمراد من نسائهم : إناثهم - صغارًا كُنَّ أم كبارًا - وسبب ذلك على ما قيل ، أنه كان يعتمد فى أمور المستقبل على رأى الكهنة والمنجمين ، فقال له قائل منهم : إن هلاكه سيكون على يد ذكر من بنى إسرائيل ، أو أنه رأى رؤيا فعُبِّرَتْ له بذلك . قال الزجاج : العجب من حمقه : لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا موجب للقتل

والمعنى الإجمالى للآية : إن فرعون علا بجبروته فى أرض مصر وجعل أهلها فرقًا ، فأما من كان من أهل مصر ، فقد استظهر بهم واستعان على ظلمه وجبروته ، ولم يمس ذكورهم ولا إناثهم بسوء ، وأما بنو إسرائيل فإنه كان يذبح صغار الذكور من مواليدهم خوفًا منهم ، ويستبقى إناثهم لخدمة أهل مصر ، ولأنه كان لا يتوقع الشر من جهتهن ، إنه كان من المفسدين الراسخين فى الإفساد ، لاجترائه على قتل من لا جريرة له بناء على رأى فاسد ، فإن قتلهم لا يغير من قضاء الله إن جعل هلاكه على يد أحدهم ، فإنه لا ينفعه حذره من قدره .

(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾)

المفردات :

(نَمُنَّ) : نُنْعِمَ . « أَئِمَّةً » : مقدمين فى أمر الدين .

(وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) : لبعض ما كان يملكه فرعون .

(مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) : ما كانوا يخافون .

التفسير

٥ - (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) :

بين الله فى الآية السابقة أن فرعون تجبر فى الأرض ، ولم يكن عادلًا فى حكم مملكته ، إذ أنه جعل بعض أهلها سادة وهم أهل مصر الأصليون ، وجعل بعضًا آخر من ساكنيها عبيدًا مسخرين هم بنو إسرائيل ، وكان يذبح المواليد من أبنائهم الذكور خوفًا على نفسه منهم ، ويستبقى إناثهم أحياء لخدمتهم وجاء بهاتين الآيتين لبيان الحكمة فى إرسال موسى - عليه السلام -

لفرعون وبنى إسرائيل ، وقد ثبت تاريخيًّا أنه لم يكن لبنى إسرائيل ميراث لأرض مصر الأصلية ولا حكم فيها ، بل الذى ثبت هو خروجهم منها إلى أرض فلسطين ، فلذلك يكون المراد من ميراثهم الأرض إسكانهم أرض فلسطين ، وجعلهم أصحاب ملك فيها كأنها ميراث لهم ، أو أنها كانت تابعة لحكم فرعون فأورثهم الله إياها منه بتسليطهم عليها وقتئذ ، وقد عاقبهم الله بنزع سلطانهم عليها حين أفسدوا فى الأرض ، كما أشارت إليه سورة الإسراء وكما ثبت عندهم فى سفر الخروج .

ومعنى الآيتين : ونريد بإرسال موسى — عليه السلام — أن ننعم على بنى إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وقومه فى أرض مصر ، وأن ننقلهم من الشرك إلى عبادة الله — تعالى — ونجعلهم بذلك أئمة فى الدين يقتدى بهم المشركون من حولهم ، ونجعلهم مستقرين فى أرض فلسطين استقرارًا يشبه الميراث ، وأن نمكن لهم فى الأرض التى أسكناهم فيها ونسلطهم عليها فتكون تحت سلطانهم وحكمهم ما داموا عاملين بشرعنا ، وأن نرى فرعون ووزيره هامان وجنودهما ما كانوا يخافونه من الهلاك على يد رجل من بنى إسرائيل ، حيث أغرقناهم فى اليم أجمعين ، وسيأتى تفصيل ذلك قرآنًا وتفسيرًا إن شاء الله تعالى .

(وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَأَوْحَيْنَا) : وألهمنا . (فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) اليم : البحر . والمقصود به هنا : النيل ، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره . (آلُ فِرْعَوْنَ) المراد بآله : من ينسبون إليه ولو بالخدمة . (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) أى : فتكون عاقبة أمره أن يكون لهم معاديًا ، ومصدر حزن لهم . (خَاطِئِينَ) : اسم فاعل من خطئ بمعنى تعمد الذنب ، وللكلام بقية فى التفسير . (قُرَّةُ عَيْنٍ) أى : سكون وطمأنينة ، يقال : قرّت عينه ، تقر - بفتح القاف وضمها - قرة وقُرّة : إذا سكنت بعد حيرة ، أو بردت وانقطع بكاؤها .

التفسير

٧ - (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

بين الله فى الآية السابقة أنه - تعالى - يريد أن ينعم على بنى إسرائيل بالحرية بعد استعبادهم ويمكن لهم فى الأرض ، ويهلك فرعون وهامان وجنودهما على أيديهم دون أن ينفعهم حذرهم ، وجاءت هذه الآية وما بعدها تحكى قصة الإنعام على الأولين وإهلاك الآخرين .

واختلف العلماء فى تفسير المراد من الوحى إلى أم موسى ، فقال قتادة : إنه بمعنى الإلهام ، وقال جماعة : إنه كان خطابًا مناميًّا كسائر الرؤى الصادقة ، وقال آخرون : إنه كان بملك ، ولا يثبت لها بهذا نبوة ؛ فإن النبوة لا تكون فى النساء بالإجماع ، وقد جاء تكليم الملائكة لغير الأنبياء فى قصة الأبرص والأقرع والأعمى من بنى إسرائيل حيث أنزل إليهم ملكًا يسألهم أمنياتهم ، فسألوه أن يكشف الله ما بهم ويحسن إليهم ، فأجابهم الله إلى ما سألوه ، فبخل الأولان ، وكان الأخير سخيًا فيما أعطاه الله فرضى الله عنه ، وقد روى حديثهم البخارى ومسلم وغيرهما[1] .

---

(١) ارجع إليه فى الجزء الثامن من القرطبى ص ١٨٨ طبع دار الكتب فى تفسير قوله تعالى : « إنما الصدقات » المسألة الرابعة والعشرون .

وأخرج البخارى فى صحيحه [١] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لقد كان فيما كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر » . وقد سلمت الملائكة على عمران بن حصين ولم يكن نبيًّا ــ نقله القرطبى.

ويقول مجاهد : كان الإيحاء بالرضاعة والإلقاء فى اليم عند الخوف عليه ــ كان ذلك ــ قبل الولادة . وقال السدى : لما ولدت أم موسى أُمِرَتْ أن ترضعه وتصنع به ما فى الآية. ، وهذا وذاك من باب الاجتهاد .

ويروى أنها صنعت له تابوتًا من نبات البَرْدِىّ ، وَقَيَّرَتْهُ بالقار ، فلما خافت عليه ألقته فى النيل ، وكان فرعون قد استشار جلساءه فيما يصنعه ببنى إسرائيل ، فأشاروا عليه بقتل مواليدهم من الذكور ففعل ، روى عن ابن عباس أنه لما استحرّ القتل فيهم قالوا : إن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون ، فتحرمون من خدمتهم ، وتقومون بما كانوا يقومون به ، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر ، ودعوهم عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا ، فيشب الصغار مكان من ماتوا من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، وكانوا قد كثروا بمصر واستطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ، فسلط الله القبط عليهم ، فأجمعوا أمرهم على قتل ذراريّهم الذكور عامًا وتركهم عامًا ، فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلما كان من قابل حملت بموسى ــ عليه السلام ــ فكان من أمره ما قصّ الله ــ تعالى ــ .

وقد اشتملت هذه الآية على أعلى صور البلاغة ، يروى أن امرأة أنشدت شعرًا فمدح الأصمعى فصاحتها وبلاغتها ، فقالت : أبعد قوله ــ تعالى ــ : (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ...) وقد جمعت بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

وتفصيل ذلك : أن (أَوْحَيْنَآ) و (خِفْتِ) خبران ، و (أَرْضِعِيهِ) و (أَلْقِيهِ) أمران ، (وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى) نهيان ، و (إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) بشارتان ، فما أعظم وأبلغ القرآن ، إذ يجمع كل ذلك فى هذه الآية القصيرة .

---

(١) فى كتاب الأنبياء ، باب : مناقب عمر .

والمعنى الإجمالى للآية : وأعلمنا أم موسى أن ترضعه وقتًما تكون آمنة عليه ، فإذا خافت عليه من الجواسيس ألقته فى تابوت فى النيل ، كما أعلمناها أنّه موضع رعايتنا ، فلا تخاف عليه ضَيْعَةً ، ولا خطرا من عدم رضاعه ، ولا تحزن على مفارقته إيّاها إنا سنرده إليها عن قرب ونجعله من المرسلين حينما يبلغ سن الرسالة .

وهذا ما نراه فى معنى الآية الكريمة حسب نصها ، وللمفسرين كلام كثير حول قصة وضعه وإخفائه وخوفها عليه من جواسيس فرعون ، وننقل فيما يلى ما قاله ابن كثير فى ذلك فإنه احتاط فيه أكثر من غيره – وإن لم نجد له سندًا – ونراه تصويرًا للحال حسب الخيال أقرب من أن يكون حكاية للمقال .

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية : ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنو إسرائيل ، فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك – إذا استمر هذا الحال – أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا ، فولد هرون فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى – عليه السلام – فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يدرن على النساء ، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها ، لا يقبَلُها(١) إلّا نساء القبط فإن ولدت جارية تركتها وذهبْن ، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة ، فقتلوه ومضوا – قبحهم الله – فلما حملت أم موسى – عليه السلام – لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا ، وخافت عليه خوفًا شديدًا ، وأحبته حبًّا زائدًا ، وكان موسى – عليه السلام – لا يراه أحدٌ إلّا أحبَّه ، قال تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى » ، فلما ضاقت ذرعًا به أُلهمت فى سرِّها ، ونُفِثَ فى رُوعها كما قال تعالى : (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . .) الآية . وذلك أن دارها كانت على حافة النيل ، فاتخذت تابوتًا

(١) يقال : قبلت القابلة المرأة : إذا تلقت ولدها حين ولادته .

ومهدت له فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه جعلته فى ذلك التابوت وسيرته فى البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وأرسلته فى البحر، وذهلت عن ربطه، فذهب مع الماء حتى مَرَّ به على دار فرعون[١]، فكان من أمره ما قَصَّ الله – تعالى – بقوله :

٨ –(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) :

الفاء فى قوله : (فَالْتَقَطَهُ) أفصحت عن جمل مقدرة تعرف من السياق ، أى : فنفذت ما أمرت به من إرضاعه ثم إلقائه فى اليم عندما خافت عليه . والمراد من آل فرعون : أتباعه وجواريه، ومن التقاطه : أخذه، والتعبير عنه بالالتقاط للإيذان بأنهم أخذوه بإعزاز واهتمام كما يهتم باللقطة، قال ابن كثير فى تصوير ذلك : فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتحنه قبل أن تفتحه هى، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأبهاه، فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراده الله من كرامتها، وشقاوة زوجها[٢] .

واللام فى قوله : (لِيَكُونَ) لام العاقبة، وليست لام التعليل ؛ فإنهم التقطوه ليكون لهم قرة عين، لا ليكون لهم عدوًّا وحزنًا ، أى : فكانت عاقبة التقاطه أنه كان عدوًّا لهم ومصدر حزن، لا قرة عين ومصدر فرح وغبطة، حيث كان من أمره معهم ما قص الله .

ومن المفسرين من جعل اللام هنا للتعليل، على معنى أن الله قيضهم لالتقاطه، ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم وخوفهم ولهذا قال عقبه : (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) .

ولفظ : (خَاطِئِينَ) إما من الخطيئة، وهى الإثم[٣] ، وإمّا من الخطأ ضد الصواب[٤] ، ويكون عن غير عمد .

---

(١) انتهى كلام ابن كثير مع تصرف يسير . (٢) ابن كثير مع تصرف قليل .

(٣) ويطلق عليه الخِطْء أيضا – بكسر الخاء وسكون الطاء – وفعله : خَطِئ – بفتح فكسر – إذا تعمد الذنب .

(٤) وفعله : خطىء أيضا فى بعض لغات العرب ، أو : هو اسم فاعل من أخطأ على غير قياس .

والمعنى الإجمالى للآية : ففعلت ما أوحاه الله إليها من إرضاعه ثم إلقائه فى اليم عندما خافت عليه ، فجرى به الماء إلى قصر فرعون ، فأخذه أتباعه بعناية وحرص وفرح كما تؤخذ اللقطة — أخذوه — لتكون عاقبته أن يصير لهم عدوًّا مخاصمًا فى الحق ، ومصدر حزن دائم لهم ، حيث كان سببًا فى غرقهم فى اليم وحزن أهليهم عليهم ، عقابًا لهم على كفرهم بربهم وعصيانهم لرسولهم ، إن فرعون وهامان وزيره وأعوانه كانوا آثمين باستعباد بنى إسرائيل وظلمهم وقتلهم ذكرانهم ، وكفرهم بآيات ربهم : كما كانوا مخطئين فى تقديرهم نجاتهم بقتل ذكور بنى إسرائيل فقد جحدوا أن الله شديد العقاب .

٩ - (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ (١) لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢)) :

لم يأت فى القرآن ولا السنة اسم امرأة فرعون ، وجاء اسمها (آسية بنت مزاحم) عند عدد من المفسرين ، ويبدو أنه اسم عربى ، فهل هى من ذرية العماليق الذين حكموا مصر وكانوا عربًا ، أم كانت من قبيلة من قبائل العرب ؟ ويبدو لى أنه لا سند له ؛ فلذا لا نجزم بصحة هذه التسمية وندعها لعلام الغيوب .

قال القرطبى : يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم فى البحر فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت صبيًّا صغيرًا فرحمته وأحبته فقالت لفرعون : « قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ » أى : هو قرة عين لى ولك .

وقال ابن كثير : يعنى أن فرعون لما رآه هَمَّ بقتله ، خوفًا من أن يكون من بنى إسرائيل ، فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاج عنه وتُحَبِّبه إلى فرعون ، فقالت : (قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ) فقال : أمَّا لك فنعم ، وأمَّا لى فلا ، فكان كذلك ، وهداها به ، وأهلكه الله على يديه . ا هـ.

وقد نقل ابن كثير عن النَّسائى أن رسول الله ﷺ قال : « والذى يحلف به لو أقَرَّ فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها » .

---

(١) وقدمت نفسها عليه لما تعلمه من حبه إياها ، و إيثار مصلحتها على مصلحته . (٢) جملة (وهم لا يشعرون) حال من آل فرعون ، والتقدير : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته كيت وكيت وهم لا يشعرون ويجوز كونه حالا من القائلة والمقول له ، والمراد بالجمع اثنان ، وقيل غير ذلك .

والخطاب فى (لَا تَقْتُلُوهُ) إمَّا موجه منها إلى فرعون على طريقة التعظيم ، حيث خوطب خطاب الجمع ، كما قال الشاعر : فقلت ارحمونى يا إله محمد .

وإمَّا موجه إلى المأمورين بقتل الصبيان ، كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفه على موسى ، آنست منه بادرة أمن جديد ، فالتفتت إلى خطاب المأمورين بقتل الصبيان فنهتهم عن قتله ، معلِّلة ذلك بقوله – تعالى – حكاية عنها : « عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا » أمَّا نفعه لهم فلما رأته فيه من مخايل النجابة ، وأما اتخاذه ولدًا فلما رأته فيه من مخايل الشرف اللائق بتبنِّى الملوك ، ولم يكن لها منه ولد .

والمعنى الإجمالى للآية : وقالت امرأة فرعون حين بهرها حسن موسى – قالت لفرعون أو لأعوانه –: لا تقتلوه وذروه حيًّا لعله ينفعنا نفعًا جزيلًا نتوقعه منه ، أو نتخذه ولدًا ونتبناه حيث لا ولد لنا ، وهم لا يدرون ما يُخبئه لهم القدر ، من هلاك فرعون وجنوده وإنقاذ بنى إسرائيل من عبوديتهم على يديه .

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(فَارِغًا) أى : خاليًا من كل شىء إلَّا من شأن موسى ، أو خاليًا من التعقل وحسن التصرف . (إِن كَادَتْ لَتُبْدِى[1] بِهِ) : إنها كادت لتعلن أمره للناس .

(لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) الربط على القلب : مجاز عن التثبيت بالصبر .

(لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) : لتكون راسخة الإيمان بصدق وعدنا برده .

---

(١) (إنْ) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، واللام فارقة بينها وبين (إن) النافية ، أى : أنها قربت أن تصرح بموسى وحاله معها .

(قُصِّيهِ): تَتَبَّعِي أَثَرَه وتعرَّفى خبره .

(فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ) : أبصرته عن بعد .

التفسير

١٠ ـ (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

اختلف العلماء فى تفسير فراغ قلب أم موسى ، فمنهم من فسره بخلوه من كل شىء إلَّا من أمر موسى ، وصح ذلك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كما روى ذلك التفسير عن ابن مسعود والحسن ومجاهد وعكرمة .

ومنهم من فسَّره بالخلو من الصبر ، ومنهم من فسره بنسيانها وعد الله برده إليها من اليم ، وقال أبو عبيدة : فارغًا من الهم حيث عرفت أنه لم يغرق ، وأن فرعون عطف عليه وتبناه ـ كما يقال : فلان فارغ البال ، وقال آخرون : فارغًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه فرعون كما فى قوله ـ تعالى ـ : « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ » أى : لا عقول فيها .

فعلى رأى ابن عباس يكون معنى الآية : وصار قلب أم موسى فارغا من كل شىء إلا من أمر موسى حيث ألقته فى البحر ، ولاتدرى أين ذهب الماء به ، إنها كادت لشدة وجدها وحزنها على فراقه ، لَتُظْهِرُ أنها ذهب ولدها فى البحر ، وتخبر بحالها معه ، لولا أن ثبتها الله وصبرها لتكون من الملتزمين بتصديق الله فى وعده . وعلى رأى أبى عبيدة : وصار فؤاد أم موسى فارغا من الهم حيث عرفت أنه لم يغرق ، وأن فرعون وامرأته تبنَّياه . إنها أوشكت أن تبوح بأمره وتكشف سره إلى آخر المعنى السابق .

١١ ـ (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

كان لموسى ـ عليه السلام ـ أخت كبرى تحسن تنفيذ ماتكلف به ، وكان اسمها مريم ـ كما قيل ـ فلما ألقته أمه فى البحر قالت لأخته هذه : تتبعى أثره واعرفى خبره لتعرف مصيره ، فأبصرته عن بعد وأهل فرعون لايشعرون أنها أخته ، وأنها تتعرف حاله ومصيره .

* (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(حَرَّمْنَا) : منعنا ، فالتحريم مجاز عن المنع ؛ لأن من حُرِّم عليه شيء فقد مُنِعَه .

(الْمَرَاضِعَ) : جمع مُرْضِع ؛ وهي المرأة لها ولد ترضعه فإن وصفتها بإرضاع الولد قلت : مرضعة .

(يَكْفُلُونَهُ) : يتولَّونه ويقومون على تربيته ورضاعته .

(أَشُدَّهُ) : قُوّته ، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة كما ذكره صاحب القاموس، وقال البيضاوى : هو من ثلاثين إلى أربعين سنة ، وهو واحد جاء على بناء الجمع ، كآنُك[1] ، ولا نظير لهما ، أو جمع لا واحد له .

(وَاسْتَوَى) : واعتدل وتمَّ وبلغ المبلغ الذى لا يُزَاد عليه ، واستوى الرجل : بلغ أشُدَّه أو أربعين سنة .

(حُكْمًا) أى : حكمة .

(وَعِلْمًا) : ومعرفة وفهما ، وعَلِمه – بكسر اللام – علما : عرَفه .

التفسير

١٢ – (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) :

(١) الآنك : الرصاص .

لما أصبح موسى بدار فرعون وأحبته زوجته وطلبت منه الإبقاء على حياته قائلة : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» عرضوا عليه المراضع التى كانت لديهم ، فلم يقبل منهن ثديا ، فذلك قوله –تعالى–: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ . .) إلخ .

والمعنى : منع الله موسى أن يُرْضَع ثدى امرأة قط – قال ابن عباس : لايُؤْتى له بمرضع فيقبلها ، وهذا تحريم منع لاتحريم شرع . قال امرؤُ القيس :

جالت لتصرعنى فقلت لها اقصرى إنى امرؤٌ صَرْعِى عليك حرام

أى : ممتنع .

وقد منعه الله – سبحانه – أن يرتضع ثدى امرأة غريبة . حتى يحدث ما أراده – سبحانه – من قبل حضور أخته التى كانت تتبعه .

قال ابن كثير : وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضِع غير أمه . ولأن الله – سبحانه وتعالى – جعل ذلك سببا لرجوعه إليها .

فاغتمَّ آل فرعون لامتناعه عن الرضاعة وأهمَّهم ذلك وخافوا عليه التلف والهلاك . وتلمّسوا له المراضع ؛ فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت : ألا أرشدكم إلى أسرة كريمة تكفله وتتعهده بالرضاع والتربية وتقوم برعايته ، ولاتقصر فى خدمته ، وهم له حافظون ومخلصون فى رعايتهم له ، فلما قالت لهم ذلك طلبوا هذه المرضع . فلما حضرت دخلوا بها عليه ؛ فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، واستدعت زوجة الملك أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلا – وهى لاتعرف أنها أمُّهُ الحقيقيّة – وحين طلبت أم موسى أن تأخذ معها موسى لترضعه فى بيتها أجابتها امرأة فرعون إلى ذلك . وأجرت عليها النفقة والإحسان الجزيل ، وهكذا رجعت أم موسى بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا فى عز وجاه ورزق واسع ، ولهذا جاء فى الحديث : «مثل الذى يعمل ويحتسب فى صُنعه الخير كمثل أم موسى تُرْضع ولدَها وتأخذُ أجْرَها» .

ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل ، فسبحان من بيده الأمر ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فهو الذى جعل لمن اتقاه عند كل هم فرجا ، ومع كل ضيق مخرجا ، ولله در القائل :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

١٣ ـ (فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

أرجع الله موسى إلى أمه كى تطيب نفسها وتسرّ بعودته إليها ، ولاتحزن بفراقه ، ولتزداد علما بأن جميع ماوعد الله حق لايُخلف فيه من ردّه إليها وجعله من المرسلين ، بمشاهدة بعضه ،وقياس بعضه عليه ،ولكن أكثر الناس لايعلمون أنه حق فيرتابون ، ويشبه أن تكون جملة «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» تعريضا بما فرط من أمه حين سمعت بخبر موسى ووقوعه فى يد عدو الله فرعون ، فنسيت وعد الله فجزعت وأصبح فؤادها فارغا بعد أن أضحى وليدها الرضيع كالحمل الوديع فى عَرين الأسد .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) : حكمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة ، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة ، كما قال تعالى : «وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ» .

وقال القرطبى : (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) يعنى أكثر آل فرعون لايعلمون ، أى : كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء .

١٤ ـ (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ) :

لما ذكر الله ـ تعالى ـ مبدأ أمر موسى ـ عليه السلام ـ ذكر أنه لما بلغ أشُدّه وكمل وتم نضجُه أعطاه الله الحكمة والعلم والمعرفة والحلم ، ومثل ذلك الجزاء الذى جزينا به موسى وأمه نكافىء المحسنين على إحسانهم .

واختلف فى زمان بلوغ الأشُد والاستواء ، أخرج ابن أبى الدنيا من طريق الكلبى عن ابن عباس أنه قال : الأشُدُّ مابين الثانى عشرة إلى الثلاثين ، والاستواء مابين الثلاثين

إلى الأربعين . وأخرج ابن حميد عن مجاهد أنه قال : الأَشُدُّ ثلاث وثلاثون سنة ، والاستواء أربعون سنة ، وهى رواية عن ابن عباس .

ونقل عن الزجاج : أن الأَشُد مابين الثلاثين إلى الأربعين ، واختاره بعضهم لموافقته لقوله تعالى : «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » لأنه يشعر بأنه مُنتهٍ إلى الأربعين ، والحق أن بلوغ الأَشُد فى الأصل هو الانتهاء إلى حد القوة وذلك وقت تمام النمو وغايته ، والاستواء : تمام العقل وكماله ونضجه ، وذلك يختلف باختلاف الأقاليم والأعصار والأحوال ولذا وقع له تفاسير كثيرة فى كتب اللغة والتفسير .

كما اختلف فى المراد من الحُكْم والعِلم ، قال الزمخشرى : العلم : التوراة ، والحُكم : السنة ، وحكمة الأنبياء – عليهم السلام – : سنتهم ، قال تعالى فى سورة الأحزاب : «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ » الآية : ٣٤

وقيل : آتيناه سيرة الحكماء والعلماء وأخلاقهم وسَمْتَهم قبل البعثة ، لأن استنباءه – عليه السلام – كان بعد وَكْزِ القبطى ، والهجرة إلى مدين ورجوعه منها .

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا
رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ
ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ
عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا
لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى
ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

(فَاسْتَغَاثَهُ) : فطلب غوثه ونصره ومساعدته . (شِيعَتِهِ) شِيعةُ الرجل - بكسر الشين - : أتْباعُه وأنصارُه ، ويقع على الواحد وغيره مذكرا ومؤنثا ، وقد غلب على كل من يتولى عليا وآل بيته حتى صار اسما خاصا بهم .

(فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ) : فضربه بِجُمْع كفه[1] ، وقد يطلق الوكز على معنى الطعن والدفع . (فَقَضَىٰ عَلَيْهِ) قال الآلوسي : أنهى حياته ، أى : جعلها مُنْتهية مُنقضِّية .

(ظَهِيراً) : مُعِيناً ومساعدا . (يَتَرَقَّبُ) : ينتظر ويترصّد المكروه .

(اسْتَنصَرَهُ) : طلب نصره ومعاونته . (يَسْتَصْرِخُهُ) : يستغيث به .

(يَبْطِشَ) : يأخذه بالعنف والشدة والبأس . (جَبَّاراً) الجبار : اسم من أسمائه تعالى ، والجبار : العظيم القوى ، وكل عات ، ومن يقاتل فى غير حق .

التفسير

١٥ - (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) :

ذكر - سبحانه وتعالى - قصة قتل موسى ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، ثم ماقدّر له بعد ذلك من الإكرام والنبوة والتكليم فقال :

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا . . .) إلخ.

قال ابن عباس : دخل موسى مدينة - منف - من أرض مصر فى وقت لايعتاد دخولها أو لايتوقّعونه فيه ، وكان - كما رُوى عن الْحَبْر - وقت القائلة ، وفى رواية عنه : بين العشاء والعتمة .

وإزاء هذا الخلاف فى الرواية عن ابن عباس ، نرى أن التعيين لامبرر له ، فيكفى أنه وقت غفلة ، والله يعلم أكان ليلا أم نهارا ؟

وقال ابن إسحاق : هى مصر ، وكان موسى - عليه السلام - قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فاختفى وغاب ثم دخلها متنكرا ، فوجد فيها رجلين يتنازعان ويتحاربان أحدهما ممن شايَعَهُ وتابَعَهُ ، وهم بنو إسرائيل ، والآخر من مخالفيه وهم القبط ،

---

(١) فى القاموس : جُمع الكف - بالضم - وهو حين تقبضها .

فاستعان الإسرائيليُّ بموسى وطلب منه نصره ومساعدته على خصمه القبطى ، واستجاب له موسى وأعانه وضرب القبطى فقتله من غير قصد ، ثم أسف موسى وقال : إن إقدامى على هذا من تزيين الشيطان وإغوائه ، إن الشيطان للإنسان لعدو ظاهر العداوة واضح الضلال والإضلال .

واختلف فى سبب تقاتل هذين الرجلين ، فقيل : كان أمرًا دينيًا ،وقيل : كان أمرًا دُنْيويًا ، رُوى أن القبطىَّ كلف الإسرائيلى حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأَبى ، فاقتتلا لذلك ، وكان القبطى — كما روى عن سعيد بن جبير — خبازًا لفرعون ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٦ — (قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

قال موسى — مُتَضَرِّعا داعيا ربه — : يارب إنى أسأْت إلى نفسى ، بما فعلت من ضرْبٍ ترتب عليه القتل ، وكان فيه ذهابُ النفس . فاغفر لى ذنبى ، وهكذا ندم على عمله فَحَمَلَهُ ندمُه على الرجوع لربه والاستغفار من ذنبه فغفر الله له .

ولايشكل ذلك على القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر قبل الرسالة وبعدها ، لأن الوكز من الصغائر ، وما وقع من القتل كان خطأً كما قاله كعبٌ وغيره — بل قيل : لايشكل أيضا على القول بعصمتهم عن الصغائر والكبائر مطلقا لجواز أن يكون — عليه السلام — قد رأى أن فى الوكْز دَفْعَ ظالم عن مظلوم وتخليص ضعيف من قوىّ ، ومنْعَ معتدٍ من اعتدائه ، ففعله غيرَ قاصد به القتل . وكأنه — عليه السلام — بعد أن وقع منه ماوقع تأمل ، فظهر له إمكان الدفع بغير الوكز . وأنه لم يتثبت فى أمره لما اعتراه من الغضب ، فعلم أنه فعل خلاف الأَوْلى بالنسبة إلى أمثاله ، فقال ماقال من أنه من عمل الشيطان على عادة المقربين فى استعظام خلاف الأَوْلى :

١٧ — (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ) :

قال موسى — خاضعا سائلا ربه متوجها إليه — : يارب بحق إنعامك علىَّ بالمعرفة والحكمة والتوحيد ، وحفظى من شر فرعون وقومه وفقنى للخير والصواب ، فإن وفقتنى إلى ذلك

فلن أكون عونا ومساعدا للكافرين والمخالفين لأوامرك ، وعن ابن عباس : لم يستثن ، فابتلى به مرة أخرى ، يعنى : لم يقل : فلن أكون إن شاء الله .

وقيل معناه : بسبب ما أنعمت على من قوة الجسم ومتانة التركيب وغير ذلك من النعم أشكرك ، فلن أستعمل نعمك فى مظاهرة من تؤدى معاونته إلى الوقوع فى جرم وإثم .

النهى عن معاونة الظلمة :

احتج أهل العلم بهذه الآية على منع معاونة الظلمة وخدمتهم . أخرج عبد الله بن الوليد الرصافى : قلت لعطاء بن رباح : إن أخى ليس له من أمور السلطان شىء إلا أنه يكتب له بقلم مايدخل ومايخرج ، وله عيال ، ولو ترك ذلك لاحتاج واستدان ، فقال : مَن الرأس ؟ قال : خالد بن عبد الله القسرى . قال : أما تقرأ ماقاله العبد الصالح : «رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ» فلا يُعينهم أخوك ، فإن الله يعينه . ذكره القرطبى والآلوسى والزمخشرى .

قال عطاء : فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ، ولا يكتب له ، ولايصحبه ، وإن فعل شيئا من ذلك كان معينا للظالمين ، قال تعالى : «وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» فإذا كان الرُّكُونُ إلى الظلمة أو العمل معهم موجبا لغضب الله وسخطه ، مُعَرِّضا لعقابه وناره ، فماذا يكون حال من انغمسوا منهم فى شرورهم وآثامهم ، وشاركوهم فى ظلمهم وأعانوهم على القتل والتشريد للأحرار الصالحين ؟ بل من كانوا أداة تعذيب وقهر وظلم للأبرياء ؟ لاشك أن عقابهم أشد وعذابهم أعظم .

١٨ـ(فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ) :

فأصبح موسى فى مصر بعد قتله القبطى فزعًا يتوقع أن يصيبه الأذى من القوم بسبب قتله المصرى ، وقيل : خائفًا وقوع المكروه من فرعون ، يترقب نصرة الله عليه ، فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى نصره بالأمس وساعده وقَتَل القبطى بسببه يستغيث به مرة ثانية على

مصرى آخر: فنهره موسى وزجره قائلًا له: إنك لظاهر الغواية كثير الشر؛ لأنك تسببت فى قتل رجل، وتقاتل آخر، ودعوتنى مرة ثانية لنصرتك ومساعدتك.

١٩ - (فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) :

أى: فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الذى هو عدوٌّ لهما توهم الإسرائيلى المستصرخ لضعفه وذلته أن موسى يريد البطش به، فقال له - يريد أن يدفع عن نفسه -: (أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ . . .) الآية - ولم يكن أحد يعلم بقتل موسى للقبطى أمس سوى هذا الإسرائيلى، لأن ذلك كان والناس فى غفلة، فلما سمع القبطى ذلك تلقفه من فمه، ثم ذهب به إلى بيت فرعون، فألقاها عنده، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى . . هكذا قال ابن كثير، وكون الخطاب من الإسرائيلى لموسى هو رأى ابن عباس، وهو الذى قال به ابن كثير كما تقدم.

وقال الحسن: قاله القبطى الذى هو عدوٌّ لهما، كأنه عرف من قول موسى للإسرائيلى: (إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ) أنه الذى قتل القبطى بالأمس من أجله، ولما انتشر الحديث ووصل - بأية صورة - إلى فرعون وملئه هموا بقتل موسى - عليه السلام - فخرج مؤمن من آل فرعون - قيل: هو ابن عم فرعون - ليخبره بذلك وينصحه، كما قال عز وجل :

(وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن
يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) كجبل : الأشراف، والقوم ذوو الشارة والتجمع .

(يَأْتَمِرُونَ بِكَ) : يتشاورون بسببك، وسمى التشاور ائتمارًا لأن كلاًّ من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر بأمره ، والائتمار والمؤامرة : المشاورة والهم بالشر .

(سَوَآءَ السَّبِيلِ) : الطريق السوى .

التفسير

٢٠ - (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) :

المعنى : وجاء رجل مؤمن من آل فرعون من أقصى المدينة يسرع فى مشيه لمزيد اهتمامه بإخبار موسى ونصحه قال : ياموسى إن وجوه قوم فرعون والأشراف منهم يتشاورون فى أمرك ويشير بعضهم على بعض بقتلك قصاصًا للقبطى الذى قتلته بالأمس ، فاخرج من مصر قبل أن يظفروا بك ، إنى لك من الناصحين المخلصين ، ولما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون وكبار دولته فى أمره كان ما قص الله بقوله :

٢١ ـ (فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فخرج موسى ـ عليه السلام ـ من مصر ممتثلًا نصح ذلك المؤمن خائفًا يتوقع أن يتعرض له أعداؤه بالأذى فى الطريق ، يتلفت خشية أن يُدْرَكَ ، يقول ضارعًا إلى الله ربه أن يحفظه وينجيه من اعتداء المعتدين ، من فرعون وقومه .

٢٢ ـ (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ) :

ولما خرج موسى ـ عليه السلام ـ فارًّا بنفسه منفردًا خائفًا ، وصرف وجهه ناحية مدين ـ قرية شعيب ـ ورأى حاله من خلوه من زاد وغيره ، وعدم معرفته بالطريق فوَّض أمره إلى الله ـ تعالى ـ راجيًا أن يهديه الطريق الأقوم السوى ـ طريق الخير والنجاة ـ قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلَّا حسن ظنه بربه ، وقال ابن كثير : حقق الله له ما طلبه ، وهداه إلى الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة فجعله هاديًا مهديًّا .

(وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا
لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ
تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾
فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ
قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ
حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ
أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ) : وصل إليه ، والوِرْد – بالكسر – : الإشراف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله ، والنصيب من الماء ، والقوم يردون الماء . (تَذُودَانِ) : تدفعان وتمنعان غنمهما عن الماء ؛ ومنه قول الرسول ﷺ : « فَلَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضى » أى : ليُطْرَدَنَّ

ويمنعن . (مَا خَطْبُكُمَا) : ما شأنكما ؟ وفى القاموس : الخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم ، والجمع : خُطوب . (يُصْدِرَ) : قرأ ابن عامر وأبو عمرو : (يَصْدُرَ) ـ بفتح الياء ـ من صدر ، ضد ورد ، أى : يرجع الرعاة بأغنامهم ، وقرأ الباقون : (يُصْدِرَ) من أصدر بمعنى أرجع ، أى : حتى يُرْجعوا مواشيهم . (الرِّعَاءُ) :جمع الراعى ،وهو كل من ولى أمر الحيوان وغيره ولاحظه محسنًا إليه . وقام على حفظه ومراقبته . (تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ) قال أبو البقاء : تأجرنى من أجرته إذا كنت له أجيرًا ، كقولك : أَبَوْتُهُ إذا كنت له أبًا ، أو من تأجرنى بمعنى تثيبنى ، ومنه تعزية الرسول ﷺ : « أجَرَكُم الله ورحمكم » ، وفى القاموس : أجَرَه ، يأْجِرُه ، ويأْجُرُه : جزاه كآجره ، والأجر : الجزاء على العمل .

(حِجَجٍ) :جمع حِجَّة ـ بالكسر ـ وهى السَّنة . (أَشُقَّ عَلَيْكَ) : أوقعك فى المشقة والصعاب . (فَلَا عُدْوَانَ عَلَىَّ) أى : لا يُعْتدَى علىَّ فى طلب الزيادة .

التفسير

٢٣ ـ (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) :

ولما بلغ موسى ماء مدين ووصل إلى بئرها وأشرف عليه وجد فوق شفيرها وعلى جوانبها جماعة كثيرة من الناس مختلفى الأصناف يسقون مواشى مختلفة ، منهم من كان يسقى إبلًا ومنهم من كان يسقى غنمًا وهكذا ، ووجد فى مكان أسفل من مكانهم أو مما يلى جهته إذا قدم عليهم امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء خوفًا من السقاة الأقوياء كما قال ابن عباس ، أو : لئلا تختلط بغيرها كما قاله الزجاج ، فلما رآهما موسى ـ عليه السلام ـ رق قلبه لهما وعطف عليهما وقال : ما شأنكما وما خبركما ؟ لماذا لا تردان الماء مع هؤلاء ؟ قالتا : عادتنا ألّا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء بعد ريِّها ؛ لأننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مدافعة الرجال ومزاحمتهم ، وما لنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر ، فلابد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء ، يقصدان إبداء العذر عن توليهما السقى بأنفسهما .

وفى سؤاله ـ عليه السلام ـ إياهما دليل على جواز مكالمة الأجنبية مع التصون والعفاف .

قال الزمخشرى : فإن قيل : كيف ساغ لنبى الله أن يرضى لبنتيه يسق الغنم ؟

فالجواب : أن الأمر فى نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه ، وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك ، والعادات متباينةٌ فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحَضر ، خصوصًا إذا كانت الحال حال ضرورة .

قال ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٤ : وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو على أقوال :

أحدها : أنه شعيب – عليه السلام – الذى أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ، ورواه ابن أبى حاتم ، قال : حدثنا أبىَ ، حدثنا عبد العزيز الأزدى : حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبًا هو الذى قصّ عليه موسى القصص .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، وكان شعيب قبل زمن موسى بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ » ولقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل – عليه السلام – كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم ، وكان بين الخليل وموسى مدة طويلة ، وما قيل : إن شعيبًا عاش مدة طويلة إنما هو – والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ، ومما يقوى كونه ليس بشعيب النبى أنه لو كان إياه لكان جديرًا أن ينص على اسمه فى القرآن هٰهنا ، وماجاء من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده ، ثم الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه شيرون – والله أعلم –

ويقول الآلوسى – بعد أن ساق مثل ما تقدم – : والأخبار التى وقفنا عليها فى هذا المطلب مختلفة ولم يتميز عندنا ما هو الأرجح فيها .

٢٤ – (فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) :

اهتز وجدان موسى ، وتحركت عوامل الرحمة فى قلبه ، فتطوع لمساعدتهما وسقى غنمهما لأجلهما ، ثم ركن إلى مكان ظليل ليستريح من الجهد الذى بذله ، وهو يقول فى تضرع وتذلل لربه : يارب إنى فقيرٌ إلى ما تسوقه إلىّ من خير ، محتاجٌ إلى شىء تنزله من خزائن كرمك ، ويبدو من عبارته شدة الحاجة إلى نجدة من رحمة الله بعد ما قاسى من سفر طويل وحرمان شديد ، فعرّض بالدعاء ولم يصرح بالسؤال .

قال الزمخشرى : وإنما فعل ذلك رغبة فى المعروف، وإغاثة للملهوف، لأنه بعد أن وصل إلى ماء مدين وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيماتهما مترقبتين لفراغهم فما أبطأت همته فى انتهاز تلك الفرصة احتسابًا على ما كان به من النصَب والجوع، فرحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقى فى تلك الزحمة بقوة قلبه وشدة ساعده وما آتاه الله من الفضل فى متانة الخلقة، وفيه انتهاز فرصة الاحتساب وترغيب فى الخير، وبعث على الاقتداء فى ذلك بالصالحين، والأخذ بسيرهم ومذاهبهم .

ولما رجعت الفتاتان بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما مسرعتين، فسألهما عن خبرهما ، فقصّتا عليه ما فعل موسى ـ عليه السلام ـ فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها .

٢٥ ـ (فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فجاءت إحدى الفتاتين مُوفدة من قِبَل أبيها تسير نحو موسى سير الحرائر، فى حياء وخَفَر، قالت : إن أبى يدعوك ليثيبك ويكافئك على سقيك غنمنا، فلما ذهب موسى إلى والد الفتاتين وحدثه حديثه ، وقصّ عليه قصصه ، وما جرى له ، وسبب خروجه من مصر ، وتتبعَ القوم له واقتفاءهم أثره ، وشدة حرصهم على ملاقاته والفتك به ، قال له : طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا ؛ فقد خرجت من مملكتهم، ولا سلطان لهم فى بلادنا وسلمت من القوم المعتدين : يُرِيدُ فِرعونَ وقومَه .

وفى قول الفتاة السابق ما فيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ، وقد لبى موسى دعوة شعيب لا على سبيل أخذ الأجر على معروف بذله لبنتيه ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف قُدِّم له ، وقد قص على شعيب قصصه وعرَّفه أنه من بيت النبوة ، ومثله حقيق بأن يُضَيَّف ويُكَرَّم ، على أنه ليس بمنكر أن يقبل الأجر على خير فعله لاضطرار الفقر والفاقة .

رُوِى أنها لما قالت له : « لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » كره ذلك ، ولما قُدِّم إليه الطعام امتنع مع شدة حاجته إليه وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطِلَاع[1] الأرض ذهبًا ولا نأخذ على المعروف ثمنًا ؛ فقال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا[2] .

هذا وإن كل من فعل معروفًا فأُهدى بشيء لم يحرم أخذه .

٢٦ – (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) :

قالت إحدى ابنتى هذا الرجل (ولعلها هى التى استدعت موسى إلى أبيها والتى زوّجها من موسى عليه السلام) : يا أبت اتخذه أجيرًا لرعى الغنم والقيام على شئونها وحفظها ، ورعايتها ، إنه خير من تستأجره للقيام بهذه المهمة ، وأداء هذا العمل لقوته وأمانته ، وكلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان – أعنى القوة والأمانة – فى القائم بالعمل فقد فرغ بال صاحبه وتم مراده ، وقد ساقته مساق المثل حيث قالت : (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) بدلًا من أن تقول استأجره لقوته وأمانته .

وعن ابن عباس : أن شعيبًا أحفظته الغيرة : أغضبته ، فقال : وما علمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت له حمله حجرالبئر ونزعه الدلو ، وأنه صوّب رأسه[3] حين بلغته رسالته ، وأمرها بالمشى خلفه . إ هـ : بتصرف .

روى ابن كثير والزمخشرى عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب حين قالت : « إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » ، وصاحب يوسف فى قوله : « أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا » ، وأبو بكر فى عمر ، أى : فى اختياره عمر وترشيحه ليكون خليفة بعده .

وقدمت وصفه بالقوة مع أن أمانة الأجير لحفظ المال أهم فى نظر المستأجر ، لِتَقَدُّم علمها بقوته على علمها بأمانته ، أو ليكون وصفه بالأمانة بعده من باب الترقى من المهم إلى الأهم ،

---

(١) طلاع الشىء – ككتاب – : ملؤه . إ هـ : قاموس .

(٢) الكشاف بتصرف .

(٣) صوّب رأسه : خفضها . إ هـ : قاموس ص ٩٤ ج ١

واستُدِلّ بقولها : (اسْتَأْجِرْهُ) على مشروعية الإجارة عندهم ، وكذلك كانت فى كل ملة وهى من ضروريات الحياة وفيها قضاء لمصالح الناس .

٢٧ -(قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

استئناف بيانى وقع جوابًا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قال أبوها بعد أن سمع كلامها ؟

أى : قال شعيب - عليه السلام - لموسى : إنى أريد أن أزوجك واحدة من ابنتىّ هاتين على أن يكون مهرها أن تعمل عندى أجيرًا لرعى الغنم ثمانى سنوات فإن أتممت عشرًا فى الخدمة والعمل فالإتمام من عندك لا ألزمك به ، ولكن إذا فعلته فهو منك تفضل وتبرُّع ، وما أريد أن أصعِّبَ الأمر عليك وأوقعكَ فى مشقة بإلزام أطول الأجلين ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين المحسنين للمعاملة الموفين بالعهد .

وعلى النحو المتقدم وعد شعيب موسى المساهلة والمسامحة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعى غنمه ولا يفعل نحوه ما يفعله المُعَاسِرُون مع من يعمل لهم من المناقشة فى مراعاة الأوقات ، والمضايقة فى استيفاء الأعمال ، وتكليف الرعاة أشغالًا خارجة عن حد الشرط ، وهكذا كان الأنبياء - عليهم السلام - آخذين بالأسمح فى معاملات الناس ، وفى الآية الكريمة السابقة جواز عَرْضِ الولى ابنته على الرجل الصالح ، وهذه سنة حسنة ، عرض صالح بنى مدين على صالح بنى إسرائيل بنته ، وعرض عمر بن الخطاب بنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، فلا بأس بعرض الرجل وليّته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح اقتداء بالسلف الصالح .

كما تدل على أن للأب أن يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار ، وبه قال الشافعى ومالك واحتجا بهذه الآية ، وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها إلّا برضاها ، أما الصغيرة البكر فيزوجها وليها بغير رضاها بلا خلاف ، واستدل الشافعى بقوله : « إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ » على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح ، وخالفه غيره .

قال القرطبي فى المسألة العاشرة : قوله تعالى : (إِحْدَى ابْنَتَيَّ) يدل على أنه عرض لا عقد لأنه لو كان عقدًا لَعَيَّنَ المعقود عليها له . لأن العلماء اتفقوا على أنه لا يجوز الإبهام فى النكاح ، فلابد من تعيين المعقود عليها .

ثم قال فى المسألة الحادية عشرة : أما تعيين الفتاة فقد حدث عند العقد .

ثم قال : وأما ذِكْرُ أول المدة فى الإجارة فليس فى الآية ما يقتضى إسقاطه بل هو مسكوت عنه ، فإمَّا عيَّنَاهُ وإلَّا فهو من أول العقد .

وقد دلت الآية الكريمة على أنه قد أصدقها منفعة هى الإجارة ، وهو أمر قد قرره شرعنا ، وجرى فى حديث الرجل الذى لم يكن عنده إلَّا شىءٌ من القرآن . وقد قال الرسول ﷺ للرجل سائلًا : « ما تحفظ من القرآن ؟ » فقال : سورة البقرة والتى تليها . قال : « فَعلِّمْها عِشرينَ آيةً وهى امرأتُك » إ هـ : ملخصًا من القرطبي .

وتسمية المهر أجرًا اصطلاح قرآنى وقد قال : « فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » .

فإن قيل : إن إجارته كانت منفعة لأبيها كما هو ظاهر النص ، فالجواب : أن الغنم إما أن تكون لها فمنفعة إجارته عائدة عليها . وإن كانت الغنم لأبيها فربما كان ذلك شرع من قبلنا يجعل المهر من حق الأب .

٢٨ ـ (قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) :

قال موسى لصهره : ذلك الذى قُلْتَه وعاهدتنى فيه ، وشارطتنى عليه قائم بيننا ، لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت على ، ولا أنت عما شرطت على نفسك ، أى أجل من الأجلين ـ أطولُهُما الذى هو العَشْرُ أو أقصرهما الذى هو الثانى ـ وفيتك بأداء الخدمة فيه فلا يُعْتدى علىَّ بطلب الزيادة عليه .

قال الزمخشرى : أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء ، إمَّا هذا وإمَّا هذا من غير تفاوت بينهما فى القضاء ، وأما التتمة فموكولة إلى رأيى

إن شئتُ أتيتُ بها وإلّا لم أُجبر عليها، وقيل معناه: فلا أكون معتديًا، وهو نفي للعدوان عن نفسه، كقولك: لا إثم عليَّ ولا تبعة عليَّ، والله على ما نقول من الشروط الجارية بيننا وكيل وشاهد وحفيظ، والمراد: توثيق العقد وأنه لا سبيل لأحد منهما إلى الخروج عنه أصلًا، وبما سبق في الآيتين استدل العلماء على أن اليسار لا يعتبر في الكفاءة؛ فإن موسى لم يكن حينئذ موسرًا، وأن في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ اكتفاء بشهادة الله - عز وجل - إذ لم يُشْهِد أحدًا من الخلق، فيدل ذلك على عدم اشتراط الإشهاد في النكاح عندهم، وقد اختُلف في ذلك على قولين: أحدهما: أنه لا ينعقد إلّا بشاهدين، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، الثاني: أنه ينعقد دون شهود، وبه قال مالك؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّف[1] .

قال ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥: وقد دل الدليل على أن موسى - عليه السلام - إنما فعل أكملَ الأجلين وأتمَّهما.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس - رضي الله عنه - فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل، والله - تعالى - أعلم[1] .

(١) انظر القرطبي: المسألة الثالثة والعشرين.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

(فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) : أتم المدة المضروبة بينه وبين شعيب .

(ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ) : أبصر من الجهة التى تلى الطور . وأصل الإيناس : إبصار ما يؤنس.

(بِخَبَرٍ) : بنبإٍ يعلم منه الطريق ؛ وكانوا قد أخطأوا الطريق وضلوا عنه .

(جَذْوَةٍ) - مثلثة الجيم - : عود غليظ مشتعل . (تَصْطَلُونَ) : تستدفئون .

التفسير

٢٩ - (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ . . .) الآية .

هذه الآية تتضمن كلامًا قبلها يقتضيه سياق القصة: وتتابع أحداثها ؛ فإن قوله - تعالى - على لسان شعيب : « إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ . . . » الآية[1] لم يزد على أنه مجرد عرض ، وإبداء رغبة لم يبرم فيه عقد ؛ ولم تتكامل معه أركان الزواج ، ومن عادة القرآن أن يستغنى عن ذكر ما يستدعيه المقام ويفهم من التتابع ؛ فإن الإيجاز من مقاصد البلاغة ، وتمام النسج على هذا أن يقال : فلما توافقا ؛ وتم عقد النكاح أخذ فى إمضاء ما التزمه (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) أى : فلما أتم موسى المدة التى تركها شعيب لخيار موسى - عليه السلام - والمراد به : الأجل الآخر كما أخرجه ابن مردويه عن مقسم ، عن الحسن ابن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - وأخرج البخارى ، وجماعة عن ابن عباس : أنه سئل : أى الأجلين قضى موسى - عليه السلام - ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ؛ إن رسول الله إذا قال فعل .

(١) من الآية ٢٧ من سورة القصص .

وقوله تعالى :(وَسَارَ بِأَهْلِهِ) أى : مضى إلى مصر بأهله ، وما كان معه من الزاد بإذن من شعيب - عليه السلام - قالوا : كان موسى - عليه السلام - قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه ، قال ابن عطاء : لما أتم موسى أجل المحنة ، ودنت أيام الزلفة ، وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتركوا معه فى لطائف صنع ربه .

ومعنى (ءانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا) : أبصر من الجهة التى تلى الطور ، لا من بعضه كما هو المتبادر ، وأصل الإيناس - على ما قيل - : الإحساس من الأُنس فيكون أعم من الإبصار .

وقال الزمخشرى : هو الإبصار البين الذى لا شبهة فيه ، واستظهر بعضهم أن المبصر كان نورًا حقيقة إلَّا أنه عبر عنه بالنار اعتبارًا لاعتقاد موسى . ولأن النار هى طلبته .

وقوله تعالى : (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا) معناه : قال موسى لأهله حين آنس النار : أقيموا مكانكم ، واثبتوا ، وفى البحر : أنه خرج بأهله وماله فى فصل الشتاء ، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامرأته حامل لا يدرى أليلًا تضع أم نهارًا ، فسار فى البرية لا يعرف طريقها ، فألجأه السير إلى جانب الطور الغربى فى ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد ، فأضل الطريق يومًا حتى أدركه الليل ، فأخذ امرأته الطلق ، فقدح زنده فأصلد[1] ، فنظر فإذا نار تلوح من بعد ، فقال لأهله : امكثوا وأقيموا مكانكم إنى أبصرت نارًا سأقصدها (لَعَلِّى ءاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) أى : رجاء أن أجد عندها من يرشدنى إلى الطريق فآتيكم بخبر عنه ، أو آتيكم بعود غليظ ملتهب بالنار تلتمسون به الدفء من شدة ما تعانون من البرد .

---

(١) أى : لم يخرج نارا .

(فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾
وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ
يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ) : الجانب الأيمن بالنسبة لموسى ، وقيل : الأيمن من اليُمْن .

(الْبُقْعَةِ) ــ بضم الباء ــ : القطعة من الأرض على غير هيئة التي بجانبها ، وتفتح باؤها أيضًا كما في القاموس . (جَآنٌّ) : حية كحلاء العين بيضاء وتكثر في الدور ولا تؤذى .

(مُدْبِرًا) : منهزمًا خلفه من الخوف . (يُعَقِّبْ) : يرجع . (اسْلُكْ) : أدخل .

(جَيْبِكَ) الجيب : فتحة القميص من حيث يدخل الرأس . (جَنَاحَكَ) الجناح : العضد والذراع ؛ لأن الذراع للإنسان كالجناح للطائر . (سُوٓءٍ) : عيب ومرض .

(الرَّهْبِ) ــ بفتح الراء والهاء ــ : الخوف ، وفيه ــ إسكان الهاء مع فتح الراء وضمها ــ وبه قرئ .

(بُرْهَانَانِ) : حجتان واضحتان ، تثنية برهان ، وهو الحجة النيرة القاطعة يقال : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان .

التفسير

٣٠ ــ (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ . . .) الآية .

أى : فلما أتى النار التى آنسها موسى ــ عليه السلام ــ جاءه النداء من الجانب الأيمن

بالنسبة إلى موسى فى مسيره، فالمقصود بالجانب الأيمن: الجهة اليمنى، وجوزوا أن يكون الأيمن بمعنى المتصف باليُمن والبركة، وعلى هذا يجوز أن يكون وصفًا للشاطىء أو الوادى، وقوله: (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) معناه: نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى هذه القطعة التى باركها الله بما خصها به من آياته وأنواره المشتملة على الشجرة النابتة فيها.

وقوله: (أَن يَا مُوسَىٰ) تفسير للنداء، أو بيان لشأنه وحقيقته حسمًا لكل شك وقطعًا لكل تأويل، قال جعفر: أبصر نارًا دلته على الأنوار؛ لأنه رأى النور فى هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به أجواء الأُنس فخوطب بألطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلَّمًا شريفًا أعطى ما سأل، وأمِنَ ممَّا خاف. ومعنى: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ): إنى أنا الله ربك الذى يخاطبك ويكلمك، ورب العالمين الفعال لما يشاء، لا إله سواه، ولارب غيره- تنزه وتعالى- عن المماثلة فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله فاسمع منى، ولا تك فى شك ممَّا يلقى إليك، وقد سمع موسى- عليه السلام- على ما تدل عليه الآثار كلامًا لفظيًّا خلقه الله فى الشجرة- وقيل: خلقه فى الهواء كذلك، وسمعه موسى من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات، وذهب الشيخ الأشعرى والإمام الغزالى إلى أن موسى- عليه السلام- سمع كلامه النفسى القديم بلا صوت ولا حرف، كما ترى ذاته- عز وجل- يوم القيامة بلا كيف ولا كم.

وقال الحسن: إنه- سبحانه- نادى موسى- عليه السلام- نداء الوحى لا نداء الكلام، ولم يرتض ذلك العلماء لما فيه من مخالفة الظاهر، وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء.

ولفظ: (أَنَا) وإن كان كل واحد يشير به إلى نفسه فليس المعنى به محل لفظه.

هذا: وجاء فى سورة طه فى التعبير عن هذه القصة (نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)، وفى سورة النمل: (نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ) وما هنا غير ذلك، بل ما فى كلٍّ غير ما فى الآخر، فاستشكل ذلك، وأجيب بأن المغايرة إنما هى فى اللفظ، وأما فى المعنى المراد فلا مغايرة والواقع أن ما فى القرآن ترجمة عربية لما سمعه موسى، فتؤدَّى بأى عبارة تُفْهِمُ أصل المعنى، وذهب الإمام إلى أنه- تعالى- حكى فى كل من هذه السور بعض ما اشتمل عليه النداء لما أن المطابقة بين ما فى المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلف مَّا.

ومثل هذا يقال فيما تكرر ذكره من القصص فى القرآن الكريم مع اختلاف التعبير فيه ؛ لأن كل سورة تعنى عند ذكر القصة بالجانب الذى تسوقها من أجله ؛ والتعبير الذى يناسبه .

٣١ - (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . .) الآية .

هذه الآية معطوفة على قوله : (أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ) فهى من جملة ما نودى به : فقد ناداه أولا بما يؤكد ألوهية الله وربوبيته - سبحانه - لموسى وللعالمين جميعًا ليستيقظ انتباهه وتنقشع غفلته ، وناداه ثانيًا بما يؤدى الغرض ويحقق المقصود من اصطفائه للرسالة بقوله : وألق العصا التى تحملها فى يديك على الأرض تنقلب حية فى سرعة حركتها . ثعبانًا عظيمًا فى ضخامة جثتها وضخامة فمها . آية لك .

وعن الحسن : ما كانت إلا عصا من الشجرة التى اعترضها اعتراضًا ؛ وعن الكلبى : كانت عصا من شجرة العوسج التى نودى منها موسى .

وقوله تعالى :(فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ) يفصح عن كلام محذوف تقديره : فألقى موسى العصا طاعة لأمر ربه فانقلبت حية فى خفتها وسرعة حركتها . وثعبانًا فى ضخامة جثتها . وعظم حجمها ، فلما أبصرها تهتز وتتحرك بهذه الخفة تملكه الخوف واستبد به الرعب ففر منهزمًا . ولم يعقب على شىء ولم يرجع وراءه أو يلتفت خلفه من شدة خوفه ، وعند ذلك نودى من قبل الله تعالى :(إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) من المخاوف لأنك رسول الله ؛ وإنه لا يخاف لدى المرسلون .

٣٢ - (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ . . .) الآية .

هذه الآية من جملة ما نودى به موسى . والمعنى : أدخل يدك فى فتحة ثوبك حيث يخرج الرأس ، فإن فعلت تخرج بيضاء من غير مرض ولا عيب .

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) فى الكشاف : فيه معنيان :

(أحدهما) : أن موسى - عليه السلام - لما قلب الله - تعالى - العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده ، كما يفعل الخائف من الشىء ، فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء ، فإذا ألقيت العصا فانقلبت حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى ، والمراد

بالجناح : اليد لأن يد الإنسان بمنزلة جناحى الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه .

(الثانى) : يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه لنفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما ومعنى : (مِنَ الرَّهْبِ) من أجل الرهب ، أى : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك . انتهى بتصرف يسير .

وقوله تعالى :(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ . . .) معناه : فهذان الأمران العجيبان - وهما قلب العصا ، وخروج اليد بيضاء - برهانان واضحان ، وحجتان نيرتان ، مُرْسلان من ربك ، واصلان إلى فرعون وقومه ليرتدعوا عمَّا هم فيه ، إنهم كانوا قومًا خارجين عن طاعة الله ، أحقاء بأن نرسل إليهم هاتين المعجزتين لزجرهم وردهم عن فسقهم وكفرهم ، والبرهان معناه : الحجة النيرة من قولهم : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان مأخوذ من : بره، إذا ابيضّ وتسمى الحجة سلطانًا أيضًا من السليط ، وهو الزيت الذى يتلألأ عند الاتقاد .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾
وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي
إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(رِدْءًا) : معينًا يشتد به أمرى .

(يُصَدِّقُنِى) : بإيضاح الحق بلسانه ، وبسط القول فيه ، ونفى الشبهة عنه .

التفسير

٣٣ - (قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) :

أى : قال موسى - عليه السلام - تعقيبًا على تكليفه بالرسالة ، وطلبًا لما يعينه عليها ، ويقويه على أدائها كما يفهم من قوله -تعالى- : (فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى) ولم يقله استعفاء

من الرسالة ورفضًا – كما زعم اليهود – قال : يارب إنى قتلت من هؤلاء القوم نفسًا حين استنصرنى الرجل الذى من شيعتى ، فإذا تعرضت لهم ورأونى فإنى أخاف أن يقتلونى بقتيلهم ، ولا معين لى يمنعنى منهم ، أو يدفع عنى شرهم .

٣٤ – (وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) :

أى : وأخى هارون هو أقدر منى على توضيح الحجة ورد الشبهة ، وقوة المعارضة – وإنما قال ذلك لأنه – عليه السلام – كانت به عقدة فى لسانه تضعف تعبيره وتعوق بيانه – فأحتاج إلى من يعيننى ويبلغ حجتى ، فأرسل معى أخى هارون ردءًا وعونًا يساعدنى على توضيح الدعوة وإبراز الحجة ، ويصدقنى ، ويخلص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل الكفار ويظهر صدق بتقرير الحجج وتزييف الشبه : (إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) فلا يسعفنى لسانى على محاجتهم ولا يطاوعنى على مقاومتهم ، ومعارضة باطلهم .

(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(سَنَشُدُّ عَضُدَكَ) : سنقويك ونعينك .

(سُلْطَانًا) : تسلطًا وغلبة بالحجة والبرهان .

التفسير

٣٥ – (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا . . .) الآية .

استئناف وقع جوابًا من الله لسؤال موسى – عليه السلام – بقوله : (أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا) أى : قال الله – سبحانه – لموسى : سنعينك ونقويك بإجابة مطلوبك ، حيث نشد عضدك بإرسال أخيك هرون معك .

وشدة عضده كناية عن تقويته لأن الجسد يشتد بشدة العضد - وهو ما بين المرفق إلى الكتف وقوله تعالى : (وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً) معناه : ونجعل لك ولأخيك تسلطًا وغلبة عليهم فلايقوون على تكذيبكم ، وتمتنعون عليهم فلايصلون إليكما باستيلاء أو محاجة .

وقوله تعالى : (بِآيَاتِنَا) يجوز أن يكون متعلقًا بـ (نجعل) ، أو بـ (لا يصلون) ، والمعنى : أنت ياموسى وأخوك هرون ومن اتبعكما - أنتم - الغالبون بآياتنا ، الممتنعون بقوتنا فلاسبيل لفرعون وقومه إلى الوصول إليكما بأذى .

وبهذه العِدَةِ من الله اشتد عضد موسى - عليه السلام - وقوى عزمه ، وتسامت همته إلى مواجهة طغيان فرعون ومَلَئه ، وتحطيم إلاهيته ، كما تمت نعمة الله على هرون بإرساله ، بفضل طلب موسى لذلك من ربه ، ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هرون - عليهما السلام - فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيًّا ورسولًا معه إلى فرعون ومَلَئه .

(فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(بَيِّنَاتٍ) : واضحات الدلالة على رسالة موسى . (مُفْتَرًى) : مختلقًا لم يحدث قبل هذا مثله ، أو سحر تفعله أنت ثم تكذب به على الله . (الْأَوَّلِينَ) : السابقين .

التفسير

٣٦ - (فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ . . .) الآية .

أى : فلما جاء موسى بآيات الله ومعجزاته الواضحات أنكرها فرعون ومَلَؤه ، وكذبوها ، وقالوا : ما هذا الذى جئت به إلا سحر مختلق لم يفعل مثله قبله ، أو سحر تفعله أنت من عند نفسك ثم تفتريه على الله وتكذب ، وزادوا فى العناد والكفر والإنكار فقالوا : وما سمعنا بهذه النبوة التى تدعيها فى آبائنا السابقين علينا ، ولاوقع فيهم مثل هذا القول .

(وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(عَاقِبَةُ الدَّارِ) : هى العاقبة والنهاية المحمودة لقوله تعالى : « لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » و (الدَّارِ) هى : الدنيا .

التفسير

٣٧ــ (وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَآءَ بِالْهُدَىٰ . . .) الآية .

تتعلق بهذه الآية مباحث :

أولًا : أن موسى ــ عليه السلام ــ يعنى نفسه بقوله : (مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ) .

ثانيًا : أن السياق يقتضى عدم العطف بالواو لأن الموقع موقع سؤال وجواب ، ولكنه جاء عطفًا بالواو على قولهم : ما هذا إلَّا سحر مفترى ليوازن الناظر بين القولين ، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر .

ثالثًا : أن الآية جرت على أسلوب التشكيك والتعمية استجهالًا لهم على حد قوله : « وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

والمعنى : قال موسى ــ عليه السلام ــ ردًّا على قولهم : «مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى» ربى أعلم منكم بحال من أهَّله للدعوة إلى الهدى والفلاح الأعظم حيث جعله نبيًا وبعثه بالهدى ، ووعده العاقبة المحمودة فى الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله وكرمه .

ووجه اختصاص العاقبة بالعاقبة المحمودة دون مطلق العاقبة : أنها هى التى دعا الله إليها عباده ، وحضهم عليها ، وهيأ فيهم العقول التى ترشدهم إليها ، وقال عنها : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وقوله تعالى :(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) :تنزيه لله – تعالى – أن يرسل الكاذبين ، أو يُنبىء الساحرين ، أو يفلح عنده الظالمون فيفوزون بمطلوب ، أو ينجون من محذور .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) : الأشراف وذوو الرأى . (أَوْقِدْ) : أشعل النار .

(صَرْحًا) : قصرًا عاليًا وبناءً شامخًا .

التفسير

٣٨ – (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي . . .) الآية .

بعد أن جمع فرعون السحرة وتصدى للمعارضة ، وكذب موسى وسمع إجماع قومه على التكذيب قال فى تيه وشموخ مخاطبًا أشراف قومه : يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى مما يدعيه موسى ويدعو إليه ، نفى علمه بإله غيره دون أن ينفى وجود الإله ، حيث لم يقل : ليس لكم إله غيرى ، يريد بذلك :أنه لو كان لهم إله غيره لعلمه ، وهو بذلك يحاول أن يخلع على نفسه خلق الإنصاف فى الحكم ، ولهذا رتب عليه قوله : « فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ » والواقع أنه كاذب ؛ فإن ألوهية الله – تعالى – لعباده لا يمكن أن تخفى على مثله ، وهذا ما يشهد به قوله تعالى حكاية عن موسى – عليه السلام – : « لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ » .

ومعنى : « فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ » : أشعل النار على الطين شديدة قوية ليتحول إلى آجُر ، فيكون أقوى فى البناء ، فإذا استحال الطين آجرا فابْنِ قصرا عاليًا ، وبناءً شامخًا

لأصعد عليه فأطلع إلى إله موسى الذى يدعيه ، ويدعو له ، وكأنه يوهم قومه أنه لو كان كما يقول موسى لكان جسمًا فى السماء يمكن الصعود إليه ، والاطلاع عليه ، وإنى لأظنه من الكاذبين فيما يذكر من أمر الإله وما يدعى من شأن النبوة ، ولكن أحب أن أحقق الأمر من طرقه المختلفة حتى لا يكون لدىَّ ولا لديكم شك فى أنه ليس لكم إله غيرى ، وهذا منه مبالغة فى التمويه ، وإغراق فى التلبيس واللعب بعقولهم : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » .

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(بِغَيْرِ الْحَقِّ) : بالباطل ، لأن الاستكبار بالحق لله وحده . (لَا يُرْجَعُونَ) : – بضم الياء – من الرجع المتعدى إلى المفعول بنفسه ، و – بفتحها – من الرجوع الذى لا يتعدى إلى المفعول بنفسه . (فَنَبَذْنَاهُمْ) : طرحناهم ورميناهم . (الْيَمِّ) : البحر .

(أَئِمَّةً) : قادة ودعاة . (لَعْنَةً) : طردًا وإبعادًا عن الرحمة .

(الْمَقْبُوحِينَ) : المشوهين الموسومين بعلامات منكرة قبيحة .

التفسير

٣٩ – (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ . . .) الآية .

المعنى : واستكبر فرعون اللعين وجنوده فى أرض مصر ، واستعلوا وتعاظموا على الإيمان بالله ، والتصديق برسالة موسى استكبارًا باطلًا بغير أهلية ولا استحقاق ، لأن رؤية العظمة

للنفس على الخصوص دون غيرها لا تكون حقًّا إلَّا من الله - عز وجل - قال الزمخشرى : الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير حق ، وفى الحديث القدسى : « الكبرياءُ ردائى والعَظَمةُ إزارِى فمنْ نازعنى فى واحدٍ منهما أَلقيْتُهُ فى النارِ » .

وأكثر المفسرين على أن الأرض هى مصر ، وقيل : مطلق الجرم المقابل للسماء ، وفى التقييد بها زيادة تشنيع عليهم ، وتسفيه لعملهم ، حيث استكبروا فى أسفل الأجرام بغير استحقاق ولا تأهيل ، ومعنى قوله تعالى : (وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) : توهموا أن لا معاد ولا بعث ، وأنهم لا يعودون إلينا ، ولا يرجعون لنا لملاقاة الجزاء ، ومواجهة العذاب .

والتعبير عن اعتقادهم بالظن إمَّا على ظاهره ، وإمَّا تحقير لهم ، وسخرية باعتقادهم ؛ حيث بنوه على الأوهام .

٤٠ - (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) :

أى : فباغتنا فرعون وجنوده فأخذناهم فنبذناهم وطرحناهم فى البحر ، ورميناهم فيه رمى البقايا التالفة والمخلفات التافهة ، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ ، واستحقار شديد للمأخوذين وكأنه أخذهم مع كثرتهم وطرحهم فى اليم كما يأخذ الإنسان شيئًا عديم القيمة فيرميه .
(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أى : فتأمل يا رسول الله وانظر كيف انتهت عاقبة هؤلاء الطغاة وكيف استحال تجبرهم وكفرهم ، وبيِّنْ هذا لقومك وللناس ليعتبروا ويتدبروا .

٤١ ، ٤٢ - (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) :

المعنى : خلقناهم وصيرناهم فى عهدهم قدوة للضلال يدعون إلى موجبات النار فى الدنيا من الكفر والمعاصى ، ويوم القيامة لا ينصرون من أحد بدفع العذاب أو تخفيف ويلاته عنهم بوجه من الوجوه .

وأتبعناهم فى هذه الدنيا التى فتنتهم وصرفتهم عن اتباع الهدى - أتبعناهم - لعنة وطردًا وإبعادًا عن الرحمة ، أو أتبعناهم لعنًا من اللاعنين الذين يجرى ذكرهم على ألسنتهم ، حيث لا تزال الملائكة تلعنهم والمؤمنون خلفا عن سلف .

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) أى : وهم فوق لعنتهم فى الدنيا ، يوم القيامة من المطرودين المبعدين ، أو من المهلكين المشوَّهين ، فيجمع لهم بذلك خزى الدنيا وذل الآخرة ، روى ابن عدى والطبرانى عن ابن مسعود أنه ﷺ قال : « خَلَقَ اللهُ يحيى بن زكريا فى بطنِ أمّه مؤمنًا وخلَق فرعونَ فى بطنِ أمه كافرًا » .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : التوراة . (الْقُرُونَ الْأُولَى) : هم أقوام نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط – عليهم السلام – (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) : أنوارًا لقلوبهم .

التفسير

٤٣ – (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . .) الآية .

هذه الآية والآيات بعدها تشعر – بتصدرها بالقسم والتوكيد – بأنها بداية حديث عن موسى – عليه السلام – مع أن السورة من أولها تحكى قصته ، والذى يفهم من هذا الأسلوب – والله أعلم – أنه إثارة للانتباه بعد أن طال الكلام عن القصة ، وتجديد للتشويق ، ومدخل إلى التصديق برسالة سيدنا محمد – عليه الصلاة والسلام – بما يخبر به من غيبيات فى قصة موسى لم يكن شاهدها ولا علم له بها من قبل .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة ، وأنزلناه مفصل الأحكام ، من بعد ما أهلكنا القرون السابقة عليه من أقوام نوح وهود وصالح ولوط – عليهم السلام .

والتعرض لبيان كون إيتاء التوراة بعد إهلاك الأمم السابقة للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها ، وضرورة نزولها لهداية الناس ، وردهم إلى الجادة ، وذلك تمهيد لما يعقبه من بيان الحاجة الملحة إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ فإن إهلاك

القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع المؤدى إلى اختلال نظام العالم وفساد أحواله ، وذلك يستدعى تشريعًا جديدًا يرد الناس إلى جادة الصواب ، ويرشدهم إلى السلوك القيم ، ولهذا قال : (بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ) أى : أنوارًا لقلوبهم ، تبصر بها الحقائق ، وتميز بين الحق والباطل ، حيث كانت من طول ما تغشاها من الجهل عمياء عن الفهم والإدراك ؛ فإن البصيرة نور القلب ، كما أن البصر نور العين .

والمراد بالناس أمة موسى - عليه السلام - ومن أنزل إليهم التوراة لترشدهم إلى الاستقامة وحسن السلوك ، وما تتضمنه من تأييد بعثة محمد ﷺ وحقية رسالته .

وقوله تعالى : (وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

أ‌ه : هدى إلى شريعة الله التى هى الطريق الموصلة إلى الله - عز وجل - ورحمة ينال من عمل بها ثوابه وحسن جزائه ليكونوا على حال يرجى منه التذكر والاعتبار ، فمعنى : لعل ... التعليل ، حكى الواقدى عن البغوى أنه قال : جميع ما فى القرآن من لعل للتعليل إلا لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، فإنها للتشبيه ، والمشهور أنها للترجى .

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(ٱلْغَرْبِيِّ) : الجبل الغربى ، أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات .

(إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ) : إذ عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى .
(الشَّاهِدِينَ) : الحاضرين للوحى من جملة السبعين المختارين للميقات .
(أَنشَأْنَا قُرُونًا) : خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة .
(فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) : تمادى وتباعد عليهم الزمن .
(ثَاوِيًا) : مقيمًا . (الطُّورِ) : الجبل . (لِتُنذِرَ) : تخوف وتحذر .

التفسير

٤٤ - (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) :

هذه الآية وما بعدها شروع فى التنبيه إلى نبوة محمد ﷺ وفى بيان أن إنزال القرآن واقع فى زمان مساس الحاجة إليه ، واقتضاء الحكمة له البتة . وقد صدر بتحقيق كونه وحيًا صادقًا من الله - عز وجل - ببيان أن الوقوف على ما تناول من أخبار ، وما فصّل من أحوال لا يتسنى إلَّا بالمشاهدة أو بالتعلم ممن شاهدها على أسلوب قوله تعالى : «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » .

والمعنى : وما كنت بجانب الجبل الغربى ، أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات « إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ » وعهدنا إليه ، وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وإنزال التوراة ، وما كنت من جملة الشاهدين الحاضرين الوحى ، وهم السبعون المختارون للميقات ، المنوه عنهم بقوله تعالى : «وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا » ما كنت من الشاهدين ذلك حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى ونزول ألواح التوراة عليه فتخبر بذلك .

ويصح أن يكون المعنى : وما كنت من الشاهدين بجميع ما أعلمناك من شأن موسى ، وأخبرت به فهو نفى لشهادته - عليه الصلاة والسلام - جميع ما جرى لموسى فكان عمومًا بعد خصوص .

٤٥ - (وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) :

هذه الآية استدراك لتأكيد المعنى السابق فى الآية قبلها .

والمعنى : ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا وأممًا كثيرة تمادى وتباعد عليها الزمن ، فتغيرت الشرائع ، وتبدلت الأحكام ، وعميت عليهم الأنباء ، لا سيما ما كان منهم فى آخر هذه الأزمان من الذين أنت فيهم ، فاقتضت حكمته - تعالى - التشريع الجديد وقصّ الأنباء على ما كانت عليه ، فأوحينا إليك ، وقصصنا عليك ما لم تكن شاهده ولا قريبًا من زمانه ، تصديقًا لنبوتك وتحقيقًا لرسالتك .

(وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ) أى : ما كنت مقيمًا فى أهل مدين وقوم شعيب حتى يكون علمك بما تقصه وما تتلوه من آياتنا الناطقة بما كان لموسى - عليه السلام - معهم ، وبما كان لهم معه عن طريق إقامتك فيهم تتسمع منهم ، وتتعلم هذه الأخبار عنهم ، ثم تتلوها عليهم (وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) : ولكن ذلك بإرسالنا لك ووحينا إليك .

٤٦ -(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

المعنى : كما لم تكن بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، ولم تكن ثاويًا فى أهل مدين ، لم تكن كذلك ولم تحضر بجانب الطور وقت ندائنا موسى : إنى أنا الله رب العالمين ، واستنبائنا إياه ، وإرسالنا إياه إلى فرعون . (وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) أى : ولكن أرسلناك بالقرآن الكريم الناطق بما ذكر وغيره رحمة من ربك لقومك ، وهداية لهم بما تدعوهم إليه من نبذ عبادة الأصنام إلى عبادة الله وحده ، وتهذيب سلوكهم ، وتقويم عوجهم حتى تطهر الأرض من فسادهم ، وتنجلى عن بصائرهم غشاوات الجهل ، وأدران الكفر والضلال ، كما أرسلناك لتنذر قومًا عربًا وغير عرب طال عليهم أمد الجهل ، وامتد بهم زمان الضلال ، ما أتاهم من نذير من قبلك ينذرهم ، ويخوفهم عواقب أمورهم .

قال العلامة ابن حجر فى المنح المكية : من المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل - عليه السلام - وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته .

ونزيد على ذلك : أن إسماعيل أرسل إلى العرب العاربة ، أما العرب المستعربة التى نشأت بعد إسماعيل من ذريته ، فلم يرسل إليهم سوى محمد ﷺ ولذا قال الله - تعالى - فى سورة يس : « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ » .

وقوله -تعالى- : (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

معناه : فعلنا هذه الأمور كلها ليكون لهم منها تذكر وعظة واعتبار فيرجعوا عن كفرهم ، ويقلعوا عن إصرارهم وعنادهم.

(وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾)

المفـردات :

(مُصِيبَةٌ): عقوبة ونقمة . (لَوْلَآ أَرْسَلْتَ) : هلا أرسلت .

التفسـير

٤٧ -(وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ . . .) الآية .

الكلام عن الرسالات السماوية وعن إرسال الرسل خليق أن يثير فى نفس السامع تساؤلا عن الدوافع والأسباب المقتضية لذلك ، وجاءت هذه الآية إجابة عن هذا التساؤل ، توضح أن الحكمة السامية فى إرسال الرسل قطع أعذار المشركين والعصاة ، وإلزامهم الحجة حتى لا يكون لهم اعتذار إذا واجهوا مصيرهم ولاقوا جزاءهم ، والآية وإن كانت تشير إلى الحكمة فى إرسال محمد ﷺ إليهم ، لكنها تشير إلى مثلها فى جميع الرسالات .

والمعنى : ولولا أن تصيب المشركين من قريش وغيرهم من الكفار عقوبة ، أو تحل بهم نقمة بسبب ما يقترفون من الكفر ، وما يرتكبون من المعاصى ، فيقولوا معتذرين عن إتيانها : فعلنا ذلك جهلا ، ياربنا هلّا أرسلت إلينا رسولا يرشدنا إلى خير ما نفعل ، ويوجهنا إلى السلوك السوى فنتبع آياتك الظاهرة على يديه ، ونسير فى أفعالنا على هديه ، ونكون من المؤمنين بما جاء به فلا نفعل ما فعلناه .

لولا أن هذا يمكن أن يقولوه عند عقوبتهم على جناياتهم التى قدموها ما أرسلناك ، لكن لما كان قولهم ذلك محققًا لا محيد عنه أرسلناك قطعًا لأعذارهم .

(فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(ٱلْحَقُّ): القرآن المنزل على سيدنا محمد ﷺ أو الرسول المصدق بالقرآن .

(تَظَٰهَرَا) : تعاونا بتصديق كل منهما الآخر .

التفسير

٤٨ ـ (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ) :

أى : فلما جاء هؤلاء القوم من أهل مكة الموجودين عند بعثة سيدنا محمد ﷺ لما جاءهم القرآن الحق وهو المنزل على محمد ﷺ قالوا تعنتًا واقتراحًا : هلا أوتى محمد مثل ما أوتى موسى من التوراة المنزلة جملة ، ومن المعجزات الأخرى كقلب العصا حية وفلق البحر ، وغير ذلك ، قالوا هذا كما قالوا : « لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ) رد عليهم وإظهار لتعنتهم ، وبعدهم عما يرشدهم إلى الحق .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١٢

والمعنى : أولم يكفر أمثالهم ، ومن مذهبهم كمذهبهم فى الكفر والعناد بما أوتى موسى ؟

وعن الحسن - رحمه الله - كان للعرب أصل فى أيام موسى ، فيكون المعنى على هذا : أولم يكفر آباؤهم المعاصرون لموسى ، وقوله : (مِن قَبْلُ) متعلق بـ (يكفروا) أى : أولم يكفروا من قبل هذا القول ؟ أو من قبل هؤلاء الكفار ؟ قالوا : سحران تظاهرا وتعاونا : سحر موسى وسحر هرون .

ونحن نرجح أن الذين كفروا بما أوتى موسى من قبل وقالوا : سحران تظاهرا ، هم أهل مكة ، روى أن أهل مكة بعثوا رهطًا منهم إلى رؤساء اليهود فى عيد لهم فسألوهم عن شأن محمد - عليه الصلاة والسلام - فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك ، وقالوا : إنا بكل من الكتابين - القرآن والتوراة - كافرون ، قالوا ذلك تأكيدًا لكفرهم لغاية عتوهم وتماديهم فى العناد والطغيان ، وقرئ : (سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا) يعنون موسى ومحمدًا ﷺ .

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(أَهْدَىٰ) : أقوى فى الهداية .

(مِنْهُمَا) : من القرآن والتوراة .

التفسير

٤٩ - ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ :

أى : قل يارسول الله لهؤلاء المشركين : إذا كان القرآن والتوراة سحرين متظاهرين فأتوا بكتاب من عند الله أقوى منهما فى الهداية ، فإن تأتوا به أتبعه وأصدقه ، وأمضى على هديه ، وهذا الشرط مما يأتى به من يشير إلى وضوح حجته وسنوح محجته ، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بيّن الاستحالة ، فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام .

وقوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ معناه : إن كنتم صادقين فى أنهما سحران مختلقان تظاهرا ، وإيراد الجملة بأسلوب التشكيك مع استحالة صدقهم مزيد تهكم بهم .

٥٠ - ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ . . . ﴾ الآية .

أى : فإن لم يستطيعوا أن يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من القرآن والتوراة - ولن يستطيعوا ذلك ولن يقابلوه - فاعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم الزائغة ، ويصرون على موقفهم عنادًا وكفرًا من غير أن يكون لهم مُتَمَسَّكٌ مَّا أصلًا ، إذ لو كان لهم لأتوا به .

وإنما عبر عن عجزهم عن الإتيان بعدم الاستجابة إيذانًا منه ﷺ بأنه على كمال أمْنٍ من أمره - كأن أمره ﷺ لهم بالإتيان بما ذكر دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ :

أى : لا أحد أَضَلُّ ممن اتبع هواه ، واستبد برأيه بغير هدى من الله ، فهو أضل من كل ضال .

وتقييد اتباع الهوى بغير الهدى من الله - تعالى - لزيادة التقريع ، والإشباع فى التشنيع والضلال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ : الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٥

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٤٢ ٢س ٨٥/٨٦-٢٥ر٠٠٤

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٧

* (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا
وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا
سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ) : من التوصيل ، وهو تكثير الوصل وتكريره ، أى : والينا وأتبعنا تبليغهم القرآن ، وقرأ الحسن « وصَلنَا » قال الرّاغب[1] : أى : أكثرنا لهم القول موصولاً بعضه ببعض .

(يَتَذَكَّرُونَ) : يتعظون ويتدبّرون .

(وَيَدْرَءُونَ) : أى يردّون ويدفعون ، وفى الحديث : « ادْرَأُوا الحُدُود بِالشُّبهات » أى : ادفعوها .

(بِالْحَسَنَةِ) : بالطاعة . (السَّيِّئَةَ) : المعصية .

(اللَّغْوَ) : كل ما ليس بحق ، وقال مجاهد : الأذى والسبّ ، وفى اللغة : اللّغو واللّغا

(١) قال الآلوسى : وأصل التوصيل : ضم قطع الحبل ووصل بعضها ببعض .

بوزن الفتى : السَّقط وما لا يعتدُّ به من كلام وغيره[1] .

(أَعْرَضُوا عَنْهُ) : انصرفوا عنه ولم يشتغلوا به .

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : قال القرطبي: أَمْنٌ مِنَّا لكم ، وعند الزمخشري: كلمة توديع ومتاركة لا تحيَّة .

(لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) : لا نطلب صحبة الجاهلين ولا نريد مخالطتهم ولا جدالهم .

التفسير

٥١ - (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

قال القرطبي : الآية الكريمة ردٌّ على من قال : هلاَّ أُوتي محمد القرآن جملة واحدة مثل ما أُوتي موسى التوراة كذلك ؟

والمعنى : ولقد نزلنا القرآن - وعدًا ووعيدًا وقصصًا وعبرًا ونصائح - أنزلناه كذلك متواصلًا متتابعًا وفق ماتقتضيه الحكمة لعلهم يتذكرون مايجب على كل عاقل من الخضوع للحق متى تبين ، والقرآن حق واضح يعرفه كل من نظر فيه وفتح قلبه وعقله ، فلو فعلوا لتذكروا وآمنوا .

ولقد ظل القرآن ينزل على الرسول ثلاثة عشر عامًا بمكة يشرح العقيدة ويُعَمِّق الإيمان فى نفس المؤمنين ، ويردّ على شبهات المشركين ، وعشر سنوات بالمدينة بعد أن انتقل الرسول إليها وكوّن هناك الدّولة الإسلامية الفاضلة التى لم يسمع الزمان بمثلها ، وفى المدينة نزلت آيات الأحكام مبينة الدستور الإسلامىّ للدولة الإسلامية الأُولى شارحًا أحوال الأُمّة فى السلم والحرب موضّحًا الآداب الاجتماعية والسلوك السوىّ الذى يجب أن ينهجه المسلمون ، ولقد كان القرآن ينزل أحيانًا ردًّا على سؤال أو على شُبَه أهل الكتاب ، أو تشريعًا فى حادثة فكان ينزل مناسبًا لمقتضى الحال ، كما أن النبى ﷺ أرسله الله أميًّا ، لا يقرأ ولا يكتب ، فلكى ييسر الله له حفظه أنزله عليه مفرّقًا ولم ينزله جملة واحدة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا »[2] .

---

(١) القاموس ج ٤ ص ٣٨٦

(٢) سورة الفرقان ، الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

وفى فضل القرآن وبيان قيمته ومنزلته يقول تعالى :

٥٢ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ) :

أخبر الله - سبحانه وتعالى - أن بعض الذين أوتوا الكتاب من بنى إسرائيل قبل نزول القرآن ومجىء الرسول يؤمنون به وبما نزل عليه من قرآن كعبد الله بن سلام وغيره [١] .

قال القرطبي : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى وهم أربعون رجلا ، قدموا المدينة ، منهم اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب ، وثمانية من الشام وكانوا أئمة النصارى ، وأنزل الله فيهم هذه الآية وما بعدها .

٥٣ - (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) :

هذه الآية استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم .

والمعنى : وإذا يُقْرأُ القرآن على أهل الكتاب من اليهود والنصارى قالوا : صدقنا بما فيه إنه الحق من ربنا لأن مثله لا يقوله بشر ، إنا كنا قبل نزوله أو قبل بعث محمد - عليه الصلاة والسلام - مؤمنين بأنه سيُبْعَثُ وينزل عليه القرآن ، فإيمانهم به متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة ، فالمراد بالإسلام : الانقياد الظاهرى ، أى : إنا كنا -قبل نزول القرآن - مُنقادين لأحكام الله - تعالى- الناطق بها كتابه المنزل إلينا ، ومنها وجوب الإيمان به ، فنحن مؤمنون به قبل نزوله على الرسول ، ونحن عرفنا محمداً وكتابه قبل نزوله ، فإسلامنا سابق على تلاوته .

٥٤ - (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) :

أولئك الموصوفون بما سبق من النُّعُوت يُمْنحون جزاءهم مرتين: مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن ، وذلك بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بكتابهم ، ثم بالقرآن بعد نزوله ، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده ، أو على أذى من هجرهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين [٢] .

---

(١) الآلوسى .

(٢) الآلوسى .

قال القرطبي : ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النبي ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَعَبْدٌ مملوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ - عز وجل - وحقّ سيِّده فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فغذَّاها فأحسن غذاءها ، ثم أدَّبها فأحسن أدبها ، ثم أعتقها وَتَزَوَّجها فله أجران » أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، والبخاري بلفظ مختلف .

قال العلماء : وكما أنهم يؤجرون على صبرهم ، فإنهم يؤجرون على دفعهم المعصية بالطاعة قال ﷺ لمعاذ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أو يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى ، فهو وصف لهم بمكارم الأخلاق ، أي: من قال لهم سوءا لا ينوه وقابلوه من الخلق الحسن بما يدفعه ، كالإعراض ولين الحديث .

وأثنى عليهم ربهم بأنهم ينفقون من أموالهم التي كسبوها من الحلال في الطاعات وفي سبيل الخير ، ويبذلون مما رزقهم الله من كسب طيب في سبيل الله، ولتخفيف آلام المرضى والمحتاجين .

٥٥ - (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) :

أي : يؤتيهم الله أجرهم مرتين على ما تقدم بيانه من الصفات الكريمة ، وعلى إعراضهم عن اللغو ، وإذا سمعوا ما قاله المشركون من سَقَطِ القول وبذيئه أعرضوا عنه ولم يشتغلوا به ، كما قال - تعالى - : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا »[1] . (وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أي قالوا متاركين لهم على سبيل التوديع لا على سبيل التحية : سلام عليكم وَأَمْنٌ منا لكم ، فإنَّا لا نحاوركم ولا نُسابُّكم (لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) : أي لا نطلب الجاهلين والسفهاء للجدال والمراجعة والمشاتمة ولا نريد صحبتهم ومخالطتهم ، وهذا تعليل لمتاركتهم .

قال ابن إسحاق في السيرة : قدم على رسول الله - وهو بمكة - عشرون[2] رجلا أو قريب

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٢

(٢) هذه الرواية تخالف ما حكاه القرطبي من أنهم كانوا أربعين من أئمة النصارى ، وتقدمت هذه الرواية .

من ذلك من النصارى حينما بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه بالمسجد، فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه - ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عمّا أرادوا دعاهم إلى الله - تعالى - وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم: خيّبكم الله مِنْ رَكْبٍ، بعثكم مَنْ وَرَاءكم مِنْ أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه فيما قال، ما نعلم ركبًا أحمق منكم، أو كما قالوا- فقالوا لهم: سلامٌ عليكم، لا نُجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَألُ أنفسنا خيرًا - ويقال: إنهم النّفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أىُّ ذلك كان، قال: وسألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: مازلت أسمع من علمائنا أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه، وكذلك الآيات التى فى سورة المائدة: « ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا » إلى قوله: « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » اهـ: ابن كثير ج ٣ ص ٣٩٤

٥٦ - (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

المعنى: إنك - أيها الرسول - لا تقدر على هداية قلوب من أحببتهم إلى الحق، بأن تدخلهم فى الإسلام وإن بذلت فى ذلك غاية المجهود، وجاوزت فى السعى إليه كل حد معهود، ولكن الله يهدى من يشاء هدايته فيدخله فى الإسلام، وهو - سبحانه - أعلم بالمستعدين لذلك وهم الذين يشاء - سبحانه - هدايتهم، ومنهم من ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب(1).

وقال الزمخشرى: المعنى: إنك لا تقدر أن تُدْخِلَ فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره، ولكن الله - تعالى - يقدر على أن يُدْخِل من يشاء إدخاله، وهو الذى علم - سبحانه - أنه غير مطبوع على قلبه.

وقال الآلوسى: هذه الآية سيقت لتسليته ﷺ حيث لم ينجع فى قومه الذين يحبهم إنذارُه - عليه الصلاة والسلام - إيّاهم وما جاء به من الحق، بل أصروا على ما هم

(١) الآلوسى.

عليه وقالوا: « لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ » ثم كفروا به وبموسى ، فكانوا على عكس قوم أجانب من أهل الكتاب ، حيث آمنوا بما جاءه من الحق ، وقالوا : إنه الحق من ربنا ، ثم صرحوا بتقادم إيمانهم به ، وأشاروا بذلك إلى إيمانهم بنبيهم وبما جاء به أيضا ، وذلك فيما حكاه الله بقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ » إلى قوله : « إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ »[1] .

وقال ابن كثير : قد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم النبى ﷺ .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه — رضى الله عنه — قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويَعُودان له بتلك المقالة ، حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عن ذلك » ، فأنزل الله — تعالى — : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِى قُرْبَىٰ »[2] . وأنزل فى أبى طالب : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ » وخالف فى ذلك الشيعة ، وقالوا بإيمانه ، وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك .

---

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٣

(وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَ
لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا
مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا
قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ
يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى
ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ
مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) : أى نُخرج من أرضنا ومقرِّنا ، أويبطش بنا أعداؤنا . قال الآلوسى : وأصل الخطف : الاختلاس بسرعة ، فاستعير لما ذكر .

(أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا) : أى أو لم نهىِّء لهم فى الأرض حرماً مكيناً ونمنعهم فيه من العدوان. (يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ) : يحمل إليه ويجمع فيه من كل جانب وجهة ؛ عن ابن عباس وغيره .

(بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا) : اغتر أصحابها ولم يقوموا بحق النعمة ، من البطَر ، وهو : جحود النعمة وكفران الفضل . وفى القاموس : البطَرُ : الأَشَرُ وقلّة احتمال النعمةِ ، أو الطغيان بها ، وفعله : كَفَرِح[1] . اهـ .

(أُمِّهَا) : فى القاموس ، أُمُّ كل شىء : أصله وعماده وأُمُّ القرى : مكّةُ ، لأنها توسّطت الأرض ، أو لأنّها قبلة الناس يؤُمُّونها .

(لَاقِيهِ) : مدركٌ له ، ظافر به .

(الْمُحْضَرِينَ) : الذين يُحْضَرُون مرغَمين للعذاب ، وفى القاموس : حضر - كنصروعلِم - حضوراً ، ضد غاب (كاحتضر وتحضر) .

التفسير

٥٧ - (وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ...) الآية .

هذا قول بعض مشركى مكة[2] ، قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش : الحارث ابن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشىّ ، قال للنبى ﷺ : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافةَ أن يتخطّفنا العرب من أرضنا - يعنى مكة - لاجتماعهم على خلافنا ولاطاقة لنا بهم ، وهذا من تَعِلاَّتِهم الكاذبة ، وأعذارهم الباطلة ، وحججهم الواهيةِ . وفيه ما فيه من اعترافهم بأن ما مع محمد - عليه السلام - هو الهدى ، وتسجيلهم على أنفسهم أنه ما صدّهم عن الإيمان به إلا خوفهم على مصالحهم وفزعهم من ثورة العرب عليهم إذا أسلموا ، وقد أجاب الله عن تعللهم هذا بقوله :

(أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا) : أى أو لَمْ نعصمهم ونثبت أقدامهم ونجعل مقرهم حرما آمِنا لحُرْمةِ البيت الحرام الذى تتناحر العرب حوله ، ولا تجترئ على القتال فيه ، وكانت العرب فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض لأوهى الأسباب ، وأهل مكة آمنون فى حرمهم لايخافون ، ومع أنهم قارّون بواد غير ذى زرع فإن الثمرات والأرزاق تجمع لهم من كل صوْب ويحملها الناس إليهم من كل حدب ،

---

(١) قاموس ج ٤ ص ٣٧٤

(٢) انظر القرطبى والكشاف .

وكان هذا كله رزقاً من عند الله لا فضل فيه إلا لله وحده ، فإذا ما خوّلهم الله الأمن والأمان والاستقرار والاطمئنان والرزق الواسع بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام ، فكيف يستقيم أن يُعرِّضهم للتخوف والتخطف ، ويسلبهم الأمن إذا ضمُّوا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام ؟ .

قال يحيى بن سلام : يقول : كنتم آمنين في حرمى تأكلون رزقى ، وتعبدون غيرى أفتخافون إذا عبد تمونى ، وآمنتم بى ؟

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ :جهلة لا يتفطنون ولا يتفكرون فهم غافلون عن الاستدلال بِأَنَّ مَنْ رزقهم وأمّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ويمنع الكفار عنهم .

٥٨ - ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ :

بيّن الله فى الآية السابقة فساد دعواهم الخوف من الناس إن آمنوا ، ويبيّن فى هذه الآية أنهم أحِقَّاء بالخوف من بأس الله الذى يشاهدونه بأعينهم كلما ساروا بقوافلهم على آثار من هلك قبلهم ، وبقايا وخرائب المدن والقرى التى جحدت آلاء ربها وكفرت بأنبيائها كما يكفرون بنبيهم ، فعلمهم الله بكفرهم وذكّرهم فيها بأن ما حدث فى الماضى لغيرهم يمكن أن يقع لهم فى الحاضر والمستقبل وحينئذ يتبين أن الخوف فى الكفر لافى الإيمان .

أى : وكثير من أهل القرى كانت حالهم كحال هؤلاء فى الأمن وخفض العيش والدّعة والاطمئنان حتى بطروا واغترّوا ولم يقوموا بحق النعمة من الشكر عليها بالإيمان ، فدمّرنا عليهم وخربنا ديارهم ، وتلك مساكنهم التى تمرّون عليها فى أسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا ، لم تسكن من بعد تدميرهم إلّا زماناً قليلا ؛ إذ لا يسكنها إلا المارة أثناء سفرهم يوماً أو بعض يوم .

٥٩ - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ :

قال الآلوسى : هذه الآية الكريمة فيها بيان للعناية الربانية إثر بيان إهلاك القرى المذكورة .

والمعنى : ما صحَّ وما استقام ، أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يُهْلِك القرى قبل الإنذار ، بل كانت سنته - عزَّ وجلَّ - التى لا تتخلف ودستوره الذى لا يتغير ألَّا يهلكها حتى يبعث فى أصلها وحاضرتها التى ترجع تلك القرى إليها رسولا يتلو عليهم آياتنا الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ويوضح لهم المنهج ، وإنما أهلكهم بعد إلزامهم الحجَّة بإرسال الرسول كيلا يقولوا : « لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ »[1] وتحقيقاً لوعده الذى لا يتخلف : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[2] .

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) : أى وما كنا مهلكى أهل القرى بعد ما بعثنا فى أُمها رسولا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه فى حال من الأحوال إلا فى حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا ، فاعتبروا - يا كفار مكة - بما حدث لمن كان قبلكم ، وما يمكن أن ينزل بكم .

وإنما كان البعث فى أم القرى لأن فى أهل البلدة الكبيرة فطنة وكَيْسا ، فهم أقبلُ للدعوة وأشرف ، وفى إيمانهم عون على إيمان غيرهم .

٦٠ - (وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

بيَّن الله فى الآيات السابقة فساد رأى المشركين فى رفضهم الإسلام خوفاً على أنفسهم بقولهم : (إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) وجاءت هذه الآية لتبين حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم .

---

(١) سورة القصص من الآية : ٤٧

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٥

والمعنى : أى شيء أصبتموه من أمور الدنيا وزينتها فشأنه أن يتمتع به أياماً قلائل ثم يزول عنكم أو تزولون عنه ، وما عند الله فى الجنة من الثواب خير فى نفسه من ذلك ؛ لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم ، وبهجة كاملة عارية عن سمات الهمّ ، وأبقى ؛ لأنه أبدىّ ، أغفلتم فلا تعقلون هذا الأمر الواضح وتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وتتخافون على ذهاب ما أحببتموه من متاع الحياة الدنيا ، وتمتنعون من اتباع الهدى المفضى إلى ما عند الله من سعادة أبدية ؟

٦١ـ (أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) :

هذه الآية الكريمة تقرير وتوضيح لما قبلها ، ومعناها ــ كما قال ابن كثير ــ : أفمن هو مؤمن مصدّق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لامحالة ؛ لأن وعده ــ تعالى ــ لا يتخلف ، كمن هو كافر مُكذّب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو مُمتّع فى الحياة الدنيا أيّامًا قلائل ثم هو يوم القيامة من المُحضرين ، أى : من المعذبين ــ كما قال مجاهد وقتادة .

وفى سبب نزولها قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبدالمطلب وأبى جهل بن هشام .

وقال مجاهد : نزلت فى النبى ﷺ وأبى جهل ، وعمّم الثعلبى فقال : نزلت فى كل كافر مُتّعَ فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ
لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ
وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : تحقق مؤدى القول على الشياطين والدعاة إلى الكفر ، والمراد بالقول : آيات الوعيد ، كقوله تعالى : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[1] .

(أَغْوَيْنَا) : أضللنا بأن دعوناهم إلى الغي وهو الضلال ، وغَوَى يغوِي غيًّا : ضلَّ .

---

(١) سورة السجدة ، من الآية : ١٣

(تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ) : تَبَرَّأً بعضنا من البعض ، فالشياطين يتبرءون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرءون ممن تبعهم .

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ) : خفيت عليهم الحجج خفاء المرئى على الأعمى

(لَا يَتَسَآءَلُونَ) : لايسأل بعضهم بعضاً عن الحجج .

(ما كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) : قال الآلوسى : الخيرة ، التخيرُ ، كالطيرة بمعنى التَّطيُّر ، والخِيَرَةُ والتَّخَيُّرُ : الاختيار .

(مَاتُكِنُّ صُدُورُهُمْ) : ما يخفون فى صدورهم من الاعتقادات الباطلة وعداوتهم للرسول .

(وَمَا يُعْلِنُونَ) : ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والطعن فى الإسلام .

(لَهُ الْحُكْمُ) : لله وحده القضاء النافذ فى كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره .

التفسير

٦٢ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

لا يزال الحديث متَّصلا عن أحداث يوم القيامة ، فى هذه الآية إشارة إلى ما يوبخ الله به الكفار المشركين فى هذا اليوم حيث يناديهم ويسألهم فيقول : (أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) : أى أين الآلِهَةُ التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا من الأصنام أو غيرها ليدافعوا عنكم وليشفعوا فيكم ؟ والتعبير بشركائى ، تقريع لهم على زعمهم ، وفيه تهكم بهم . والتعبير بلفظ : (تَزْعُمُونَ) للإشارة إلى كذبهم ، فقد قيل : « زعموا » مطية الكذب .

٦٣ - (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) :

الآية الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا صدر عنهم من قول حينئذ ؟ فقيل : قال الذين حق عليهم القول وهم شركاؤهم من الشياطين ، أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله ، بأن أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوهم عنه :

(رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) :

أى : ما أكرهناهم على الغىّ ، وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتّسويل لا بالقَسر والإلجاء ، فغووا باختيارهم غيًّا مثل غَيِّنا باختيارنا ، تبرأنا إليك منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى هوى منهم للباطل ومقتاً للحق ، ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم ، ومسارعة الذين حق عليهم القول إلى الجواب مع كون السؤال لِلْعَبَدةِ ، إمَّا لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن الْعبَدةَ سيقولون : هؤلاء أضلُّونا ، وإمَّا لأن العبَدةَ قد قالوا : إنهم أضلُّونا ، فاعتذر هؤلاء المعبودون بما قالوه ردًّا لقولهم ، إلا أنَّ القرآن لم يَحْكِ قول العبدة إيجازا لظهوره .

ومرادهم بالإشارة فى قوله « رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا » : بيان أنهم يقولون ما يقّولون بمحضر منهم ، وأنّهم غير قادرين على إنكاره ورده .

٦٤ - (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) :

وقيل للكفار تقريعاً لهم ، وتهكماً وتشهيرًا بهم على رءوس الأشهاد بدعاء من لا نفع فيه لنفسه - قيل للكفار - : استعينوا بآلهتكم التى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم ، وتدفع عنكم كما كنتم ترجون منهم ذلك فى الدار الدنيا ، فاستغاثوا بهم ، فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ، ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ولأنهم فى شغل شاغل عنهم ، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، ولو أنهم كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب ، أو : لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رأوه .

قال الزمخشرى : حكى - سبحانه وتعالى- أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم ، لأنهم إذا وُبِّخُوا بعبادة الآلهة اعتذروا أن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها ،ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم ، وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وقطع الحجة ، وإبطال المعاذير فى قوله تعالى :

٦٥ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) :

أي : واذكر - أيها الرسول - كذلك يوم يُنَادَى المشركون من جانب الله - تعالى - نداء توبيخ ، فيُقَال لهم : بأى شيء أجبتم رسلى الذين بعثتهم لإرشادكم ودعوتكم للإيمان والتوحيد فبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وكيف كان حالكم معهم ؟

٦٦ - (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ) :

أى : فخفيت عليهم الحجج وغابت ، قال مجاهد : لأن الله قد أدحض حججهم ، وقال الزمخشرى : لايسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس فى المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب ، وإذا كان الأنبياء - لهول ذلك اليوم - يترددون فى الجواب عن مثل هذا السؤال لعجزهم ويفوضون الأمر إلى علم الله ، وذلك قوله تعالى : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »(١) فما ظنك بالضُّلَّالِ من أممهم ؟ .

٦٧ - (فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ) :

لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - من حق عليهم القول من التابع والمتبوع قال - سبحانه وتعالى ، حثا لهم على التوبة والإقلاع عن الشرك - : فأما من تاب من المشركين عن الشرك وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بالمطلوب عنده - عز وجل - الناجين من الهلاك ، فلا جدوى لتوبة بغير إيمان ولا حجة لإيمان بغير عمل صالح ، وقد جاء هذا المعنى فى القرآن الكريم ، قال تعالى : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ »(٢) .

و (عسى) للتحقيق على عادة الكرام ، فهى من الله واقعة بفضله وكرمه ومنِّه ووعده الذى لا يتخلف ، والتعبير بعسى ليعلم أن الإنسان مهما عمل صالحاً فليس له إلا الرجاء والأمل فى رحمة الله ، وفى الحديث الصحيح : « لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنت

(١) المائدة الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة طه الآية : ٨٢

يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة[١] » وقيل : (عسى) للترجى من قِبل التائب المذكور ، بمعنى : فيتوقع أن يفلح ويفوز .

٦٨ - (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة أن الشركاء لا ينفعُون المشركين فى أخراهم ، وجاءت هذه الآية لتبين أن الأمر كله لله ، ولهذا اختار لعباده من يرشدهم إلى سواء السبيل ، فليس لهم الخيرة فى عقائدهم ولا فى اختيار رسلهم ، كما نزلت لكى ترد على أولئك الذين يقترحون على الله الرسل ، كالوليد بن المغيرة حيث قال : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » يعنى بذلك نفسه من مكة ، وعُرْوَةَ بن مسعود الثقفى من الطائف .

والمعنى : وربك يخلق ما يشاء من خلقه بقدرته ويختار منهم من يشاء بحكمته لطاعته وحمل رسالته ، على مقتضى علمه باستعدادهم لذلك ، فليس فى مقدور الخلق ولا من حقهم أنْ يختاروا على الله ما يشاءون من أديان باطلة وآلهة زائفة ، تنزّه الله تعالى بذاته تنزُّهًا خاصًّا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره ، وتقدس وتمجد عن إشراكهم .

قال الزمخشرى : إن الاختيار إلى الله - تعالى - فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ، ولا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم .

وجعل بعضهم (سبحان الله) تَعْجِيبًا من إشراكهم من يضرهم ولا ينفعهم بمن يريد لهم الخير ويسوق لهم النِّعم .

٦٩ - (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

وربك - أيها الرسول - يعلم مايخفُون فى صدورهم من الاعتقادات الباطلة ومن عداوتهم لك ، ويعلم مايظهرونه من الأفعال الخبيثة والطعن فيك ، وقولهم : هلَّا اختير غيرك للنُّبوة ، فهو - سبحانه - يعلم ماتُكِن الضمائر وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ماتُبْديه الظواهر من جميع الخلائق : « سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ »[٢] والآية الكريمة تهديد وتحذير شديد لأعداء الله ، لأنه - سبحانه - يعلم كل

(١) صحيح البخارى (كتاب الطب) باب تمنى المريض الموت .
(٢) سورة الرعد الآية : ١٠ .

ما تجيش به صدورهم من الشر ، وما يجول بعقولهم من الإثم ، ويعلم بكل ما يعلنونه على ملأ من الناس من ضلال .

٧٠ ـ (وَهُوَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

وهو ـ سبحانه ـ المستأثر بالألوهية المتفرد بها ، لا ربَّ غيرُه ولا معبود سواه ، له وحده كل الحمد ، وجميع الثناء والشكر لا إلى غيره ، لأنه المولى للنعم كلِّها ـ عاجلها وآجلها ـ على الخلق كافة ، يحمده المؤمنون فى الدنيا على إنعامه وهدايته ، وفى الآخرة على عدله ومثوبته ، وله القضاء النافذ فى كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره . عن ابن عباس : له الحكم بين عباده فيحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل ، ولأهل معصيته بالشقاء والويل ، لا مُعقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ، وإليه ترجعون لا إلى غيره فيجزى كلّ عامل بعمله من خير وشر ولا يخفى عليه منكم خافية .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ) : أخبروني .

(سَرْمَدًا) : دائمًا متصلًا مؤبدًا ، وهو عند البعض من السَّرد : وهو المتابعة ، ومنه قولهم : الأشهر الحرم ثلاثة سَرْدٌ ، وواحد فرد ، والميم زائدة لدلالة الاشتقاق عليه .

(تَسْكُنُونَ فِيهِ) : تستقرُّونَ فيه ، مأْخوذ من (السَّكن) وهو الهدوء والطمأْنينة .

(وَنَزَعْنَا) : أخرجنا بشدة وأبرزنا بسرعة ، وجاء فى اللُّغة : نَزَعَه من مكانه ينزعه : قَلَعَه ، كانتزعه .

(شَهِيدًا) : أى شاهدًا . (بُرْهَانَكُمْ) : حجتكم .

(وَضَلَّ عَنْهُمْ) : ذهب وغاب عنهم غيبة الشىء الضال ، أى : الضائع ،

(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : أى ما كانوا يختلقونه فى الدنيا من الباطل والكذب على الله - تعالى - من أنَّ معه آلهة تُعْبَد .

التفسير

٧١ -(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) :

انتهت الآيات السابقة بإثبات الوحدانية لله - تعالى - وانفراده بالخلق والاختيار ، وعلمه السرائر والظواهر ، واستحقاقه وحده الحمد من عباده ، فى الدنيا على إنعامه وهدايته وفى الآخرة على عدله ومثوبته ، وتفرده بالحكم والفصل بين العباد ، وإليه المرجع والمصير.

وتواصل هذه الآية وما بعدها توكيد هذه المعانى وتوضيحها بأمثلة مُحَسَّة تشهد له - سبحانه - بكل ما سبق وبأنه صاحب النعم وواهب المنن ، فالآيات القرآنية الثلاث الآتية تنبه الناس إلى حقيقة يجب أن يفهموها ، وهى أنه - تعالى - لو خلق الأرض بحيث يكون ليلها دائمًا ، أو بحيث يكون نهارها كذلك فليس هناك إلهٌ غيره ينعم عليهم باللَّيل والنَّهار

المتعاقبين ، وبفضل الله ورحمته كان النظام الكونىّ يكفل تعاقب الليل والنهار فيكون السكون والهدوءُ فى اللَّيل ، والسعى والكدح فى النَّهار وبهذا يتهيأُ التوقيت الصالح لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا فضل من الله على عباده ، يستدعى الإقرار بقدرته ودوام شكره .

ومعنى الآية: أخبرونى من يقدر على هذا ؟ إن جعل الله عليكم اللَّيل دائمًا متصلًا متتابعًا إلى يوم القيامة فأصبح الكون ملفوفًا فى ليل دامس لا يعقبه نهار ، وظلام طامس لا يأتى بعده نور ، أخبرونى من إلهٌ غير الله يأْتيكم بنور تبصرون فيه معايشكم وتنطلقون فى أرجاء الأَرض وأنحائها تعمرونها ، فتزرعون وتتاجرون وتنتقلون من مكان إلى مكان ، أفلا تسمعون هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار وقبول للدلائل الباهرة ، لتعرفوا أن غير الله – تعالى – لا يقدر على ذلك فتقوموا بشكره ، وتعترفوا بفضله ، وتُقِرُّوا بوحدانيته .

٧٢ – (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) :

ثم أخبر – سبحانه وتعالى – أنه لو جعل النهار دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة بحيث تعملون دائمًا دون انقطاع من إله غير الله يأْتيكم بليل تستريحون فيه من التعب ومشاق الحياة وتفرغون فيه من النصب ؟ أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطإ فى عبادة غيره ؟

وقال الآلوسى : أفلا تبصرون الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، لتقفوا على أن غير الله لا قدرة له على ذلك ؟ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على الإتيان باللَّيل والنَّهار غيره فلم تشركون ؟

وقال البيضاوى : لعله لم يصف الضياء بما يقابله لأن الضوءَ نعمة فى ذاته مقصود بنفسه ولا كذلك اللَّيل ، ولأن منافع الضوءِ أكثر مما يقابله ، ولذا قرن به أفلا تسمعون ، وباللَّيل أفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر . اهـ : بيضاوى .

ولذا ما اجتمع السمع والبصر فى موضع من كتاب الله إلَّا وقُدِّم السمع على البصر .

قال - تعالى -: « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »[١] ، « وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ »[٢] .

ولقد ذكر العلماء والمحدثون فى تعليل ذلك أن السمع أول الحواس يؤدى وظيفته فى الدنيا، وهو أداة الاستدعاء فى الآخرة، ولأن الأذن لا تنام فالسمع أسبق وأنفع وأدوم ، وللعلامة الآلوسى تعليق مطول على الآيتين فى الجزء السابع ص١٠٧ ومابعدها فليرجع إليه من أراد التوسع .

٧٣- (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

أى : وبسبب رحمته بكم خلق لكم الليل والنهار لتسكنوا فى الليل وتستريحوا من عناءِ الأعمال وأعباءِ الحياة وأثقال المعيشة، ولتطلبوا الرزق الحلال بالنهار بالأسفار والترحال والضرب فى الأرض، ولتدركوا فضل الله عليكم فتشكروه بأنواع العبادات فى الليل والنهار، ومن فاته شىءٌ بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل كما قال - تعالى - : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »[٣] .

٧٤-(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

المعنى : واذكر كذلك - أيها الرسول - يوم يُنادَى المشركون من جانب الله فيقال لهم : أين الشركاء الذين زعمتموهم آلهة ينصرونكم أو شفعاء يشفعون لكم ؟

وهو تقريع إثر تقريع، للإشعار بأنه لا شىء أجلب لغضب الله - تعالى - من الإشراك ، كما لا شىء أدخل فى مرضاته من توحيده - عز وجل .

يقول القرطبى : ينادى الله المشركين مرة فيقول لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا تستجيب فتظهر حيرتهم وخزيهم، ثم ينادون مرة أخرى على رءوس الأشهاد فيسكتون، وهو توبيخ وزيادة خزى .

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٦
(٢) المؤمنون ، الآية : ٧٨
(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٦٢

٧٥ - (وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

الآية الكريمة إنذار بما ينتظر هؤلاء المشركين يوم القيامة لجدالهم فى وحدانية الله ، وتعاميهم عن نعمه عليهم ورحمته بهم .

والمعنى : وأخرجنا يوم القيامة من كل أمة شاهداً يشهد عليهم بما كانوا عليه ، وهو نبى تلك الأمة كما روى عن مجاهد وقتادة ، ويؤيده قوله - تعالى - : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »[1] . فقلنا لكل أمة من الأمم : هاتوا حجتكم وأحضروا دليلكم على صحة ما تدينون به ، وعلى صدق ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، فعلموا يومئذ أن الحق لله فى الألوهيّة لا يشاركه - سبحانه - فيها أحد وَلَا إِلَٰهَ غيره ولم يجدوا جواباً ، وغاب عنهم غيبة الشىء الضائع ما كانوا يختلقونه من الكذب على الله - تعالى - من أن معه آلهة تعبد .

ويقول ابن كثير : (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أى : ذهبت معبوداتهم فلم ينفعوهم .

ويقول الآلوسى : وصيغة الماضى فى « وَنَزَعْنَا » للدلالة على التحقق والثبوت ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بشأن النزع وتهويله ، لصدوره من المولى - عز وجل - فهو نزع يليق بعزيز قوى . والله أعلم .

* (إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾)

(١) سورة النساء الآية : ٤١

المفردات :

(فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ) : أى ظلمهم ، أو تكبر عليهم .

(الْكُنُوزِ) : الأموال المدخرة المحبوسة ، من : كنزه ، بمعنى : ادخره وحبسه عن الناس ، ومنه قوله تعالى : « الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ » .

(مَفَاتِحَهُ) : جمع مِفتح – بكسر الميم – وهو المفتاح الذى تفتح به الأغلاق ، أو جمع : مَفْتَح – بفتح الميم والتاء – وهو الوعاء الذى يكنز فيه كالصندوق .

(لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) : العصبة ، الجماعة يتعصب بعضها لبعض ويشد أزره ، ومعنى « تَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » : تثقلها ، يقال : ناء به ، وأناءه ، أى : أثقله ، كما يقال : ذهب به وأذهبه ، فالباء للتعدية ، وبه قال الخليل وسيبويه والفراء ، واختاره النحاس ، وسيأتى بسط الكلام فى تفسيره .

(لَا تَفْرَحْ) : أى لا تفرح بدنياك فرحًا يذهلك عن أخراك .

(الْفَرِحِينَ) : قال الزجاج : الفرحين والفارحين سواء ، ونزيد على ما قاله : أن الفَرِح صيغة مبالغة تفيد زيادة الفرح .

(وَابْتَغِ) : واطلب . (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ) : ولا تطلبه .

التفسير

٧٦ – (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ . . .) الآية .

اختلف فى قارون من جهة قرابته لموسى – عليه السلام – فمن قائل : إنه ابن عمه ، وهو ما روى عن ابن عباس وابن جريج وغيرهما – ومن قائل : إنه عمه ، وحكاه محمد ابن إسحٰق ، ومنهم من قال : إنه ابن خالته ، ولم نجد لهذه الروايات سندًا ، وحسبنا ما قاله الله – تعالى – فى نسبه من أنه من قوم موسى ، أى : من بنى إسرائيل ، ويصفه الله بأنه بغى عليهم ، والبغى – فى اللغة – : التطاول ومجاوزة الحد ، وقد فسره المفسرون هنا بتفسيرات

مختلفة ، فمنهم من فسره بالتكبر ، فإنه كان جميل الصورة واسع الثراء ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، فتكبر عليهم لذلك ، ومنهم من فسره بالظلم ؛ لأن فرعون ملكه عليهم فظلمهم وبغى عليهم ، والذى نراه أن لكنوزه دخلًا فى ظلمه ، لأن مَنْ نصحوه من قومه قالوا له : « وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ » فهذا واضح فى أن ماله أغراه بالإفساد والظلم ، ولذا عقبه الله بقوله : « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ . . . الآية » .

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ) :

أى : وأعطيناه من كنوز الأموال ما دفعه إلى التكبر والتعالى على قومه وظلمهم ، فالمراد من الكنوز ؛ الأموال المدخرة ، ويصف الله عظمة هذه الكنوز بأن مفاتحها تنوءُ بالعصبة أولى القوة ، والمراد من المفاتح الخزائن . قال الضحاك : مفاتحه : ظروفه وأوعيته ، وروى نحو ذلك عن ابن عباس والحسن ، وعلى هذا الرأى تكون مفاتح جمع مَفْتَح - بفتح الميم وسكون الفاء - أى : مكان الفتح ، وهو الوعاء .

ومنهم من قال : إنه جمع مِفتح - بكسر الميم وسكون الفاء - وهو المفتاح الذى تفتح به الخزانة ، والأول أقرب إلى التعقل ؛ فإن العُصبة أولى القوة تقدر على حمل المفاتيح ، ولا تنوءُ بها ، وإنما تنوءُ بحمل الخزائن ، والله أعلم .

والعصبة : الجماعة الكثيرة من غير تعيين بعدد خاص كما قاله الراغب ، ومنهم من عين لمدلولها عددًا خاصًّا من عشرة إلى خمسة عشر وهو مروى عن مجاهد ، ومنهم من زاد إلى سبعين .

وقال الخفاجى : إن أصل معناها : الجماعة مطلقًا - كما هو مقتضى الاشتقاق[1] ، والعرف هو الذى يخص العدد ، ومعنى (تنوءُ به العصبة أولو القوة) : تنهض به متثاقلة كما قال ابن عباس وأبو صالح والسُّدى وبه قال الخليل والفراءُ والنحاس .

(١) فإن أصلها الجماعة يتعصب بعضهم لبعض .

وبعض المفسرين جعل هذه العصبة من الرجال ، وحددوها بأربعين رجلًا أقوياء ،ونسبوا هذا إلى ابن عباس ،حيث رووا عنه أن المفاتح هي الخزائن ، وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلًا أقوياء .

وبعضهم جعلها من الحيوانات كالبغال والخيل ، وإطلاق العصبة عليها لغوى ؛ قال صاحب القاموس : العصبة - بالضم -من الرجال والخيل والطير : ما بين العشرة إلى الأربعين ، كالعصابة - بالكسر - ونقول : إنهم أخذوا هذا المعنى من العَصْب ، بمعنى الشد ، فإنها يشد بعضها أزر بعض ، وبعضهم جعل المفاتح كناية عن العلم والحفظ ،كما فسروها فى قوله تعالى : « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » فالمراد من الآية : وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والإحاطة بها لَيثقل على الجماعة القوية من الرجال ، لاختلاف أصنافها وكثرتها التى تتعب القائمين على حفظها وحسابها والإحاطة بها ، وهذا هو تفسير أبى مسلم للآية ، وهو - وإن استبعدوه - له سنده من قوله تعالى : « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » كما أنه تجنَّب فيه المبالغات التى ذكرها كثير من المفسرين فى تفسيرها : « إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » .

قال ابن عطية : (إِذْ قَالَ) متعلق ببغى عليهم ، أى : بغى على قومه إذ قالوا له : لا تفرح ورجح بعض المفسرين تعلقه بمحذوف يقتضيه المقام ، أى : فأظهر قارون الفرح بكنوزه إذ قال له الأتقياء من قومه : لا تفرح بها إن الله لا يحب الفرحين ،وقد نهوه عن فرحه الذى أورثه البغى ، ومنعه حق الله تعالى ، فهذا هو الذى يُنْهى عنه ، أما الفرح سرورا بنعمة الله ورضا عنها مع أداء حقها المشروع فلا ينهى عنه ، لأنه نوع من الشكر على النعم الذى حضَّن عليه الشرع ، كما قال - تعالى - : « وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » [1] والمراد من عدم محبة الله للفرحين البطرين : بغضه لهم ، وإبعادهم عن حضرته وعن كرمه .

والمعنى العام للآية : إن قارون كان من بنى إسرائيل قوم موسى ، فظلمهم وتكبر عليهم بما أوتيه من علم وجاه ومال ، وأعطيناه من الأموال التى كنزها وحبسها عن مَبَرَّات الآخرة - أعطيناه - ما إن خزائنه لتثقل الجماعة القوية من الدواب التى تحملها ، أو من الرجال القائمين على حفظها وحسابها وتدبير أمرها ، فأظهر قارون الفرح والتفاخر بكنوزه ، إذ قال له أتقياء قومه : لا تفرح بها فرح البطر والكفران ، إن الله لا يحب الفرحين البطرين الذين يكفرون ولا يشكرون ، بل يبغضهم وينتقم منهم .

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٣٧

٧٧ - (وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَاتَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) :

واطلب فيا أعطاك الله من الكنوز والأموال ثوابا فى الدار الآخرة بصَرْفها فى مصارف البر والتقوى، ولا تترك حظك من الدنيا ترك المنسى، فخذ من زينتها وطيباتها ورزقها ماتتجمل به ويعينك على تقوى الله - تعالى - ويقيك شر الحاجة، وأحسن إلى عباد الله - تعالى - كما أحسن الله إليك تأسيا بصنيعه معك، أو: أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله إليك بالنعم[1]، ولا تطلب بهذه الكنوز الفساد فى الأرض والبغى على العباد إن الله لا يحب المفسدين، بل يبغضهم وينتقم منهم.

(قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(أُوتِيتُهُ) : أعطيته.

(الْقُرُونِ) : جمع قرن، واختلف فى زمنه، وأصح ما قيل فيه : إنه مائة سنة ؛ لقوله ﷺ لغلامه : « عِش قرنًا » فعاش مائة سنة، ويطلق على كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد، قاله صاحب القاموس وهو المراد هنا، ويطلق أيضًا على أهل زمان واحد، ومنه قول الشاعر :

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهمُ   وخُلِّفْتَ فى قرن فأنت غريب

---

(١) ويجوز أن تكون الكاف فى كلا المعنيين للتعليل، أى : أحسن لأجل إحسان الله إليك.

ذكره صاحب المختار .

(الْمُجْرِمُونَ) : المذنبون ، والجرْم والجرِيمة : الذنب .

التفسير

٧٨ - (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى . . .) الآية .

لما نصح أتقياء بنى إسرائيل قارونَ بأن يحسن الإنفاق من ماله كما أحسن الله به إليه ، ظن أنهم يصفونه بأنه أوتيه إحسانًا عليه بغير سبب يقتضيه ، فرد عليهم بقوله : « إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى » واختلف فى تفسير هذا العلم ، فقيل : إنه علم التوراة فإنه كان أعلم بنى إسرائيل بها ، وقال أبو سليمان الدارانى : علم التجارة ووجوه المكاسب ، وقيل : علم استخراج الكنوز والدفائن ، وقيل : علم الكيمياء ، فكان يحول الرصاص والنحاس ذهبًا ، ورده العلماء بأن فيه دعوى قلب الحقائق ، وذلك لا يكون إلَّا لله - تعالى - ولم يثبت حدوثه منه بطريق صحيح ، وما يشاع بين العامة من إمكان ذلك ، إنما هو من باب الأراجيف التى لم تثبت فى الواقع ، بل هى من باب الصبغ والتزييف[1] .

وقال الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسيرها : إنما أوتيتُه على علمٍ من الله باستحقاق إياه ، فلولا رضاه عنى وعلمه بفضلى ما أعطانيه ، وكلمة (عِندِى) على هذا الرأى معناها : فى ظنى واعتقادى[2] وقد رد الله عليه بقوله : (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) :

أى : أجَهِل قارون فبغى على قومه وأفسد فى الأرض ، ولم يعلم أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله من الأمم الخوالى من هو أشد منه قوة فى الآلات ، وجمعًا للأعوان والأنصار والأموال ، ولا يسأل عن ذنوبهم المذنبون سؤال استعلام أو معاتبة واسترضاء ، وإنما يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، لقوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فكيف جهل قارون ذلك فأفسد وبغى وزعم أنه أوتى كنوز المال استحقاقًا ؟

---

(١) راجع ابن كثير .

(٢) و (عندى) - على هذا - خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذا عندى وفى اعتقادى ، أما على ما تقدم فهو صفة لعلم .

(فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(فِى زِينَتِهِ) : فيما تزين به من متاع الحياة الدنيا .

(وَيْلَكُمْ) : هو فى الأصل دعاء بالويل ، وهو الهلاك ، ثم شاع استعماله فى الزجر عمَّا لا ينبغى ، وهو المراد هنا .

(وَلَا يُلَقَّاهَا) : أى ولا يلقى هذه النصيحة ، أى : لا يتقبلها ويعمل بها .

(إِلَّا الصَّابِرُونَ) : على الطاعات ، وعن المعاصى .

التفسير

٧٩ - (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) :

اختلف فى المراد من الذين يريدون الحياة الدنيا ، فقيل : هم جماعة من مؤمنى بنى إسرائيل تَمنَّوْا أن تكون لهم دنيا كدنيا قارون جريًا على سنة البشر من حب التوسع فيها ، وكان ذلك على سبيل الغبطة ، لا على سبيل الحسد ، وقيل : هم جماعة من الكفار أو المنافقين الذين لا هَمَّ لهم إلَّا دنياهم ، والظاهر مع الرأى الأول ، وتمنى مثل ما للغير لا يقدح فى الإيمان ، ولكن طلب الآخرة أفضل ، كما يشير إليه رد أهل العلم عليهم فى الآية التالية .

ومعنى الآية : فخرج قارون ذات يوم على قومه بنى إسرائيل فى زينة عظيمة وتجمل باهر : من ملابس ناضرة ، ومراكب فارهة فاخرة ، وخدم وحشم ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها ، تمنوا مثل الذى أعطيه قارون ليتمتعوا به مثل متاعه ، قائلين : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ وافر من دنياه ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم ردوا عليهم بما حكاه الله بقوله :

٨٠ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) :

أى : وقال الذين أوتوا العلم ينصحون طلاب الدنيا وزخرفها ، ويزجرونهم عن طلب التوسع فيها حتى لا تفسدهم كما أفسدت قارون - قالوا لهم - : ويلكم لا تطلبوا مثل ما أوتى قارون ولا تتمنوا مثل زينته ومتاعه الدنيوى ثوابُ الله فى الآخرة خيرٌ من زينته ومتاعه وأعظم مما أوتيه - من ماله ورجاله - لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل عملا صالحًا يرضاه ، ولا يتلقى هذه النصيحة بحسن قبولها والعمل بمقتضاها إلا الصابرون على الطاعات ، وعن السيئات .

(فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـردات :

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ): أى أدخله الله وداره فى جوف الأرض ، يقال : خسف المكانُ يخسِف خسوفًا : ذهب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض : ذهب به فيها وأدخله فى جوفها ، وخسف هو فى الأرض وخُسِفَ به[1] (فِئَة) أى : جماعة (وَيْكَأَنَّ) هى كلمتان (وى) و (كَأَنَّ) . قال الخليل وسيبويه :(وَىْ) : اسم فعل بمعنى أعجب ، وتكون للتحسُّر والتندم أيضًا ، قال الجوهرى : وقد تدخل (وىْ) على (كأن) المخففة والمشددة ، تقول : (وَيْكَأَنَّ اللهَ) قال الخليل : هى مفصولة ، تقول : ويْ – ثم تبتدئُ فتقول : (كأن) يعنى : أن الوقف على (وَىْ) كما فى البحر ، و (كأن) فيه عارية عن معنى التشبيه جىء بها للتحقيق ، كما فى قول الشاعر :

وأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

ويروى الثعلبى عن الفراء أن (ويكأن) كلمة تقرير ، كقولك : أما ترى صنع الله وإحسانه ؟ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين ابنك ويلك ؟ فقال : ويكأنّه وراء البيت أى : أما ترينَّه ؟ وبهذا قال ابن زيد وجماعة ، وهو بمعنى ما روى عن ابن عباس– رضى الله عنهما – (ويكأن) : حرف واحد بجُمْلته ، وهو بمعنى ألم تر[2] .

التفسير

٨١– (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) :

لما ذكر الله – تعالى – خروج قارون فى زينته ، وفخره على الناس وخيلاءه بدنياه ، وبغيه على عباد الله ، عقب ذلك ببيان ما حل به من الجزاء على البغى والخيلاء ، ويضم إليهما الكفر ، كما سيصرح به فى الآية التالية : « وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

ويرى ابن كثير أنه هو المعنى بحديث البخارى فى صحيحه ، من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو

---

(١) انظر القرطبى .

(٢) هذه خلاصة بحوث طويلة ، فارجع إلى القرطبى والآلوسى وغيرهما من الموسوعات إن شئت المزيد .

يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » والتجلجل معان ، منها : الذهاب فى الأرض ، والتضعضع ، وشدة الصوت ، والوعيد ، والأخير هو أنسبها ؛ فهو فى وعيده وعقابه إلى يوم القيامة ، وهناك يعذب عذاب الكافرين حيث يخلد فى النار .

ولم نجد أحدًا من المفسرين تحدث عن الأرض التى خسف به وبداره فيها، ويوجد فى محافظة الفيوم بحيرة صغيرة تسمى (بركة قارون) فلعله وقومه كانوا يسكنون بهذه المنطقة ، وأنه خرج على قومه فى زينته بأرضها فغيبه الله وداره فى جوفها ، ونشأت بركة قارون بسبب هبوط الأرض هبوطا شديدًا تحت مستوى المياه الجوفية ، فسارعت المياه الجوفية فملأت مكان الخسف ، ونشأت بذلك بركة نسبت إليه ، لتكون آية على مكانه وشاهدا على عاقبة بغيه وكفره ،ومعلوم أن بنى إسرائيل قد كثروا بمصر حتى أصبحوا بها أمة ، وقد أذلهم المصريون ، واستخدموهم فى بيوتهم وحقولهم ، فلما جاء موسى برسالة إلى فرعون ، وأظهره الله عليه استطاع أن يخفف عنهم ذل الأسر والاستعباد فطلب إليهم أن ينفردوا ببيوت لهم يسكنونها مستقلين عن سادتهم من المصريين ، وأن يكونوا متجاورين ، وفى ذلك يقول الله — تعالى — : « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

ولو صح استنباطنا من أنهم يسكنون بمنطقة الفيوم حيث بركة قارون ، فإن ذلك لا يمنع من أن بيوتهم فى مصر ، فإن الفيوم إقليم مصرى ، ولعله كان له شأن فى ذلك الزمان.

السبب المباشر للخسف بقارون وداره

يروى أنه كان كثير الإيذاء لموسى فصبر عليه ؛ لأنه كان ابن عمه حتى اتهمه بالزنى فى محضر من قومه فبرأه الله وحكّمه فيه ، وفى ذلك روى ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس « أن قارون كان ابن عم موسى — عليه السلام — وكان يتتبع العلم حتى جمع علمًا ، فلم يزل فى ذلك حتى بغى على موسى — عليه السلام — وحسده ، فقال موسى : إن الله — تعالى — أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى ؛ فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، أفتحتملون أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى

بغيٌّ من بغايا بنى إسرائيل، فترسلها إليه فتتهمه بأنه أرادها على نفسها، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حُكْمك[1] على أن تشهدى على موسى أنه فجَر بكِ، فقالت : نعم، فجاء قارون إلى موسى - عليه السلام - قال : اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ، قال : نعم، فجمعهم فقالوا : بِم أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تصلوا الرحم ، وكذا وكذا ، وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أُحصن أن يرجم ، قالوا : وإن كنت أنت ، قال : نعم ، قالوا : فإنك زنيت ، قال : أنا ؟ فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى - عليه السلام - : أنشدك بالله إلّا ما صدقتِ فقالت : أما إذْ نشدتنى[2] بالله - تعالى - فإنهم دعونى وجعلوا لى جُعْلًا[3] على أن أقذفك بنفسى، وأنا أشهد أنك برئ وأنك رسول الله . فخر موسى ساجدًا يبكى، فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمُرها تطعك، فرفع رأسه فقال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم . . . الحديث » .

وفى تبرئة الله لموسى مما اتهموه به يقول الله - تعالى - فى سورة الأحزاب : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا »[4]. وهناك روايات أخرى فى سبب خسفه ، وحسب القارئ ما تقدم .

المعنى الإجمالى للآية

فخرقنا بقارون وبداره الأرض وغيبناهما فى جوفها ، فما كان له من جماعة غير الله يدفعون عنه نقمة الله ونكاله ، وما أغنى عنه ماله وخزائنه ولا حماه خدمه وحشمه وأنصاره ، وما صح ولا استقام أن يكون من الممتنعين من بطش الله بأى سبب من أسباب الامتناع ، فإنه لا بد واقع ، ليس له من دافع .

٨٢ - (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) :

---

(١) أى : ما تحكمين به من المال أجراً على اتهامه بالزنى .

(٢) أى : سألتنى .

(٣) أى : أجراً .

(٤) الآية : ٦٩ .

(وأَصبَحَ) هنا بمعنى : وصار ، و (بِالْأَمْسِ) بمعنى : منذ زمان قريب ، واستعماله بهذا المعنى مجاز مشهور ، ومن المفسرين من حملهما على معناهما الحقيقى ، ونحن نؤثر المعنى الأول فى تأويل الآية ، لما فيه من الاحتياط فى تأويلها ، ولشموله للمعنى الثانى أيضاً .

ومعنى الآية : وصار الذى تمنوا منذ زمان قريب مثل ما أوتى قارون من السعة والغنى يقولون : نَعجب مما حدث لقارون ، ونندم على تمنينا مثل ما أوتى حقًّا إن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لا لِكرَامَة تقتضى البسط ، ويضيقه على من يشاء ، لا لهوان يقتضى التضييق ، فهو الحكيم فى قضائه وقدره ،لولا أن منَّ الله علينا فلم يعطنا ما تمنينا لخسف بنا كقارون ، لأن المال يغوينا كما أغواه ، ويدمرنا كما دمره ، نعجب مرة أخرى من هذا العقاب ، ونندم على تمنينا مثل يساره الذى فتنه ، إنه لا يفلح الكافرون بنعم الله ، المؤثرون لدنياهم على دينهم ، المكذبون برسلهم ووعْظِهِمْ ووعيدهم ، فهم الخاسرون النادمون .

(تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(عُلُوًّا) : استكبارًا . (وَالْعَاقِبَةُ) : الخاتمة الطيبة .

التفسير

٨٣ـ(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

هذه الجنة العظيمة الموجودة فى الآخرة بنعيمها الدائم ، وجمالها الباسم نجعلها ثوابا للمؤمنين الصالحين الذين لايريدون بنعم الله عليهم تعالياً على الناس ، وسلطاناً فوقهم ،

ولايريدون بها عدواناً وظلما يفسد عليهم حياتهم ، والعاقبة المحمودة فى شرع الله وحكمه للذين يتقون غضبه فيطيعون أمره ، ويجتنبون نهيه ، ويسالمون عباده .

جاء فى حديث صحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « يأيها الناس إنى أوحى إلىّ أن تواضعوا ، ألا فتواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد ، وكونوا عباد الله إخواناً » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه ، ومن أحب أن يتجمل بين الناس بنعم الله عليه فلا يعد هذا تعالياً ولا كبرًا ، فقد صح أن رجلا قال : يارسول الله ، إنى أحب أن يكون ردائى حسناً ونعلى حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد .

٨٤ - (مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا۟ السَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) :

من جاء يوم الحساب والجزاء بالخصلة الحسنة عقيدة أوعملا ، فله جزاء خير منها ، حيث يضاعف الله ثوابها بحسب ما فيها من حسن النية والأداء ، ومن جاء بالخصلة السيئة عقيدة أو عملا فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا بمثل ما كانوا يعملونه من السيئات دون زيادة عليها ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ »(١)

وإنما قال : من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة ، ولم يقل : من عمل الحسنة ومن عمل السيئة للدلالة على أن استحقاق الثواب أو العقاب مستفاد من الخاتمة التى يجئ بها الإنسان لربه ، لا من أول العمل ، فمن أمضى عمره فى الكفر ثم أسلم وحسن عمله فقد جاء ربه بالحسنة وله ثوابه ، ومن أمضى عمره فى الإيمان والعمل الصالح ثم كفر ، فقد جاء ربه بالسيئة وله عقابه . نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧

(إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ
أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾
وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ
إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) : أوجب عليك تبليغه ، والعمل به .

(لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ) أى : لراجعك إلى مكان عظيم تعودته ـ وهو مكة ـ : من العادة ، أو إلى مكان تعود إليه بعد الخروج منه : من العوْدِ ، وهو مكة أيضاً ، وذلك فى يوم فتحها سنة ثمان من الهجرة ، وفيه معان أخرى ، وما ذكرناه أولاها .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : بعد عن الحق واضح ، من (أبانَ) : اللازم ، بمعنى اتضح .

(وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ) : وما كنت تتوقع أن ينزل عليك القرآن .

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ) : أى معيناً لهم بإجابتهم إلى طلبهم .

(وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ) : ولا يمنعك الكافرون عن العمل بآيات الله بعد وقت إنزالها إليك .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) : أى كل شىء فان إلا ذاته – تعالى – فالوجه مجاز عن الذات ، وللكلام بقية فى التفسير .

التفسير

٨٥ – (إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

ذكر الله – تعالى – فى الآيات السابقة قصة موسى وقومه مع قارون وبغيه واستطالته عليهم ، وهلاكه ،ونصره أهل الحق عليه ، وجاء بهذه الآية مشيرة إلى قصة سيدنا محمد وأصحابه مع قومهم ، واستطالتهم عليهم ، وإخراجهم إياهم من بلدهم ، ومبشرة بإعزازه ﷺ ورده والمؤمنين المهاجرين إلى مكة وفتحهم إياها غالبين منصورين . ووسط بين القصتين ما هو مرتبط بهما من شئون الآخرة ، للانتقال من قصة إلى أخرى ، قال مُقاتل : خرج النبى ﷺ من الغار ليلا مهاجرًا إلى المدينة فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها ، فقال له جبريل : إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ » : أى مكة ظاهرًا عليها ، قال ابن عباس : نزلت بالجحفة فليست مكية ولا مدنية .

وتفسير المعاد بمكة قول الأكثرين ، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم ، وقال القُتَبى : معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف منه ثم يعود إليه .

وفى المعاد أقوال أخرى ، وما ذكرناه أولى منها بالقبول ، لما ذكرناه من الربط بين القصتين .

ومعنى الآية : إن الله الذى فرض عليك – أيها الرسول – تبليغ القرآن والعمل به ، لراجعك ظافرًا إلى مكة بلدتك التى تعودتها وقد أخرجوك منها فلن يكون خروجك منها أبديًا ، قل لقومك : ربى أعلم بمحمد الذى جاء بالهدى من عنده فينصره ويرده إلى بلده وينشر هداه ، وأعلم بمن هو فى ضلال واضح من قومه فيخذله ، ويذله .

٨٦ - (وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ) :

هذه الآية مقررة لما جاء فى الآية السابقة ، من الوعد بإعادته إلى مكة التى أخرجوه منها ومؤيدة لموقفه السلبى من دعوتهم إياه إلى العودة إلى ملة الشرك التى نشئوا عليها ، وتثبيت له عليه ، قال مقاتل : دعا كفار مكة رسول الله ﷺ إلى دين آبائه فذكَّره الله - تعالى - نعمه ، ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه .

والواقع أن الرسول الأمين لا يتصور منه أن يكون ظهيرا للكافرين فى دينهم ، فهو بعيد عنه منذ صباه ، وكان يعبد الله على ما بقى من دين إبراهيم ، فالغرض من نهى الرسول عن أن يكون ظهيراً لهم ، إنما هو إقناطهم من استجابته إليهم مهما اشتدت قسوتهم ، ببيان أن الأمر صدر له بمخالفتهم ممن أنزل عليه الكتاب رحمة به وبهم ، فلا تطمعوا فى مخالفته ماكلفه به ربه .

ومعنى الآية : وما كنت تتوقع أن يختارك الله رسولا ، وأن يُنزل عليك كتابًا تبلغه قومك ومَنْ وراءهم ، ولكن رحمة من ربك بعباده وبك ، اختارك وأنزل عليك الكتاب فلا تكونن فى يوم من الأيام معيناً للكافرين - وأنت من الله بهذه المكانة والمنزلة المقتضية لنصرك عليهم - بل دم على ما أنت عليه من مخالفتهم والاستمرار فى دعوتهم إلى الحق مهما لقيت فى سبيله فلسوف يعيدك ربك إلى بلدك مظفراً منصورا .

٨٧ - (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) :

ولا يمنعنك قومك بإعراضهم وعدائهم عن تبليغ آيات الله بعد إذ أنزلها الله إليك ، فلا تتأثر لمخالفتهم وصدهم الناس عنك ، وإيذائهم لك ولأتباعك ، فإن الله سيعلى كلمتك ، ويؤيد دينك ، ويظهر ما أرسلت به على سائر الأديان ، ودم على ما أنت عليه من الدعوة إلى إلى ربك وحده لاشريك له ، ولا تكونن من زمرة المشركين بعد أن دعوك إليهم ، فهم أهل الضلال ، وأنت رسول الهدى ، وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور .

والغرض من الآية : إقناط الكافرين من استجابة الرسول إليهم ، كما تقدم فى الآية السابقة ، فإنه لا يتصور منه أن يكون من المشركين ، وقد اختاره رب العالمين ، وكيف يتصور منه ذلك وهو الذى كان يقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ما تركته أو أهلك دونه » .

٨٨ -(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية كالآيتين قبلها لمزيد تثبيت النبى ﷺ فيما هو مقيم عليه من الدعوة إلى توحيد الله ، وقطع أطماع المشركين فى استجابته إلى ما أرادوه منذ فجر الدعوة من تركه دعوة التوحيد وعودته إلى الوثنية دين الآباء والأجداد مهما بالغوا فى إيذائه فاقرأ ما كتبناه عليهما قبلها ، لتدرك مبلغ ترابطها .

ومعنى هذه الآية : والزم توحيد ربك الذى أنت مقيم على عبادته ولا تعبد مع الله إلٰهاً آخر . فإنه لا معبود بحق سواه ، كل شيء مصيره إلى الهلاك إلا ذاته - سبحانه - له القضاء النافذ فى خلقه عابدين ومعبودين وسواهم ، وإليه ترجعون للحساب والجزاء ، فكيف يُعبد سواه وقضاؤه نافذ فى خلقه بالهلاك والفناء ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

واعلم أن المراد من الشيء : الموجود ، ولهذا استدل بالآية على إطلاق لفظ شيء على الله - تعالى - وكأنه قيل : كل موجود فى أى وقت هالك إلا ذاته فلا يلحقه هلاك - سبحانه وتعالى - . وقال مجاهد والثورى فى قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » أى : إلا ما أُريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه . والمقصود من هذا الرأى أن الأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله - تعالى - تبقى ببقاء ثوابها ، حيث يجدها صاحبها نعيما مقيماً فى جنة الرحمن الرحيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية – قيل : هى آخر ما نزل بمكة – فيكون ذكر شيء عن المنافقين فيها من باب الإخبار بالمغيبات عن مجتمع المدينة ، وذكر الجلال فى وجه اتصالها بما قبلها : أن الله – تعالى – أخبر فى سورة القصص التى قبلها بما كان من فرعون واستعلائه على قومه ، وجعلهم شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب فافتتحت سورة العنكبوت بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار ، وعذبوهم بعذاب دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل تسلية لهم بذكر ما وقع بمن قبلهم . وحثاً لهم على الصبر وتحمل الأذى ، كما يشير إلى ذلك قوله – تعالى – : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » .

كما أن من المناسبة أيضاً ما أشارت إليه الآيات فى خاتمة سورة القصص . من هجرة النبي ﷺ فى قوله – تعالى – : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ » على بعض الأقوال ، وما أشارت إليه سورة العنكبوت من هجرة المؤمنين فى قوله – تعالى – : « يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوآ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ » هذا ، وقد ختمت سورة القصص بما يفيد هلاك جميع المخلوقات ، ورجوعهم إلى الله ، فكان من جميل النسق أن تبدأ سورة العنكبوت بعدها بتوجيه المؤمنين إلى الصبر على ما يتعرضون له من الأذى ، وما يُفْتنون به من بلاء المشركين ؛ ليكون لهم جزاء الصابرين ، وعقبى المتقين .

خلاصة هذه السورة

بدأت السورة بذكر ما يتعرض له المؤمنون من الفتن ، وما يواجههم من عنت وإرهاق. وتعرض لفتن كثيرة جرت عليها سنة من قبلهم من المؤمنين حيث أُوذوا من الكافرين برسلهم ليتبين الذين صدقوا ، ويُعلَم الكاذبون ، ثم حثت الآيات على التمسك بالعقيدة ، والعمل الصالح استعداداً للقاء الله ، ونبهت إلى جميل الجزاء ، وحسن الثواب لمن أقام على عمل الصالحات التى من جملتها الإحسان إلى الوالدين ، واصطناع المعروف معهما مهما كان شأنهما ، وحذرت من ضعف الإيمان ضعفاً تهزه الحوادث ، ويذهب به التعرض للأذى والفتن .

ثم انتقلت الآيات إلى طرف من قصص نوح وإبراهيم ولوط مع قومهم فى بيان يطول ويقصر ، حتى انتهت إلى قصة شعيب – عليه السلام – مع أهل مدين .

ثم انتقلت من هذا إلى تهوين أمر المشركين والكافرين مهما بلغت قواهم ، وظهر أمرهم ، فإن هذا كله لا يلبث أن يزول ، وينتهى بهم إلى أشد العقاب ، ولا تنفعهم معبوداتهم ؛ فهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتا « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

ثم دعت الآيات إلى حسن المجادلة مع أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة حسبا يرشد إلى ذلك الكتاب الكريم الذى أنزل على النبي الأمى الذى لم تسبق له قراءة ولم يجلس إلى معلم : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » : وتأكدت هذه المعانى كلها بآيات بعد ذلك ترد شبههم ، وتنعى عليهم استعجالهم العذاب الذى لن يفوتهم إن كان مقدرًا عليهم ، وسيغشاهم من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم إذا حان حينه ، وجاء أوانه .

ثم اتجهت الآيات فى ختام السورة إلى دعوة المؤمنين إلى النّاس عزتهم وقوتهم فى أرض الله الواسعة ؛ فستكون لهم العاقبة الحسنى فى الدار الآخرة التى هى الحيوان لو كانوا يعقلون .

وبمقدار ما عابت الآيات أحوال الكافرين ، وأنكرت عليهم تكذيبهم للحق حين جاءهم ، بشرت المجاهدين فى الله بالهداية إلى سبل الرشاد فى الدارين : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

وسميت السورة سورة العنكبوت لذكره فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓ ①)

بدئت هذه السورة بسرد حروف من حروف المعجم كغيرها من كثير من السور ، والكلام فى ذلك مثل الكلام فى نظائره من هذه الفواتح الكريمة السابقة ، فارجع إلى مثله فى أوائل القرآن إن شئت .

ومما تجدر الإشارة إليه أن السور التى بدئت بسرد حروف من المعجم أتبعت هذا الابتداء بالحديث عن القرآن الكريم بصور مختلفة ، وأساليب متعددة ، إلا ثلاث سور هذه إحداها

وسورة الروم ، وسورة مريم ، وهذا يدلنا على أن فى هذا الكتاب العزيز أسرارا لا يزال العقل البشرى فى عجز عن إدراكها ، ومعرفة الحكمة فيها ومنها ، مهما تكلف فى توجيه ذلك المتكلفون .

على أن ذكر هذه الحروف فى مفتتح هذه السور وغيرها أسلوب من أساليب إثارة الانتباه والتيقظ لما يذكر بعدها من أغراض وأهداف .

(أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤)

المفردات :

(أَحَسِبَ) : أظنّ ، والحسبان كالظن : ترجيح أحد النقيضين على الآخر .

(لَا يُفْتَنُونَ) : لا يختبرون ولا يمتحنون ، من قولهم : فَتَن الذهب ، إذا أدخله النار ليختبر جودته .

(صَدَقُوا) : آمنوا عن عقيدة وإخلاص .

(الْكَاذِبِينَ) : المنافقين فى إيمانهم .

(أَن يَسْبِقُونَا) : أن يفوتونا ويعجزونا فلا يلاقوا جزاء أعمالهم .

التفسير

٢ ـ (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) :

(الحُسْبَانُ) : ترجيح أحد النقيضين على الآخر كالظن ، بخلاف الشك ، فهو : التردد بينهما ، وبخلاف العلم ، فهو : القطع بأحدهما ، ولا يتعلق الحسبان بمعانى المفردات ، ولكن بمضامين الجُمل ، ولذلك يقتضى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، أو ما يسد مسدَّهما كما هنا .

والمعنى : أظنَّ الناس تركهم غير مفتونين لمجرد إيمانهم أو نطقهم بالشهادتين دون أن يتعرضوا للفتن فى دينهم . والامتحان بمشاق التكاليف من المهاجرة والمجاهدة ، والصبر على فعل الطاعات ، واحتمال أنواع المصائب فى الأموال والأنفس والثمرات ؛ ليتميز المخلص فى إيمانه من المنافق، والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه . فيلاقى كل واحد جزاءه بما يقتضيه عمله كما فى قوله - تعالى - : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »[1]

رُوى أنها نزلت فى أناس من المسلمين الأوائل كان المشركون من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار ابن ياسر ، وأبيه ياسر ، وأمه سمية ، وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ؛ فنزلت هذه الآيات تسلية لهم وإعلاماً بأن هذه هى سنة الله فى خلقه اختبارا لهم وتمحيصاً .

وهذه الآيات وإن نزلت فى هؤلاء فهى باقية فى أمة محمد ﷺ أبد الدهر .

وقيل : نزلت فى « مهجع » مولى عمر بن الخطاب أول من قُتِل من المسلمين يوم بدر . رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله فجزع عليه أبواه ، وامرأته ، فقال النبى ﷺ : « سيد الشهداء مهجع ، وأول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة » .

٣ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) :

هذه الآية تتصل بالآية قبلها ؛ توضح أن ابتلاء الأمم سنة قديمة مبنية على الحِكم البالغة ، جارية بين الأمم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافها .

والمعنى : ولقد اختبرنا الأمم قبلكم ، وابتليناهم بأنواع من البلاء ، وضروب من الفتن والمحن أشد مما أصابكم ، فمنهم من صبروا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ومنهم من ارتدَّ عن دينه ، وهؤلاء وأولئك معلومون لله مجزيون على أعمالهم ، كما قال سبحانه : « فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ... » أى : فوالله ليعلمن الله الصادقين الذين

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

صبروا لهذا الامتحان يعلمهم علماً تنجيزياً ، بعد أن علمهم قبل أن يكونوا . وليعلمن الكاذبين فى إيمانهم كذلك ، فيجزى كلاً جزاءه الذى يناسب حاله [١] .

٤ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) :

هذه الآية انتقال من إنكار حسبان الناس أن يتركوا لمجرد الإيمان دون أن يفتنوا . إلى إنكار حسبان الذين يعملون السيئات أن لا نجازيهم على سيئاتهم وهو أبطل من الحسبان الأول ، وقد عمم بعضهم فحمل السيئات على الكفر والمعاصى . وتكون الآية على هذا فى المشركين وعصاة المؤمنين ، وهم وإن لم يحسبوا أن يفوتوه - تعالى - ولم تطمع نفوسهم فى ذلك لكن نُزِّل جريهم على غير موجب العلم بالجزاء من الغفلة وإصرارهم على المعاصى منزلة من لم يتيقن الجزاء .

والمفهوم من السياق ، ومن سبب النزول : أن الحسبان الأول كان من المؤمنين ، وهذا الحسبان من الكافرين ، وبهذا أخذ ابن عباس - رضى الله عنهما - . فقد روى أنه قال : يريد - سبحانه - بالذين يعملون السيئات الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل ، والأسود ، والعاص ابن هشام ، وشيبة وعتبة ابنى ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبى معيط . وحنظلة ابن وائل ، وأنظارهم من صناديد قريش .

وهذا لا يمنع أن الآية تعم جميع من يعمل السيئات ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والمعنى الإجمالى للآية : أظنَّ الذين يرتكبون السيئات من الكفر والمعاصى أن يفوتونا : ويهربوا من حسابنا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوىء أعمالهم ، لقد ظنوا كذبا ، وحسبوا باطلا ، وحكموا فاسداً (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) : أى بئس الحكم الذى يحكمونه هذا الحكم .

(١) روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « قد كان من كان قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظم من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه . »

(مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾)

المفردات :

(يَرْجُوا۟ لِقَآءَ اللهِ) : يتوقع ملاقاة جزائه ، أو يخاف.

(أَجَلَ اللهِ) : الوقت الذى حدده وعينه . (جَاهَدَ) : غالب نفسه وقهرها على الطاعة.

التفسير

● ــ (مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

المعنى : من كان يتوقع ملاقاة جزائه ثواباً أو عقاباً ، فليبادر إلى ما يحقق رجاءه . ويؤمن خوفه ، وليختر من الأعمال ما يؤدى إلى حسن الثواب ، وجميل العاقبة ، وليحذر ما يسوقه إلى سوء العاقبة كقوله ـ تعالى ـ : « فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : (فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ) معناه : فإن الوقت الذى حدده وعينه لذلك لآت وواقع لا محالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، فليستعد لذلك ويقدم له . وقيل : المقصود برجائه لقاء الله : أمله بلقائه فى الجنة .

ومعنى : (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) : هو السميع لأقوال عباده فى جهرهم وسرهم ، وخلواتهم وجلواتهم ، العليم بجميع أحوالهم وشئونهم لا يغيب عنه من ذلك شىء ، ولا يخفى عليه أمر.

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف.

ويجازى كلا بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر تصديقاً لقوله - تعالى - : « وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » (١)

٦ - (وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) :

ذكرت الآيات السابقة ابتلاء الله عباده واختبارهم ليمحص الذين آمنوا فيجزل لهم الثواب ، ويعظم الأجر ، ثم جاءت هذه الآية تحفز هممهم إلى الاستزادة من عمل الصالحات ، وكثرة الطاعات ، فقال - تعالى - ما معناه : ومن جاهد نفسه بالصبر على طاعة الله ، أو دفع وساوس الشيطان فإنما يجاهد لنفسه لعود منفعته إليها ، إن الله لغنى عن العالمين فلا حاجة له إلى طاعتهم ، وإنما أمرهم - سبحانه - بها ليثابوا عليها بموجب رحمته وحكمته .

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧)

المفردات :

(لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) : لنسقطنّ عنهم عقاب سيئاتهم .

(أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى أحسن جزاء أعمالهم ، بأن تجازى الحسنة الواحدة بعشر أمثالها فأكثر ، أما الجزاء الحسن فإنه يكون بمجازاة الحسنة بحسنة مثلها فقط .

التفسير

٧ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

قررت الآية السابقة أن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، وهذه الآية تؤكد هذا المعنى وتزيد

---

(١) الآية ٣١ من سورة النجم .

عليه أن فضل الله - تعالى - لا يقف عند الجزاء بالمثل ، بل فضله أعظم ، ورحمته أوسع وأشمل ، فهى تشير إلى أن الله - تعالى - يسقط عذاب الكافرين بإسلامهم ، ويتجاوز عن عقاب العصاة لفعل الطاعات ، ثم تتجلى رحمة الله وواسع فضله بقوله - تعالى :

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : لنثيبنهم أحسن ثواب أعمالهم ، فنجازى على الحسنة بعشر أمثالها وأكثر . ولا نقف على الجزاء الحسن فنثيب على الحسنة حسنة فقط .

(وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ) : أمرناه ، و (وصَّى) يجرى مجرى الأمر معنًى ، فكأنه قيل : وأمرنا الإنسان ، ويستعمل فيما كان فى المأمور به نفع عائد على المأمور وغيره .

(جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى) : بالغا فى حملك على الشرك .

(مَرْجِعُكُمْ) : عودتكم بالموت .

(أُنَبِّئُكُمْ) : أخبركم .

التفسير

٨ - (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

جاءت هذه الآية فى معرض الحديث عن الإيمان وعمل الصالحات توجِّه إلى منهل من

أقرى مناهل الرحمة وهو بر الوالدين والإحسان إليهما، وقد نزلت هذه الآية فى سعد ابن أبى وقاص – رضى الله عنه – بعد إسلامه حيث حلفت أمه «حمنة[1]» بنت أبى سفيان ألّا تنتقل من الضِّح[2] إلى الظل، ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد، فلبثت ثلاثة أيام، فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه فنزلت هذه الآية، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها بالإحسان.

وقيل: نزلت فى عباس بن أبى ربيعة وقد فعلت أمه مثل هذا الفعل، وسواء أكان نزولها فى هذا أم ذاك، فهى لجميع الأُمة؛ لأن الإحسان إلى الوالدين مطلوب من كل مسلم.

ومعنى الآية: أمرنا الإنسان بإيتاء والديه، وإيلائهما كل فعل ذى حسْن يرضيهما ويوفر راحتهما، ويحقق البر بهما مادام فى كل هذا طاعة الله، فإن ذلك يحقق له الثواب وعظيم الأجر، ويعود على الوالدين بالخير والراحة والإحسان، فإن ابتغى الوالدان أو أحدهما من الولد شيئًا فيه معصية، أو جاهداه وحملاه حملًا على أن يشرك بالله ما ليس له علم بألوهيته وإنما يعلم بطلانه، فلا يطعهما؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ولكن مع التلطف فى معاملتهما، والصبر على ابتلائه بهما؛ فإنه لا يصبر على بلاء الله إلّا صديق.

وقوله – تعالى –: (إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ): معناه؛ إلىَّ وحدى نهايتكم جميعًا منْ آمن منكم ومن أشرك، ومن برَّ والديه ومن عقهما، فأكشف لكم عن هذا كله، وأجازى كلاًّ بعمله، الخير بالخير، والشر بالشر.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾)

---

(١) جاء فى الإصابة ج ٤ ص ١٦٠ رقم ٣١٨٧ فى ترجمة سعد بن أبى وقاص أن اسم أمه: حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبى سفيان بن حرب.

(٢) الضح: نور الشمس

المفردات :

(فِى الصَّالِحِينَ) : الصلاح : ضد الفساد ، وهو أبلغ صفات المؤمنين .

التفسير

٩ـ (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ) :

الدخول فى الصالحين مطلب من أجلِّ المطالب التى تستشرف إليها نفوس خاصة المؤمنين بله الأنبياء والمرسلين ، وهذا سليمان – عليه السلام – مع ما أعطاه الله من الرسالة والملك ، وتسخير كثير من الأكوان يقول : « وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ »[(١)] .

والمعنى : والذين آمنوا بالله ، وصدقوا بوحدانيته ، وأخلصوا فى عبادته بعمل الصالحات والإكثار من الطاعات ، لندخلنهم ونحشرنهم يوم القيامة فى زمرة الراسخين فى الصلاح الذى هو منتهى درجات المؤمنين ، وغاية ما امتدح الله به الأنبياء والمرسلين ، قال – تعالى – فى شأن إبراهيم – عليه السلام– : « وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »[(٢)] وقيل : المراد لندخلنهم مدخل الصالحين وهو الجنة ، والمؤدى واحد فى كلا المعنيين .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾)

(١) جزء الآية ١٩ من سورة النمل .

(٢) جزء الآية ١٢٢ من سورة النحل .

المفردات :

(أُوذِىَ فِى اللهِ) : عُذِّب من الكافرين بسبب إسلامه .

(فِتْنَةَ النَّاسِ) : ما يلحقه من أذاهم .

(كَعَذَابِ اللهِ) : مثل عذاب الله الذى ينتظر العصاة فى الآخرة .

(نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) : فتح وغنيمة .

(إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) : كنَّا مشايعين ومناصرين لكم فى الدين .

(الْمُنَافِقِينَ) : الذين يظهرون الإسلام ويخفون الشرك .

التفسير

١٠ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللهِ . . .) الآية .

نزلت هذه الآية فى ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم ، وكانوا يكتمون ذلك على المسلمين ، وقيل : إنها نزلت فى المنافقين .

والمعنى : ومن بين المسلمين ناس ضعاف الإيمان يقولون : آمنا بألسنتهم ، ولم يتغلغل الإيمان فى قلوبهم ، ولم يتعمق فى ضمائرهم ، فإذا مسهم أذى من الكفار والمشركين بسبب إيمانهم خافوا هذا الأذى ولم يصبروا عليه ، ووافقوهم على شركهم وأظهروا لهم ولاءهم معادلين هذا العذاب لعذاب الله - تعالى - فى الآخرة ، ومُنزليه منزلته فى الشدة والهول .

(وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) : وحصل للمؤمنين فتح أو غنيمة رجعوا إلى المؤمنين ، وأكدوا لهم إيمانهم بقولهم : إنا كنا مشايعين لكم فى الدين ، مناصرين لكم فى بلائكم ، فأشركونا معكم فى الغنيمة ، ويردّ القرآن عليهم هذا الادعاء الكاذب بقوله :

(أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ) : أى أن الله - تعالى - أعلم بما فى صدور العالمين من أنفسهم به ، فلا يخفى ذلك على الله ، بل لا يخفى على المتفرسين الذين ينظرون بنور الله - تعالى - أحوالهم من رقة الإيمان أو من النفاق .

١١ - (وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) :

تؤكد هذه الآية ختام الآية السابقة ، فتقرر على سبيل التأكيد أن الله - تعالى - يعلم

الذين آمنوا عن صدق وإخلاص ويعلم المنافقين أو الضعفاء الإيمان الذين يعبدون الله على حرف فيهز إيمانهم الأذى ، وتزلزله فتن الكفار ، وليختبرنَّ إيمانهم بالأمن والخوف والسراء والضراء فيجازى كل واحد بعمله .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا) : اسلكوا طريقنا التى نسلكها فى الدين .

(خَطَايَاكُمْ) : أوزاركم وسيئاتكم .

(أَثْقَالَهُمْ) : خطاياهم وذنوبهم الفادحة .

(يَفْتَرُونَ) : يختلقون فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل .

التفسير

١٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

نزلت هذه الآية فى كفار قريش على ما أخرجه جماعة عن مجاهد ، قالوا لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم شىء التزمنا حمله ، وهو بيان لأسلوب آخر من أساليب الكفار فى استمالة المسلمين ، وإغرائهم بالكفر ، وحملهم بهذا الأسلوب على الإشراك بعد حملهم عليه بالإيذاء والوعيد والتهديد .

والمعنى : وقال الكفار من مشركى مكة للمسلمين الذين اتبعوا دعوة الرسول ﷺ : اتبعوا سبيلنا ، واسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى ديننا ، ولنحمل عنكم ذنوبكم وآثامكم إن صح أن هناك بعثًا وجزاء ، أو إن كان فى اتباعكم لنا خطيئة يؤاخذ عليها عند البعث ــ كما تقولون ــ وقد ردَّ الله عليهم بقوله ــ تعالى ــ : (وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ) : أى : وما أولئك المشركون بحاملين من شىء من خطاياهم التى التزموا أن يحملوها لهم إن وافقوهم ، وإن هؤلاء المشركين لكاذبون فى دعواهم القدرة على حمل خطايا المسلمين ، لأنهم يقولون مالا يقدرون عليه ، ولا يملكون أداءه .

١٣ ــ (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

هذه الآية استمرار فى تسفيه المشركين ، ودرء أباطيلهم ببيان مايستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا .

والمعنى : وليحملنَّ هؤلاء المشركون فى الآخرة آثامهم الفادحة ، وأوزارهم الثقيلة (وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) أى : وأوزارا وآثامًا أُخَر مع أثقال أنفسهم وهى أثقال من تسببوا فى إضلالهم وحملهم على الكفر والمعاصى من غير أن ينقص ذلك من أثقال من أضلوهم شيئا أصلا .

والتعبير بالأثقال عن الخطايا والذنوب للإيذان بخطورتها كأنها عبء ثقيل تنوء به الكواهل ، وهذا كما فى قوله ــ تعالى ــ : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ »[١] ــ وكما أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن أن النبى ﷺ قال : « أيما داع دعا إلى هدى فاتُّبِع عليه وعُمِل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ، ولاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبِع عليها وعُمِل بها ، فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ، ولا ينقُص ذلك من أوزارهم شيئا » .

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة النحل .

(وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : المقصود من سؤالهم : تبكيتهم وتوبيخهم ، لا الاستعلام عن افترائهم ، فالله به عليم.

والمعنى : وليسألن الله - تعالى - هؤلاء المشركين يوم القيامة سؤال تقريع وتبكيت عما كانوا يفترونه ، ويختلقونه فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التى من جملتها أكاذيبهم هذه .

وقد اتضح مما تقدم أن هذه السورة الكريمة قد صنفت الناس إلى مؤمنين خُلّص صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا فى أعمالهم ، وإلى مؤمنين ضعاف الإيمان يعبدون الله على حرف فيهتز إيمانهم أمام الفتن ، ويتزلزل لما يلحقهم من إيذاء ، وإلى مشركين ممعنين فى الكفر والضلال والإضلال .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(فَلَبِثَ فِيهِمْ) : مكث فى دعوتهم إلى التوحيد .

(الطُّوفَانُ) : الماء الكثير الغالب الذى يغشى كل شىء ، وقد يطلق على كل مايحيط ويطوف بالشىء على كثرة وشدة من السيل والمطر والظلام .

(وَجَعَلْنَاهَا) : أى السفينة ، أو الحادثة والقصة .

(آيَةً) : عظة وعبرة .

التفسير

١٤ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) :

هذا شروع فى عرض شىء من قصص الأنبياء تسلية للرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه ببيان ماعاناه الأنبياء - عليهم السلام - قبله مع أممهم، إثر بيان افتتان بعض المؤمنين بأذية الكفار والمشركين ، وتأكيدا للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا لمجرد أن يقولوا : آمنا . وتثبيتا للرسول ﷺ على ماكان عليه من الصبر على أذى الكفار والمشركين .

ومعنى الآية : ولقد أرسلنا رسولنا نوحا -عليه السلام- إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله،وعبادته والتزام طاعته ، فلبث فيهم ومكث يدعوهم إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلم يجد منهم إلا إصرارا على الكفر ، وإمعانا فى العناد ، ومعارضة لدعوته حتى استحقوا العقاب ، وعرضوا أنفسهم لانتقام الله منهم ، فأخذهم الطوفان ، وغمرهم الماء من كل ناحية وجانب عقب تمام المدة التى مكث يدعوهم فيها (وَهُمْ ظَالِمُونَ) أى : مستمرون على الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح - عليه السلام - والتعبير بقوله : (إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) بدلاً من أن يقال : إلا خمسين سنة للبعد عن التكرار .

١٥ - (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) :

أى : فأنجينا نوحا من الغرق ، وأنجينا معه جماعة المؤمنين الذين صحبوه فى السفينة التى صنعها بوحى من الله وتحت حفظه ورعايته ، وكان الذين معه من أولاده وأتباعه ثمانين ، وقيل : ثمان وسبعون ، نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، منهم أولاد نوح سام ، وحام ، ويافث ،ونساؤهم، وقيل فى عددهم غير ذلك ، والله أعلم بحقيقة عددهم ، ويكفى فى قلتهم أنهم ركاب سفينة واحدة مع ماحمله فيها من كل حيوان زوجين اثنين .

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد . وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم – وصححه – عن ابن عباس قال : بعث الله – تعالى – نوحا – عليه السلام – وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله – تعالى – وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وذكروا أن مدة الطوفان ستة أشهر آخرها يوم عاشوراء ، وجاء في بعض الآثار أنه – عليه السلام – أطول الأنبياء عمرا ، أخرج ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح – عليهما السلام – فقال : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتا له بابان ، فقال وسطَ البابِ هنيهة ثم خرج من الباب الآخر [1] .

ومعنى قوله – تعالى –: ﴿ وَجَعَلْنَاهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ : جعلنا السفينة عظة وعبرة حيث بقيت على الجودى زمانا طويلا ، قيل : إلى بعثة الرسول ﷺ وقيل : جعلنا الحادثة والقصة المفهومة من السياق عظة وعبرة للعالمين ، لاشتهارها فيما بينهم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

﴿اتَّقُوهُ﴾ : اتقوا أن تشركوا به شيئا .

(١) قال : بمعنى نام نصف النهار ، ومصدره : القيل والقائلة والقيلولة .

(أَوْثَانًا) : أصناما مصنوعة ، جمع وثن ، قال أبو عبيدة : الصنم : مايتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس ، والوثن : مايتخذ من جص أو حجارة .

(إِفْكًا) : كذبا . (فَابْتَغُوا) : فاطلبوا .

التفسير

١٦ - (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

أى : واذكر إبراهيم حين قال لقومه : اعبدوا الله وحده واتقوه فلا تشركوا به أحدا ذلكم الذى آمركم به وأدعوكم إليه من العبادة والتوحيد ، ومايتبع ذلك من عمل الطاعات خير لكم من كل خير، ومما أنتم عليه من الوثنية التى لاخير فيها (إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) : الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر ، أو كنتم من أهل العلم بوجه من الوجوه تبين لكم أن الخير كله فى عبادة الله وحده لاشريك له .

١٧ - (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية استمرار فى تسفيههم وبيان بطلان دينهم ، وكونه شرا فى نفسه بعد بيان أنه شر بالنسبة للدين الحق .

والمعنى : إنكم بعبادتكم هذه ماتعبدون من دون الله إلا أصناما هى فى نفسها تماثيل مصنوعة ليس لها وصف غير ذلك ، وماتَخلقونَ إلَّا كذبا حين تسمونها آلهة ، وتدَّعون أنها شفعاؤكم عند الله ، أو معنى : (تَخْلُقُونَ إِفْكًا) : أى تعملون هذه الأصنام ، وتنحتونها بأيديكم لتكون العاقبة من خلقها الإفك والكذب . إن هذه الأصنام التى تتخذونها وتعبدونها من دون الله لاتقدر على نفعكم ، ولا تملك لكم رزقا أىَّ رزق: قليلا أو كثيرا ، فابتغوا عند الله واطلبوا الرزق الكامل كله فإن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين ، واعبدوه وحده واشكروا له على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته وشكره تستكثروا من خيره وفضله .

وقوله – تعالى – : (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . معناه : إلى الله – وحده لا إلى غيره – تعودون وترجعون بالموت والبعث ، فافعلوا ماتؤمرون به واستعدوا للقائه .

(وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ١٨)

المفردات :

(الْمُبِينُ) : الواضح البيِّن فى نفسه ، أو المبين لغيره الموضح له .

التفسير

١٨ – (وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

هذه الآية والآيات التى بعدها إلى قوله – تعالى – : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) يحتمل أن تكون من كلام سيدنا إبراهيم لقومه منتظمة فى سياق القصة ، وأن تكون وقعت معترضة فى شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش ، بين أول قصة إبراهيم وآخرها قصد بها التنفيس عنه ﷺ ومسلاة له بأن أباه إبراهيم – عليه السلام – كان مبتلًى من قومه بمثل ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، وسواء أكان هذا أم ذاك فإن المعنى : وإن تكذبونى فى دعوتى فلن تضرونى بتكذيبكم ؛ فما على الرسول إلا البلاغ والتبعة فى التكذيب على المكذبين لاعلى رسلهم ، وقد كذبت الأمم قبلكم أنبياءهم مثل : شيث وإدريس وإبراهيم ونوح وغيرهم فما ضروهم ، وإنما ضروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم ، وأما الرسل فقد تم أمرهم ، واستكملوا واجبهم فى التبليغ الواضح الذى لايبقى معه شك .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا) : المراد من الرؤية هنا : العلم ، أى : أو لم يعلموا علماً يشبه المشاهدة بالبصر .

(يُبْدِئُ الْخَلْقَ) : يوجده ابتداء من مادة ومن غير مادة على غير مثال .

(يُعِيدُهُ) : يحييه بعد موته وتحلل أجزائه ، بل وتلاشيها .

التفسير

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

كلام مستأنف مسوق للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دلائله . والمعنى : أغفلوا وجهلوا ، ولم يعلموا - علما تؤكده الرؤية وتؤيده المشاهدة - كيفية خلق الله - تعالى - الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة على غير مثال سابق ، وكل ما فى هذا الكون يوحى بذلك ، ويفرض العلم به ، ولا ينكره إلا مكابر معاند ، ثم الله - سبحانه وتعالى - يعيد خلقه بالبعث بعد فنائه ؛ لأن القادر على خلقه ابتداء لا يعجزه إعادة خلقه كما تقرر هذا فى قوله : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ »(1) .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم

(إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) : أى ؛ إن أمر إعادة الخلق بعد الفناء يسير على الله سهل لا يفتقر إلى شىء أصلا ، وإنما يقول الله ـ تعالى ـ له : (كُن فَيَكُونُ) .

ويجوز أن يكون المشار إليه ما ذكر من البدء والإعادة.

٢٠ ـ (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أنكرت الآيات السابقة على الخلق غفلتهم وتعطيلهم العقل بعدم تدبرهم فى قدرة الله ـ تعالى ـ الواضحة فى بدء الخلق تدبرا يصل بهم إلى اليقين بقدرته على البعث وإعادة الخلق ، وهذه الآية تأمرهم بالسير فى الأرض لينظروا فيها كيفية بدء الخلق الدالة على قدرته ـ تعالى ـ على النشأة الآخرة .

والأمر فى قوله ـ تعالى ـ : (قُلْ سِيرُوا) يحتمل أن يكون لسيدنا محمد إذا كانت هذه الآيات معترضة فى قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لتسلية الرسول ، وأن يكون لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إذا كانت هذه الآية والتى قبلها وبعدها متصلة بقصته .

والمعنى : قل ـ يا أيها الرسول ـ لقومك سيروا فى الأرض ، وتقلبوا فى جوانبها ومناكبها ، فانظروا كيف بدأ الله الخلق على أطوار مختلفة ، وطبائع متغيرة .

(ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) : أى ؛ ثم الله الذى أنشأ النشأة الأولى قادر أن يعيد خلقهم فى الآخرة مثل النشأة الأولى التى شاهدوها ، وعاينوا آثارها وأطوارها .

والتعبير عن الإعادة بالنشأة الآخرة يشعر بأن النشأتين شأن واحد من شئون الله ـ تعالى ـ من حيث إن كلا منهما إخراج من العدم إلى الوجود ، لافرق بينهما إلا بالأولية والآخرية .

وإظهار اسم الله فى قوله ـ تعالى ـ : (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) مع إضماره فى قوله ـ سبحانه ـ : (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة ، كما أن ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق فى أقطارها

ومما ينبغي الالتفات إليه في هذه القضية مايتعاقب من النبات والثمار فيكون في كل سنة على مثل ماكان عليه في السنة السابقة ، فهذا مما يستدل به على صحة البعث كما أشار إليه العلامة أبو السعود ، ونزيد عليه : أن الأمر كذلك في مختلف أنواع الحيوانات والطيور والأسماك .

وقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : تذييل لتحقيق ماقبله ، لأن من علم قدرة الله ـ تعالى ـ على جميع الأشياء لايتصور أن يعجز عن إعادة الخلائق بعد فنائهم .

(يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(تُقْلَبُونَ) : تردُّون وترجعون .

(بِمُعْجِزِين) : بفائتين ولا هاربين من عذاب الله .

(وَلِىٍّ) : معين وناصر يمنعكم من العذاب .

التفسير

٢١ ـ (يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) .

جملة مستأنفة لبيان مابعد النشأة الآخرة .

والمعنى : يعذب بعد النشأة الأخرى من يشاء بعدله ، وهم المنكرون المصرون على الكفر . (وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ) بفضله ، وهم المؤمنون المصدقون ، وتقديم التعذيب على الرحمة لأن المقام مقام ترهيب وتخويف .

وقوله - تعالى - : (وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ): معناه : إلى الله وحده تردون وترجعون ، فتلاقون جزاءكم من التعذيب والرحمة .

٢٢ - (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :

هذه الآية من تمام الوعيد فى الآية السابقة .

والمعنى : وما أنتم - أيها الخلق - على كثرتكم ، واختلاف أحوالكم بفائتين من حساب ربكم ، ولا هاربين من جزائه بالتوارى فى الأرض الفسيحة ، أو الهبوط فى مهاويها ، أو التخفى فى مناكبها ، ولا بالتحصن بالسماء التى هى أمنع من الأرض إذا استطعتم الصعود إليها .

وقيل : وما أنتم بمعجزين من فى الأرض ولا من فى السماء .

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) : أى : ليس لكم من الله من أحد يحرسكم مما يصيبكم من بلاء أرضى أو سماوى ، ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذابه وبلاءه إذا شاء .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(يَئِسُوا) : انقطع رجاؤهم وقنطوا . (رَحْمَتِي) : جنتى

التفسير

٢٣ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى والذين كفروا بآيات الله التكوينية والتنزيلية وكفروا بلقاء الله الذى تنطق به آياته : أولئك يائسون من رحمته ، قانطون من دخول جنته يوم القيامة ، وأولئك لهم عذاب موجع مؤلم فى الآخرة .

وفى تكرار الإشارة والإسناد وتنكير العذاب ، ووصفه بالإيلام ، وفى وصفهم باليأس من رحمته - تعالى - مع شدة حاجتهم إليها يومئذ - فى ذلك كله - ما يؤذن بسوء حالهم وفظاعته يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾)

التفسير

٢٤- (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

يتشوف السامع إلى السؤال عن حال قوم إبراهيم - عليه السلام- بعد أن دعاهم إلى توحيد الله وعبادته وأمرهم بالسير فى الأرض والتدبر فى أحوالها وتقلباتها ليعلموا كيفية قدرة الله - تعالى -على بدء خلقه فيعلموا من هذه المشاهدات والأحوال كيفية قدرته على إعادة الخلق بالبعث بعد الفناء؛ فتكون هذه الآية هى الإجابة على هذا السؤال ، ويتسق بذلك السياق فى أحكم نظام وأدقه .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم على دعوته إياهم إلَّا أن قالوا : اقتلوه بأداة قتل أو حرقوه بنار لتستريحوا منه . وتستأصلوا شره، ثم انتهوا من هذا الترديد إلى إحراقه ، فجمعوا أحطابا كثيرة، ثم أضرموا فيها النار حتى ارتفع لهيبها . وحَمِيَتْ جذوتها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم - عليه السلام - فأوثقوه وقذفوا به فيها، فأمرها الله أن تكون بردا وسلاماً على إبراهيم ففقدت خاصيتها، ثم خرج منها سالماً مُعافىً بفضل الله بعدما مكث فيها

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : إن فى ذلك الإنجاء من النار بعد أن بذلوا فيها جهودهم وماتبع ذلك من بردها على إبراهيم . وخيبة أملهم فيها - إن فى ذلك - لمعجزات عجيبة . وآيات واضحة الدلالة لقوم مستعدين لتقبل الهداية . واستجابة الدعوة ، فأما غيرهم فهم غافلون عن اجتلائها . محرومون من الفوز بمغانمها ، وقد جاء فى مواضع أخرى من القرآن أمر الإحراق فقط دون القتل كما فى هذه الآية ؛ ولعل الآيات الأخرى اكتفت بما انتهوا إليه . وقد جاءت قصته - عليه السلام- فى أكثر من سورة من القرآن مع تفاصيل أخرى

(وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(أَوْثَانَاً) : أصناماً تعبدونها من دون الله .

(مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) : سبباً فى تواصلكم واجتماعكم على عبادتها

(مَأْوَاكُمْ) : منزلكم الذى تأوون إليه خالدين فيه أبدًا .

التفسير

٢٥ - (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ):

لم يخرج إبراهيم من النار خائر العزم ، واهن القوة وإنما خرج فى مثل حاله الأولى من القوة والتصميم ماضياً فى تسفيه قومه ، وتسخيف عقولهم حيث قال لهم : إنما اتخذتم من دون الله آلهة زائفة ، وأصناماً من صنعكم لانفع لها ، ولا غناء فيها جمعتكم على عبادتها ، وأوجدت بينكم المودة والتآلف لنصرتها ولن يكون لكم ذلك إلا فى الدنيا ، ثم يوم القيامة تنقلب الأمور ، ويتبدل التواد تباغضا ، والتلاطف تلاعنا حيث يكفر بكم أتباعكم ، ويلعن كل فريق منكم الفريق الآخر .

كما فى قوله - تعالى - : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١) »

ومأواكم ومسكنكم الذى تأوون إليه ولا ترجعون منه النار ، وما لكم من دون الله من ناصرين يخلصونكم من عذابها كما خلص الله إبراهيم من ناركم ، وعصمه ونصره من سوء صنيعكم

* (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾)

(١) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

المفردات :

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) : أى آمن بإبراهيم وأسلم له قياده .

(وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى) : أى وقـال ذلك إبراهيم - عليه السلام - والهجرة : مفارقة بلد إلى بلد آخر ، فإن كانت قربة إلى الله فهى الهجرة الشرعية، وهى اسم من : هاجر مُهَاجرةً كما فى القاموس .

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ) : أى منّ الله - سبحانه- على إبراهيم بالذرية ، فوهب له إسحٰق ابنًا ويعقوب ابن ابن .

(وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) : فلم يبعث الله نبيًّا بعده إلّا من صلبه ، ولم تنزل الكتب السماوية إلّا عليهم .

التفسير

٢٦ - (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّىٓ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : إن لوطًا صدق إبراهيم - عليه السلام - فى جميع مقالاته ، أو صدق بنبوته حين ادّعاها . لا أنه صدقه فيما دعا إليه من التوحيد ؛ فإن لوطًا - عليه السلام - كان مؤمنًا بالله .

ولوط : ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - وهو المشهور عند جمهور المفسرين، وذكر بعضهم أنه ابن أخته ، نقل ذلك الآلوسى فى تفسيره .

وهو أول من آمن بإبراهيم ، وأجاب دعوته إلى الحق ، وكان إبراهيم يسكن كُوثَى -بالضم - قرية بالعراق[1] وهى من سواد الكوفة ، هاجر منها إلى حرّان ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارح ، وامرأته سارة ،ثم أرسل لوط فى حياة إبراهيم- عليه السلام - إلى أهل سدوم وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم فى الأعراف وهود والنمل .

---

(١) انظر القاموس .

وإبراهيم - عليه السلام - أول من هاجر من أرض الكفر كما قال الكلبي ، وقال مقاتل : هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ، وقال حين ترك قومه مهاجراً : (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي) أى : إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها ، أو من أجل ربى ، حيث لا أُمنَعُ عبادته وإظهار دينه ، وقيل المعنى : إنّى مهاجر منْ خالفنى من قومى متقرباً إلى ربى (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : أى : الغالب على أمره الذى يمنعنى من أعدائى ، ولا يأمُر - لعظيم حكمته - إلّا بما فيه الخير والمصلحة .

٢٧ - (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : لما فارق قومه أقر الله عينه بولد صالح نبى وهو إسحٰق ، وبولَد ولَدٍ وهو يعقوب ولد إسحق ، وذلك فى حياة جده ، وكانت هذه الهبة العظيمة التى لا يُقَادرُ قدرها حين أيس من الذرية من امرأته سارة وهى عجوز عقيم .

ولم يذكر هنا إسماعيل - عليه السلام - لأنه ولد له قبل ذلك من أم شابة ولم تكن عجوزاً عقيماً ، وهى هاجر ، أما إسحاق فولد بعده من سارة العجوز العقيم ، ومن ورائه يعقوب ابن إسحاق .

وقال الزمخشرى : إن إسماعيل ذكر ضمناً وتلويحاً بقوله : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) ولم يصرح به لشهرة أمره ، وعلو قدره ، هذا مع أن المخاطب به نبينا ﷺ وهو من أولاده وأعلم به : اهـ .

وقد خص الله - سبحانه - إبراهيم - عليه السلام - بقوله : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) تكريماً له ؛ حيث إنه لم يبعث بعده نبى قط إلّا من صلبه وقد أوتوا الكتب المنزلة ، وهى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وآتاه - سبحانه - أجره فى الدنيا باتباع أهل الملل إليه ، والثناء عليه ، وإعطاء الولد والذرية الطيبة ، واستمرار النبوة فيهم ، والصلاة عليه إلى آخر الدهر ، وسعة الرزق (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) : أى جمع الله له

بين سعادة الدنيا الموصولة ، وسعادة الآخرة ، فوفقه إلى القيام بجميع ما أمر به من عمل دائب لمحاربة الشرك ، وإعلاء التوحيد ، والطاعة له وحده ، كما قال – تعالى – : « وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ »(١) .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

(لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) : أي ؛ الفعلة الشنيعة ، وهي إتيان الرجال .

(وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ) : أي الطريق ، وكلتاهما تذكر وتؤنث .

(وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ) : أي تقترفون في ناديكم الأمر القبيح الذي ينكره الدين والخلق .

التفسير

٢٨ – (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

أي ؛ واذكر – أيها الرسول – لوطًا إذ قال لقومه أهل سدوم موبخًا ومحذرًا لهم من الأعمال القبيحة التي أقبلوا عليها وتمسكوا بها ، قال لهم : إنكم لتأتون الفعلة البالغة الغاية

---

(١) سورة النجم ، الآية : ٣٧

فى الفحش، وهى إتيان الرجال شهوة من دون النساء . وقرأ الجمهور : أئنكم على الاستفهام الإنكارى .

وقوله ـ تعالى ـ : (مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) حكاية لقول لوط ـ عليه السلام ـ مسوق لتقرير كمال قبحها، ببيان إجماع جميع العالمين قبلهم على التحاشى عنها لكونها مما تشمئز منه النفوس، وتنفر من شناعته الطباع، وأنها جريمة نكراء، ابتدعوها ولم يُسبقوا إليها من أحد من بنى الإنسان .

٢٩ ـ (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ . .) الآية .

أى : إنكم لتنكحون الرجال انتهاكًا لحرمات الله، وتقطعون الطريق بسبب حمل الغرباء والمارة على تلك الفعلة الشنعاء، وإتيانهم كرهًا، أو : وتقطعون طريق النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث، أو : وتقفون فى طريق الناس تقتلونهم، وتأخذون أموالهم وقد بلغ بهم التمادى فى اقتراف كل قبيح أنهم كانوا يأتون فى مجتمعهم كل أنواع المنكر، من اللواط وغيره .

أخرج أحمد والترمذى وحسنه، والحاكم وصححه، والطبرانى والبيهقى فى الشعب وغيرهم عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله ـ تعالى ـ : (وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ) فقال : « كانوا يجلسون فى الطريق فيقذفون أبناء السبيل، ويسخرون منهم » وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادة وابن زيد : هو إتيان الرجال فى مجالسهم يرى بعضهم بعضًا .

ولما وقفهم لوط ـ عليه السلام ـ على قبائحهم أجابوه بما حكاه الله عنهم بقوله : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) : أى فيما تعدنا به من نزول العذاب، تكذيبًا له وسخرية به فيما نهاهم عنه وأوعدهم بنزوله .

وهذا الجواب صدر عنهم فى المرة الأولى من مراتب تبليغ لوط ـ عليه السلام ـ وما فى سورة الأعراف المذكور فى قوله ـ تعالى ـ : « وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ »[1] ، وما فى سورة النمل المذكور فى قوله ـ تعالى ـ : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ . . . »[2] ، فقد صدر بعد هذه المرة، وذلك لأن

(١) من الآية : ٨٢

(٢) من الآية : ٥٦

قولهم : (ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) من باب التكذيب والسخرية ، وهو أوفق بأوائل المواعظ والتوبيخات ، أما قولهم : (أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ) ، وقولهم : (أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ) فمن باب العقاب والانتقام ، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرر الوعظ والتوبيخ الموجب لضجرهم ومَزيد تألُّمهم مع قدرتهم على التشفى منهم بما يؤذيهم ويُبعدهم عن ديارهم . اهـ : بتصرف من الآلوسى .

وقيل : إن ما هنا جواب قومه – عليه السلام – له إذ نصحهم ، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا فى أمره .

٣٠ – (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) :

لجأ نبى الله لوط إلى ربه متضرعًا ، ملتمسًا أن ينزل العذاب الموعود على هؤلاء المفسدين الذين فعلوا الفاحشة وتمسكوا بها وأصروا عليها ، واستعجلوا العذاب الذى أوعدهم به سخرية منه حينما دعاهم إلى ما فيه صلاح حالهم ، واستقامة أمرهم .

ووصفهم بالمفسدين مبالغة فى استحقاقهم استنزال العذاب بهم لأنهم فسَدوا وأفسَدوا .

(وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟
أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا
لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا امْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ
إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ
الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا
مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(بِالْبُشْرَىٰ) : بالبشارة بالولد ونصرة لوط .

(هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ) : هى سدوم كما سبق .

(كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) : الباقين فى العذاب .

(سِيءَ بِهِمْ) : اعترته المساءة خوفًا عليهم من قومه .

(رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ) : أى عذابًا من السماء يزعجهم ، من : ارتجز ، أى : ارتجس ، واضطرب .

(آيَةً بَيِّنَةً) : هى آثار القرية الخربة التى تدل على قصتها العجيبة .

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : يستعملون عقولهم فى الاعتبار والاستبصار .

التفسير

٣١ - (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) :

لما استنصر لوط - عليه السلام - ربه على قومه بعث الله لنصرته ملائكة فمروا بإبراهيم - عليه السلام - فى هيئة أضياف كما تقدم فى سورة هود ، والحجر ، ولما أوجس منهم خيفة شرعوا يؤنسونه ، ويبشرونه بأنهم أرسلوا له بالبشارة بالولد والنافلة[1] من امرأته سارة ، وأخبروه بأنهم أرسلوا كذلك لإهلاك قوم لوط كما حكاه قوله - سبحانه - : (إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ) وهم أهل قرية سدوم لإصرارهم على الفاحشة ، وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى .

٣٢ - (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) :

---

(١) أى : ولد الولد ، والمراد بهما إسحاق وابنه يعقوب - عليهما السلام .

أى : قال لهم - على سبيل التفجع والتحزن - : أتهلكونها وفيها من هو برئ من الظلم ؟! فكان ردهم عليه بأنهم غير غافلين عن مكان لوط فيها وأتباعه من المؤمنين .

وقيل : يجوز أن يكون إبراهيم - عليه السلام - اعتقد عدم تناول إهلاك أهل القرية للوط - عليه السلام - لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقته عليه وحبه له .

وقوله - سبحانه - حكاية عنهم : (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) يشعر بأنهم معنيون بلوط وأهله أتم عناية ؛ لتأكيد وعدهم بالتنجية بالقسم ، أما امرأته فلأنها كانت ممالئة قومها على كفرهم وبغيهم ، فكانت من الباقين فى العذاب وقد مر الكلام عن ذلك فى سورة النمل .

٣٣ - (وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ . . .) الآية .

بعد مفارقة الرسل لإبراهيم - عليه السلام - ساروا إلى لوط - عليه السلام - فى صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك اعترته المساءة والحيرة ؛ وعجزت طاقته عن تدبير أمرهم ، وعن الحيلة لإنجائهم ، وكان لا يعلم أمرهم فى الساعة الراهنة التى رآهم فيها .

ولما شاهدوا فيه مخايل الضجر من جهتهم ، وعاينوا ما يشير إلى أنه عاجز عن مدافعة قومه ، طمأنوه .

(وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) .

أى لا تخف من قومك علينا وعليك ولا تحزن مما نفعله بقومك ، ولن يصيبك وأهلك أذى إلا امرأتك فهى من الهالكين الباقين فى العذاب .

٣٤ - (إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) :

بيان لما أشار إليه قوله - سبحانه - : (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) من نزول العذاب على أهل قرية سدوم ، أكبر قرى قوم لوط ، وفيها بدأت الفاحشة كما قيل ، ولذا خصت بالذكر وقد استأصل العذاب أهلها وقطع دابرهم .

قال ابن كثير : إن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابًا إلى يوم المعاد . اهـ

(بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) : أى بسبب فسقهم المعهود المستمر حل بهم عذاب الإبادة والاستئصال .

٣٥ - (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

أى : ولقد أهلك الله هذه القرية وترك منها آية واضحة تدل على ما فعله الله بهم لتكون عبرة وعظة لقوم يحكمون عقولهم : ويستعملونها فى الاستبصار والانتفاع بما شاهدوه من كمال قدرة الله ، وقوة سلطانه .

وفى الآيات من الدلالة على ذم اللياطة وقبحها مالا يخفى ؛ فهى كبيرة بالإجماع ، وأشد حرمة من الزنى .

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

المفردات :

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى لا تحدثوا فيها الفساد بكفركم ، فإنه أصل كل فساد ، والعثو ، والعِثِىّ : أشد الفساد .

(الرَّجْفَةُ) : الزلزلة الشديدة ، أو صيحة جبريل - عليه السلام - .

(فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) : أى باركين على الركب ميتين .

التفسير

٣٦ - (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ...) :

يخبر - سبحانه - عن عبده ونبيه شعيب أنه خاطب أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له ، وأن يخافوا يوم القيامة ، حيث قال لهم : (يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) : أى خافوا ما ينزل بكم فيه من فنون الأهوال والشدائد ، واعملوا اليوم الأعمال التى تؤمنكم غائلته وقسوته . قال يونس النحوى وأبو عبيدة : الرجاء هنا بمعنى الخوف والخشية ، أى : اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال .

ثم نهاهم - سبحانه - عن العُثُوِّ فى الأرض قاصدين الفساد ظلما وبغياً على أهلها ، وكانوا ينقصون المكيال والميزان . ويقطعون الطريق على الناس . مع كفرهم بالله ورسوله ، وذلك أشد الفساد وأبشعه . فقال لهم : (وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) ولما لم يعد لتهديده أثر حيث استمروا مندفعين فى اقتراف آثامهم ، نزل بهم من العذاب ما حكاه الله بقوله :

٣٧ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ) :

أى : أصابتهم زلزلة شديدة دمرت عليهم ديارهم وأرضهم ، وقيل : صاح بهم جبريل - عليه السلام - صيحة أحدثت الرجفة بسبب تحريكها للهواء ، فأصبحوا بسبب ذلك باركين على ركبهم ميتين (١)

(وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا
بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۖ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ
ٱلصَّيْحَةُ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾)

(١) وقد مضت قصتهم مبسوطة فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء .

المفردات :

(مِن مَّسَاكِنِهِمْ) : بالأحقاف .

(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) : أى الطريق الحق .

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) : أى عقلاء ذوى بصائر ولكنها لم تنفعهم .

(وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) : أى فائتين ، بل أدركهم أمر الله ، أو : وما كانوا سابقين فى الكفر : بل سبقتهم أمم كثيرة .

(حَاصِباً) : سحاباً أو ريحاً يحصبهم بالحجارة .

(الصَّيْحَةُ) : تموج شديد فى الهواء يحدث هزة عنيفة مهلكة .

(خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ) : أى غيبناه فى جوفها ، يقال : خسف المكان خسفاً ، من باب ضرب ، وخسوفاً : ذهب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض . أى : أدخله فيها وخرقها به .

التفسير

٣٨ ـ (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ..) الآية :

أى : واذكر عادا إذ أرسلنا إليهم هودا فكذبوه فأهلكناهم ، وثمود إذ أرسلنا إليهم صالحاً فكذبوه فأهلكناهم ، وقد ظهر لكم يا أهل مكة أتم ظهور ما نزل بهم فيما حدث بمساكنهم عند مروركم عليها فى أسفاركم ، وكانت العرب وبخاصة أهل مكة تعرف مساكنهم جيداً ، وتمر عليها كثيراً فى أسفارهم فيبصرونها ، ويشاهدون فى غدوهم ورواحهم آثار ماحل بها من دمار وهلاك ، وكانت عاد تسكن الأحقاف وهى قريبة من حضرموت باليمن ، وثمود تسكن الحجر قريباً من وادى القرى .

وقد زين الشيطان لعاد وثمود الكفر والعصيان بوسوسته وإغوائه ، فصرفهم بذلك عن الطريق السوى الموصل إلى الحق . (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) بواسطة الرسل ، فقد أوضحوا لهم السبيل ، فلا عذر لهم فى ضلالهم عنه ، ولاحجة لهم فى اختيار الغى والضلال »

أو : كانوا عقلاء ذوى بصائر يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالنظر والاستدلال لوضوح الأدلة وظهور البراهين ولكنهم أعرضوا ولم يعتبروا ، قال الفراء : كانوا عقلاء ذوى بصائر يعرفون الحق ، ولكنهم أهملوه كفرًا وعنادًا وجحودًا ، وقال مجاهد : وكانوا مستبصرين فى الضلال .

٣٩ - (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ..) الآية :

أى : واذكر - أيها الرسول - لهؤلاء المغترين بأموالهم وسلطانهم مصرع قارون ، وفرعون ، وهامان .

وقارون[١] كان من قوم موسى - عليه السلام - وقدّم ذكره على فرعون وهامان ؛ لأن المقصود تسلية النبى ﷺ عما لقى من قومه لحسدهم له ؛ فقارون مع أنه كان من قوم موسى قد لقى منه موسى مالقى ، روى أنه كان يؤذيه فى كل وقت ويحسده وهو يداريه لقرابته .

أو قدّم لأنه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه فى الظاهر وعلمه بالتوراة ، وكونه ذا قرابة من موسى - عليه السلام - أو : قدم لأن هلاكه قبل هلاكهما ، فتقديمه يكون على وفق الواقع ، وفرعون ملك مصر ، وهامان وزيره ، وكانا رأس الكفر بالله ورسوله تزعما قومهما فى الكفر بموسى ، وأنزلا ببنى إسرائيل أشد العذاب وأقساه .

(وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) :

أى : لما جاءهم موسى بالحجج الواضحة على نبوته ، ودعاهم إلى الإذعان واتباع الحق استكبروا فى الأرض عن الإيمان بالله والطاعة له ، وهذا يشعر بقلة عقولهم وضعف إدراكهم لأن مَنْ فى الأرض محياهم ومماتهم لاينبغى لهم أن يستكبروا على القوى القاهر الذى يملك السموات والأرض وما فيهما كما أنهم لا يفوتون أمر الله - تعالى - بل يدركهم وينزل بهم الدمار والهلاك ، فلا يفلت منهم أحد .

---

(١) تقدم الحديث عنه فى سورة القصص .

وقال أبو حيان : المعنى : وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر بل قد سبقهم إلى الكفر قرون كثيرة ، فأهلكناهم ، أى : تلك عادة الأمم مع رسلهم – عليهم السلام – .

٤٠ – (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ . وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

أى : فكل واحد من المذكورين الذين كذبوا رسلهم ، عاقبناه بما اقترف من ظلم وفساد ، وكان أخذ كل منهم وفق ما أراده الله ، فمنهم من أهلكناه بالريح العاصفة التى تحمل الحصباء – وهى صغار الحصى – وهم قوم لوط .

وقال ابن عطية : يشبه أن يدخل عاد فى ذلك ؛ لأن ما أهلكوا به من الريح كانت شديدة وهى لا تخلو من الحصب بأمور مؤذية .

ومنهم من أخذته الصيحة المدوية المهلكة ، كمدين وثمود ومنهم من خسفنا به الأرض فغارت به ، وغيبته فى جوفها كقارون .

ومنهم من أغرقناه فى اليم كفرعون ، وهامان وجنوده أجمعين (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) : بأن يعاقبهم من غير جرم ؛ فإن ذلك محال من جهته – تعالى – وليس من سنته – عز وجل – (وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : أى إنما فعل بهم ذلك جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم حيث استمروا على ما يوجب عقابهم من الكفر والمعاصى باختيارهم .

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(الْعَنكَبُوتِ) : دويبة تنسج نسجاً رقيقاً واهياً ، والمراد : النوع الذى يبنى بيته فى الهواء ، وتطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ، والغالب فى استعمالها التأنيث ، وجمعها : عناكب وعناكيب .

(أَوْهَنَ الْبُيُوتِ) : أشدها ضعفاً وعجزاً عن دفع أى أذى .

التفسير

٤١ ـ (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ..)الآية :

هذا مثل ضربه الله ـ سبحانه ـ للمشركين الذين اتخذوا آلهة من دون الله يرجون نصرها ورزقها ويتمسكون فى الشدائد بها مع ما هى عليه من عجز وعدم غناء ، ضربه ـ جل وعلا ـ ليبين به أن شأنهم فى الضعف والوهن ، والاعتماد على غير معتمد كشأن العنكبوت اتخذت مما نسجته بيتا تحتمى به من البرد والحر وغيرهما ، وبيتها من أوهى البيوت وأبعدها عن الصلاحية للاحتماء .

فهم وهى مشتركان فى اتخاذ ماهو فى غاية الضعف فى بابه ، بل إن آلهتهم أوهن من بيت العنكبوت إذ له حقيقة وانتفاع فى الجملة ، أماهى فلا .

وقيل : المعنى ؛ مثل المشرك الذى عبد الوثن بالقياس إلى الموحِّد الذى عبد الله ـ تعالى ـ كمثل عنكبوت اتخذت بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من آجر وحجر أو نحته من صخر ، وكما أن أضعف البيوت إذا استوعبناها بيتاً بيتاً بيت العَنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقرأناها ديناً ديناً عبادة الأوثان ، وهو وجه حسن ذكره الزمخشرى فى الآية ونقله الآلوسى . وقوله ـ تعالى ـ : (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ) وقع تذييلا لتقرير الغرض من التشبيه وهو أن أمر دينهم بلغ الغاية التى لاغاية بعدها فى الضعف والوهن ، حيث لايرى شئ يدانى بيت العنكبوت فى ذلك ، ثم أكد ذلك بتجهيلهم بقوله ـ سبحانه ـ : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كانوا يعلمون شيئًا من العلم لما اتخذوا هذه الآلهة أولياء من دون الله ، ولعلموا أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم لاوزن له ، ولابقاء ،

وقيل : لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت لما عبدوها ، وقد جهّلهم - سبحانه - فى الاتخاذ ، ثم زادهم - جل وعلا - تجهيلا بأنهم لا يعلمون هذا الجهل الذى لايخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

٤٢ - (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : قل لهم - أيها الرسول - : إن الله لاتخفى عليه خافية ، فهو يعلم أى شىء يدعونه إلٰها من دونه فقد بلغ من الحقارة حدًا لاغاية له ، وإنهم لفى جهل بيّن حيث تركوا عبادة الله - تعالى - وعبدوا غيره مع أنه شىء لا يعبأ به .

ويجوز أن يكون المعنى أن الله يعلم أنكم لستم[1] تدعون من دون الله شيئاً ، لأن ما تدعونه لمزيد حقارته لا يصلح أن يسمى شيئاً .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : أى الغالب الذى لا شريك له (الْحَكِيمُ) فى ترك المعاجلة بالعقوبة ، وهو تجهيل لهم وتقريع حيث عبدوا - من فرط الغباوة - جمادا لاعلم له ولاقدرة وهو بالإضافة إلى العزيز القاهر القادر على كل شىء الحكيم البالغ فى العلم ، وإتقان العمل مالا غاية وراءه - فهو بالنسبة إلى العزيز الحكيم - كالمعدوم البحت ، وإن من هذا شأنه - جل وعلا - من الغلبة والحكمة قادر على مجازاتهم .

٤٣ - (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) :

هٰذا المثل والأمثال الكثيرة التى ذكرها القرآن فى سوره يضربها - سبحانه - للناس تقريباً لِفَهم ما ضُربت له ، وإدراك معناه ، وإظهاراً للمعانى المستورة وتوضيحاً ، وكان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، فلهذا قال - سبحانه - : (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) : أى لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا الراسخون فى العلم المتدبرون للأشياء على ماينبغى ، روى محيى السنة فى مسنده عن جابر أن النبى ﷺ تلا هذه الآية (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ) ... الآية ، فقال : « العالم : من عقل عن الله - تعالى - فعمل بطاعته واجتنب سخطه »

(١) على أن (ما) نافية ؛ أى : ما يدعون من دونه شيئا ؛ لأن الآلهة لحقارتها ليست شيئا موجودا .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : أى بالعدل والقسط ، أو بحكمته وقدرته المنزهة عن العبث .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً) : أى علامة ودلالة .

(اتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ) : أمر للرسول بتلاوة القرآن وبرواية قراءته وإبلاغه للناس .

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) : أدها فى أوقاتها وبأركانها وشروطها .

(تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ) : أى تنهى عن القبيح السىء الذى ينكره الشرع والعقل .

التفسير

٤٤ - (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى : خلقها محقًّا بخلقها مراعياً للحكم والمنافع المنزهة عن العبث حيث تتعلق بهما شئون عباده . ويستدل بما فيهما من آيات بينات ، ودلائل واضحات على كمال قدرته - تعالى - وبديع صنعته ، ويشير إلى ذلك قوله - سبحانه - : (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) أى : لآية دالة على أنه - تعالى - المنفرد بالخلق والتدبير والألوهية ، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أن الهداية والإرشاد لجميع المخلوقين ، لأنهم المنتفعون بذلك .

ويصح أن يكون المراد من المؤمنين : الذين يريدون الإيمان .

٤٥ - (ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) :

أمرٌ للرسول ﷺ بقراءة القرآن والمداومة عليها تقرباً إلى الله - تعالى - بتلاوته وتذكُّرًا لما فى تضاعِيفه من المعانى، وتذكيرًا للناس وحملا لهم على قراءته والعمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق. (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ) الخطاب للنبى ﷺ وأمته، وإقامة الصلاة: أداؤها فى وقتها بأركانها وجميع شروطها، ويراد بها الصلاة المكتوبة المؤداة بالجماعة، وهى الصلوات الخمس التى تكفر ما بينها من الذنوب كما قال - عليه الصلاة والسلام -: (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شىء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا) خرَّجه الترمذى من حديث أبى هريرة، وقال فيه: حديث حسن صحيح.

ولما كان أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالصلاة منتظماً لأمر الأُمة بها علَّل بقوله. (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ): كأنه قيل: وصلِّ بهم لأن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، أى: أنها سبب للانتهاء عنهما، وذلك لتضمنها صنوف العبادة، والوقوف بين يدى الله فى غاية الخضوع والتعظيم. كأنها تقول لمن يأْتى بها: لا تفعل الفحشاء والمنكر ولا تعص ربًّا هو أهل لما أتيت به من مناجاة له، وإقبال عليه. وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه - عز وجل - بما تكون به كالمتناقض فى أفعاله. ا هـ: بتصرف من الآلوسى.

ولا شك أن المصلى الصادق فى مناجاته ينتهى بصلاته عن المعاصى صغيرها وكبيرها، وينعم برعاية الله ويفوز برضاه حيث خشع لها قلبه، ورغبت فيها نفسه، وظهرت على جوارحه هيبتها، حتى إذا قاربه الفتور أظلته صلاة أخرى يترجع فيها إلى أفضل حاله:

وإذا كنا نرى كثيرًا من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك فهذا ليس ناشئًا عن الصلاة، بل عن غفلة المصلى عن حقوق الصلاة، فمن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تفكُّر ولا فضائل، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان فى طريقه معاص تبعده من الله - تعالى - تركته يتمادى فى بعده، بمعنى أنها لا تقربه

إلى الله ، حيث لم تنهه عنها ، وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن مسعود وابن عباس وهو : « فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله - تعالى - فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلّا بعدًا » .

وقيل لابن مسعود : إن فلانًا كثير الصلاة : فقال : (إنها لا تنفع إلّا من أطاعها ، وطاعة الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وكأنّه أراد بالصلاة التى تطاع وتنهى عن ذلك الصلاةَ الخاشعة المقبولة ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن عن عمران بن حصين قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله - تعالى - : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » بمعنى : أنها لم تؤت ثمرتها ، كما فى الصلاة التى تُؤدى مع الغفلة التامة ، والإخلال بما يليق بها ، وهذه الصلاة تُلفُّ كما يُلفُّ الثوب الخَلَق ويُرمى بها وجه صاحبها فتقول له : ضيعك الله كما ضيعتنى ، كما جاء فى السنة .

وبالجملة ، فإن الصلاة تنهى من واظب عليها ، وأقبل بقلبه فيها على ربه ، فإنها تنتهى بصاحبها إلى صلاح الحال وحسن المآل ، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد وابن حبان والبيهقى عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلانًا يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه ماتقول » .

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) : أى والصلاة أكبر من سائر الطاعات فى أثرها وثمرتها ؛ لأن ما فيها من ذكر الله هو العمدة فى الأمر بالحسنات والنهى عن السيئات ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : « فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » بمعنى : امشوا إلى الخطبة والصلاة .

وقيل : ولذكر العبدِ الله - تعالى - أكبر من سائر أعماله ، فهو تعميم بعد تخصيص .

أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن أبى الدرداء قال : ألا أُخبركم بخير أعمالكم وأحبها

إلى مليككم، وأسماها فى درجاتكم، وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم؟ قالوا : وما هو يا أبا الدرداء؟ قال : ذكره -تعالى - وروى عن جماعة من السلف مايقتضيه، أخرجه أحمد فى الزهد، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملًا أنجى له من عذاب الله - تعالى - من ذكره -تعالى- قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع؛ لأن الله -تعالى - يقول : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)، وقال أبو حيان : (يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) من الخير والشر، فيجازيكم بحسبه، ففيه وعد ووعيد، وحث على مراقبة الله - جل وعلا - .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٦

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٤٤٣٧ — ١٩٨٥ — ٢٥٠٠٤

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الحادى والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٧

(* وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَلَاتُجَادِلُوا) : الجدال : التجاوز فى الخصومة .

(أَهْلَ الْكِتَابِ) : اليهود والنصارى .

التفسير

٤٦ - (وَلَاتُجَادِلُوٓا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...)الآية .

هذه الآية انتقال إلى مقصد جديد من المقاصد التى تضمنتها سورة العنكبوت : وهو أسلوب مجادلة أهل الكتاب .

والمعنى : لاتجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولاتناقشوهم فى شأنٍ من شئون الدين ، والدعوة إلى الإيمان إلا بالخصلة التى هى أحسن ، كمقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والشغب بالنصح ، والسَّوْرة - أى : الحِدَّة - بالأَناة ، على وجه لايدلُّ على الضعف ، ولايؤدى إلى إعطاء الدَّنيّة ، قال - تعالى - فى سورة النحل : «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »[١] .

وقال - تعالى - فى سورة طه لموسى وهارون - عليهما السلام - حين أمرهما بالتوجه إلى فرعون : «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »[٢] .

(١) من الآية : ١٢٥ .

(٢) الآية : ٤٤

وقوله – تعالى – : (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) : معناه ؛ إلا الذين أفرطوا فى ظلمكم ، وجاوزوا الحدود فى عنادكم ، والاعتداء عليكم ، ولم ينفع معهم الرفق ، فليس عليكم حرج فى استعمال الغلظة معهم ، بحيث لاتصل إلى القتال ؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الإذن بقتال المشركين .

وقيل : إن معنى الآية : ولا تجادلوا الداخلين فى الذمة المؤدين للجزية إلا بالتى هى أحسن إلّا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ، ومنعوا الجزية ، فإن أولئك مجادلتهم بالسيف ، وهذا الرأى قائم على أن الآية مدنية ، فإن الحرب والجزية مما شرع بالمدينة ، وكونها مدنية مخالف لما وقع عليه الإجماع من أن السورة مكية ، إلا أن يقال : إنها مكية باعتبار معظمها .

وقوله – تعالى –: (وَقُولُوٓاْ آمَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ) :توجيه إلى أسلوب من أساليب المجادلة بالحسنى ، والمعنى : جادلوهم بالتى هى أحسن وقولوا لهم : آمنا بالذى أنزل علينا من القرآن، وبالذى أنزل عليكم من التوراة والإنجيل، ولاتصدقوهم فيما يروونه من دينهم فقد يكونون كاذبين ، ولا تكذبوهم فقد يكونون صادقين .

أخرج البخارى والنسائى وغيرهما عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون الكتاب بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال ﷺ : « لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » .

وقوله – تعالى – : (وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) : تتميم لقوله –تعالى –: « آمَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ » ومعناه : إلٰهنا وإلٰهكم واحد لاشريك له فى ألوهيته ، ونحن له وحده خاصة مطيعون ، لانطيع غيره ، ولاندين لسواه .

وفى هذا تعريض بهم لاتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله .

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : القرآن الكريم .

(فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) : أى اليهود والنصارى الذين آتاهم الله التوراة والإنجيل.

(يُؤْمِنُونَ بِهِ) : يؤمنون بالقرآن .

(وَمِنْ هَؤُلَاءِ) : أى من العرب ، أو من أهل مكة ، أو ممن فى عهد الرسول من أهل الكتاب .

(مَن يُؤْمِنُ بِهِ) : بالقرآن .

(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا) : وما ينكرها عن علم ، والجحود : نفى مافى القلب إثباته ، أو إثبات مافى القلب نفيه .

(الْكَافِرُونَ) : المتوغلون فى الكفر المصممون عليه .

التفسير

٤٧ـ (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ . . .) الآية .

عرضت الآية السابقة لما أنزله الله من الكتب فى قوله ـ تعالى ـ : «وَقُولُوٓا آمَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ» فكانت بمثابة الترشيح للحديث عن إنزال القرآن

وموقف المعاصرين من العرب وأهل الكتاب منه فى هذه الآية التى تجرد فيها الخطاب لرسول الله ﷺ .

والمعنى : مثل إنزالنا الكتب السابقة على من سبقك من الأنبياء أنزلنا إليك القرآن الكريم صادقا مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية مقررا لرسالات أنبيائها الذين أمرنا بالإيمان بما أنزل إليهم فى قوله – تعالى – : «وَقُولُوٓا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ » من الآية السابقة .

وقوله – تعالى – : (فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) : معناه ، فالذين آتيناهم الكتاب من الطائفتيْن : اليهود والنصارى الذين تقدموا عهد الرسول حيث كانوا مصدقين بنزول القرآن حسبا علموا مما عندهم من الكتاب ، أو هم : عبد الله بن سلام وأضرابه من اليهود المعاصرين للنبي ﷺ حيث صدقوا بنزوله بعد أن سمعوه وعرفوا خبره من كتبهم ، وتخصيصهم بإيتاء الكتاب ؛ لأنهم هم المنتفعون به ؛ فكأن من عداهم لم يؤتوه .

(وَمِنْ هَٰٓؤُلَاءِ) : أي : من العرب ، أو من أهل مكة من يؤمن بالقرآن العظيم .
(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الكَافِرُونَ) : أى ، وما ينكر آياتنا عن علم مع ظهورها وقيام الحجة لها ، وزوال الشبهة عنها « إِلَّا الْكَافِرُونَ » المتوغلون فى الكفر المصممون عليه ، فإن ذلك يصدهم عن معرفة حقيقتها ، ومن هؤلاء كعب بن الأشرف وأصحابه .

(وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(تَتْلُوا) : تقرأ . (تَخُطُّهُ) : تكتبه .

(إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) : إذاً لتشكك المعاندون الكافرون الذين مردوا على إنكار كل حق .

التفسير

٤٨ - (وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) :

الحديث متصل عن القرآن الكريم ، وإثبات إعجازه بعد الإخبار بنزوله .

والمعنى : وما كنت يا أيها النبى الأمى قبل إنزال القرآن إليك تقدر أن تقرأ شيئا من كتاب ، أىّ كتاب ، ولا تقدر أن تكتبه ، أو تكتب شيئاً منه ، ولو كنت ممن يقدر على شىء من ذلك أو يتعاطاه إذا لكان لهؤلاء المبطلين المنكرين وجه فى الارتياب والشك فى أنه من عندك مع معرفتهم مدى صدقك ونزاهتك عن الكذب ، وإن ظهور هذا الكتاب الجامع لجميع العلوم الشريفة على أمىّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة أمر خارق لا يدع مجالا لشك ولا موقعا لريبة لو كانوا منصفين .

وذِكْرُ اليمين فى قوله - تعالى - : (وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ) زيادة تصوير لما نفى عنه ﷺ من القراءة والكتابة ، وتأكيد لهذه الحقيقة حتى لا يبقى مدخل لمجاز ، فهو مثل قوله - تعالى - : «وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ[1] » مع ما هو معروفٌ من أنه لا طير إلا بجناحين .

٤٩ - (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . . . .) الآية .

هذه الآية إضراب عن ارتياب المبطلين لكفرهم ، والمعنى : ليس القرآن الكريم مما يُرْتَابُ فيه لوضوح أمره ، وثبوت إعجازه ، وعجزكم عن الإتيان بمثله أو بشىء

---

(١) من الآية : ٣٨ من سورة الأنعام .

منه ، بل هو آيات ثابتة راسخة فى صدور العلماء الذين يحفظونه من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يلتقطوه من كتب يعرفونها ، أو يروونه عن أحد غيرهم ، بل حفظوه وعرفوه بحيث لايقدر أحد على تحريفه ، بخلاف كتب أهل الكتاب فإنها لم تكن ذات سند متصل إلى أنبيائها ، وقد جاء فى وصف أهل القرآن : «صدورهم أناجيلهم» .

«وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلَّا الظَّالِمُونَ» أى : وما يكفر بآياتنا وينكرها مع ظهورها إلّا المتوغلون فى الظلم والمكابرة المجاوزون للحدود فى الشر والفساد ، والظالمون فى هذه الآية : هم الكافرون فى الآية السابقة ، واختلاف التعبير لاستيعاب صفاتهم التى تقتضى تسفيه آرائهم ، وتؤكد حمقهم وعنادهم .

(وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : القرآن . (ذِكْرَىٰ) : عظة وتذكرة .

التفسير

٥٠ـ (وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

هذه الآية شروع فى عرض لون من ألوان عنادهم وعنتهم .

والمعنى : وقال مشركو قريش - بتوجيه من أهل الكتاب - : هلا أنزل على محمد آيات مادية من ربه مثل : ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى ، نراها ونحسها ، قل لهم يارسول الله رَدًّا لمقالهم : إنما الآيات عند الله وحده ، هو الذى يملك إنزالها . ويختار ماشاء منها ينزلها حسبما يشاء على من يشاء من غير دخل لأحد ، أو اقتراح من أحد ، ولا أملك أن أتخير على الله ، وإنما أنا نذير مبين أى : ليس من شأنى إلا الإنذار والتخويف بما ينتهى إلىّ إنزاله من الآيات .

٥١ - ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ :

هذه الآية كلام وارد للرد على المشركين ، وإبطال اقتراحهم ، وتسفيه رأيهم ، روى عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ماسمعوه من اليهود ، فقال رسول الله ﷺ : (كفى بقوم حمقا وضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، إلى ماجاء به غيره إلى غيرهم) فنزلت .

والمعنى : أقصَّر هذا الكتاب ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك القرآن تستمر على تلاوته بينهم ، وقراءته فيهم فى كل زمان ومكان ، فلايزال معهم آية ثابتة خالدة لاتزول كما تزول كل الآيات غيره بعد زمانها ، كما أنها تكون فى مكان دون مكان ؟ . ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن فى ذلك القرآن الكريم الذى تعم آيته الزمان والمكان إلى آخر الدهر لنعمة عظيمة لايقدر قدرها ، وتذكرة بالغة لقوم يطلبون الإيمان ، ويحرصون على تحصيله .

وقيل : أو لم يكف اليهود حجة عليهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ماقى أيديهم من نعتك ونعت دينك ؟

(قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(شَهِيدًا) : حاضرًا بعلمه .

(آمَنُوا بِالْبَاطِلِ) : آمنوا بألوهية غير الله - عز وجل - وهو شامل لنحو عيسى والملائكة .

(الْخَاسِرُونَ) ، المغبونون فى صفقتهم .

التفسير

٥٢ - (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَافِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

المعنى : قل - يارسول الله - للمكذبين لك ، المنكرين عليك : كفى بالله شهيدا وعالماً بما صدر منى من التبليغ والإنذار ، وبما صدر منكم من مقابلتى بالتكذيب والإنكار ، فيجازى - سبحانه - كلا بما يليق به ، والله يعلم مافى السمٰوات والأرض من جميع الأمور التى من جملتها شأنى وشأنكم ، لا يخفى عليه من ذلك شىء .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ) : أى ، صدقوا بألوهية ما يعبدونه من دون الله ، سواء فى ذلك الأصنام وعيسى والملائكة (وَكَفَرُوا بِاللَّهِ) مع تعاضد موجبات الإيمان به .

(أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) : المغبونون فى صفقتهم ؛ لأنهم اشتروا الكفر بالإيمان ، فاستوجبوا العقاب يوم الحساب .

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ
ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ
بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ
ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) : يطلبون تعجيل العذاب الذى توعدتهم به

(أَجَلٌ مُّسَمًّى) : هو الأجل الذى ضربه الله لوقوع العذاب .

(بَغْتَةً) : فجأة بدون توقع ولا انتظار .

(لَا يَشْعُرُونَ) : لا يتوقعون نزوله بهم .

(يَغْشَاهُمُ) : يحيط بهم ويعمهم .

التفسير

٥٣ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى .....) الآية .

أى : ويستعجلك كفار قريش بوقوع العذاب الذى توعدتهم بوقوعه عليهم ، ويستعجلونك استهزاء وسخرية ، واستبعادًا لوقوعه بمثل قولهم : « فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ »[1] .

(وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى) : ضربه الله لوقوعه ، وحدده وأثبته فى اللوح المحفوظ ، وهو وقعة بدر الكبرى ، أو الموت . (لَجَآءَهُمُ الْعَذَابُ) : لأنهم به جديرون ، فالله لا يعجل بالعذاب باستعجالهم وإنما يؤخره لحكمة تقتضيه ، وهى إتاحة الفرصة للتائبين منهم .

(١) من الآية : ٣٢ من سورة الأنفال .

(وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) : اختلف المفسرون فى مرجع الضمير فى قوله : (وَلَيَأْتِيَنَّهُم) فقيل ، إنه راجع إلى العذاب الذى استعجلوه ، وقيل : راجع إلى أجل العذاب والأول أظهر ؛ لأن العذاب هو موضع استعجالهم ، وإذا كان المراد به عذاب بدر فالمراد من إتيانه بغتة وهم لايشعرون : أنه لا يكون بطريق التعجيل عند استعجالهم ، بل يأتيهم وهم قارون آمنون لا يخطرونه بالبال ، كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون ، أوضحى وهم يلعبون .

وقال آخرون : إتيانه بغتة وهم لا يشعرون من حيث إنه غير متوقع لهم أن يغلبوا يوم بدر ؛ لأنهم لغرورهم كانوا لا يتوقعون غلبة المسلمين ولا تخطر لهم ببال .

٥٤ - (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ...) الآية .

تكرار استعجالهم العذاب لبيان غاية تجهيلهم وسفه عقولهم .

والمعنى : ويستعجلونك بالعذاب إمعاناً فى الجهل ، وإغراقاً فى العناد وركاكة فى التفكير (وإن جهنم) التى هى مكان العذاب الذى لاعذاب فوقه (لمحيطة) بهم لكفرهم ومعاصيهم المحيطة بهم .

والتعبير بالجملة الاسمية فى قوله - تعالى - :(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) للدلالة على تحقيق الإحاطة .

والمراد بالكافرين : إما المستعجلون للعذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر للإشعار بعلة الحكم ، وإما جنس الكافرين ، والمستعجلون داخلون فيهم دخولا أوليا .

٥٥ - (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ...) الآية .

يحتمل أن (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ) ظرف لمحيطة ، أى : محيطة بالكافرين فى هذا اليوم . ويحتمل أن يكون الظرف معمولا لمحذوف طوى ذكره للإيذان بغاية كثرته ، وفظاعته .

والمعنى : يوم يعمهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ومن جميع جهاتهم بحيث يجدون من الهوان والأهوال مالا يفى به مقال .

(وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : ويقول الله – عز وجل – أو يقول بعض ملائكته بأمره – سبحانه – : اشربوا وتجرعوا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا من السيئات فى يوم الحساب ، وما كنتم تتعجلونه وتنكرونه من أهوال العذاب .

(يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) : فلا تعبدوا سواى .

(ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) : مُحِسَّةٌ بنزوله .

التفسير

٥٦ – (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ....) الآية .

روى عن مقاتل والكلبى أن الآية نزلت فى المستضعفين من المؤمنين بمكة ،أمروا بالهجرة عنها ، وعلى هذا أكثر المفسرين .

وعمم بعضهم الحكم فى كل من لم يتمكن من إقامة أمور الدين فى أرضه كما ينبغى لممانعة من جهة الكفرة أو غيرهم ، فقالوا : تلزمهم الهجرة إلى أرض يتمكنون فيها من ذلك . وقال مطرف بن الشخير : إن الآية عِدَة منه – تعالى – بسعة الرزق فى جميع الأرض. والنداء فى قوله – تعالى – : (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) : خطاب تشريف لبعض المؤمنين وتكريم للمستضعفين .

والمعنى : يا عبادى الذين أخلصوا الإيمان بى إذا لم تتيسر لكم العبادة كما ينبغى فى بلد أنتم فيه فهاجروا إلى بلد تتوقعون أنكم فيه أسلم قلباً ، وأصح ديناً ، وأكثر عبادة

وأحسن خشوعاً ، والبقاع تتفاوت تفاوتاً كثيراً ، ويتفاوت أهلها خشونة وليناً وانحرافاً وديناً ، فلا تتشبثوا بأرض لاتجدون فيها أمنكم ، ولا وفرة دينكم .

ومعنى : (فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ): فإن لم تخلصوا عبادتى فى أرض فإياى فاعبدونى فى أرض غيرها ؛ فإن السعادة ليست فى المكان ، وإنما السعادة كل السعادة فى إخلاص الإيمان

٥٧ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية استئناف لتسهيل أمر الهجرة على المستضعفين ، وحثهم على إخلاص العبادة .

والمعنى : كل نفس من النفوس مفارقة لامحالة ، ذائقة مرارة الموت البتَّة ، راجعة إلى ربها ، ملاقية جزاء أعمالها ، ومن كانت هذه عاقبتهُ فليجعل كل همه فى الاستعداد لنهايته ، والتزود لآخرته ، عسى أن يكون من الناجين فى دار النعيم .

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(لَنُبَوِّئَنَّهُم) : لنسكننهم وننزلنهم على وجه الإقامة .

(غُرَفاً) : جمع غرفة والمراد بها : علالى وقصور جميلة .

التفسير

٥٨ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ...) الآية .

ذكرت الآية السابقة أن الموت سيجرى على كل نفس فى الدنيا ، ثم جاءت هذه الآية بعدها تنبه إلى تحقيق الإيمان لإخلاص العبادة ، وتحث على الاستزادة والإكثار من عمل الصالحات .

والمعنى : والذين صدقوا بالله وأخلصوا فى عبادته ، وصدقوا برسوله ، وأكثروا من عمل الصالحات ، وتحصيل الطاعات ، لنسكننهم ولننزلنهم من الجنة على وجه الإقامة والخلود منازل عالية ، وقصورًا شامخة ، تجرى من تحت أشجارها الأنهار لتزيد فى بهجتها وجمالها ، فيجتمع لهم طيب المنزل ، وجمال المنظر ، ودوام النعيم .

(نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) : أى ، نعم أجر العاملين غرفُ الجنة منزلا ودارًا ، أو : نعم أجر العاملين أجرهم :

٥٩ ـ (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : صفة للعاملين ، أى : فنعم أجر العاملين الذين صبروا على مفارقة الأوطان ، والهجرة لأجل الدين ، وعلى إيذاء المشركين ، وعلى جميع ما افتتنوا به من الشدائد ، كما صبروا على فعل الطاعات ومجافاة المعاصى . ولم يتوكلوا فى جميع ما يفعلون ويذرون إلا على الله وحده ابتغاء مرضاته ، وطمعاً فى حسن جزائه .

(وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ) : أى ، وكثير من الدواب ، والدابة : كل نفس تدب على وجه الأرض ، عقلت أو لم تعقل . (لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) : أى ، لا تطيق حمل رزقها لضعفها ، أو : لاتخزن رزقها ، وليس من شأنها أن تخزنه .

التفسير

٦٠ ـ (وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

روى أن النبى ﷺ لما أمر المؤمنين بالهجرة إلى المدينة قالوا : كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة ؟ فنزلت .

والمعنى : وكم من دابة من الدواب التى تمشى على الأرض لا تطيق حمل رزقها ، أو لا تدخره ، الله وحده يرزقها ويرزقكم ، وإنها مع ضعفها وتوكلها ، وأنتم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله ؛ لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده ، فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة ، والله هو العظيم السمع فيسمع قولكم ، والمحيط العلم فيعلم نياتكم وضمائركم .

وعن ابن عيينة : ليس شىء يَخْبَأُ إِلَّا الإنسان والنملة والفأرة . « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : ذللهما وسيرهما فى مساراتهما .

(فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) : فكيف يصرفون عن توحيد الله .

التفسير

٦١ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) :

عيّر المشركون المسلمين بالفقر ، وقالوا : لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء ، وكان هذا منهم مغالطة وتمويهاً ؛ إذ كان فى المشركين فقراء أيضاً ، فجاءت هذه الآية تزيل هذه الشبهة ، وتسجل عليهم الاعتراف بقدرة الله على كل شىء ، ومن جملة ذلك الغنى والفقر .

والمعنى : وبالله لئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين الجاحدين أنعمى : مَن خلق السموات والأرض ، وأخرجهما من العدم إلى الوجود على أدق نظام وأبدع إحكام ، وذلّلَ الشمس والقمر وسيرهما فى دورانهما على طريقة واحدة لا يختلف تعاقبهما ، فيجد الناس

فى ذلك فرصة السعى على معاشهم وأرزاقهم ، ومنحة راحتهم وطمأنينة سكونهم ، لئن سألتهم من فعل ذلك ؟ ليقولن فى جواب سؤالك لهم : الله وحده هو الذى فعل ذلك ، ولا يجدون سبيلا إلى إنكاره أو التردد فيه ، فكيف يصرفون بعد هذا الإقرار عن عبادتهم له ، وينقلبون إلى عبادة الأوثان ؟

والاستفهام هنا إنكار واستبعاد من جهته - تعالى - لتركهم العمل بموجب جوابهم عن الله - تعالى -.

(ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه ويزيده . (وَيَقْدِرُ) : يضيقه ويقلله .

التفسـير

٦٢ - (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

هذه الآية تبين أثرًا من آثار قدرته الباهرة التى تجلت فى الآية السابقة فى خلق السموات والأرض ، فإن القادر على خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر لا يعجزه إجراء الرزق على مخلوقاته .

والمعنى : الله القادر على ما ذكر هو الذى يبسط الرزق ويوسعه على من يشاء من عباده الذين يعلم من شأنهم أن البسط يصلحهم ، وهو الذى يقدر الرزق ويضيقه على من يشاء من عباده الذين يعلم أن البسط يبطرهم ، ويفسد أحوالهم ، وحول هذا المعنى قال ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل - : « إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من

لا يصلح إيمانه إلّا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك » ويجوز أن يكون البسط والتقدير لواحد على معنى : يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره له على التعاقب .

(إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) : فيعلم أن كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة ، فيفعل كلا منهما فى وقته .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(أَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) : أخصبها وجعلها ذات زرع .

(مَوْتِهَا) : جدبها .

التفسير

٦٣ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) : .

تكرار السؤال لهم ؛ لاستخلاص مزيد من اعترافهم بقدرته - تعالى - تسجيلا عليهم ، وإلزاما لهم لإبراز سفههم ، وإشهار عنادهم فى كفرهم.

والمعنى ، وبالله لئن سألت هؤلاء المشركين من نزل من السماء مطرًا فأنبت به الأرض وأحياها بذلك بعد موتها وجدبها ، وقحط أهلها - لئن سألتهم - ليقولُنّ جواباً على ذلك : الله وحده هو الذى فعل ذلك وقدّره وأنعم به مصلحة لعباده ، قل : الحمد لله على إظهار

البرهان واعترافهم بما يُلْزمهم الحجة ، أو قل : الحمد لله على العصمة مما هم عليه من الضلال فيكون كالحمد عند رؤية المبتلى . ويجوز أن يكون حملًا على هذا وذاك (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أى : بل أكثرهم لا يتدبرون بما فيهم من عقول فيما نريهم من الآيات ونقيم لهم من الدلالات ، أو : بل أكثرهم ليسوا من أهل التعقل والتدبر .

(وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(لَهِيَ الْحَيَوَانُ) : لهى الحياة الدائمة الخالدة التى لا موت فيها ، والحيوان : مصدر حَيِيَ ، كالحياة ، وأصله : الحَيَيَانُ ، قلبت الياء الثانية واوًا ، وفى بناء المصدر على فَعَلَان زيادة معنى لما يفيده من الحركة والاضطراب ؛ لأن الحياة حركة ، والموت سكون .

التفسير

٦٤ـ (وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) :

الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : (وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) للتحقير .

والمعنى : وما هذه الحياة الدنيا الفانية التى يتشبث بها المشركون إلّا لهو يلهو به الكبارُ فى غفلة وعَمَه ، ولعب يلعب به الصغار فى عبث وبهجة ، ثم لا تلبث أن تزول :

(وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) : لهى الحياة الدائمة الخالدة التى لا فناء لها ولا موت فيها ، ولا يكدر صفوها ولا ينقطع نعيمها (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) : أى لو كانوا أهلًا للعلم والمعرفة ، أو : لو كانوا يعلمون ذلك ويفقهونه لما آثروا عليها الدنيا الفانية .

(فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(رَكِبُوا) : الركوب ، الاستعلاء على الشىء .

(الْفُلْكِ) : السفينة ، يطلق على المفرد والجمع .

التفسير

٦٥ – (فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) :

تتصل هذه الآية بما قبلها من حيث إنها إقرار من المشركين بألوهية الله – عز وجل – واعتراف منهم بأنه – سبحانه – هو وحده القادر على رفع الضر ، ودفع البلاء .

والمعنى : فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة ، ومخرت بهم فى عرض البحر ، ثم تعرضوا لخطر الغرق ، وأيقنوا بالهلاك دعوا الله مخلصين له الدين مقرين بوحدانيته ، معترفين بقدرته ، فلما تجلى الله عليهم فنجاهم من الغرق إلى البر ، وأنقذهم من الهلاك فاجئوا بالعودة إلى الشرك وعبادة الأصنام مجافين بذلك أوفى قواعد الإنصاف ، فإن النفوس البشرية مفطورة على شكر من أجرى عليها رزقًا ، أو استنقذها من مكروه ، ولعمرى إن الإيمان بالله أول مُوجِبَات الشكر ، وأول مقتَضيَات الاعتراف بالفضل .

٦٦ – (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

تعليل لرجوعهم إلى الشرك ، أى : إذا هم يشركون ليكونوا كافرين بما أجرينا عليهم من نعمة ، وحققنا لهم من نجاة ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام ، وتوادهم عليها .

وذهب بعض المفسرين إلى أن اللام فى قوله - تعالى -: (لِيَكْفُرُوا)، (وَلِيَتَمَتَّعُوا) هى لام الأمر، وأن الأسلوب مَسُوقٌ مساق تهديدهم ووعيدهم، فهو على حد قوله - تعالى -: « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ »[1]، ومعنى قوله - تعالى -: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أى: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وتمتعهم حين يرون العذاب يوم القيامة، يوم لا يغنى عنهم شركهم من الله شيئًا ولا هم ينصرون.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات:

(حَرَمًا آمِنًا): مكانًا مقدسًا يأمنون فيه، وهو مكة.

(وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ): الخطف والتخطف: الأخذ بسرعة، والمراد به: القتل والسلب.

(أَفَبِالْبَاطِلِ): الأصنام أو الشيطان.

التفسير

٦٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ):

تذكر هذه الآية أهل مكة بفضل الله عليهم فى جعل بلدهم مكة حرمًا آمنًا، وتنعى عليهم إيمانهم بالأصنام، وكفرهم بنعمة الله..

(١) من الآية ٤٠ من سورة فصلت.

والمعنى : أَجَهِلَ أهل مكة وغفلوا ولم يعلموا بالمشاهدة أنَّا جعلنا مكة بلدهم حرمًا ممنوعًا مصونًا يقرون فيه ، ويأْمنون على أنفسهم من القتل ، وعلى أموالهم من النهب ، والناس حولهم من العرب يُتَخَطَّفُونَ قتلًا وسبيًا ، ويُخْتَلَسون سلبًا ونهبًا ، إذ كان العرب من كل مكان ، وفى كل موقع ـ غير مكة ـ فى تقاتل وتغالب ، وتغاور وتناهب ، أفيتفق منهم مع هذه النعم التى يعيشون فيها أن يؤمنوا بالأَصنام فيعبدوها من دون الله ، أو بالشيطان فيستجيبوا لوسوسته وإغرائه ، وبنعمة الله التى يعيشون فيها وينعمون بها ، المتمثلة فى تسخير الأَكوان ، وإجراء الأَرزاق ، ودفع المكاره والأَخطار ـ أفبهذا كله ـ هم يكفرون ويجحدون ، وهى المستوجبة للشكر وصدق الإيمان .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا) : اختلق على الله كذبًا حيث ادعى له شريكًا .

(أوكَذَّبَ بِالْحَقِّ) أوكذب بالرسول ﷺ وبما جاء به .

(مَثْوًى) : دار إقامة دائمة ومستقر .

التفسير

٦٨ ـ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًىٰ لِلْكَافِرِينَ) :

ينتهى بهذه الآية الحديث عن المشركين فى هذه السورة ، وهى تسجل عليهم مجاوزتهم الحد فى ادعائهم الشريك لله ، وتنعى عليهم تكذيبهم الرسول ، كما تتوعدهم سوء العاقبة بالخلود فى جهنم .

والمعنى : وأى إنسان أشد ظلمًا لنفسه ممن اختلق على الله كذبًا ، فادعى له شريكًا مع وضوح الدلالة على وحدانيته ـ وتوافر الشواهد على أُلوهيته ، وجاوز الحدود فى الظلم بتكذيب

الرسول وإنكار ما جاء به بعد عجزهم عن محاكاته أو معارضته ، وقوله - تعالى - :

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) . تأكيد لاستحقاقهم الإقامة فى جهنم ، والخلود فى عذابها ، أى : لقد استوجبوا الثَّواء فى جهنم خالدين فى عذابها بمجاوزتهم الحد فى الكذب على الله ، وتكذيب رسول الحق والصدق ، فهى فسيحة الأرجاء ، ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين ، حتى اجترأوا هذه الجرأة ؟ وقد نزلوا منزلة العالمين بذلك لغاية وضوحه .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا) : غالبوا أنفسهم وشيطانهم وأعداءهم لأجلنا .

(لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) : لَنُيَسِّرَنَّ لهم طرق الوصول إلينا .

التفسير

٦٩ - (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) :

هذه الآية تختم سورة العنكبوت فتربط آخرها بأولها ، فقد ذكرت الآيات فى أولها أن المؤمنين لا يستحقون جميل الجزاء لمجرد قولهم : آمنا ، دون أن يتعرضوا للفتن ، ويمتحنوا بالشدائد والمحن ، فيجاهدوا فى الله أنفسهم ، ويبذلوا منها ومن أموالهم وأهليهم ، ثم تجىء هذه الآية فى ختامها تطمئن المؤمنين على فضل جهادهم ، وثواب بلائهم فى نصرة دين الله ، وإعلاء كلمته ، ليتجلى فى كتاب الله العزيز الإعجازُ المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والمعنى : والذين غالبوا وجالدوا من أجلنا ، وفى سبيل نشر ديننا ، وتصديق رسولنا محسنين فى كل مايفعلون ويتركون ، لنهدينهم السبل الموصلة إلى مرضاتنا ، ولنسهلن لهم طرق الوصول إلى جنتنا ، وإن الله لمع المحسنين بالنصر والعزة فى الدنيا ، وبالنعيم المقيم فى الجنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم

مكية وآياتها ستون

مقاصد السورة :

اشتملت سورة الروم على الوعد بانتصار الروم على الفرس خلال بضع سنين من هزيمة الفرس إياهم – وقد تحقق وعد الله فإنه لا يخلف الميعاد – وبينت أن عاقبة المسيئين الهلاك والدمار ، وأن الآخرة آتية لا شك فيها ، وأن المؤمنين سوف يكونون فيها فى روضة يُحْبَرُون وأن المشركين لا يحميهم شركاؤهم من عذابها الأليم .

وتحدثت عن بعض آياته – تعالى – كخلق الناس من تراب ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليسكنوا إليها ، وخلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، مع أنهم ينتمون إلى أصل واحد ، ومنامهم بالليل والنهار وابتغائهم من فضله ، ثم دعت الناس إلى التدين بهذا الدين الحق الذى يتفق مع فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ونهتهم عن أن يكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون ، وعابت على الناس إشراكهم بربهم إذا مستهم رحمة ، مع أنهم يلجأون إليه – تعالى – إذا مسهم الضر .

ودعت إلى إيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ونهت عن الربا وبينت أنه لا يربو عند الله ، وإنما تربو عنده الزكاة .

ثم ذكرت أن ظهور الفساد فى البر والبحر إنما يكون بما كسبت أيدى الناس ، وأعادت الدعوة إلى الدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، ثم بينت أن الله هو الذى يرسل الرياح فتثير سحابًا ، فيبسطه الله فى السماء كيف يشاء ، فيستبشرون بعد قنوطهم ويأسهم ، وأنه بهذا المطر يحيى الأرض بعد موتها ، ومن يفعل ذلك فهو قادر على إحياء الموتى ، ثم شبهت المشركين فى عدم سماعهم دعوة الرسول بالموتى وبالصم إذا تولوا مدبرين ، ثم بينت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن المجرمين سوف يُقْسِمُونَ أنهم ما لبثوا فى

دنياهم غير ساعة ، فلا ينفعهم هذا الاعتذار ؛ فقد لبثوا فى كتاب الله إلى يوم البعث ، ثم ختمت بدعوة النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى الصبر : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(الٓمٓ) : تقدم الكلام على مثلها أول سورة البقرة والسور التى بعدها ، فارجع إليه إن شئت .

(الرُّومُ) : قوم من الفِرِنج يستوطنون الجنوب الشرقى من أوربا ، ويقول المؤرخون : إنهم عرفوا باسم جَدٍّ لهم ، اسمه : روم ، أو : رومى ، من ذرية يافث بن نوح – عليه السلام .

(فِىٓ أَدْنَى الْأَرْضِ) : فى قرب أرضهم من العرب ، أو من الفرس .

(مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ) : من بعد كونهم مغلوبين .

(فِى بِضْعِ سِنِينَ) : الْبِضْعُ ، من الثلاث إلى التسع .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : وهو الغالب .

التفسير

١ ـ ٥ (الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

كان العالم يسيطر على معظمه أمّتان كبيرتان ـ الفرس والروم ـ وكانت الحرب تدور بينهما من وقت لآخر فى سبيل السيطرة على الأمم الضعيفة ، واستنزاف خيراتها ، واستعباد أهلها .

وبعد أن شرف الله محمدًا ﷺ بالرسالة غزت الفرس الروم فى أدنى أرضهم إلى العرب ـ وهى بصرى وأذرعات ـ وقال ابن عباس والسدى : الأردن وفلسطين . وقيل غير ذلك ، ولا تنافى بين هذه الأقوال ، فقد غزوهم فى جميع مستعمراتهم ، فى آسيا حتى ألجأوهم إلى القسطنطينية ، وحاصروهم فيها مدة طويلة .

ولما بلغ الخبر أهل مكة المشركين ، فرحوا وشمتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ، ونحن وفارس وثنيون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرن عليكم ، فنزلت الآية ، فقال لهم أبو بكر : لا يَقِرَّن الله عينكم ، فوالله لتظهرن الروم على فارس فى بضع سنين ، فقال له أُبَىٌّ بن خلف : اجعل بيننا أجلًا أُنَاحِبُكَ ـ أى : أراهنك ـ عليه ، فناحبه على عشر قلائص[1] من كل واحد منهما ، وجعلا الأجل ثلاث سنين ؛ فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ بما جرى بينه وبين أبى بن خلف ، فقال ﷺ : البضع « ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده فى الخطر[2] وماده فى الأجل »[3] فجعلاه مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أُبَىٌّ بن خلف من جرح جرحه الرسول ﷺ بعد رجوعه من أُحُد ، وظهر الروم على فارس يوم الحديبية ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أُبَىٍّ بن خلف ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال : « تصدق به » .

(١) جمع قلوص ، وهى : الناقة الشابة .

(٢) قيمة الرهان .

(٣) طاوله فى موعد الرهان .

وفى نصرهم على فارس أخبار طويلة لامجال هنا لذكرها ومناقشتها وتحقيق الحق فيها ، وحسب القارئ ما ذكرنا ، ومن شاء المزيد فليرجع إلى المطولات .

واستدلت الحنفية بما حدث بين أبى بكر وأُبَىِّ بنِ خلف على جواز العقود الفاسدة فى دار الحرب ، وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار .

والآية من دلائل النبوة ؛ فإن الهزيمة التى ألحقتها فارس بالروم ألجأتهم إلى عقر دارهم ، وأفقدتهم جميع الأقاليم التى كانت لهم فى آسيا ، وجعلتهم من الضعف بحيث لا يظن أحد أن تقوم لهم قائمة بعد هذه الهزيمة النكراء ، فإذا نزل القرآن مبشرا بنصرهم ومحدداً موعد هذا النصر بأنه فى بضع سنين ، وتحقق هذا النصر فى موعده ، فإنه دليل على أنه من عند الله ، وليس من عند محمد كما زعم أعداء الإسلام ؛ فإنه لايقدم على مثل هـــذا الوعد الخطير إلّا من هو مؤيد من العليم الخبير .

والمعنى الإجمالى لهذه الآيات : الٓمٓ . غَلَبَتْ فارسُ الرومَ فى أقرب أرض الروم إلى بلاد العرب ، أو إلى بلاد الفرس ، أو إلى بلاد الروم الأصلية ، حيث وصلت هزيمتهم إلى مشارف القسطنطينية وحوصروا فيها مدة طويلة ، والروم من بعد ما غلبهم الفرس سَيَغْلِبُونَ الفرس خلال بضع سنين ، لله الأمر من قبل كونهم مغلوبين للفرس ، حيث سلط الفرس عليهم فهزموهم وغلبوهم ، ولله الأمر من بعد ما غلبهم الفرس ، حيث أمدهم بأسباب نصره ، فأصبحوا ظاهرين على الفرس فغلبوهم واستردوا الأرض منهم ، فالنصر والهزيمة لكلتيهما بأمر الله وحكمته حسب قانونه الذى أجراه بين عباده : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » ويومئذٍ تغلبُ الرومُ فارسَ يفرح المؤمنون بنصر الله ، حيث نصر من له كتاب على من يعبدون غيره ، وملأ بالأسى والحزن قلوب كفار مكة الذين كانوا من قبل شامتين ، ينصر الله بفضله من يشاء نصره من عباده ، على عدوه ، وهو العزيز الغالب فلا يعجزه نصر من يشاء على عدوه مهما كان أمره لحكمة يراها فى نصره ، الرحيم باللطف بالمغلوب ، وتهيئته لقبول القضاء ، أو بإصلاح حاله واستعادة مكانه .

ومن العلماء من فسر نصر الله الذى يفرح به المؤمنون بغير ما تقدم ، فقد فسره بعضهم بصدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ، ومنهم من فسره بتولية بعض الظالمين بعضًا وتفريق كلمتهم حتى تناقضوا وتحاربوا ، وأضعف كل منهم شوكة الآخر ، تمهيدًا لغلبة الإسلام ، وهذه آراء جيدة ، وإن كان الرأى الذى ذكرناه فى المعنى هو المناسب لقوله - تعالى - : « يَنصُرُ مَن يَشَآءُ » ولهذا رجحه المفسرون .

٦ - (وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

هذه الآية مؤكدة للوعد السابق بنصر الروم فى بضع سنين وفرح المؤمنين بهذا النصر .

والمعنى : وعد الله بنصر الروم على الفرس وعدًا لا خلف فيه ، فإن الله لا يخلف وعده ؛ لاستحالة الكذب عليه - تعالى - ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه - سبحانه - وعدهم بذلك لعدم تصديقهم القرآن فيما أخبر به عن الله - تعالى - أو لا يعلمون قدرة الله على تحقيقه لفساد رأيهم .

٧ - (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) :

هذه الآية مؤكدة لما جاء فى الآية السابقة من أن أكثرهم جاهلون لا علم عندهم .

والمعنى : أن معرفتهم بالحياة الدنيا لا تتجاوز ظاهرها ، حيث يعلمون منافعها ومضارها العاجلة ، ومتى يزرعون ، ومتى يحصدون ، وكيف يجمعون وكيف يبنون ، وكيف ينعمون عاجلًا بزخارفها ، ويلتذون بملاذها ، ويتمتعون بمشتهياتها ، فهم لا يشعرون أنها مزرعة الآخرة ، ووسيلة إلى نيل الرغائب الجليلة فيها ، فهم : (يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) .

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا
مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا
وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ
ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(فِىٓ أَنفُسِهِمْ) : ظرف للتفكر ، وليس بمفعول تعدى إليه ، فإنهم لم يؤمروا أن يتفكروا فى خلق أنفسهم ، بل أمروا أن يستعملوا التفكر النفسى فى خلق السموات والأرض وما بينهما ليعلموا أنها لم تخلق إلّا بالحق ، وفائدة ذكر (فِىٓ أَنفُسِهِمْ) مع أن التفكر لا يكون إلّا فيها ؛ لتحقيق أمره ، وزيادة تصوير حال التفكر المؤدى إلى الصواب ، وهو التفكر العميق لا التفكر الظاهرى .

(إِلَّا بِٱلْحَقِّ) قال الفراء : معناه : إلّا للحق ، أو إلّا بالعدل .

(وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) : ووقت سماه الله ينتهيان عنده ، وهو يوم القيامة .

(بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ) : بلقاء جزائه يوم القيامة .

(ٱلسُّوٓأَىٰٓ) : تأنيث الأسوأ ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ، والمراد بالسوأى : النار .

التفسير

٨ - (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) :

بعد أن سجلت الآية السابقة عليهم قصور علمهم بالحياة الدنيا ، حيث لم يتجاوزوا ظاهرها ، جاءت هذه الآية لتوبخهم على عدم تَفَكُّرهم بعمق فى مصير هذه الدنيا .

والمعنى : أَغَفَلَ هؤلاء الكافرون ولم يتفكروا فى أعماق أنفسهم ، حتى يعلموا أن الله - تعالى - لم يخلق السمٰوات والأرض وما بينهما إلّا للحق من الثواب والعقاب للمكلفين فيها على حسب أعمالهم ، أو إلّا بالعدل ، فلا يستوى عنده محق ومبطل ، ولا محسن ومسيء ، وخلقهما وما بينهما لأجل مسمى تنتهى إليه ،وهو يوم القيامة : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) وإن كثيرًا من الناس بلقاء جزاءِ ربهم فى الآخرة لجاحدون؛ لأنهم لا يدركون من الحياة الدنيا إلّا ظاهرها ، ولا يتعمقون فى التفكر فيها ، فلذلك حسبوا أن الدنيا نهاية كل حى ، وأن الله لايبعث من فى القبور .

٩ - (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

الهمزة فى قوله : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا) إما أن تكون لتقرير عدم سيرهم وتوبيخهم على ذلك - إن كانوا من القاعدين الذين لم يسيروا فى الأرض ويعتبروا بالهالكين - فيكون التقدير : أَقَعَدُوا ولم يسيروا فى الأرض فينظروا ، وكان عليهم أن يسيروا بين آثار الهالكين ليتعظوا ، وإما أن تكون لنفى قعودهم وتوبيخهم على عدم انتفاعهم بسيرهم بين آثارهم - إن كانوا ممن ساروا فى خرائبهم - وكأنه قيل : أَقَعَدُوا ولم يسيروا فى خرائب الكافرين فينظروا ويعتبروا ؟ كلَّا ، بل ساروا ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا .

والمعنى الإجمالى للآية : أَقَعَدَ هؤلاء الكفار ولم يسيروا فى أرض الهالكين السابقين ويشاهدوا كيف كانت عاقبة أولئك المشركين المنكرين للبعث قبلهم ، كانوا أقدر منهم على

التمتع بالحياة الدنيا ، حيث كانوا أشد منهم قوة وقلبوا الأرض ظهرًا لبطن فى الزراعة والبحث عن المعادن ونحوها وعمروها بفنون العمارات أو أقاموا بها أكثر مما عمرها مشركو مكة ، وجاءتهم رسلهم بالمعجزات البينات التى تستوجب إيمانهم فكذبوهم ، فما كان الله ليهلكهم بغير ذنب كما يفعل الظالمون ، ولكنهم كانوا ظالمين لأنفسهم بفعلهم مايقتضى إهلاكهم دون أن يكون لله أو لرسله دخل فى ظلمهم .

١٠ - (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) :

ثم كان عاقبة الذين عملوا السيئات وظلموا بها أنفسهم - كان عاقبتهم - العقوبةُ السوأى فى الدنيا بالإهلاك وفى الآخرة بالنار ؛ لأنهم داوموا على تكذيبهم بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون ولم تنجهم قوتهم ، ولم تنفعهم عمارتهم .

(ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ) : يتحير الكافرون وتنقطع حجتهم ، يقال : أبلس الرجل ، إذا سكت وانقطعت حجته .

(وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ) أى : تبرءوا من آلهتهم التى عبدوها .

التفسير

١١ - (اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

بين الله فى الآية السابقة أن نهاية الكافرين المسيئين لأنفسهم أن يعاقبوا العقوبة السيئة فى الدنيا والآخرة ، وجاء بهذه الآية لتقرير ذلك .

والمعنى : الله – سبحانه – شأنه أنه يبدأ الخلق وينشئه من العدم – كما تعلمون أيها الكافرون – ثم يعيده بعد فنائه ، ثم إلى حسابه وجزائه ترجعون وتبعثون، فلماذا تكفرون وتنكرون ؟ أليس من قدر على الإبداع والاختراع فهو قادر على الإعادة بعد الفناء ؟

١٢ – (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ) :

اختلف المفسرون فى تفسير معنى الإبلاس ، فمنهم من فسره باليأس، كابن عباس ، وهو المراد من حديث : « أنا مبشرهم إذا أبلسوا » أى : إذا يئسوا ، ومنهم من فسره بالسكوت وانقطاع الحجة ، ومنهم من فسره بالحزن الناجم عن شدة اليأس ، والحق أنها معان متقاربة وليس بينها تناف .

والمعنى : ويوم يقوم الناس لرب العالمين فى الساعة التى حددها للقيامة – يومئذ – ييأس المجرمون من النجاة ويتحيرون ، وقد انقطعت حجتهم وصمتت ألسنتهم ، ولفّهم الحزن من كل جانب .

١٣ – (وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَآؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ) :

ولم يكن لهؤلاء المجرمين من آلهتهم التى عبدوها شفعاء ينقذونهم من سوء مصيرهم ، كما كانوا يزعمون فى دنياهم : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ » وكانوا بشركائهم يومئذ كافرين .

والتعبير عمّا سوف يحدث يوم القيامة – وهو مستقبل – بصيغة المضارع التى دخلت عليه (لم) فى قوله : (وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَآؤُا) فحولته إلى المضى ، وبصيغة الماضى فى قوله : (وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ) للإيذان بأنه واقع ولابد، فكأنه وقع فعلًا وأُخبر عنه .

(وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(فِى رَوْضَةٍ) : الروضة ، الأرض ذات النبات والأزهار والماء والمراد بها هنا الجنة .

(يُحْبَرُونَ) : يُسَرُّون ، يقال : حَبَره يحبُره ـ بضم الباء ـ حَبْرًا ، وحُبرة ، وحبورًا : إذا سره سرورًا يتهلل له وجهه .

(مُحْضَرُونَ) : مجبرون على الحضور .

التفسير

١٤ ـ (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) :

ويوم يقوم الناس لرب العالمين فى الساعة التى عينها لبعثهم ـ يومئذ ـ يتفرق الخلق إلى مؤمنين وكافرين ، ثم فصل ـ سبحانه ـ مصيرهم بعد تفرقهم فقال :

١٥ ـ (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) :

فأما الذين صدقوا بالله ورسله ، وعملوا الصالحات التى أمرهم بها ، فهم فى جنة عظيمة يسرون غاية السرور ، بما يتنعمون به فيها من النعيم المقيم والخير العميم ، الذى أخبر الله عنه بقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وأخبر عنه الرسول بقوله : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

١٦ ـ (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) :

وأما الذين كفروا بالله ورسله، وكذبوا بآياتنا الكونية والتنزيلية، وكذبوا بالبعث والجزاء فى الآخرة فأُولئك فى عذاب جهنم مجبورون على الحضور والإقامة فيه .

قال الآلوسى: والظاهر أن الفسقة من أهل الإيمان غير داخلين فى أحد الفريقين، أما عدم دخولهم فى الذين كفروا وكذبوا بالآيات والبعث فظاهر، وأما عدم دخولهم فى الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإما لأن ذلك لا يقال فى العرف إلا على المؤمنين المجتنبين للمفسقات – على ماقيل – وإما لأن المؤمن الفاسق يصدق على المؤمن الذى لم يعمل من الصالحات شيئاً أصلا، وحكمهم معلوم من آيات أُخرى – انتهى بتصرف يسير .

(فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(فَسُبْحَانَ اللهِ) : فتنزيهاً له عما لا يليق به .

(عَشِيًّا) : العشى : آخر النهار .

(وَحِينَ تُظْهِرُونَ) : وحين تدخلون فى وقت الظهر .

(يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) : كالإنسان من التراب .

(وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ) : كالسقط الميت من أمٍّ على قيد الحياة .

(وَيُحْيِى الْأَرْضَ) : بالنبات .

(بَعْدَ مَوْتِهَا) : بعد يبسها .

(وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) : أى : تبعثون من قبوركم .

التفسير

١٧ ، ١٨ ـ (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) :

بين الله ـ سبحانه ـ فى الآيتين السابقتين حال ومآل فريقى المؤمنين الصالحين والكافرين المكذبين من الثواب والعقاب ، وجاء بهذه الآية ليرشد عباده إلى ما ينجى من الثانى ويُفضِى إلى الأول ، من تنزيهه ـ تعالى ـ عما لا يليق بجنابه ، وحمده والثناء عليه بما هو أهله من الصفات الجليلة ، وقد اقترنت بالفاء من قوله : (فَسُبْحَانَ) للإيذان بترتيب ما بعدها على ما قبلها فى المعنى ، فكأَنَّهُ قيل : إذا عرفتم حال الفريقين ومآلهما فسبحوا الله حين تمسون . . . إلخ ، وسبحان : مصدر ، ناب عن فعل الأمر ، وهو محذوف وجوباً وإن كان منصوباً بتقديره ، لأنه ناب عنه فلا يجتمعان .

والمقصود من التسبيح هنا : الصلاة عند ابن عباس ، فقد قال : الصلوات الخمس فى القرآن . قيل له : أين ؟ فقال : قال الله ـ تعالى ـ : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ » صلاة المغرب والعشاء (وَحِينَ تُصْبِحُونَ) صلاة الفجر (وَعَشِيًّا) العصر[1] « وَحِينَ تُظْهِرُونَ) الظهر وبهذا قال الضحاك وابن جبير ، والأكثرون على أن الصلاة فرضت بمكة ، وهذا يوافق كون السورة كلها مكية على الصحيح .

وإطلاق التسبيح على الصلاة إما لوجوده فى ركوعها وسجودها ، وإما لأنها مشعرة بتنزيهه ـ تعالى ـ عن الشريك[2] .

ومن العلماء من حمل التسبيح فى الآية على التسبيح فى الصلاة لا على الصلاة نفسها ، قال على بن سليمان : حقيقته عندى : فسبحوا الله فى الصلوات .

---

(١) ويقول صاحب مختار الصحاح نقلا عن الأزهرى : العشى : ما بين زوال الشمس وغروبها ، وصلاة العشى هى الظهر والعصر ، ونقول : إن شمول العشى للظهر إذا لم يذكر معه الظهر ، فإن ذكر معه اختص بآخر النهار ـ كما هنا .

(٢) وإما لأنه مأخوذ من السبحة ، والسبحة : الصلاة ، ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم : « تكون له سبحة يوم القيامة »

وذِكْرُ قوله – تعالى – (وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : بين أوقات التسبيح ، للإيذان باستحقاقه – تعالى – الحمد من أهل السموات والأرض على نعمه بالإضافة إلى تسبيحه ، قال العلامة أبو السعود : قدمت (وَعَشِيًّا) على (حِينَ تُظْهِرُونَ) مراعاة للفواصل ، وقال الآلوسى : وتخصيص الأوقات المذكورة بالذكر لظهور آثار القدرة والعظمة والرحمة فيها ، وقدم الإمساء على الإصباح لتقدم الليل والظلمة ، وقدم العشى على الإظهار لأنه بالنسبة إلى الإظهار ، كالإمساء بالنسبة إلى الإصباح .

والمعنى : فَصَلَاةً ، أو فتنزيهاً لله عما لا يليق به حين تدخلون فى الظلام بعد النور ، وحين تدخلون فى الصباح والنور بعد الظلام ، وله الحمد استحقاقاً وأداءً فى السموات والأرض على توالى نعمه على من فيهما ، وتنزيهاً له آخر النهار وحين تدخلون فى الظهر .

أخرج أبو داود وغيره عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : (من قال حين يصبح : (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) ، إلى قوله – تعالى – : (وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) أدرك مافاته فى ليلته ، ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى يومه) .

١٩ – (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) :

درج المفسرون على تفسير هذه الآية ومثلها بنحو قولهم : يخرج الإنسان الحى من النطفة الميتة ، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحى ، ويخرج الدجاجة الحية من البيضة الميتة ، ويخرج البيضة الميتة من الدجاجة الحية ، وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما ، والواقع أن النطفة ليست ميتة وكذلك البيضة ، فالنطفة مليئة بالحيوانات المنوية التى لا تحصى ، فإذا التقت نطفة الرجل ببويضة المرأة فى القناة الفالوبية التى توصل الرحم بمبيض المرأة ، لقحتها بأقوى حيواناتها المنوية ونشأ عن هذا التلقيح الخلية الأولى للجنين ، وكذا الأمر بين نطفة الديك وبيضة الدجاجة ، وقد شرحنا ذلك علمياً فى تفسير قوله – تعالى – ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ . . » (١) .

---

(١) الآية رقم (٥) من سورة الحج .

ولولا وجود الحياة فى كل ذلك لما وجدت الأَجِنَّةُ فى البطون ولا الفراخ فى البيض وقد عُرفت كل هذه الحقائق بالمناظير المكبرة وبالتجارب ، فمن لاحياة فى نطفته أو فى بويضة امرأته فهو عقيم ، وهى عاقر ، وكذا الأَمر فى الدجاج.

ولعل هذا التفسير المأثور عن السلف ناشىء إما عن قصور علم الأَجنة عند الناس وقتئذ أو أنه على سبيل المجاز فإن هذه النطفة بالنسبة إلى الإنسان ، والبيضة بالنسبة إلى الدجاجة تعتبر كالشىء الميت ، فإن الفرق بينهما بعيد المدى ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولعل التفسير الواضح القائم على الحقيقة أن يقال : يخرج الحى من الميت كالإنسان من التراب ويخرج الميتَ من الحى كالسقط الميت من المرأة الحية .

ومن العلماء من فسرها تفسيرًا مجازيًا بطريقة أخرى ، فقال : يخرج العالم من الجاهل ، ويخرج الجاهل من العالم ، ويخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وعلى هذا فالمراد من الحياة والموت فى الآية العلم والجهل ، أو الإيمان والكفر على سبيل المجاز .

وقد شرحنا مثل هذه الآية فى سورة آل عمران باستيفاء فارجع إليها إن شئت .

والمعنى الإجمالى للآية : يُخرج الله بقدرته الحى من الميت كالإنسان والحيوان من التراب مباشرة أو عن طريق الأَغذية ، ويخرج الميت من الحى كالسقط الميت من المرأة ، والبيضة العقيم من الدجاجة ، ويحيى الأَرض[1] بالماء والنبات بعد يبسها وفقدان منفعتها ، مثلَ ذلك الإخراج البديع تُخْرَجُونَ من قبوركم للحساب والجزاء ، فكيف تنكرون البعث وأنتم ترون آياته فى الإحياء والإماتة ، أليس فى كل خَلَف بعثٌ لسلفه الميت ؟ .

(١) والإحياء والموت فى الأرض مجازى .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ۝٢٢ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ
وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ
تَخْرُجُونَ ۝٢٥)

المفردات :

(خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ) : من جنسكم .

(أَزْوَاجاً) : زوجات .

(وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ) : واختلاف لغاتكم مع أن الأصل واحد .

(مَنَامُكُم بِاللَّيْل وَالنَّهَارِ) : نومكم فيهما .

(الْبَرْقَ) : هو ما يلمع تباعاً أثناء المطر .

(خَوْفاً وَطَمَعاً) : خوفاً من الصواعق ، وطمعاً فى المطر .

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً) : المراد من السماء هنا : السحاب ، وكل ما علاك سماء .

(بَعْدَ مَوْتِهَا) : بعد يبسها .

(أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) : أن توجدا فى الفضاء بقدرته وتدبيره .

(إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ): أى : تفاجئون بالخروج من قبوركم تلبية لنداء الله .

التفسير

٢٠ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ) :

ومن علامات ربوبيته وألوهيته - تعالى - أنه خلقكم يا بنى آدم من تراب ضمن خلق أبيكم آدم منه ، أو أنه خلقكم من نطف تولدت من أغذية أصلها ومادتها التراب ، ثم إذا أنتم أناس عقلاء تنتشرون عن طريق التوالد ، أو الهجرة فى أنحاء الأرض بعد أن بدأ خَلْقكم بآدم ثم من بعده حواء ، وجعلكم تستنبطون خيراتها الظاهرة والباطنة بما وهبكم من القوى العقلية والجسدية ، وعلمكم من شئون الكون مالم تكونوا تعلمون ، فسبحان من خلقكم ونشركم وأقدركم على عمارة أرضه وجعل لكم من أنفسكم آيات على ربوبيته ووحدانيته .

٢١ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوآ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :

اختلف العلماء فى تفسير خلق الأزواج من أنفس البشر ، وكثير منهم فسره بأنهن خُلِقْنَ من ضلع آدم تبعا لحواء أمهن .

وقد ورد حديث صحيح عن النبى ﷺ يحتمل هـذا المعنى ، فقد روى الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليـوم الآخر فلا يؤذِ جاره ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن خلقن من ضِلَع ، وإن أعوج شىء فى الضِلَع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ،وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » .

ولكن المحققين حملوه على التمثيل لا على الحقيقة ، فالمعنى المراد : أنهن فى اعوجاج طباعهن يشبهن الضلع الأعوج ولهذا عقبه بقوله : « وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » فهذا يشير إلى اعوجاج طباعهن ، وأن أكثر الاعوجاج فى رءوسهن حيث توجد ألسنتهن ، فإن حاولت أن تجعل امرأتك مستقيمة الطباع بعيدة عن خطأ اللسان فشلت ، وانتهت محاولتك فى إصلاحها إلى كسرها ، وهو كناية عن إصابتها بَدَنيا أو نفسيا ، أو عن طلاقها ، كمن يحاول إصلاح الضلع الأعوج فإنه يفشل ، وتنتهى محاولته إلى كسره ، وإن تركتها دون تقويم وتهذيب بقيت على اعوجاجها ، كما يبقى الضلع على اعوجاجه إذا تركته ، وخير الأمور الوسط ، وهو الوعظ برفق ، والتغاضى عما يدفع إليه الطبع غالبا ، وما من رجل أو امرأة إلا له عيوب .

وخير ما تحمل عليه الآية : أن المرأة خلقت من جنس الرجل ، فكانت على نظام خلقه ، لا فرق بينهما إلا الذكورة والأنوثة ولهذا عقب خلقها منه بقوله : (لِتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) فإن خلق الزوجة من جنس زوجها ـ تكوينا وعقلا ـ يؤدى إلى سكون الزوج إليها وقيام المودة والرحمة بينه وبينها ، بخلاف ما لو خلقت من جنسٍ حيوانى آخر ، فإن الأمر يكون بينهما على التباين والتناقض .

أما مبدأ خلق حواء ، فقد قيل : إنه من فضلة طينة آدم ، ولكن التوراة صريحة فى أنها خلقت من أحد أضلاع آدم ، كما جاء فى سفر التكوين (الإصحاح الثانى ٢١ ـ ٢٣) والله أعلم بصحة ذلك .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن دلائل ربوبيته ـ تعالى ـ أنه خلق لكم ـ أيها البشر ـ أزواجا من جنسكم جسداً وعقلا ، لا يفرق بينكم وبينهن سوى الذكورة والأنوثة ، ليسكن الرجل منكم بالزواج الشرعى إلى زوجه ، وإن لم يكن يعرفها من قبل ، وليبقى بمباشرتها الجنسُ البشرىُّ ، وليطمئن إليها بالعشرة معها ، فإن الجنس يميل إلى جنسه ويألفه ، بخلاف ما لو كانت من جنس آخر ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، فكلا كما يحب الآخر

ويرحمه ويدفع عنه مايضره ويؤذيه قدر استطاعته ، إن فيا ذكر فى هذه الآية من عجائب تدبير الله لدلائل على ربوبيته ، وعظيم فضله ، وواسع رحمته – لدلائل – لقوم يتفكرون .

٢٢ – (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) :

ومن دلائل ربوبيته خلق السموات والأرض وما فيهن من عجائب الإبداع وروائع الجمال ، وبقائهن فى الفضاء بعجيب قدرته وعظيم علمه وحكمته ، ومن دلائل ربوبيته أيضا اختلاف لغاتكم ، حيث علم كل أمة لغتها المخالفة للغة غيرها ، أوألهمها العبارات المختلفة للتعبير عن حاجاتها ، وخالف بين طرائق نطقكم ، فلا يكاد يوافق أحدكم غيره فى أسلوب نطقه واختيار عباراته ، ومن دلائل ربوبيته أيضا اختلاف ألوانكم من أبيض إلى أسود إلى أصفر إلى غير ذلك ، أو اختلاف ألوانكم بتخطيط الأعضاء والهيئات والألوان ، بحيث وقع التمايز والتعارف ، حتى إن التوأمين – مع اتحاد أصلهما – لابد من وجود اختلاف بينهما ليحصل التعارف ، إن فى ذلك كله لآيات عظيمة لكل عالم مفكر ، على وجود إله حكيم قدير عليم .

٢٣ – (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

دعت هذه الآية الكريمة إلى التأمل فى آيات جليلة واضحة الدلالة على ربوبية الله ومزيد رحمته بعباده ، وهى آية النوم وآية طلب الرزق ، وماتشتملان عليه من آيات .

فأما آية النوم فإنها وسيلة إلى راحة القوى النفسية والبدنية ، وإعادة النشاط إليها بعد الكلال .

والنوم هبة من هبات الرحمن الرحيم ، فليس للإنسان أى كسب أو جهد فيه ، وما على الإنسان إلا أن يستسلم لفراشه ويغمض عينيه وينتظر رحمة الله تأتيه بالنوم فليسح بفضل الله إلى إحساسه وشعوره العقلى ، فيغيبه فى طياته ، ويضفى على أجهزته البدنية والعقلية الراحة والسكينة ، ولو شرد النوم عن الإنسان فإنه لايستطيع أن

يسترده بأى جهد يبذله ، مالم تأته به عناية الله ورحمته ، فتلك آيات عليدة تضمنتها آية النوم ، وقد يصبح الأرق مرضا ملازما فيصاب صاحبه بالكآبة وغيرها من الأمراض النفسية أو الجسدية ، ولاينفعه إلا رحمة تأتيه من الرحمن الرحيم من حيث لايعلم ، فلهذا ينبغي لمن يصاب بالأرق أن يكون شديد اللجوء إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء ، ومما جاء فيه ما أخرجه الطبرانى فى مسنده عن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال : أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حى قيوم ، ياحى ياقيوم أنم عينى وأهدئ ليلى » فقلتها فذهب عنى .

وينبغى لمن أصابه الأرق أيضا أن يبعد عن نفسه التفكير فيه ، حتى لايصبح عقدة نفسية ، وعليه أن يكون قوى الأمل فى رجوع النوم إليه برحمة الله ، وأن يكون عظيم التوكل على الله والثقة فى رحمة الله ، حتى لاتطول غربة النوم عنه .

والنوم كما يكون ليلا يكون نهارا ، فمن الناس من يعملون ليلا كالحرّاس وعمال المخابز ، فهؤلاء ينامون نهارا ، ومنهم من يعملون نهارا ، وقد ينامون ظهرا ، ومنهم من يأتيه النوم فى أى وقت من الليل أو النهار ، تبعا لحاجة أجسادهم ونفوسهم ، فمن رحمة الله أن جعله مشاعا بين الليل والنهار لمن يحتاجون إليه ، فلهذا قال ـ سبحانه ـ : (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) .

وأما آية ابتغاء الرزق فإنها تضم عدة آيات ، والرزق بيد الله ، وكم من طالب رزق معين يأتيه غيره ، وكم من طالب له لايجده ، وكم من غافل فيأتيه رزق لم يتوقعه ولم يسع إليه .

وطلب الرزق كما يكون فى النهار يكون فى الليل ، وبخاصة فى هذا الزمان ، حيث تفتح المتاجر والمصانع أبوابها ليلا كما تفتح نهارا ، والله ـ تعالى ـ يسوق الرزق لجميع عباده (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) ولكن الله ـ تعالى ـ ربط المسببات بأسبابها ، ولهذا أمر عباده بالسعى فى طلب الرزق الذى قسمه الله لهم بقوله :(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا

وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ) وإن كان بعض الرزق يأتى بغتة من غير سعى . كالمواريث والهبات والصدقات المفاجئة ، ولكن السنة الإلهية فى الحصول على الأرزاق هى السعى إليها ؛ فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن آيات ربوبيته - تعالى - وكمال تدبيره وحكمته نومكم بالليل تارة ، وبالنهار أخرى ، حسب حاجتكم إلى النوم ، فحينا تحتاجون إليه أو تطلبونه يحقق الله لكم منه حاجتكم ، ومن آياته طلبكم الرزق فى الليل والنهار أيضا فيأتيكم منه ماقسمه الله لكم ، إن فيما تقدم من النوم وطلب الرزق فى ليل أو نهار : لآيات واضحة الدلالة على ربوبيته ووجوب الاستعانة به واللجوء إليه ، إن فيما تقدم لآيات لقوم يسمعون سماع تدبر وتفكر .

والتعبير بقوله ، «يَسْمَعُونَ» بدلا من : يبصرون ، أو : يتفكرون ؛ للإيذان بأن الأمر من الظهور بحيث يكفى فيه مجرد السماع لمن له فهم وبصيرة ، ولايحتاج إلى مشاهدة وإن كان مشاهدا ، ولا إلى إعمال الفكر بعمق لغاية وضوحه .

٢٤ - (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

المقصود من قوله : (يُرِيكُمُ) المعنى المصدرى ، فكأنه قيل : ومن آياته إراءتكم البرق ، وهو من باب استعمال الفعل المضارع فى جزء من معناه وهو الحدث ، كما قالوه فى المثل المشهور : تسمع بالمُعَيْدِىِّ خير من أن تراه أى : سماعك به . . . إلخ .

وذهب أبو على إلى أن الكلام على تقدير (أن المصدرية) والأصل ، أن يريكم ، فلما حذفت ارتفع الفعل وبطل عملها بالحذف ، والمآل فى كلا الوجهين واحد وهو المعنى المصدرى ، والبرق : هو الومضات الكهربية المضيئة السريعة المتلاحقة أثناء المطر الغزير .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن آيات الربوبية والبعث أن يريكم الله البرق اللامع المنبعث من السحب الركامية خوفا من نزول الأمطار الكاسحة بسيلها أو من نزول الصواعق وطمعا فى مطر ينفع ولايضر .

أو خوفا من نزول المطر للمسافر برًّا لأنه يضره ، وطمعا للمقيم لأنه ينفعه في الزراعة وغيرها ، ولهذا قال عقبه : «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » أى : وينزل الله من السحاب مطرا فيحيي به الأرض بالنبات والشجر ، بعد أن كانت هامدة يابسة ، فلما جاءها الماء «اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » إن فيما تقدم من إراءة البرق وإنزال المطر وإنبات الزرع والشجر لآيات بينات على قدرة الله وحكمته وربوبيته ، وأنه يبعث من فى القبور . لآيات على ذلك لقوم يعقلون .

٢٥ ــ (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) :

ومن علامات ألوهيته ــ تعالى ــ أن توجد السماء والأرض فى الفضاء بأمره وتدبيره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ثم إذا دعاكم يوم القيامة للخروج من الأرض التى دفنتم فيها ، إذا أنتم تخرجون فور الدعاء ، فمن قدر على البدء والاختراع فهو على الإعادة أقدر .

(وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(قَانِتُونَ) : منقادون خاضعون .

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) : وله الوصف الأعظم .

(الْعَزِيزُ) : الغالب .

التفسير

٢٦ - (وَلَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ):

ولله من فى السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن ، ومَنْ عسى أن يكون بها من مخلوقات مكلفة عاقلة لاعلم لنا بها ، كل هؤلاء لإرادته - تعالى- خاضعون ، حيث يتصرف فيهم كما يشاء بمقتضى حكمته وتدبيره - جل وعلا - .

٢٧ - (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

والله هو الذى يبدأ الخلق من آن لآخر ، ثم يعيده بالبعث بعد الموت ، والإعادة أسهل من البداية إذا نظر إليها بمقاييس الناس ،وإن كانت عند الله سواء ، لأنه يقول للشىء : كن فيكون ، ولله الوصف الأعلى العظيم فى السموات والأرض ،يصفه به كل من فيهما دلالة أو نطقا ،ولا يدانيه فى كمال أوصافه أحد ، وهو العزيز الذى لايغلبه غالب ، الحكيم فى خلقه وتدبيره ،أخرج الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « قال الله : كذَّبنى ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى - وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد[1] » .

---

(١) انظر ابن كثير .

(ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ) : ذكر لكم مثلا منتزعا من أنفسكم أيها البشر .

(هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ) : هل ؛ حرف استفهام مراد منه النفى ، أى : ليس لكم من عبيدكم شركاء ، ولفظ (مِنْ) الأولى ابتدائية ، والثانية تبعيضية ، والثالثة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام الإنكارى فى لفظ : (هَلْ) .

(كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) : كخوفكم منها .

(نُفَصِّلُ الْآيَاتِ) : نوضحها ونبينها .

التفسير

٢٨ـ (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ . . .) الآية :

بين الله ـ تعالى ـ فى الآيات السابقة دلائل ربوبيته ووحدانيته وأن له المثل الأعلى والوصف الأسمى فى جميع الصفات ، لايدانيه فيها أحد ، وجاء بهذه الآية ليؤكد بها وحدانيته بطريق ضرب المثل، لما فيه من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو فى الإفحام أقوى .

وحتى تعظم قيمة هذا المثل فى الإفحام عند القارئ نقول :

إن المشركين كانوا معترفين بأن أوثانهم عبيد الله - تعالى - فقد كانوا يقولون فى تلبيتهم : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك ، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك »

ومعنى الآية ، ذكر الله لكم مثلا لإشراككم عبيد الله معه فى الألوهية ، وهذا المثل منتزع من أنفسكم أيها البشر : هل لكم من عبيدكم اللذين ملكتهم أيمانكم - هل لكم منهم - شركاء فيا رزقناكم من الأموال وسواها ، فتكونوا أنتم وإياهم فى حق ملك مارزقناكم والتصرف فيه سواء بحيث تخافونهم أن يستبدوا بتصرف ما ، كخوفكم أيها الشركاء الأحرار بعضكم من بعض .

وخلاصة هذا المثل الذى ابتدأ بالاستفهام الإنكارى : (هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..) خلاصته أنه ليس لماليككم حق الشركة فى أموالكم ، فإذا كنتم تأبون أن يشركّكم عبيدكم فى أموالكم وهم مثلكم فى البشرية غير مخلوقين لكم ، بل لله - تعالى - فكيف تشركون بالله - تعالى - فى المعبودية والألوهية التى هى من خصائصه الذاتية - كيف تشركون به مخلوقه بل مصنوع مخلوقه ؟ - جل وعلا - حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه ؟ وكيف يرضى الله بذلك ؟ مِثْلَ ذلك التفصيل الواضح يفصل الآيات ويبينها لقوم يستعملون عقولهم فى فهم حقائق الأمور .

٢٩ - (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

إضراب وإعراض عن مخاطبة المشركين لجهلهم واتباع أهوائهم ، وكأنه قيل : لم يفعلوا شيئا من الآيات المفصلة قبل هذه الآية ، بل اتبعوا أهواءهم الزائفة التى ظلموا بها أنفسهم حيث عبدوا غير الله بجهالة وسوء رأى ، مع تمكنهم من العلم لو فتحوا قلوبهم للحق ، فمن يستطيع هداية من أضلهم الله عن الحق بسبب إعراضهم عنه ، وما لهؤلاء الضالين من ناصرين يخلصونهم من الضلال وتبعاته :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) : اجعل وجهك مستقيما نحو الدين .

(حَنِيفًا) : مائلا عن الباطل إلى الحق ، فَعِيل من الحَنَف : وهو الميل ، ويطلق الحنيف على صحيح الميل للإسلام ، وعلى دين إبراهيم - ذكره صاحب القاموس .

(فِطْرَةَ اللهِ) : خلقته .

(فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) : خلقهم عليها .

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) : لاتبديل لدين الله .

(ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) : ذلك الدين المستقيم .

التفسير

٣٠- (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ . . .) الآية :

بعد أن بين الله آيات ربوبيته ، وضرب مثلا لفساد الإشراك جاء بهذه الآية لإقرار ماتقدم من وجوب التوحيد ، وحث كل مكلف على الإقبال على دين التوحيد الذى هو دين الفطرة التى فطر الناس عليها .

والخطاب فى قوله - تعالى - : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) لكل فرد مكلف من الأمة المحمدية فى شخص نبيها محمد ﷺ فهو إمامها ، أو خطاب لكل مكلف مباشرة .

والوجه فى قوله – تعالى – «فَأَقِمْ وَجْهَكَ» إما أن يراد به معناه المعروف، وإما أن يراد به الذات كلها، وسواء أكان المراد به هذا أم ذاك فالآية تمثيل لوجوب الإقبال على دين الإسلام والاستقامة والثبات عليه والاهتمام به، ولذلك عقبه بقوله: (حَنِيفاً) أى: مائلا عن الأديان كلها متجها إليه ومقبلا عليه، أوْ دِينَ إبراهيم الحنيف – عليه السلام – يعنى أن التوحيد هو دين إبراهيم الحنيف.

وهذا الدين الإسلامى الذى أمرنا الله بالاستقامة عليه، هو فطرة الله وخلقته التى فطر الناس وخلقهم عليها، أخرج الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء[1]، هل تجدون فيها من جدعاء[2]؟» ثم يقول أبو هريرة: «فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ[3]».

وأخرج ابن مردويه بسنده عن حماد بن عمر الصفار قال: سألت قتادة عن قوله – تعالى –: «فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» فقال: حدثنى أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «فطرة الله التى فطر الناس عليها: دين الله تعالى» وبهذا التفسير فسرها السلف.

ومن العلماء من فسر الفطرة بأنها قابلية الحق والتهيؤ لإدراكه، فالناس جميعا مفطورون ومخلوقون مستعدين لقبوله، لايمنعهم عنه إلا المبطلون من شياطين الإنس والجن، والتفسيران متقاربان، والفطرة فى كليهما: اسم هيئة من الفطر، بمعنى الخلق والاختراع.

وأما قوله – سبحانه –: (لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) فهو خبر مراد منه النهى، أى: لاتبدلوا دين الله وخلقته التى خلق الناس عليها بالإصغاء إلى دعاة الباطل من شياطين الإنس أو الجن.

(١) أى: مجتمعة الأعضاء، سليمة من العيوب.

(٢) مقطوعة الأطراف أو بعضها.

(٣) البخارى فى تفسير سورة الروم.

والمعنى الإجمالى للآية : فأقبل - أيها العاقل - على الإسلام دين الحق واستقم عليه واهتم به ، مائلا إليه بجد وهمة ، منصرفا عن سواه من سائر الأديان ، فطر الله الناس عليه وخلقهم مستعدين له ، لاتبدلوا فطرة الله وخلقته ، ذلك الدين المستقيم الذى لايصح تبديله ، ولكن أكثر الناس لايعلمون استقامته ، ووجوب الإيمان به ؛ لعدم تدبرهم وإهدارهم عقولهم .

* (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) : أى ؛ راجعين إليه بالتوبة والإخلاص ، من أناب : إذا رجع مرة بعد أخرى .

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ) : قيل ؛ هم أهل الأهواء والبدع ، أو اليهود والنصارى .

(وَكَانُوا شِيَعًا) : أى ؛ فرقًا ، جمع شيعة ، والشيعة فى الأصل : الأتباع والأنصار ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليًّا وأهل بيته حتى صار اسمًا لهم خاصًّا بهم ، وجمع الجمع : أشياع .

(كُلُّ حِزْبٍ) : الحزب ؛ الطائفة من النَّاس ، والجمع : أحزاب .

التفسير

٣١ -(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

بين - سبحانه - بهذه الآية أن العبادة لاتقبل من عباده إلَّا مع الرجوع إليه - عز وجل - والإخلاص له ، فقال : « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » وهو مرتبط بقوله - سبحانه - : « فِطْرَةَ اللهِ »

أى : الزموا فطرة الله عائدين إليه مقبلين عليه بالتوبة النصوح التى تطهِّر قلوبكم ، وتزكى نفوسكم . أو مرتبط بقوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » أى : فأقيموا وجوهكم ، واستمروا على الدين الذى شرعه الله لكم منيبين إليه ، وإنما جمع مع أن الخطاب فى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ » لمفرد وهو النبى ؛ لأن خطابه خطاب لأُمته ، وقال الفراء : فأقم وجهك ومن اتبعك منيبين فهو كقوله : « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ »[1] ، (وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى : خافوه وامتثلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه ، وأدوا الصلاة بشروطها وفى أوقاتها ، ولا تكونوا من المشركين ، بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا تريدون بها سواه ، لأنها لا تنفع إلَّا مع الإخلاص له وحده – سبحانه – .

٣٢ـ (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) :

أى : ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم ،[2] وتفريقهم لدينهم : اختلافهم فيا يعبدونه وفق اختلاف أهوائهم .

(وَكَانُوا شِيَعًا) : أى فِرقًا ، كل فرقة تشايع إمامها الذى مهَّد لها دينها ووضع أصوله ، فأصبحوا بذلك نِحَلًا وأديانًا مختلفة ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس ، وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة التى قبلنا ، اختلفوا على أديان وملل باطلة .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) : أى كل فريق منهم بما عندهم من الدين المعوج المؤسس على الباطل مسرورون ، وبه معجبون ، يظنون أنهم على الحق الذى جهلوه ، وكان عليهم أن يبحثوا عنه ويتبعوه ، فالجملة ذكرت تقريرًا لمضمون ما قبلها من تفريق دينهم وكونهم شيعًا .

---

(١) هود : ١١٢ .

(٢) قوله : من الذين فرقوا دينهم بدل من المشركين بإعادة الحرف ، وفائدة الإبدال : التحذير من الانتماء إلى حزب من الأحزاب ببيان أن الكل على الضلال .

(وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) : أى نالهم قليل من الضر ، ويتعدى إلى ثان بالحرف .

(يُشْرِكُونَ) : أى يشركون به غيره فى العبادة .

(لِيَكْفُرُوا بِمَآ آتَيْنَاهُمْ) : أى ليجحدوا النعمة التى أعطيت لهم ، يقال : كفر النعمة ، وكفر بها : جحدها وغطاها .

(فَتَمَتَّعُوا) : أى انتفعوا به كما شئتم ، يقال : استمتعت بكذا ، وتمتعت به : انتفعت .

(سُلْطَانًا) : أى ، حجة وبرهانًا .

التفسير

٣٣ - (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً . . .) الآية :

أى : وإذا مس الناس قحط وشدة وهزال ومرض وغيرُ ذلك أقبلوا على ربهم مستغيثين به راجعين إليه مقبلين عليه تاركين دعاء غيره من الأصنام وسواها ، ذلك شأنهم فى حال الاضطرار ، ولكنهم فى حال الرخاء وتوالى النعم عليهم والخلاص من تلك الشدة

(إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ): أى فاجأ فريق بالإشراك بربهم ، الذى كانوا يدعونه منيبين إليه ، وذلك بنسبة خلاصهم مما كانوا فيه إلى غيره من صنم أو كوكب أو غيرهما من المخلوقات .

وتخصيص الإشراك ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك ، وتنكير : (ضر ورحمة) للإشارة إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبة ويطغون لأدنى نعمة .

٣٤ ـ (لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ):

أى : يشركون به غيره لكى يكفروا بما آتيناهم من النعم ، أو اللام للأمر قصدًا إلى التهديد والوعيد ، كما يقال عند الغضب : اعصنى ما استطعت ، وهو مناسب لقوله ـ سبحانه ـ : « فَتَمَتَّعُوا » أى : افعلوا ما شئتم فسوف يحيق بكم عاقبة تمتعكم ووباله . والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة فى التهديد ، ثم أنكر ـ سبحانه ـ على المشركين عبادة الأوثان بلا دليل ولا برهان فقال :

٣٥ ـ (أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ) :

فى هذه الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة ، للإيذان بالإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم ، أى : بل أنزلنا عَلَيْهِم حجة لها سلطان يجعلهم يتكلمون بما كانوا به مشركين . أو يراد : بل أأنزلنا عليهم مَلَكًا ذا سلطان فهو يتكلم وينطق بإشراكهم بالله ـ تعالى ـ ويبين صحته ، أو ينطق بالذى يشركون بسببه ، والمراد : نفى أن يكون لهم مستمسك يُعَوَّل عليه فى شركهم ، إذ الاستفهام للإنكار .

(وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) : بلاء وعقوبة .

(يَقْنَطُونَ) : أى ييئسون من رحمة الله ، وقنط من باب ضرب وتعب ، وهو قانط وقنوط ، ويُعَدَّى بالهمزة .

(وَيَقْدِرُ) : أى ويضيق ، يقال : قَدَرَ الله الرزق ، يقدِره ـ بكسر الدال ـ وَيَقْدُره ـ بضمها ـ ضيَّقه ، والكسر أفصح ، وبه قرأ السبعة .

التفسير

٣٦ ـ (وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ...) الآية .

أى : وإذا أذقنا الناس نعمة من مطر وسعة وصحة وأمن ودعة ونحوها فرحوا بتلك النعمة بطرا وأشرا لا حمدًا وشكرًا لمجريها ، (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) أى بلاء وضيق بشؤم معاصيهم التى اقترفوها ، فاجأوا باليأس من رحمة الله ، وهذا شأن من لم يرسخ الإيمان فى قلبه ، وفى نسبة الرحمة إليه ـ تعالى ـ دون السيئة تعليم للعباد ألَّا يضاف الشر إليه ـ سبحانه ـ .

وعدم بيان سبب إذاقة الرحمة ، وبيان سبب إصابة السيئة : إشارة إلى أن الأول منَّة وتفضل منه ـ تعالى ـ والثانى قسط وعدل بسبب معاصيهم التى قدموها وباءوا بإثمها .

٣٧- (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ...) :

أى : ألم ينظروا ، ولم يشاهدوا أن الله يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ؟ وهذا باعتبار شخصين ، أو شخص واحد فى زمانين ، فلا يحق لهم أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته - سبحانه - فهو القابض الباسط ، والمراد : إنكار بطرهم عند الفرح ، وقنوطهم عند الشدة .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : أى إن فيما تشاهدونه من البسط والتضييق لحجة بالغة لقوم يؤمنون بالله حق الإيمان ، فيستدلون بها على القدرة والحكمة البالغة ، وعلى أنه - سبحانه - يفعل ذلك بمحض مشيئته ، وليس الغنى بفعل العبد وجهده ، ولا الفقر بعجزه وتقاعده ، ولا يعرف ذلك ويقدره حق قدره إلا من آمن بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، فكم أخفق الجادون ، ونجح وتقدم المبطئون .

(فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(وَالْمِسْكِينَ) : هو الذى لا شىء له ، أو له شىء لا يقوم بكفايته .

(وَابْنَ السَّبِيلِ) : المسافر المحتاج إلى نفقة سفره .

(لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ) : أى يقصدونه - عز وجل - بمعروفهم خالصًا ، أو يريدون النظر إلى وجهه يوم القيامة وهو الغاية القصوى .

التفسير

٣٨ـ (فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ . . .) الآية :

وجه تعلق هذا الأمر بما قبله واقترانه بالفاء على ماذكره الزمخشرى : أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما كسبت أيديهم أتبعه ذكر مايجب أن يفعل ، فقال ـ تعالى ـ :(فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ . . .) الآية، والخطاب للنبى ، والمراد هو وأمته ، على أنه المقصود به أصالة ، وأمته تبعًا ، وقال الحسن : هو خطاب لكل سامع ، وجوز غير واحد أن يكون الخطاب لمن بسط له الرزق .

أى : فأعط ذا القربى حقه من الصدقة وسائر المبرات صلة للرحم . قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله ـ عز وجل ـ حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة ، وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذى القربى على وجه النّدب ، وقد فضل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك » من القرطبى بتصرف .

وأعط المسكين وابن السبيل مايستحقانه ؛ قال ابن عباس : أى : أطعم السائل الطواف والضيف المنقطع به الطريق ، والمشهور : أنه المنقطع عن ماله .

وعُبّر عن القريب بذى القربى فى جميع المواضع ، ولم يُعبَّر عن المسكين بذى المسكنة ؛ لأن القرابة ثابتة لا تتجدد ، ولا يقال : ذو فى الأغلب إلّا فى الثابت ، ألا ترى أنهم يقولون لمن تكرر منه الرأى الصائب : فلان ذو رأى ، وتكاد لاتسمعهم يقولون لمن أصاب مرة فى رأيه كذلك ، والمسكنة لكونها تطرأ وتزول لم يُقَل فيها ذلك .

(ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) : أى إن الإتيان المفهوم من الأمر خير فى نفسه أو خير من كل عمل آخر ، للذين يقصدونه ـ عز وجل ـ بمعروفهم خالصًا يأملون به النظر إلى وجهه يوم القيامة ، وهو الغاية العظيمة والرجاء المأمول .

(وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) : حيث حصلوا بإنفاق مالهم النعيم المقيم ، لا الذين بخلوا بما أوتوا ولم ينفقوا شيئًا .

(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا) : الربا : الفضل والزيادة ، وبابه : نَصَرَ .

(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ) : أى صدقة تطوع ، لأن السورة مكية ، والزكاة فرضت فى المدينة .

التفسير

٣٩ ـ (وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ) :

عن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا الحلال الذى يهدى ليثاب ما هو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له فيه أجر وليس عليه فيه إثم . وعن ابن عباس أنه أريد به هدية الرجل الشىء يرجو أن يثاب أفضل منه ، فذلك الربا الذى لا يربو عند الله ، ولا يؤجر صاحبه ، ولكن لا إثم عليه ، وفى هذا المعنى نزلت الآية ، وبهذا قال عكرمة .

والمعنى : وما أعطيتم من ربا ـ فيما تهدونه لسواكم ليزيد ويزكو فى أموال الناس الذين أعطيتموهم إياه بأن يحصل لكم أكثر منه فلا يزيد عند الله ، ولا تثابون عليه لأنكم لم تريدوا

به وجهه - تعالى - ولكن لا إثم فيه ، فما يأخذه المعطى من الزيادة على ما أعطاه ليس بحرام ودافعه ليس بآثم (فهو مباح[1] وإن كان لا ثواب فيه) كما قال ابن كثير .

وقرئ : (أَتَيْتُمْ) بدون مد ، أى : وماجئتم من عطاء ربًا ، أو فعلتم ، وتسمية الهدية المذكورة ربًا لأنها سبب للزيادة ، وقيل : إن الآية نزلت فى الزيادة التى حرمها الشارع . قال السدى : إن الآية نزلت فى ربا ثقيف ؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا ، وتعمل به فيهم قريش .

(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) : أى وما أعطيتم من صدقة تطوع تبتغون بتلك الصدقة وجهه - تعالى - خالصًا فلا تطلبوا عليها مكافأة ، ولا يدفعكم إليها رياء ولا سمعة .

(فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) أى : هم الذين ضاعفوا ثوابهم وجزاءهم عند الله ببركة الصدقة إلى عشر أمثالها أو أكثر ، كما قال - تعالى - : « مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً »[2] ، وكما فى الصحيح : « وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فُلُوَّه[3] أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد » ، وقوله - سبحانه - :

(فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) : التفات حسن من الخطاب إلى الغَيبة لإفادة التعميم ، فكأنه قال : من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين .

وأتى بالجملة اسمية مصدرة باسم الإشارة مع ضمير الفصل لقصد المبالغة .

٤٠ - (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أثبت الله - سبحانه - فى هذه الآية لوازم الألوهية وخواصها لذاته ، وهى الخلق ، والرزق والإماتة والإحياء ، ثم نفى هذه اللوازم عمَّا اتخذوهم شركاء له - تعالى - بقوله :

---

(١) قيل : كان هذا حراما على النبى ﷺ على الخصوص . قال الله - تعالى - : « ولا تمنن تستكثر » اهـ : القرطبى .

(٢) من الآية رقم ٢٤٥ البقرة .

(٣) الفلو : المهر الصغير . والفصيل : ولد الناقة ؛ لأنه يفصل عن أمه .

(هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ) :أى لا يقدر أحد من شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله على فعل شىء من خواص الألوهية ، لأنه – جل وعلا – هو المختص بها ، وقد سئلوا فلم يجيبوا عجزًا .

ويفهم من ذلك علم صحة الشركة إذ لا تقبل ولا تعقل شركة ما ليس بإله لمن هو إله لتجرده من لوازم الألوهية التى انفردت بها الذات العلية .

ولتأكيد تنزهه عن الشركاء قال – تعالى – : (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) : أى تقدس وتنزه – جل وعلا – عن أن يكون له شريك أو مثيل أو ولد أو والد ، وإنما هو الأحد الفرد الصمد ، وإطلاق لفظ (الشركاء) على آلهتهم الباطلة لأنهم كانوا يسمونهم الآلهة والشركاء ، ويقدمون القرابين لها .

(ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : الفساد؛ ضد الصلاح ، والمراد به : الجدب والقحط وكثرة المضار .

(بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ) : أى؛ بما تحملت من الإثم ، يقال : كسب الإثم ، واكتسبه : تحمّله .

(عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ) : عاقبة كل شىء : آخره ونهايته .

التفسير

٤١ـ (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

ظهر الفساد فى البر والبحر بالجدب والقحط ، والغلاء الشديد ، وذهاب البركة ، وكثرة المضار التى تلحق الناس والدواب ، والنبات لانقطاع المطر أو قلته ، وغير ذلك من كوارث البر والبحر . والبر والبحر هما المشهوران المعروفان فى اللغة وعند الناس ، وقال قتادة : البر : الفيافى ومواضع القبائل وأهل الصحارى ، والبحر : المدن . والعرب تسمى الأمصار بحاراً لسعتها ، وعن مجاهد : البر : البلاد البعيدة من البحر ، والبحر : السواحل والمدن التى عند البحر . وظهور الفساد فى البر والبحر بسبب شؤم مافعله الناس من المعاصى والذنوب .

وقد ابتلاهم ـ سبحانه ـ بالفساد فى البر والبحر : (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أى : ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة لكى يرجعوا عمَّا هم فيه من المعاصى بالتوبة والإقلاع عن الذنب ، كما قال ـ تعالى ـ : « وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »(1) .

والآية تشير إلى حكم عام فى كل فساد يظهر إلى يوم القيامة .

٤٢ـ (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ) :

هذا القول الكريم مسوق لتأكيد تسبب المعاصى فى غضب الله ونكاله ، أى : قل لهم ـ أيها الرسول ـ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ لِتَنظُرُوا كَيْفَ أهلك الله الأمم السابقة ، وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم ، فنى ذلك عظة وعبرة لردع العصاة (كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ) :مسوق للدلالة على أن كثرة الشرك شؤم على غير المشركين ، لأنه تهويل لأمر الشرك وتقبيح وأنه فتنة لاتصيب الذين ظلموا خاصة .

(١) الأعراف : ١٦٨

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) : الوجه معروف ، أو هو مجاز عن الذات ، وإقامته : توجيهه ، والدين القيم : الدين المستقيم وهو الإسلام .

(مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ) : لايرده الله عنهم ، وهو يوم القيامة .

(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) يتفرقون . من : التصدُّع ، وهو التفرق ، وأصله : يتصدعون فقلبت تاؤه صادًا وأُدغمت فى الصاد .

(يَمْهَدُونَ) : أى يوطئون لأنفسهم منازل فى الجنة ، كما يوطىء الرجل لنفسه فراشًا ليستريح فى مضجعه والمهد ، والمهاد : الفراش الممهد .

التفسير

٤٣ـ(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) :

أى : فاتجه بذاتك قلبًا وروحًا وجسدًا نحو الدين الكامل الاستقامة وهو الإسلام ، من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله بعد أن يجىء به ، وإذا لم يرده - سبحانه- لم يتهيأ

لأحد ردّه ، وذلك هو يوم القيامة ، ويوم إذ يجيء يتفرق الناس إلى فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، وقيل : يتفرقون تفرّق الأشخاص ، على ما ورد فى قوله — تعالى — : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ »[1] ورجح هذا بأنه المناسب ، لأن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين لا يدرون ماذا يصنعون ، ولا ما يصنع بهم .

٤٤ — (مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) :

أى : كل من كفر فعليه وبال كفره بأن يصليه الله نار جهنم خالدًا فيها ، لا يموت ولا يحيا ، وكل من عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون ويُعدون مَنزلًا فى الجنة يتخذونه مستقرًّا ومقامًا ، شأنهم فى ذلك شأن من يمهد لنفسه ويوطئه ، لئلا يصيبه فى مضجعه ما يؤذيه من نتوء أو قضض[1] ونحوهما ، وجمع الضمير فى قوله : (فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) باعتبار معنى (مَنْ) ويروى ابن أبى نجيح عن مجاهد فى تفسير : (فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) قال : فى القبر ، والظاهر أن هذه التوطئة لما بعد الموت فى القبر وغيره .

وتقديم الجار والمجرور فى الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر ، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه .

٤٥ — (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) :

متعلق بيمهدون علة له ، أى : يمهدون لأنفسهم منزلًا وموئلا فى الجنة ، لأن الله يجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات على ما قدموا مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ، إنه لا يحب الكافرين لكفرهم ، فلذا أبعدهم عن رحمته وعاقبهم ، وتفضل بحسن الجزاء على المؤمنين الصالحين .

---

(١) الآية رقم ٤ من سورة القارعة .

(١) القضض : ما تفتت من الحصى .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَمِنْ آيَاتِهِ) : أى ومن دلائل قدرته .

(مُبَشِّرَاتٍ) : بالمطر لأنها تتقدمه .

(وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ) : وهى نزول المطر وحصول الخصب .

(وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ) : أى ولتسير السفن فى البحر عند هبوبها بأمره .

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى ولتشكروا نعم الله عليكم .

التفسير

٤٦ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

أى : ومن آيات الله الدالة على عظيم ماتفضل به على خلقه : إرسال الرياح لتبشركم بالمطر لأنها تسبقه وتدل عليه ، وليذيقكم من فيض رحمته التى تتمثل فى المطر وحصول الخصب وسائر منافع الرياح ، ولتكون سببًا فى إجراء السفن فى البحر عند هبوبها بأمره - سبحانه - وتقديره ، وقد ذكر فى التنزيل جريان الفلك (بِأَمْرِهِ) - تعالى - لأن الريح قد تهب ولا تكون مواتية لجريانها ، فلابد من انضمام أمره - تعالى - للريح حتى تأتى بالمطلوب ، وإلا تعين إرساء السفن ، والاحتيال فى حبسها .

فبتسيير السفن فى البحر بأمره - سبحانه - يحصل لكم ماتبتغونه من فضله بنقل التجارة فيه ، والانتفاع بخيراته .

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى ولتشكروا نعمة الله عليكم فيما ذكر من هذه النعم الجليلة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ) : أى المعجزات ، والحجج البينات .

(فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا) : أى فعاقبنا الذين كفروا بإهلاكهم فى الدنيا . يقال : نَقَمت منه ، من باب : ضرب ، وانتقمت منه : عاقبته ، وَجَرَمَ وأجرم : اكتسب الإثم .

التفسير

٤٧ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) :

هذه الآية متوسطة بين ماسبق ومالحق من أحوال الرياح وأحكامها ؛ لتسلية الرسول ﷺ بمن قبله على وجـــه يتضمن الوعد له ، والوعيد لأعدائه ، وفى ذلك تحذير عن الإخلال بمواجب الشكر المطلوب بقوله - تعالى - : « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » حتى لايحل بهم ماحل بأولئك الأمم من الانتقام .

والمعنى : ولقد أرسلنا قبل مبعثك رسلًا إلى أقوامهم ، كما أرسلناك إلى قومك ، فجاء كل رسول بما يخصُّه من المعجزات والحجج البينات ، كما جئت قومك ببيناتك ، فآمن بعض وكذب بعض ، فانتقمنا ممن كفر بالإهلاك فى الدنيا بسبب إجرامهم الذى أوصلهم إلى التكذيب والكفر ، وكان نصر المؤمنين حقًّا علينا بإنجائهم مع الرسل وهو حق أوجبه -سبحانه - على نفسه تكرمًا وتفضلًا ، كقوله - تعالى - : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

الرَّحْمَةَ »[1] ، وروى من حديث أبى الدرداء قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « مامن مسلم يَذُبُّ عن عِرض أخيه إلَّا كان حقًّا على الله - تعالى - أن يَرُدَّ عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) » ذكره النحاس والثعلبي والزمخشرى وغيرهم .

وفى الآية مزيد تشريف وتكريم للمؤمنين ، حيث جعلوا مستحقين على الله - تعالى - أن ينصرهم ، وفيها إشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجلهم .

وظاهر الآية أن النصر لهم فى الدنيا ، وفى بعض الآيات - كما يقول الآلوسى - مايشعر بعدم اختصاصه بها .

قال ابن عطية : وقف بعض القراء على (حَقًّا) ، والمعنى : وكان الانتقام من المجرمين حقًّا ، وتكون جملة : (عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) مستأنفة لبيان ماتميز به المؤمنون ، وأنه - سبحانه - لا يخلف الميعاد .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾)

---

(١) الآية : ١٢ من سورة الأنعام .

المفردات :

(فَتُثِيرُ سَحَابًا) : أى تنشره .

(وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا) : قطعًا ، جمع كِسْفَة ، كَحِكَم : جمع حِكْمَة ، وقرئ : كِسْفا بسكون السين .

(فَتَرَى الْوَدْقَ) : أى المطر .

(يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) : من وسطه .

(لَمُبْلِسِينَ) : أى لساكتين متحيرين من شدة الحزن آيسين من النجاة .

(آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ) : يراد برحمة الله : المطر .

التفسير

٤٨ - (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ...) الآية .

مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال الرياح ، أى : أنه - سبحانه - يرسلها ، فتنشر السحاب ، وتدفعه بقوة ، وينميه الله ويجعل من القليل كثيرًا حتى يملأ أرجاء الأفق ، ينشره - سبحانه - وفق مشيئته هنا وهناك ، سائرًا أو واقفًا ، مُطْبقًا من جانب وغير مطبق من جانب آخر ، أو مطبقًا إطباقًا تامًا ، ويجعله تارة أخرى قِطَعًا متفرقة غير منبسطة ، فترى المطر يخرج من وسط السحاب ، فى حالَى البسط والتقطّع ، فإذا أنزله الله على بلاد من يشاء من عباده وأراضيهم استبشروا فجأة بمجيء الخصب لحاجتهم إليه ، وترقبهم له ، وكان شأنهم قبل تنزيله ما حكاه الله بقوله :

٤٩ - (وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ) :

أى : وإن كان هؤلاء قبل أن يصيبهم المطر قَنِطِينَ مكتئبين ، قد ظهر الحزن عليهم ظهورًا بالغًا لاحتباس المطر عنهم .

وكرر لفظ : (مِن قَبْلِ) للتأكيد ، وأفاد التكرير - كما قال ابن عطية - سرعة تقلب البَشَر من الإبلاس إلى الاستبشار ، وذلك أن قوله - سبحانه - : (مِن قَبْلِ أَن

يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ) يحتمل الفسحة فى الزمان حتى يحصل التقلُّب من اليأس إلى الاستبشار فجاء (مِن قَبْلِهِ) بعده مؤكِّدًا ، للدلالة على الاتصال ، ودفع ذلك الاحتمال . وقال الزمخشرى : أُكِّد ليدل على بُعْد عهدهم بالمطر ، فيفهم منه استحكام يأسهم .

٥٠ ـ (فَانظُرْ إِلَىٰٓ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

الخطاب لكل من يتأتَّى منه النظر ، أى : فانظر نظر تفكير وتأمل إلى آثار رحمة الله المترتبة على إنزال المطر : من إحياء الأرض بعد موتها ، وإنبات الزروع وأنواع الثمار ، وفى الأمر بالنظر إلى إحياء الله ـ تعالى ـ للأرض إحياءً بديعًا بعد موتها ، التنبيه إلى عظيم قدرته ـ تعالى ـ وسعة رحمته ـ عز وجل ـ مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث . .

يعنى : أن ذلك القادر العظيم الذى أحيا الأرض بعد موتها هو الذى يحيى النَّاس بعد موتهم ، فهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات ؛ فإنه إحداث لمثل ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية ، كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية ، فهو استدلال بالشاهد على الغائب ، ثم ختمت الآية بقوله ـ سبحانه ـ : (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تقرير لمضمون ما قبله ، أى : أنه بالغ القدرة على جميع الأشياء التى من جملتها إحياءُ الموتى ؛ لأن نسبة قدرته ـ عز وجل ـ إلى جميع المقدورات سواءٌ ، وهذا من المقدورات بدليل الإنشاء والبدء .

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا) : أى فرأوا الزرع الذى أصابته الريح قد اصفر وشرع فى الفساد بعد خُضرة ونَضْرة .

(لَظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) : أى ليظلُّن مستمرين على كفرهم ، وفعله من باب : فَرِحَ .

(وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ) : لأنهم قد أُصيبوا بالصمم ، وهو ثقل السمع ، والمفرد :- أصم ، وفعله من باب : فَتَح ، فيقال : صَمَّ يصَم - بفتح العين فيهما - وصَمِمَ - بالكسر - نادر .

(إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) : أى إذا أعرضوا عنك مولِّين ، يقال : دَبَر : وَلَّى ، كأدبر : قاموس .

(وَمَآ أَنتَ بِهَادِ الْعُمْىِ عَن ضَلَالَتِهِمْ) : أى لا تستطيع هداية من عميت بصائرهم ، والعُمْى : من أصابهم العَمَى ، وهو ذهاب البصر كله ، والعَمَى أيضًا : ذهاب بصر القلب والمفرد أعمى ، والفعل : كرضى : قاموس .

(فَهُم مُّسْلِمُونَ) : أى خاضعون .

التفسير

٥١ - (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) :

أى : أقسم لئن أرسلنا ريحًا يابسة - حارة أو باردة - على الزرع الذى زرعوه ، ونبت وشب ، واستوى على سوقه فضربته الريح بالصفار ، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضارته وشرع فى الفساد ، ليظلُّن[1] من بعد اصفرار الزرع يجحدون ما تقدم من النعم التى أنعم الله بها عليهم ، ويصرون على كفرهم بالله .

وفى هذا مايشير إلى ذمهم بعدم تثبتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الإفراط والتفريط حيث إنهم إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمة الله ، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ، ورزقهم المطر ، أفرطوا فى الاستبشار ، فإذا أرسل عليهم ريحًا عظيمة فضربت زرعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله ؛ فهم فى جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ، وأن يشكروا نعمته عليهم بالطاعة ، ويحمدوه عليها ، ولا يفرطوا فى الاستبشار إذا أصابهم برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا احتبس عنهم المطر ، أو اعتراهم مايسوءهم ، ولكنهم عكسوا الأمر ، فأبوا مايجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم بكفرهم .

٥٢ - (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) :

تعليل لما يفهم من الكلام السابق كأنه قيل : لا تحزن عليهم لإعراضهم ، وعدم استجابتهم لك ، فكما أنك ليس فى قدرتك أن تُسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الذين فقدوا القدرة على السمع ، وهم مع ذلك مدبرون عنك ؛ إذ لو أقبلوا عليك لربما فطنوا الشىء من كلامك بما يرونه منك من رمز وإشارة ، فبصممهم وإدبارهم فقدوا كل وسيلة للفهم والإدراك للانتفاع بمواعظك ، فكانوا كالموتى فى عدم السماع .

(١) لظلوا هنا بمعنى المستقبل لأنه فى معنى جواب (إن) ولا يكون إلا مستقبلا ، ولذلك كان معناه ليظلن ، ويحسن وقوعه فى موضع المستقبل فى الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل : قاله الخليل وغيره .

٥٣ - (وَمَآ أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ) :

فى هذه الآية تسلية للرسول ﷺ أى : إن هداية هؤلاء الذين عميت بصائرهم ، وماتت قلوبهم ليست لك يا محمد ، بل هى إلى الله - تعالى - فإنه - سبحانه - بقدرته يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يَسُوءْك إعراضهم عنك ، ولا تذهبْ نفسك عليهم حسرات ؛ لأنك لا تُسْمع مواعظ الله إلَّا المؤمنين الذين استمعوا إلى أدلة التوحيد ، مع استعدادهم للهداية التى خُلقت أسبابها فيهم ، فهؤلاء المؤمنون خاضعون مستجيبون منقادون لأوامر الله - سبحانه .

خاتمة :

قال الآلوسى : نُقل عن العلامة ابن الهمام أنه قال : أكثر مشايخنا على أن الميت لايسمع ، استدلالاً بقوله - تعالى - : « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ » ونحوها من قوله - تعالى - : « وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ »[1] ولذا لم يقولوا بتلقين القبر ، وحكى السفارينى فى البحور الزاخرة : أن عائشة ذهبت إلى نفى سماع الموتى ، ووافقتها طائفة من العلماء على ذلك ، ورجّحه القاضى أبو يعلى من أكابر أصحابنا فى كتابه الجامع الكبير ، وذهبت طوائف من أهل العلم إلى سماعهم فى الجملة ، وقال ابن عبد البر : إن الأكثرين على ذلك وهو اختيار ابن جرير الطبرى ، وكذا ذكره ابن قتيبة وغيره ، واحتجوا بما فى الصحيحين عن أنس عن أبى طلحة - رضى الله عنهما - قال : لما كان يوم بدر وظهر عليهم - يعنى : مشركى مكة - رسول الله ﷺ أمر ببضعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش فألقوا فى طَوِىٍّ ، أى : بئر من أطواء بدر ، وأن رسول الله ﷺ ناداهم ، يا أبا جهل بن هشام . يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ فإنى قد وجدت ما وعد ربى حقًّا . فقال عمر - رضى الله عنه - : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا روح لها ؟

(١) وقالوا : إن الأصل عدم التأويل ، والتمسك بالظاهر إلى أن يتحقق خلافه ، وأجابوا عن كثير مما استدل به الآخرون .

فقال : « والذى نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » زاد فى رواية لمسلم عن أنس : « ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » إلى غير ذلك من الأدلة .

وأجابوا عن الآية : « وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ » التى احتج بها أصحاب الرأى الأول ، فقال السهيلى : إنها كقوله - تعالى - : « أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ » أى : إن الله - تعالى - هو الذى يسمع ويهدى ، وقال بعض الأجلة : لا تسمعهم إلَّا أن يشاء الله - تعالى - أو لا تسمعهم سماعًا ينفعهم وقد ينفى الشىءُ لانتفاء فائدته ، وثمرته . انتهى ما ذكره الآلوسى بتصرف ، ومن أراد المزيد فليرجع إليه عقب تفسير الآية (٥٣) من سورة الروم ، والله الموفق .

* (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ) : ابتدأكم ضعفاء ، وقيل : خلقكم من أصل ضعيف ، وهو النُّطفة .

(ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً) : حين بلوغكم الحلم والشبيبة فتلك حال القوّة .

(ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) : ثم ردَّكم إلى أصل حالكم من الضعف بالشيخوخة والهرم .

التفسير

٥٤ - (اللهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) :

نبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الآيات السابقة إلى بعض دلائل قوته ومظاهر قدرته وعظمته ونعمته ، وفى هذه الآية يشير إلى دليل آخر فى نفس العبد على قدرته ـ تعالى ـ ليتدبره كما قال ـ تعالى ـ : « وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[1] .

وهذا الدليل هو تَنَقُّل الإنسان فى أطوار مختلفة ، من طور الضعف حين خلقه من النطفة بتحويلها وتطويرها ، وإخراجه من بطن أمه ضعيفًا واهن القوى ، ثم إمداده بالقوّة بعد الضعف ، حيث يشتد قليلًا قليلًا حتى يصير شابًّا قوىّ البنيان ، ثم يتحول إلى طور الضعف بعد القوة فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمّة ، وتتغيّر الصفات الظاهرة والباطنة .

يفعل الله مايشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد ، ومن جملة هذا ماذكر من التَّقَلُّب بين الضّعف والقوّة ، والشّيبة ، وهو العليم بتدبير خلقه القدير على إيجاد مايريد .

وهذا التّرديد فى الأحوال المختلفة والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع القدير ، العليم ، الحكيم .

(وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾)

(١) سورة الذاريات الآية : ٢١

المفردات :

(السَّاعَةُ) : القيامة ، صارت علمًا لها بالغلبة ، كالنَّجم للثريا .

(غَيْرَ سَاعَةٍ) : قطعة من الزمان قليلة .

(كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)[1] أى : مثل ذلك الصرف كانت تصرفهم الشياطين عن الحق إلى الباطل فى الدنيا .

(فِي كِتَابِ اللَّهِ) : فى اللَّوح المحفوظ ، أو فى علم الله وقضائه .

(وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)[2] : ولا هم يُطْلَبُ منهم إزالة عَتْب الله ، أى : غضبه عليهم – وإزالته – بالتوبة والطاعة ، من قولهم : استعتبنى فلان فأَعتبته ، أى : استرضانى فأرضيته وتركت عتبى .

التفسير

٥٥ – (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) :

يخبر الله – تعالى – عن جهل الكفار فى الدُّنيا والآخرة ، فى الدُّنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأَوثان ، وفى الآخرة يكون فيهم جهل عظيم أيضًا .

فمنه : حلفهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا ، ومقصدهم بذلك عدم قيام الحجَّة عليهم ، وأنهم لم يُنْظَروا حتى يصلحوا أمرهم ، أو عدُّوا مدة بقائهم فى الدنيا ساعة لعدم انتفاعهم بها ، والكثير الذى لاينفع قليل ، والكلام على هذا تَحَسُّر على إضاعتهم أيام حياتهم ، (كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) : أى مِثْل ذلك الصَّرف عن الحق إلى الباطل وعن الصِّدق إلى الكذب كانت تصرفهم الشياطين فى الدُّنيا ، والغَرَضُ من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادى فى الكذب والإصرار على الباطل ، وهذا يناسب المعنى الأَول .

---

(١) أفك : كضرب وعلم ، إفكا – بالكسر والفتح –: كذب ، وأفكه ، يأفكه ، أفكا : صرفه وقلبه – قاموس ج ٣ ص ٢٩٢ .

(٢) العتبى – بالضم –: الرضا ، واستعتبه : أعطاه العتبى ، كأعتبه ، وطلب إليه العتبى ، أهـ : قاموس ج١ ص١٠٠

٥٦ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

فيردّ عليهم الذين آتاهم الله العلم من الملائكة والأنبياء والمؤمنين فى الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون مالبثوا غير ساعة : لقد مكثتم فى الدنيا فترة كافية للعمل الصالح ، ولكنكم كفرتم ، فسجلت أعمالكم فى كتبه المسجلة لها إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث الذى أنكرتموه ، ولكنكم كنتم تجهلون أنه حق ، فتستعجلون به استهزاء ، وفى الآية دليل على فضل العلماء وعظيم قدرهم .

٥٧ - (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) :

أى : فيوم إذ يقع ماتقدم من حلف الكفار وقول أولى العلم لهم ، وذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين – فيومئذ – لا ينفع الذين كفروا اعتذارهم عمّا فعلوه من إنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسل ، ولا يُقال لهم : أرْضُوا ربكم بتوبة وطاعة ، كما كان يقال لهم ذلك فى الدنيا ؛ لفوات أوان العمل .

والآية الكريمة إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة بأنهم لا ينفعهم ولا ينجيهم من النار الاعتذار ولا يمنحون الرضا ، بسبب كفرهم ومعاصيهم .

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن
جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) : ولقد بيّنا لهم فى القرآن من كل صفة ، كأنّها فى غرابتها مَثَلٌ ، وَضَرْبُ المثل : ذكره وبيانه .

(مُبْطِلُونَ) : أصحاب أباطيل وَمُزَوِّرون .

(يَطْبَعُ) : يختم .

(وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ) : ولا يحملنّك على الخِفّة والقلق .

(الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) : لا يصدّقون بالبعث ، ولا يؤمنون بالله ورسوله إيمانًا حقًّا .

التفسـير

٥٨ ـ (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ) :

أى : ولقد بينا للناس فى هذا القرآن الحقّ ووضّحناه وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتّبعوه ، وقصصنا عليهم من كل صفة عجيبة الشأن كصفة الكفار المبعوثين يوم القيامة ، ومايقولون وما يُقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ، ولا يُسْمَع من استعتابهم ، ولئن أتيتهم بآية من الآيات ، أو بمعجزة من المعجزات التى اقترحوها أو غيرها ليقولَنَّ الذين كفروا لك وللمؤمنين الذين اتّبعوك : إن أنتم إلّا أصحاب أباطيل مُزَوِّرون ، وذلك لشدّة عُتُوّهم وعنادهم وقساوة قلوبهم .

٥٩ ـ (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : مثل ذلك الختم يختم الله ـ تعالى ـ على قلوب الجهلة الذين لا يطلبون العلم ، ولا يتحرّون الحق ، بل يصرون على خرافات اعتقدوها ، وتُرّهات ابتدعوها ، فإن الجهل يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المُحِق .

قال العلامة الزمخشرى فى الكشاف : ومعنى طبع الله ، أى : منع الألطاف التى ينشرح لها الصدر حتى تقبل الحق ، وإنما يمنعها مَنْ عَلِمَ أنها لا تُجْدى عليه ، ولا تُغْنِى عنه ، فكأنّه قال : كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة حتى يُسَمُّوا المُحِقِّين مُبْطِلين وهم أعْرَقُ خلق الله فى تلك الصِّفة . اهـ : باختصار ج ٣ ص ٢٠٩

٦٠ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) :

أى : إذا علمت حالهم ، وطبع الله - تعالى - على قلوبهم فاصبر على مكارههم من الأقوال الباطلة والأفعال السّيئة ، إن وعد الله حق ، وقد وعدك - عز وجل - بالنّصر وإظهار الدين وإعلاء كلمة الحق ، ولابدّ من إنجازه والوفاء به ، لأن وعْدَه - سبحانه وتعالى - لا يتخلّف ولا يحملنك على القلق وعدم الصّبر الّذِين لا يُوْمنون بدعوتك ، بل كذّبوا بها وآذوك بأباطيلهم وهم شَاكّون ضَالّون لا يُسْتَبعدُ أمثالُ ذلك منهم .

وفى الآية من إرشادِه - تعالى - لنبيِّه ﷺ وتعليمه - سبحانه - له كيف يتلقّى المكاره بالصبر انتظارًا للفرج ، مالا يخفى .

سورة لقمان

وآياتها اربع وثلاثون ، نزلت بعد الصافات

وسبب نزولها : أنّ قريشًا سألت الرّسول عن قصّة لقمان مع ابنه فنزلت .

مناسبتها لما قبلها : ذكر العلماء أوجهًا كثيرة لمناسبة هذه السورة لما قبلها ، ونقتصر على ما يلي :

ذكر فى السورة السابقة – سورة الروم – قوله – تعالى – : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وذكر هنا فى سورة لقمان قوله – تعالى – : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » وكلتاهما تفيد إمكان البعث وسهولته على الله – تعالى – كذلك جاء فى السورة السابقة قوله – عز وجل – : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » ، وقال – عز وجل – فى هذه السورة : « وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ » فذكر – سبحانه – فى كل من الآيتين قسمًا لم يذكره فى الأخرى ، ففى الأولى ذكر الفريق المشرك ، وفى الثانية ذكر الفريق المؤمن ، وبيّن فى الآيتين طبيعة الناس وما جبلوا عليه ، إذا مسّهم مكروه دعوا ربهم خاشعين مُخْبتين ، فإذا نجّاهم من شدّتهم نسى أكثرهم فضله ، وجحدوا آلاءه ، ورجعوا إلى شركهم ، وبقى قليل منهم .

كذلك ذكر فى السورة الأولى هزيمة الروم ثم غلبتهم بعد قتال مرير بين ملكين عظيمين من ملوك الدنيا تحاربَا عليها وخرجا بذلك عن مقتضى الحكمة ، وذكر فى سورة لقمان قصّة عبدٍ حكيمٍ زاهد فى الدنيا غير مكترث بها ولا مُلتفت إليها ، أوصَى ابنه بما يأبى القتال، ويقتضى الصبر والمسالمة ، وبيْن الأمرين مِنَ التقابل ما لا يخفى .

مقاصد السورة

صُدّرت السورة الكريمة (بالٓمٓ) إفحامًا للكافرين الذين تحدّاهم القرآن أن يأتوا بمثله مع أنه مؤلّف من كلمات ذات حروف كالتى ينطقون بها فى لغتهم ، وتنبيهًا للآذان لتستعدّ لسماع وقبول ما يُتلى عليها من الهُدَى الرَّبّانى ، ثم أشارت إلى القرآن الحكيم باسم

الإشارة الذى يدلّ على البعد للفت النّظر إلى علوّ منزلته ، وذكرت أخلاق المحسنين التى تمكنُوا بها من الهدى والفلاح دون غيرهم ، وعقبت ذلك بذكر نوعين من الناس : ضالٌّ مُضِلّ يُعْرِض عن الإيمان حينما يُعْرض عليه ، ومؤْمن صالح ، وبينت جزاء كل ، ثم أخذت السُّورة تلفت الأنظار إلى بعض مظاهر قدرته ودلائل نعمته ، وذكرت تحدّىَ الرّسول للمشركين فى قُوّة وصلابة بأنّ هذه المظاهر وتلك الدلائل مخلوقة لله ، فأرونى ماذا خلق الذين من دونه من الشركاء الذين عبدتموهم ، ولن يجدوا جوابًا لأن الظالمين بشركهم فى ضلال مبين .

ثم ذكرت وصايا لقمان لابنه وما اشتملت عليه من أخْلاق ونَهْىٍ عن الشرك وأمْر ببرّ الوالدين .

ثم عرضت لما خلقه الله للإنسان وأكرمه به من نعم ظاهرة وباطنة ، وتحدّثت عمن يجادل فى الله بغير علم وإذا دعى إلى الإيمان واتّباع ما أنزل الله احتذر باتباع الآباء وتقليدهم فيما كانوا عليه ، مع أنه ضلال يؤدى بهم إلى عذاب النار ، ورفعت السُّورة من قدر من يَتّجه إلى الله بوجهه ، ويفوّض إليه جميع أمره ، فقد تعلّق بأقوى الأسباب التى توصله إلى رضا الله ، وأوصت الرسول بألّا يهتمّ بكُفْر من كَفَر ، فسيرجع إلى الله ويذوق وبال أمره ، ثم ذكرت الآيات أنّ المشركين إذا سُئِلوا عمن خلق السموات والأرض يقولون: هو الله ، وهم بإقرارهم هذا لا يعلمون أنهم قد أقاموا الحجة على أنفسهم بفساد عقيدتهم .

ثم صوّرت السُّورة مدى عظمة الله ، وعلمه ، وكلامه ، بأنّه لو صار كلُّ أشجار الأرض أقلامًا ، ومياه البحار الكثيرة مِدَادًا تُكْتَب به كلمات الله لَفَنِيت الأقلامُ وَنَفِدَ المداد ، وما نفدت كلمات الله ، ومدى قدرته بأن خَلْقَهم وَبَعْثَهم كَخَلْق وبعْث نفس واحدة ، ومدى قدرته وفضله بأنّه يُولِج اللّيل فى النّهار ، ويُولِج النّهار فى اللّيل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجل مسمّى ، وأن الفلك تجرى فى البحر بنعمته ليُريكم من آياته ، وأن الناس يلتجئون إليه فى الظّلمات .

وأَمَرَتْ السورةُ بتقوى الله والخشية من يوم الحساب ، حيث يُجَازَى النّاسُ على أعمالهم وَحذرت النَّاسَ من أن يُفْتَنُوا بمباهج الدُّنيا أو يُخْدَعوا بوَسْوَسَةِ الشَّيطان ، وخُتِمت السُّورة ببيان مفاتح الغيب وما استأْثَرَ اللهُ بعلمه .

ومِمَّا تَقَدَّم يتَّضح أنَّ أهم ماتَنَاوَلَتْه السُّورة من أغراض مايلى :

(١) إثبات عقيدة التوحيد التى من أجلها أرسل الله جميع الرسل ، وقد اشتملت السورة على مجموعة من الآيات الكونية التى تدلُّ على أنَّ مَنْ خَلَقَ هذا الكون قوىٌّ قاهر ، وعظيم قادر ، ومُنْعِم متفضِّل جدير بأَن يُعْبَد ، وأن الشرك أعظم الظلم .

(٢) الحث على مكارم الأَخلاق التى جاءت فى وصية لقمان لابنه من إقامته الصلاة ؛ وإيتاء الزَّكاة ، والأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبر الوالدين ، والصبر ، والتواضع ؛ وهذه هى سمات المجتمع الفاضل .

(٣) إعمال العقل والتَّفكير فى ملكوت السمٰوات والأَرض .

(٤) ذم التَّقليد لأَنَّه إنكار للعقل وتعطيل له .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(الْحَكِيمِ) : ذِى الحكمة ، أو الحكيم قائلهُ .

(هُدًى) : دلالة مُوصلة إلى المقصود ، وهو مصدر هَدَيْتُ فلانا الطريق : إذا دللته عليه .

(يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) : معنى إقامتها : تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وآدابها ، من أقام العود : إذا قومه .

(يُوقِنُونَ) : يؤمنون أقوى الإيمان .

(أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) : أى أولئك المؤمنون المحسنون فى أعمالهم متمكنون من الهدى الذى جاءهم من ربهم .

التفسير

١ - (الٓمٓ) : الله أعلم بمراده ، وقيل : ابتدأ الله بعض السور بمثل هذه الحروف ، ليشير إلى أن القرآن مؤلف من كلمات ذات حروف من جنس مايؤلف منه العرب كلامهم ، وقد أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله ومحمد مثلهم ، فتلك حجة على أنه من عند الله ، أو ليُنبه العقول والأسماع ويشدَّها إلى الاستماع والإنصات لما يتلى .

٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) :

هذه الآيات العظيمة الرفيعة القدر والمنزلة آيات القرآن الكريم المكتوب ، المشتمل على الحكمة والصواب والعلم النافع .

٣ - (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ) :

هذه الآيات هداية كاملة ، ورحمة شاملة للذين يعملون الحسنات التى ذكرها فى الآية بعدها ، أو الذين يعملون جميع مايحسن من الأعمال ، ثم خص الله منهم (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) لفضل اعتدادهم بها لما لها من أثر فعال فى حياة الفرد والمجتمع .

٤ - (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) :

المُحسنون هم الذين يُقيمون الصَّلاةَ ، ومعنى إقامتها : تأديتها على الوجه الأكمل بالإتيان بها تامة دون نقص فى فرائضها وآدابها ، والدوام عليها ، والمحافظة على أوقاتها ، وجمع الهمة عند أدائها وعدم الفتور فى أدائها ، ويؤتون الزكاة ، أى : يُعطونها مُستحقيها ،

وهم الأصناف الذين ذكرهم الله في القرآن : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ... » الآية[1]

والزكاة هي العلاج الرباني الذي عَالَجَ به العليم الحكيم أمراضَ البشرية كُلها ، وحلَّ به مشكلة الفقر ، وحقَّق به العدالة الاجتماعية التي أعجزتْ نُطُسَ الأطباء[2] ، وأكابر الحكماء ، وقامت من أجلها مذاهب ، ونشأت فلسفات ، وكلٌّ منها يضرب في أَوْدِية الضَّلال مادام بعيدا عن الْهَدْى والعلاج الإلٰهي .

وهم بالحياة الآخرة يؤمنون أقوى الإيمان وأعظمه .

٥ ـ ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ :

أولئك المؤمنون المُحسنون الموصوفون بما سبق من الصفات مُتَمَكِّنون من الهدى الذي جاءهم منحة من ربهم ، وأولئك هم الفائزون حقا دون سواهم ، والاستعلاء في قوله ـ تعالى ـ : (عَلَىٰ هُدًى) تمثيل لتمكُّنهم من الهدى واستقرارهم عليه ، وتمسكهم به ، ومعنى (هُدًى) : لُطْفٌ وتَوفيقٌ استعانوا بهما على أعمال الخير والترقِّي إلى الأفضل فالأفضل ، ونكَّر (هُدًى) لتفخيمه ، أي : أنهم على هدى لايُبْلَغ كُنْهُهُ ولا يُدْرَكُ قدرُه .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

(١) سورة التوبة الآية ٦٠

(٢) أي : أمهرهم .

المفردات :

(لَهْوَ الْحَدِيثِ) : كل ماشغل عن عبادةِ الله وذكره من الغناء والأضاحيك والخرافات وغيرها ، وقد رُوى ذلك عن الحسن .

(سَبِيلِ اللهِ) : دينه الموصل إليه ، أو كتابه الهادى إليه .

(هُزُوًا) : مهزوءًا بها وسخرية منها .

(وَلَّى) : أعرض عنها غير مُعتد بها .

(مُسْتَكْبِراً) : مُبالِغا فى التكبر .

(كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا) : مع أنه سامع .

(كَأَنَّ فِيۤ أُذُنَيْهِ وَقْراً) : الوقر الصمم كليا أو جزئيا ، وهو مانع من السماع .

(فَبَشِّرْهُ) : أعلمه ، وذكر البشار للتهكم

التفسير

٦ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ):

لما ذكر الله - تعالى - حالَ السعداء وهم الَّذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، ذكر عقبه حال الأشقياء اللذين أعرضوا عنه ، ولم ينتفعوا بهديه ، وأقبلوا على استماع الباطل وأحاديث اللهو والمجون وما لا خير فيه كالمزامير والغناء .

وفى أسباب النزول للواحدى ، عن الكلبى ومُقَاتِل : أن النضر بن الحارث كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم - وفى بعض الروايات : كتب الأعاجم - فيرويها ويُحَدِّث بها قريشا ويقول لهم : إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أُحَدِّثكم بحديث رُستم وأخبار الأكاسرة ، فيستحلون حديثه ويتركون استماع القرآن فنزلت .

والمعنى : ومن الناس من اهْتَدَى وهَدَى ، ومنهم من ضل وأضل ، فكان يشترى باطل الحديث وما لا خير فيه من الكلام ، ويقصه على الناس وينشره بينهم ، ويدعوهم إليه ويحسِّنه عندهم ؛ ليصرفهم ويصدهم عن دين الله ، أو عن الاستماع إلى كتابه الهادى

إليه ، بغير بصيرة حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ، جهلا منه بما هو عليه من إثم وما يرتكبه من جُرْم ، ويتخذ آيات الله ووحيه سخرية ـ الذين يفعلون ذلك ـ لهم عذاب مُهين ومذل لهم ، لما اتَّصفوا به من إهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه ، ودعوة الناس إليه . وقول الله ـ تعالى ـ : (يَشْتَرِى) فى الآية : إما من الشِّراء المعروف على ماروى عن النَّضْر بن الحرث من شِرائه كتب الأعاجم ، أو نحو قوله ـ تعالى ـ : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ »[1] : أى استبدلوا الكفر بالإيمان واختاروه عليه ؛ وعن قتادة : اشتراؤه : استحبابه ، يختارون حديث الباطل على حديث الحق .

٧ ـ (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

وإذا تُقْرأ على هذا الضَّال آيات الله أعرض عنها غيرَ مُعْتَدٍّ بها متكبِّرا مُبالغا فى التكبّر ، وحاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ، كأنَّ فى أذنيه صَمماً وثُقْلا مانعا من السَّماع فأنذره ـ أيها الرسول ـ بأن العذاب المفرط فى الإيلام لاحق به لا محالة يوم القيامة يؤلمه كما تألَّم بسماع كتاب الله وآياته ، وتَصَامم معرضا عنها ومابه من صمم ، . وقوله ـ تعالى ـ : (كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا) فيه رمز إلى أنَّ من سمعها لايُتَصَوَّر فيه التَّولية والاستكبار لما فيها من الأمور المُوجبة للإقبال عليها والخضوع لها . وقوله ـ تعالى ـ : (كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا) أصل معنى الوقْر : الحمل الثقيل ، استعير للصمم ، ثم غلب حتى صار حقيقة فيه .

حكم الغناء : أخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وابن أبى الدُّنيا ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقىّ فى سننه : عن ابن عباس أنه قال : «لَهْوَ الْحَدِيثِ » : هو الغناء وأشباهه[2] ولقد عرض المفسِّرون لحكم الغناء وأطالوا فيه الكلام وبخاصة العلامة الآلوسى ،وإليك نبذه مختصرة فى هذا المَوضوع :

الغناء الذى يُحرك النفوس ويبعث على إثارة الشهوة لما فيه من شعر يُشَبَّب[3] فيه بالنِّساء ويحث على الفجور بذكر الخمور والمحرمات ، لايُخْتَلَفُ فى تحريمه ، لأنه اللهو المذموم باتفاق . بل حكى بعضهم الإجماع على حرمته فى جميع الأديان .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦ (٢) الآلوسى .

(٣) التشبيب : التشبب بالنساء وذكر محاسنهن .

أخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، وغيرهم ، عن رسول الله ﷺ قال : «لاتبيعوا القِيان ولاتشتروهنّ ولاتُعلِّموهنّ ، ولاخير فى تجارة فيهنّ ،وثمنهنّ حرام » فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ . . . » إلخ ذكر ذلك الآلوسى والكشاف .

أمّا من سَلِم من ذلك ، ففى «الدر المختار» : التغنّى لنفسه لدفع الوحشة لابأس به عند العامة على ماق « العناية » وصحّحه العينى وغيره ، وإليه ذهب شمس الدين السّرخسى ، قال : ولو كان فيه وعظ وحكمة فجائز اتفاقا ، ومنهم من أجازه فى العرس كما جاز ضرب الدّفّ فيه ، ومنهم من أباحه مطلقا ، ومنهم من كرهه مطلقا . انتهى كلام الدّر ـ ذكر ذلك الآلوسى ، قال : الآلوسى : ومثل الاختلاف فى الغناء الاختلاف فى السّماع ، فأباحه قوم كما أباحوا الغناء واستدلوا على ذلك بما رواه البخارى عن عائشة قالت : «دخل عَلَىّ النبى ﷺ وعِنْدِى جاريتان تُغَنّيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، وفى رواية لمسلم تَسَجّى بثوبه ، ودَخل أبو بكر فانتهرلى وقال : مزمارةُ الشيطان عند النبىّ ﷺ ؟ . فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : « دعهما » فلما غفل غمزتهما فخرجتا ، وكان يوم عيد . والحق أنّ الغناء الذى لايُحرِّك الشّهوة ، ولايحثُّ على الفجور وشرب الخمور ، يجوز فى المناسبات كالعيدين ، كما ورد فى حديث البخارى السابق عن عائشة ، وكالعرس ؛ لما ورد أنّ الرسول حينما علم بزواج فتاة قال : « هلا بعثتم معها من يقول :(1)

أتيناكم أتيناكم   فحيّونا نُحَيّيكم
فلولا الحبة السمرا   لم نحلل بواديكم »

---

(1) فى السنن الكبرى البيهقى ج ٧ ص ٢٨٩ أن عمرة بنت عبد الرحمن قالت : كانت النساء إذا تزوجت المرأة أو الرجل خرج جوارى الأنصار يغنين ويلعبن فمروا فى مجلس فيه رسول الله وهن يغنين ويقلن :

أهدى لها زوجها أكبشا   يبحبحن فى المربد
وزوجها فى النادى   يعلم ما فى غد

فقال : « سبحان الله ، لا يعلم ما فى غد إلا الله ، لا تقولوا هكذا ، وقولوا :

أتيناكم أتيناكم   فحيانا وحياكم

قال البيهقى : هذا مرسل جيد : هامش جمع الجوامع ص ٢٢٣٨ العدد التاسع عشر من الجزء الثانى .

وعند التّنشيط على القيام بالأعمال الشّاقّة كغناء وأناشيد أصحاب الحرف والصناعات ، وكحداء الإبل للصبر على قطع المفاوز واجتياز الصحراء ، كما يجوز سماع ذلك ، والله أعلم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ النَّعِيمِ) : أى جنات النّعيم الكثير .

(وَعْدَ اللهِ حَقًّا) : أى هذا ثابت لامحالة ، لأنّه وعد الله ، ووعده لايتخلّف .

(الْعَزِيزُ) : الذى لايغلبه شىء :

(الْحَكِيمُ) : الذى لايفعل إلا ماتوجبه الحكمة ، فهو يضع الشىء فى موضعه .

التفسير

٨ ، ٩ـ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النَّعِيمِ • خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

فى هاتين الآيتين بيان حال المؤمنين بآياته ـ تعالى ـ إثر بيان حال الكافرين بها ، أى : إنّ الذين آمنوا بالله وبآياته وعملوا الأعمال الطيبة الصالحة لهم جنّات يتنعمون

فيها بأنواع الترف ، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء وغير ذلك مما لايخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون لايظعنون ، ولا يبغون عنها حولا ، بل يبقون فيها على وجه الخلود ، وهذا حاصل لامحالة ؛ لأنه وعد الله ، والله لايخلف الميعاد ، وهو العزيز الذى قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ، ولايغلبه شىء فيمنعه من إنجاز وعده ووعيده ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، الذى يضع الشىء فى موضعه .

(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾) .

المفردات :

(بغَيْرِ عَمَدٍ) : عَمَد وعُمُد : جمع عمود ، وعماد ، وهو : مايُعْمَد به ، أى : يُسْنَد .

(رَوَاسِيَ) : جبالا ثوابت أو شوامخ .

(أن تَمِيدَ) : أى لئلا تضطرب وتتحرك .

(وَبَثَّ) : ونشر وذرأ .

وأصل البثّ : الإثارة والتّفريق ، ومنه قوله – تعالى – : «فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثًّا»[1] .

(زَوْجٍ) : صنف ونوع . (كَرِيمٍ) : حسن شريف ، كثير المنافع .

---

(١) سورة الواقعة ، الآية رقم : ٦

(خَلْقُ اللهِ) : مخلوقه . (فَأَرُونِي) : فأعلمونى وأخبرونى .

(مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ) : ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة ؟ .

التفسير

١٠ - (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) :

استئناف جيء به للاستشهاد بما فصّل فيه على عزّة الله التى هى كمال القدرة والغلبة ، وحكمته التى هى كمال العلم وإتقان العمل .

والمعنى : خلق السّموات بغير عمد مرئيّة ، فإن الله - سبحانه- أمسكها بنظام محكم غير مرئى يحفظها من السّقوط أو الانتثار ، وبعد أن ذكر الله - عزّ وجلّ - صنعه العجيب فى حفظ السموات بيّن صنعه الحكيم فى حفظ الأرض حيث وضح سبحانه أنه جعل فى الأرض جبالا شاهقة ثوابت حتى لا تهتزّ وتضطرب بكم ، والحكمة اقتضت خلقها على حال لو خلت معه من الجبال لمارت واضطربت ، ونشر فيها من كل الحيوانات التى تدبّ وتتحرّك ، ولما قرّر -سبحانه- أنه الخالق نبّه على أنه الرازق بإنزاله من السماء ماء وإنباته بسببه من كل صنف بهيج كثير المنافع ، حسن المنظر .

والالتفات إلى ضمير العظمة فى الفعلين : (وأنزلنا - فأنبتنا) لإبراز مزيد الاعتناء بهما .

١١ - (هَٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

هذا الذى ذكره الله - تعالى -: فى الآية السابقة - من إيجاد السّموات والأرض ومافيهما ومابينهما مخلوق لله ، صادر عن إرادته وفعله وتقديره وحده لا شريك له ، فأخبرونى ماذا خلق الذين من دونه مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد حتى يكونوا شركاء له ، بل الظّالمون بإشراكهم فى ضلال واضح وجهل وعمى ظاهر لاخفاء فيه ، ثم انتقل من تبكيتهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال المبين المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة لاستحالة أن يفهموا شيئا فيهتدوا به إلى العلم بفساد ماهم فيه فينزجروا

عنه ، حيث قال :(بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ، والتعبير بقوله : (بَلِ الظَّالِمُونَ) بدل الإضمار : للدّلالة على أنّهم بإشراكهم ظالمون بوضعهم الشيء فى غير موضعه ، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الدائم .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(لُقْمَانَ) : هو — على ماذكر الكشّاف — لقمان بن باعوراء بن أخت أيّوب — عليه السّلام — أو ابن خالته ، والذى عليه المحقّقون : أنّه كان رجلا صالحا حكيا ، ولم يكن نبيّا ، ولقد سجل الله فى القرآن نصيحته لولده ، وماسوى ذلك فإسرائيليات تفتقر إلى الدليل .

(الْحِكْمَةَ) : هى على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس : العقل والفهم والفطنة .

(لِابْنِهِ) : قيل : ثاران — على ماقاله الطّبرى — وقيل : ماثان ، وقيل : غير ذلك والله أعلم بالحقيقة .

(يَعِظُهُ) : ينصحه ويخوّفه .

(يَابُنَىَّ) : تصغير إشفاق ومحبّة ، لاتصغير تحقير .

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ) : لما فيه من وضع الشيء فى غير موضعه .

(عَظِيمٌ) : لما فيه من التّسوية بين من لانعمة إلا منه ومن لانعمة تصدر عنه .

التفسير

١٢ - (وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) :

كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك بالنقل بعد الإشارة إلى بطلانه بالعقل .

والمعنى : ولقد أعطينا لقمان العقل والفهم والإصابة فى القول ، وأمرناه أن يشكر الله -عزّ وجلّ- على ماآتاه ومنحه من الفضل الذى خصّه به دون سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه لأنه إنما يعود نفع ذلك وثوابه عليه ، ومن كفر النعم وجحدها ولم يشكرها فإنما يكفر على نفسه ؛ لأنّ ضرر كفره عائد عليه ، لأنّه - تعالى - غنىّ لا يحتاج إلى الشكر ، ولا يتضرر بالكفر ، حميد حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد . أو محمود بالفعل ، ينطق بحمده - تعالى - جميع المخلوقات بلسان الحال .

١٣ - (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) :

واذكر إذ قال لقمان لابنه وهو ينصحه ويذكّره بما هو خير له ، نصيحة أب محبّ لولده مشفق عليه ، فهو حَقِيقٌ أن يمنحه أفضلَ مايَعْرف ، وَيَسُوق إليه كل ما فيه الخير له ؛ ولهذا أوصاه أوّلًا بأن يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئًا ، وقال محذرًا : إن الشرك لظلم عظيم ، أى : أعظم الظلم .

روى الإمام البخارىّ بسنده المتصل عن عبد الله قال : لمّا نزلت « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ » شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يَلْبِس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنّه ليس بذاك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » ورواه مسلم من حديث الأعمش - اهـ : ابن كثير .

وإنما كان الشّرك ظلمًا عظيمًا لأن التّسوية بين من لا نعمة إلّا منه وما لا نعمة منه البتة ، ولا يُتَصَوّرُ أن تكون منه نعمة ، إنما هو ظلم لا يُكْتنه عِظَمُهُ .

وقوله - تعالى - : (وَهُوَ يَعِظُهُ) قال الراغب : الوعظ : زجر مقترن بتخويف . وقال الخليل : التّذكير بالخير فيما يرق له القلب .

(وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ
وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾
وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ
أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ) : أمرناه ببرّهما .

(وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ) : ضعفًا على ضعف .

(وَفِصَالُهُ) : وفطامه .

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) : تفسير لـ « وصينا » وما بينهما مؤكد للوصيّة فى حقّ الأُم خاصة .

(إِلَيَّ الْمَصِيرُ) : إلىّ المرجع لا إلى غيرى .

(وَإِن جَاهَدَاكَ) : وإن حملاك والداك بجهد .

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) : أى ما ليس لك علم باستحقاقه العبادة .

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) : اسلك طريق من تاب عن شركه ورجع إلى الله .

التفسير

١٤ – (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) :

كلام مستأنف على نهج الاستطراد فى أثناء وصية لقمان تأكيدًا لما فى الوصيّة من النهى عن الإشراك ، فهو من كلام الله – عز وجل – ولم يقله – سبحانه وتعالى – للقمان ، وقيل : هو من كلامه – تعالى – للقمان ، وكأنّه قيل : قلنا له : اشكر ، وقلنا له : وصّينا الإنسان... إلخ .

والمعنى : وأمرنا الإنسان بأن يَرْعَى والديه ويجعل لأُمّه أوفر نصيب ، وأعظم قدر من العناية والرّعاية ؛ لأنّها حملته جَهْدًا على جَهْد ، وثقلًا على ثقل ، يتزايد به ضعفها ، ويتضاعف ؛ لأنّ الحمل كلّما عظم ازدادت ثقلًا وضعفًا ، وقد وقّتَ الله فطامه فى هذه الآية بعامين ، للإشارة إلى أنهما الغاية التى لا تُتَجَاوَزُ ، والأمر فيا دون ذلك موكول إلى اجتهاد الأُم ، وظاهر الآية أنّ مدّة الرّضاع عامان ، ويؤيّده قوله – تعالى – : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » [(١)] ، وإلى هذا ذهب الشافعىّ والإمام أحمد ، وأبو يوسف ومحمد ، وهو مختار الطّحاوى ، ورُوِى عن مالك ، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن مدّة الرّضاع الذى يتعلّق به التّحريم ثلاثون شهرًا ، ومن أراد معرفة دليله فليرجع إلى المطولات .

(أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ) : ووصّينا الإنسان أن اشكر لى على نعمتى عليك ، ولوالديك على ما تحملا من المشقّة فيك حتى استحكمت قواك ، وشُكْرُ الله يكون بطاعته وفعل ما يرضى عنه ، وشكر الوالدين بصلتهما والبرّ بهما والدّعاء لهما ، إلىّ المرجع والمآب لا إلى غيرى ، فأُجازيك على ما صدر عنك من خير أو شر ، ومن شُكْر أو كُفْر ، وهذا تعليل لوجوب الامتثال لما أمر الله .

١٥ – (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : وإن حملك والداك بجَهْد على أن تشرك بالله ما لا تعلم أنه يستحق العبادة فلا تطعهما وصاحبهما فى الدُّنيا صِحابًا معروفًا يرتضيه الشرع ، ويقتضيه الكرم والمروءة ، كالقيام

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٣

بشئونهما من طعام وكسوة ، وعدم جفائهما وانتهارهما ، ومن عيادتهما إذا مرضا ومواراتهما إذا ماتا ، وذكرَ لفظ : (فِي الدُّنْيَا) لتهوين أمر الصحبة ، والإشارة إلى أنها فى أيام قلائل وشيكة الانقضاء ، فلا يضرّ تحمُّل مشقّتها لقلة أيامها وسرعة مُضيّها . (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) يريد : واسلك طريق المؤمنين فى دينك ، ولا تتّبع سبيلهما فيه ، وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما فى الدنيا ، ثم إلىّ مرجعك ومرجعهما فأُجازيك على إيمانك وأُجازيهما على كفرهما .

والآية الكريمة نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، أخرج ابن أبى ليلى ، والطبرانى ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أبى عثمان النَّهدى : أن سعد بن أبى وقاص قال : أنزلت فىَّ هذه الآية : (وَإِن جَاهَدَاكَ ... الآية) كنت رجلًا برًّا بأُمّى فلما أَسْلَمْتُ قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك أَحْدَثْتَ ؟ لَتَدَعَنَّ دينَك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فَتُعَيَّر بى ، فَيُقَال : قاتلُ أُمّه ، قُلْتُ : لا تفعلى يا أُمّه ، فَإِنّى لا أَدَعُ دينى هذا بشىء ، فَمَكَثَتْ يومًا وليلة لا تأْكل ، فأَصْبَحَتْ قد جهدت ، فَمَكَثَتْ يومًا وليلة لا تأْكل فَأَصْبَحَتْ قد اشْتَدَّ جهدها ، فلمّا رَأَيْتُ ذلك قُلْتُ : يا أُمّه تَعْلَمِين والله لو كَانَتْ لَكِ مائة نفس فَخَرَجَتْ نَفْسًا نفسًا ما تركت دينى هذا لشىء ، فإن شِئْتِ فَكُلِى وَإِنْ شِئْتِ فلا تأْكُلِى ، فلما رَأَتْ ذلك أَكَلَتْ ، فَنَزَلَت هذه الآية .

وأخرج الواحدىّ ، عن عطاء ، عن ابن عبّاس قال : إنّه يريد عن أناب : أبا بكر فإن إسلام سعد كان بسبب إسلامه . وقيل : من أناب ، محمدٌ ﷺ والمؤمنون . والظاهر العموم ، وقوله – تعالى – : (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) قال الزمخشرى : أراد بنفى العلم به نَفْيَه ، أى : لا تشركْ بى ما ليس بشىء ، يريد الأصنام كقوله – تعالى – : « مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ »[1] ، وقال الآلوسى : المعنى : وإن جاهدك الوالدان على أن تكفر بى كفرًا ليس لك به علم .

(١) سورة العنكبوت ، الآية رقم : ٤٢

(يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى
صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن
صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(إِنَّهَا) : أى الخصلة من الإساءة أو الإحسان .

(إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ) : أى إن تكن فى الصغر قدر حبة الخردل مثلاً ، والمثقالُ : مايُقَدَّرُ به غيرُه لِتَسَاوى ثقلهما ، وهو فى العُرْف معلوم وزنه .

(يَأْتِ بِهَا اللهُ) : يُحْضِرْها فيحاسب عليها .

(لَطِيفٌ) : يصل علمه إلى كل خفى .

(خَبِيرٌ) : عالم بكنهه .

(إِنَّ ذَٰلِكَ) : إشارة إلى ما ذُكر من الصبر على ما أصابك وغيره .

(مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) : مما عزمه الله وقطعه على عباده وأمر به .

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) : أى وَلَا تُمِلْه عنهم ، ولا تولّهم صفحة وجهك كما يفعل المتكبّرون .

(مَرَحًا) : فرحًا وبطرًا .

(مُخْتَالٍ) : متكبر .

(فَخُورٍ) : كثير الفخر ، يُعدِّد ما أُعطى مباهاة .

(وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ): أى وتوسط فيه بين البطء والإسراع ،من القصد ،وهوالاعتدال .

(إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ) : أقبحها وأوحشها .

التفسير

١٦ -(يَابُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَٰوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) :

رجوع إلى القصة بنشر بقية ما أُريد حكايته من وصايا لقمان لابنه :

يا بُنَىَّ إنَّ الحسنة أو السَّيئة إن تكن فى الصِّغر قدر حَبَّة الخردل مثلًا ، وتكن مع ذلك فى أخفى مكان وأَحْرَزِه كجوف الصَّخرة ، أو كانت فى العالم العلوىّ أو السُّفلىّ ، يحضرها الله ويحاسب عليها .

والحكمة فى هذا الترتيب - كما جاء فى البحر لأبى حيان - أنه بدأ بما يتعقله السامع أولًا ، وهو كينونة الشىء فى صخرة ، ثم عقبه بالعالم العلوى وهو أغرب للسامع ، ثم عقبه بما يكون مقر الأشياء للشاهد وهو الأرض . (يَأْتِ بِهَا اللهُ) يحضرها يوم القيامة فيحاسب عليها ، وهو إما على ظاهره ، أو معناه : يجعلها كالحاضر المشاهد للتذكير والاعتراف بها ، وهو أبلغ من قوله : (يعلمه الله) ففيه مع العلم بمكانه : القدرة على الإتيان به ، وذلك لأنَّ الله لطيف يصل علمه وقدرته إلى كل خفىّ ، فلا تخفى عليه الأشياء وإنْ دَقَّتْ ولَطُفَتْ واستترت ، خبير عالم بكُنْهِهِ ومُسْتَقَرِّه ، فهو خبير بدبيب النَّملة السَّوداء على الصخرة الصَّماء فى اللَّيلة الظلماء .

١٧ -(يَابُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) :

بعد ما أَمَرَ لقمان ولده بالتَّوحيد الذى هو أوَّل مايجب على المكلَّف - فى ضمن النهى عن الشِّرك - ونَبَّهه إلى كمال علمه - تعالى - وقدرته - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَرَهُ بالصَّلاة التى هى أكمل

العبادات - تكميلًا من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد - فقال مُسْتَمِيلًا له : يا بُنَيَّ أقم الصَّلَاة بأركانها وشروطها فى مواقيتها ، تكميلًا لنفسك ، وأمر غيرك بما عرف حسنه شرعًا وعرفًا ، وانْهَهُ عن الْقَبيح والمنكر تكميلًا له .

والمعروفِ : ما حسَّنه الشّارع وأمر به ، والمنكر : ما أنكره الشّارع وقبّحه ونهى عنه . والظاهر أنه أمره بكل معروف ونهاه عن كل منكر ، وخص بعضهم المعروف بالتوحيد ، والمنكر بالشرك . ثم قال له : واصبر على ما أصابك من الشدائد والمحن فى سبيل الأَمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر ، إن الصَّبر على ما أصابك وعلى سائر ما أُمرت به من عزم الأُمور ، أى : ممَّا عزمه الله - تعالى - وأمر به أمر إيجاب وإلزام ، فلزم قَبُولُه والعمل به والحرص عليه ، وهذا تعليل لوجوب الامتثال لما سبق من الأَمر والنَّهى .

١٨ - (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) :

ولا تستكبر على الناس ، بل أَلِن جَانِبَكَ لهم ، وأقبل عليهم مُتَوَاضِعًا ، ولا تُوَلِّهم شِقَّ وجهك وصفحته كما يفعله المتكبِّرون إعجابًا بأنفسهم لأن الله لايحب كل مختال فخور وأصل الصَّعَر : داءٌ يَعْترى البعير فيلوى منه عنقه ، ويستعار للكبر ، ولا تمش فى الأَرض مرحًا وبطرًا كما يمشى المختالون المتكبرون ؛ لأَنَّ الله - سبحانه - لا يُحِبُّ كل مختال فخور .

والمختال : المتكبِّر ، وهو مأْخوذ من الخُيَلَاء وهو التَّبختر فى المشى كِبْرًا ، والْفَخُور : كثير الفخر ، وهو المبَاهاة ، ويدخل فى ذلك تعداد الشخص ما أعطاه لغيره ، والتعبير بفخُور وهى من صيغ المبالغة ، ولأَن مايقبح من الفخر كثيرهُ فإِنَّ القليل منه معفو عنه لابتلاء الناس به ، فلطف الله - تعالى - بالعفو عنه ، وهذا كما لطف بإباحة اختيال المجاهدين بين الصَّفَّين ، وبإباحة الفخر بنحــو المال لقصد حسن كالتحدث بنعمة الله .

١٩ - (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) :

بعد النهى عن المرح فى المشى أمر - سبحانه - بالتوسّط فيه بين البطء والإسراع فى تواضع ، وذلك أليق بالمسلم ، وأبعث على الهيبة والوقار ، فقال : واقصد فى مشيك ، من

القصد : وهو الاعتدال ، أى : لا تَدِبَّ دبيب المُتَمَاوتين ولا تَثِبْ وثْبَ الشُّطَّار . قال ابن مسعود : كانوا يُنْهَوْن عن خَبَب اليهود وَدَبِيبِ النَّصَارَى ، ولكن مَشْيا بين ذلك ، أما قول عائشة تصف عمر : كان إذا قال أَسْمَع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، وإذا مشى أسرع ، فالمراد بالإسراع التوسُّط ، ومافوق دَبِيبِ التَّمَاوُت ، وكذلك ماورد من صفته – عليه الصلاة والسلام – : « إذا مشى كأنما يَنْحَط من صَبَب[1] » فالمقصود به نشاطه – عليه الصلاة والسلام – وقُوَّتُه ، لا الإسراع؛ لنهيه – عليه الصلاة والسلام – عنه حيث قال : « سرعة المشى تُذْهِب بهاء المؤمن » .

واخفض من صوتك وانقص منه واجعله قصدًا ، ولا ترفعه إذا تكلَّمت ، فذلك أوقر للمتكلِّم ، وأبسط لنفس السامع وفهمه ، إن أقبح مايُسْتَنكَرُ من الأصوات ويُسْتكرَهُ لَصَوْتُ الحمير ، والجملة تعليل للأمر بالغَضِّ من الصوت على أبلغ وجه وآكَدِه ، حيث مثل حال الرَّافعين أصواتَهم بحال الحمير فى نهاقهم ، وفى ذلك من المبالغة فى الذَّمّ والتَّهْجين وَالتَّثْبِيط عن رفع الصوت والتَّرغيب عنه ما فيه ، ولقد ردَّ اللهُ سبحانه وتعالى – بهذا على المشركين الَّذين كانوا يتفاخرون بِجَهَارة الصَّوت ورفعه ، مع أنَّ ذلك يؤذى السَّامع ؛ إذ يَقْرَعُ الصِّمَاخ بقوة ، وربما يخرق الغشاء الذى هو داخل الأُذن .

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾)

(١) فى القاموس : الحط : الحدر من علو إلى أسفل . الصبب – محركة – : تصبب نهر أو طريق يكون فى حدور .

المفردات :

(سَخَّرَ) : ذَلَّل ، والتسخير- على ما قاله الراغب- : سِيَاقَة الشيء إلى الغرض المختص به قهرًا .

(وَأَسْبَغَ) : أتمَّ وأكمل .

(نِعَمَهُ) : جمع نعمة ، وهى : كل نفع قصد به الإحسان .

(يُجَادِلُ فِي اللَّهِ) : يحاور ويخاصم وينازع فى توحيد الله وعبادته وصفاته .

(بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) : ليس معه من الله برهان ، ولا هدى رسول ، ولا كتاب مرشد .

(اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ) : على رسوله من الشَّرائع المُطَهَّرة .

(قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) ، يريدون عبادةَ ما عبدَ آباؤهم من دون الله .

التفسير

٢٠ - (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) :

رُجُوع إلى سَنَنِ ما سلف قبل قصَّة لقمان ، من خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التَّوحيد .

والمعنى : قد رأيتم أن الله سخَّر لكم وذلَّل ما فى السموات : الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ، وما فى الأرض : البحار والأنهار والثِّمار والمعادن والدَّواب وما لا يحصى وأتم عليكم نعمه الظَّاهرة منها ، وهى ما تُعْلَم بالمُشَاهدة ، كغلبة الإسلام والنُّصرة على الأعداء وحسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والسمع والبصر واللسان وسائر الجوارح ، والباطنة : وهى ما لا تعلم إلَّا بدليل ، أو لا تعلم أصلًا ، مثل : المعرفة والقلب ، والعقل والفهم . وكم فى بدن الإنسان وحياته من نعمة لا يعلمها ولا يَهْتَدِى إلى العلم بها ، وصدق الله : « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »[1] .

(١) سورة النحل ، من الآية : ١٨

ومع هـذه النعم فمن الناس من ينازع ويخاصم فى توحيده – عزّ وجلّ – وفى صفاته – جل شأنه – كالمشركين المنكرين وحدانيّته – سبحانه – وعموم قدرته – جلّت قدرته – وشمولها البعث .

والإظهارُ بدل الإضمار فى قوله – تعالى –: (يُجَادِلُ فِى اللهِ) بذكر الاسم الجليل – تَهْويل لأمر الجدال فيه ، وهذا الفريق الضّال من الناس يفعل مايفعل بغير علم مستفاد من دليل عقلى ، ولا هُدى راجع إلى رسول مأْخوذ منه ، ولا كتاب أنزله الله – تعالى – ذى نور واضح الدلالة على المقصود ، منقذ من ظلمة الجهل والضلال ، بل يجادلون لمجرد التقليد واتّباع ما كان عليه الآباء .

وقوله – تعالى – : (يُجَادِلُ) من الجدال ، وهو : المُفاوضة على سبيل المُنَازَعة والمُغَالَبَة ، وأصله من : جَدَلْت الحبل ، أى : أحكمت فَتْلَه ، كأَنَّ الْمُتَجَادِلَيْن يَفْتِل كل منهما صاحبه عن رأيه ، وقيل : الأَصل فى الجدال : الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الْجَدَالة ، وهى الأَرض الصلبة .

٢١– (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) :

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله المنازعين فى عبادته وصفاته : اتّبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشّريعة المطهّرة ، والدين الحق ، وعقيدة التوحيد ، قالوا : بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا فنعبد ما عبدوا من الأَصنام والأَوثان ، ولم يكن لهم حجة فى هـذه العبادة إلّا اتّباع آبائهم الأَقدمين ، والاقتداء بالسّالفين ، ولو كانوا فى ضلال مبين ، ولقد عاب الله عليهم هذا المنطق العجيب فقال :

(أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) : أى : أيتّبعونهم وينهجون منهجهم ويقلدونهم تقليدًا أعمى بلا تفكير ولا إعمال عقل ، ولو كان الشيطان يدعو الْمُجَادِلِين وآباءهم إلى ضلال يُفضِى بهم إلى عذاب النار التى تتسعّر وتلتهب ؟

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٠/٦٢ — ١٩٨٥ — ٢٥٠٠٤

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثاني والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٧

* (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) : يخلص ويفوض إلى الله جميع أموره . .

(فَقَدِاسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ) : فقد تعلق بأوثق ما يُتعلق به من الأسباب وأشده .

(عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) : مصير الأمور ونهايتها .

(فَنُنَبِّئُهُم) : فنخبرهم . (ذَاتُ الصُّدُورِ): خبيئة القلوب ودخيلتها .

(نَضْطَرُّهُمْ) : نلجئهم ونلزمهم . (عَذَابٍ غَلِيظٍ) : عذاب شديد ثقيل .

التفسير

٢٢ ـ (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ . .) الآية :

بين الله فى الآية السابقة حال المشرك المجادل المتشبث بدين آبائه ، المصرّ على شركه ، ويبين فى هذه الآية حال المسلم المستسلم لله المصدق بتوحيده ، القائم على طاعته .

والمعنى : ومن يسلم نفسه إلى الله بأن يفوض إليه ـ تعالى ـ جميع أموره ، ويقبل عليه قلبا وقالبا ، وهو محسن مخلص فى أعماله وأقواله ، فقد استمسك وتعلق بأقوى ما يتعلق به من الأسباب الموصلة إلى سعادة الدنيا ، ونعيم الآخرة ، وإلى الله عاقبة الأمور ومصيرها

كلها ، فهى صائرة إليه لا إلى غيره ، وليس لأحد سواه -جل وعلا- تصرف فيها بأمر أو نهى ، أو ثواب أو عقاب ، فهو - سبحانه - يجازى من أسلم وجهه إلى الله ، وأخلص التفويض إليه ، كما يجازى المجادل الممارى فيه ؛ يجازى كلاًّ بما يستحقه ويليق به ، بمقتضى عدله وحكمته .

وفى قوله - تعالى - : (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ) تمثيل حال المتوكل على الله المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه ، ليتيسر له تحقيق مراده .

٢٣ - (وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ . .) الآية .

هذه الآية رجوع إلى بيان حال الكافر .

والمعنى : ومن كفر من هؤلاء المشركين فلا تحزن على كفره ، ولا يهمك أمره فقد أبلغت وليس عليك إلا البلاغ ، وما أضر بذلك إلا نفسه ، فإن الله - تعالى - سينتقم منه ويعاقبه أشد عقاب ، ولهذا قال : (إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا) : أى إلينا لا إلى غيرنا رجوعهم بالبعث فنُعْلِمهم على وجه التبكيت والتقريع بما عملوا فى الدنيا من الكفر والمعاصى ، ونجازيهم بما يستحقون من العذاب والعقاب (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : إن الله - تعالى - واسع العلم بحقيقة ما فى القلوب وضمائرها ، لا يخفى عليه سرها ، كما لا تخفى عليه علانيتها ، ولا يفوته شىء من الجزاء عليها .

٢٤ - (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) :

أى : ننفعهم زماناً ، أو نفعًا قليلا فى دنياهم بأن نيسر أمورهم ، ونوسع عليهم أرزاقهم ، ثم نلجئهم إلى عذاب غليظ ثقيل يجمع إلى الإحراق بالنار الضغط والتضييق ، مع إلزامهم ذلك العذاب الشديد إلزام المضطر الذى لا يقدر على الانفكاك مما أُلجىء إليه .

وعبر عن متاعهم فى الدنيا بالقلة ، لأن متاعها مهما توفر وتكاثر ، وتعددت أنواعه وألوانه ، وتطاولت أيامه فهو قليل جدًّا إذا قوبل بما عند الله ، وما أُعد للمتقين فى دار الجزاء ، وكل زائل قليل ، وعُمُره وإن طال قصير .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾)

التفسير

٢٥ ـ (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ . .) الآية .

هذه الآية ترقٍّ فى تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد تسليته بقوله ـ تعالى ـ : (وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ) فإن انتزاع اعترافهم بقدرة الله ـ تعالى ـ فى خلق السموات والأرض اعتراف بصدقك فى دعوى الوحدانية ، وتسجيل لسفههم فى تكذيبك وفى إشراكهم بخالق السموات والأرض .

والمعنى : ولئن سألت ـ أنت أيها النبى الكريم ـ هؤلاء المشركين ، أو سألهم أى مخاطب غيرك : من خلق السموات والأرض وأحكم خلقهما وأبدع صنعتهما على نظام لم يعتره اضطراب ، ولم يطرأ عليه خلل منذ عرفهما الإنسان ؟ ليقولُنَّ : خلقهن الله ، لأنهم فى شركهم بعبادتهم معترفون بوحدانيته فى خلقهن . (قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) قل يا محمد : الحمد لله على إلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان شركهم وكذبهم ، أو قل : الحمد لله على وضوح دلائل التوحيد بحيث لا يجحدها كافر ، ولا ينكرها مكابر ، أو قل : الحمد لله الذى هـدانا إلى التوحيد وصدق الإيمان ، ولم يقدر علينا اللجاج والعناد فيما هو ظاهر الشواهد ، واضح البراهين .

وقوله ـ تعالى ـ : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) معناه : بل أكثرهم ليسوا أهلا للعلم ، ولا من ذوى الرأى والتفكير السديد .

أو : بل أكثرهم لا يعلمون أن هذا الاعتراف حجة عليهم، يقيم الدليل على جهلهم وعنادهم .

٢٦ – (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) :

هذه الآية إبطال لشركهم من وجه آخر لأن المملوك لايكون شريكاً لمالكه في ملكه ، فكيف يكون شريكاً له في العبادة ؟ .

والمعنى : لله ما في السموات والأرض خلقا وملكا وتصرفا ، وليس لأحد سواه فيهن شأن استقلالا أو شركة ، فلا يستحق العبادة غيره بوجه من الوجوه .

وقوله – تعالى – : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) معناه : أنه – تعالى – هو الغنى عن كل شئ ، فليس محتاجاً إلى شريك أو غيره ، المحمود من مخلوقاته بلسان المقال أو بلسان الحال .

وهذا التعقيب بعد قوله – تعالى – : (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) لدفع حاجته – تعالى – إلى شريك له فيهما ، أو إلى عبادة عابد منهما ، وإنما استعبدهم لمصلحتهم ، فهو المستحق للعبادة وإن لم يعبدوه ، المستحق للحمد وإن لم يحمدوه .

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ) : من مد الدواة إذا زادها من المداد وهو الحبر ، ويطلق المد والمادة على مطلق الزيادة .

(مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ): ما فنيت ولا انتهت ، لأن كلماته – تعالى – ليست قاصرة على القرآن الكريم .

(بَعْثُكُمْ) : عودتكم إلى الحياة بعد الموت .

التفسير

٢٧ ـ (وَلَوْ أَنَّ مَافِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ . .) الآية :

قال ابن عباس : إن سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالت : يامحمد ! ! كيف عُنينا بهذا القول ؟ « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » وقد أُوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان لكل شىء ، فقال لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « التوراة قليل من كثير » فنزلت الآية .

والمعنى : ولو ثبت أن ما فى الأرض من جميع أنواع الشجر أقلام ، وصار البحر على اتساعه وامتداده مداداً يمده ويزيده من بعده سبعة أبحر مثله فى السعة وكثرة الماء ، فكتبت بهذه الأقلام وهذا المداد كلمات الله وأوامره فى كونه وملكوته ، ما فنيت ولا انتهت كلمات الله لعلم تناهيها ، بل تفنى الأقلام وينتهى المداد دون أن تنتهى كلماته تعالى ـ فإن كلام الله فى شئون كونه أمرا ونهيا وإيجاداً وإعداما وغير ذلك لا ينتهى ، والمكلفون به من الملائكة وغيرهم لا يحصونه عددا (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ) : قادر غالب لا يعجزه شىء (حَكِيمٌ) : لا يخرج عن الحكمة ما يتكلم به .

هذا وفى الآيات مباحث منها :

١ ـ أن المراد (بشجرة) كل أنواع الأشجار التى يمكن أن تؤخذ منها الأقلام ، والنكرة قد تعم فى الإثبات كما فى قوله ـ تعالى ـ : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ »

٢ ـ اختيار جمع القِلّة فى (أقلام) مع أن الأنسب للمقام جمع الكثرة لأنه لم يعهد للقلم جمع سواه ، وإيثار جمع القلة فى الكلمات (وجمع المؤنث من قبيل القلة) للإيذان بأن ما ذكر لا يفى بالقليل منها فكيف بالكثير .

٣ ـ ليس المراد بذكر العدد فى قوله : « سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » خصوص العدد ، وإنما المراد الكثرة ، واختير عدد (سبعة) بخصوصه من بين الأعداد لأن كثيرا من المعدودات التى لها شأن سبع ، كالسموات ، والكواكب السيارة ، وأيام الأسبوع إلى غير ذلك .

٢٧ ـ (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) :

توسطت هذه الآية الآيات التي تتحدث عن قدرة الله وتعدد آثارها ، للإيذان بأن من له هذا الكون العريض لا يصعب عليه خلقُنا ولا بعثنا ، فقد ورد أنها نزلت في أبي ابن خلف، ومنبه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبي ﷺ : إن الله ـ تعالى ـ قد خلقنا أطوارا : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم تقول : إنا نبعث جميعاً خلقا جديدا في ساعة واحدة ؟ .

والمعنى : ما خلقكم ابتداء ولا بعثكم بعد الموت يوم القيامة إلا كخلق نفس واحدة وبعثها في السهولة واليسر والتأتي بالنسبة إليه ـ عز وجل ـ لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، ومناط وجود الكل تعلق إرادته ـ تعالى ـ وقوله للشيء : كن فيكون (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) : أي : إن الله ـ تعالى ـ عظيم السمع والبصر يسمع ويبصر جميع مخلوقاته لا يشغله بعضها عن بعض .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ) : يدخل كل واحد منهما فى الآخر فيتفاوت بذلك حالهما طولا وقصراً .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : سيرهما ، وذللهما طلوعاً وأفولاً .

(إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) قيل : هو يوم القيامة . وقيل : منتهى دورتهما .

(الْفُلْكَ) : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع .

(صَبَّارٍ شَكُورٍ) : كثير الصبر على البلاء والشكر على النعماء .

(وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ) : غطاهم وأحاط بهم .

(كَالظُّلَلِ) الظُّلل : جمع ظلّة ، وهو ما يستظل به من جبل وسحاب وغيرهما .

(مُّقْتَصِدٌ) : مقيم على القصد السوى من التوحيد .

(يَجْحَدُ) : ينكر ويكفر .

(خَتَّارٍ) : شديد الغدر .

(كَفُورٍ) : مبالغ فى الكفر .

التفسير

٢٩ — (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . . .) الآية :

هذه الآية شروع فى تفصيل بعض آثار القدرة المتمثلة فى قوله ـ تعالى ـ : (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) وتوضيح نعمه على خلقه ، والخطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو عام لكل من يصلح للخطاب .

والمعنى : ألم تعلم علماً قويًّا جارياً مجرى الرؤية البصرية أن الله ـ تعالى ـ يدخل جزءا من كل واحد من الليل والنهار فى الآخر ويضيفه إليه ، فيختلف بذلك حالهما طولا وقصراً ، وذلل الشمس والقمر ، وهداهما لمصالح خلقه طلوعاً وأفولاً ، كلٌّ من النيرين يجرى فى فلكه

إلى أجل سماه الله وحده ، لايعلوه ولا يقصر عنه ، قيل : هو يوم القيامة ، وقيل : إلى منتهًى ومدار معلوم ، الشمس تجرى فيه إلى آخر العام والقمر يسرى فيه إلى آخر الشهر ..

وهذا الإيلاج بالنسبة لعالمنا الأرضى والعوالم المماثلة لنا ، وليس عند الله ليل ونهار ، وقدمت الشمس على القمر فى قوله : (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) لأنها كالمبدإ للقمر ، ولأن تسخيرها لغاية عظمها أعظم من تسخير القمر ، وعطف (سَخَّرَ) الماضى على (يُولِجُ) المضارع ، فخالف بين المعطوفين لأن إيلاج واحد من الليل والنهار فى الآخر متجدد يختلف طولًا وقصرًا ، وحرارة وبردًا ، بخلاف تسخير الشمس والقمر ، فإنه لا تجدد فيه ولاتعدد ، إنما التجدد والتعدد فى آثاره كما يشير إليه قوله – تعالى –: (كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) .

وقوله – تعالى – : (وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) معطوف على (أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ) داخل فى حيز الرؤية ؛ فإن من شاهد مثل ذلك الصنع لايكاد يغفل عن كون صانعه – عَزَّ وَجَلَّ – محيطاً بجلائل أعماله ، خبيرًا بدقائقها ، فلايَنِد عنه أمر من أمورها ، ولا يخفى عليه شأن من شئونها .

٣٠ –(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَايَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) :

أى : ذلك المذكور من الآيات الكريمة ، والمشاهد الواضحة من سعة العلم ، وكمال القدرة ، واختصاص البارى – تعالى – بذلك ثابت بسبب أن الله – تعالى – وحده هو المتحقق فى ذاته وفى جمع صفات الكمال اللائقة بربوبيته ، وأن ما يدعونه من دونه من الآلهة الباطل المعدوم الذى لايقوم على ألوهيته دليل ، وأن الله هو العلى على جميع الأشياء ، الكبير عن أن يتصف بنقص ، أو أن يكون له شريك .

٣١ – (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) :

تصور هذه الآية مظهرًا آخر من مظاهر قدرته ، ومشهدًا من مشاهد آياته فى الأرض بعد أن صورت الآيات السابقة مظاهر القدرة فى السماء .

والمعنى: ألم تعلم - أيها المكلف - علماً يقينيا آخر تضمه إلى علمك السابق تعميقاً للإيمان، وتجسيدًا للحقائق - ألم تر وتعلم - أن السفن تجرى فى البحر بنعمة الله - تعالى - وقدرته على تهيئة أسباب الجرى من الريح ، وانسياب الماء ، وحفظ الله لها ، أو بنعمة الله التى تحملها من الطعام والمتاع والأغراض ؛ ليريكم رأى العين آياته الناطقة بألوهيته ، الشاهدة بعظيم قدرته .

إن فى كل ما ذكر من الآلاء والمشاهد لآيات عظيمة فى دلالتها كثيرة فى عددها لكل صبار كثير الصبر على البلاء ، شكور عظيم الشكر على النعماء ؛ والمراد من الصبار الشكور : المؤمن . لأن الصبر والشكر عمدتا الإيمان ، فقد ورد « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » كما أن التعقيب بهما على ركوب الفلك يُلمِع إلى مناسبة دقيقة لأن الراكب الفلك إذا كان مؤمنًا يكون غالباً بين صبر عند أسباب الفزع وشكر عند أسباب الأمن .

٣٢ - ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ .

تسير هذه الآية مع جرى السفينة وتحكى أحداث البحر ، فإن راكبه كثيرًا ما يكون عرضة لغضبته وثورة الموج ، واهتياج الماء فيتملكه الهلع .

والمعنى : وإذا غشى ركاب البحر وغطاهم وأحاط بهم موج هائج متعالٍ كالجبال والسحب التى تعلو الرءوس ، وأحدق خطر الغرق بهم خلصت نفوسهم مما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد ، بما دهاهم من الخوف الشديد فاتجهوا جميعاً إلى الله مستجيرين داعين مخلصين له الدين أن يؤمّن خوفهم ويبدد فزعهم ، فلما قدر لهم النجاة ، ووصلوا إلى بر السلام والأمن عاودتهم نزعات الشر ، وغلبهم سلطان الهوى والضلال ، وانقسموا ، فمنهم مقتصد ، أى : مقيم على القصد ، أى : الطريق السوى وهو التوحيد ، باق على الإخلاص الذى كان عليه فى البحر عند الفزع ، ومنهم جاحد راجع إلى كفره وإنكار فضل الله عليه ، وما يجحد بآيات الله وينكرها بعد قيام البراهين عليها إلا كلُّ ختَّار غدار شديد الغدر لا يذكر فضلا ولايحمد معروفاً ، كفور مبالغ فى الكفر مجرد من الانتفاع بآيات الله - تعالى - وإدراك نعمه ، فقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا ﴾ فى مقابل ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قائم مقام عبارة « ومنهم جاحد » مع تضمنه ذم الجاحد ، والإيجاز من ألوان البلاغة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفـردات :

(وَاخْشَوْا يَوْماً) : هو يوم القيامة .

(لَا يَجْزِى) : لا يغنى ولا يقضى .

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ) : فلا تلهينكم ولا تخدعنكم .

(الْغَرُورُ) : الشَّيْطان ، لأنه يغر الإنسان ويخدعه ، وأصل الغرور : صيغة مبالغة من غَرَّه : إذا أصاب غِرَّته ، أى : غفلته ونال منه ما يريد .

التفسـير

٣٣ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً . . .) الآية .

تتجه السورة فى نهايتها وبعد الذى ذكرته من دلائل التوحيد ، ومظاهر النعم ـ تتجه إلى الأمر بالتقوى ، وتجنح إلى العظة والتخويف من لقاء الله ، فتوجه هذا النداء الذى تحس منه النفس المطمئنة معانى الإشفاق ، ولمسات الرحمة والإحسان ، وتعم به جميع المخلوقين مؤمنين ومشركين حتى تنقطع منهم الأعذار ، ولا يبقى لأحد عتب ولاتعلة .

والمعنى : يـٰأيها النَّاس آمنوا بالله ربًّا ، واتقوه حق تقواه ، فافعلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وخافوا يوماً لا ينفع فيه مال ولا جاه ، يوم القيامة الذى لا يغنى والد عن ولده ولا يقضى عنه شيئاً، ولا مولود هو مغنٍ عن والده ولا قاضٍ عنه شيئاً ، وكل

يواجه عمله ويلقى جزاءه ، فينال ثوابه أو عقابه «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» (١) .

واختلاف التعبير بين (لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ) وبين (وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا) لأنه – تعالى – لما أكد الوصية بالآباء وقرن وجوب شكرهم بوجوب شكره – عز وجل – وأوجب على الولد أن يكفى والده ما يسوءه ، قطع – سبحانه – هنا وهم الوالد فى أن يكون الولد فى القيامة يجزيه حقه عليه ، ويكفيه ما يلقاه من أهوال يوم القيامة ، كما أوجب الله عليه ذلك فى الدنيا .

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) أى : إن وعد الله بالقيامة والبعث متحقق ثابت لايخلف ، وذكر الآلوسى أن المراد بوعد الله : الثواب والعقاب على تغليب الوعد على الوعيد ، أو هو على معناه اللغوى ، وعدم إخلاف الوعد بالثواب مما لا كلام فيه ، وأما عدم إخلاف الوعيد بالعقاب ففيه كلام ، والحق أنه لايخلف أيضاً ، وعدم تعذيب من يغفر له من العصاة المتوعدين ليس من إخلاف الوعيد فى شىء ، لما أن الوعيد فى حقهم كان معلقاً بشرط لم يذكر ترهيباً وتخويفاً .

وقيل : المراد أن وعد الله بذلك اليوم حق .

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) : بأن تلهيكم بلذاتها عن الطاعات . (وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) أى : ولا يلهينكم الشيطان ويصرفنكم عن الطاعات ، ويحملكم على المعاصى بتزيينها لكم .

وعن أبى عبيدة : « كل شىء غرك حتى تعصى الله – تعالى – وبتترك ما أمرك – سبحانه – به فهو غرور ، شيطانا أو غيره » وإلى ذلك ذهب الراغب ، قال : « الغرور : كل ما يغر من مال وجاه وشهوة وشيطان » .

---

(١) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ – ٣٧

(إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(السَّاعَةِ) : القيامة .

(الْغَيْثَ) : المطر .

(وَمَا تَدْرِى) : وما تعلم .

التفسير

٣٤ - (إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ . . .) الآية .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة أن رجلاً يقال له : الوارث بن عمرو جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد ! ! متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا ، فمتى تُخْصِب ؟ وقد تركت امرأتى حاملا ، فمتى تلد ؟ وقد علمتُ ما كَسَبْتُ اليوم ، فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية ،وهى وثيقة الارتباط بما قبلها ، فقد تعرض ما قبلها لذكر يوم القيامة ، فتهيأت بذلك الأذهان للسؤال عنه ، وجاء الجواب عن هذا السؤال وعن مثله مما استأثر الله بعلمه .

والمعنى : إن الله - تعالى - وحده عنده علم قيام الساعة استأثر به لحكمة يعلمها ،ولم يعط علمه لنبى مرسل ، ولا لملك مقرب (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ) فى وقته بلا تقديم ولا تأخير ، وفى بلد لا يتجاوزه إلى غيره ، وبمقدار تقتضيه حكمته ، (وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ) من ذكر أو أنثى ، تام أو ناقص ، وغيرها من أحوال الأجنة فى بطون أمهاتهم .

(وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) : أى لا تعلم كل نفس برة أو فاجرة ، عاجزة أو قادرة ، مؤمنة أو كافرة ، ما يجرى عليها من الرزق أو من الأعمال فى غدها . (وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) أى : وما تعلم نفس - أية نفس - فى أى مكان أو زمان تموت . (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) أى : إن الله واسع العلم فلا يَعْزُبُ عن علمه شىء من الأشياء التى من جملتها مفاتح الغيب ، خبير يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها .

واختلاف التعبير بين الجملة الاسمية فى قوله - تعالى - : (عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) والجملة الفعلية بعده فى قوله - تعالى - : (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ) للدلالة بالتعبير الأول على مزيد الاعتناء باختصاص أمر الساعة ، وعلى شدة خفائها ، وبالتعبير الآخر على استمرار تجدد المتعلقات بحسب تجدد المتعلَّقات مع الاختصاص .

وهكذا تنتهى سورة لقمان بذكر مفاتح الغيب التى استأثر الله بعلمها ، كما تدل عليه الأحاديث والآثار ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة من حديث طويل أنه - صلى الله عليه وسلم - سئل : متى الساعة ؟ فقال للسائل : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمةُ ربَّها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْمِ فى البنيان ، هن فى خمس لا يعلمهن إلاَّ الله - تعالى - ثم تلا النبى - صلى الله عليه وسلم - : (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ . . .) الآية . هكذا فى بعض الروايات ، ولعل هذا الاستئثار بهذه الخمس من فيض رحمة الله - تعالى - ومزيد فضله ؛ لتأخذ الدنيا حظها من التعمير فى غير تخوف ولا تعويق ، وليعلم الخلق أن مفاتيح رزقهم عند الله ، وأسبابه عنده ، فيقبلوا عليه بالدعاء ، وينقطعوا إليه بالرجاء ، وليرضى كل إنسان بما يقضى له الله به من الذرية ذكورًا أو إناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، وليبيتَ كل مخلوق معتمداً على ربه فيما يجرى عليه من رزق فى غَدِه ، فلا تغره قوته ولا تخدعه حيلته ومهارته ، ويسعى لتحصيله حيث كان ، حتى يدركه أجله فيما لا يعلمه من مكان وزمان .

وليست المغيبات محصورة فى هذه الخمس ، وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها ، أو لأنها كثيرًا ما تشتاق النفوس إلى العلم بها ، وبالجملة فالمغيبات لا تتناهى ، فسبحان العليم الخبير .

« سورة السجدة »

سورة السجدة مكية ، وعدد آياتها ثلاثون آية ، وتوافقها فى عدد آياتها سورة (الملك) كما تشاركها فى بعض الفضائل ، وتسمى هذه السورة سورة المضاجع ؛ لقوله – تعالى – : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) كما تسمى سورة « سجدة لقمان » تمييزاً لها عن سورة (حٰمٓ) – فصلت – فإنها تسمى أيضاً سورة السجدة .

ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية .

وفى البحر : لما ذكر – سبحانه – فيما قبل دلائل التوحيد وهو الأصل الأول ، ثم ذكر – جل وعلا – المعاد وهو الأصل الثانى وختم به السورة ، ذكر فى بدء هذه السورة الأصل الثالث وهو النبوة .

وقال الجلال السيوطى فى وجه الاتصال بما قبلها : إنها شرح لمفاتح الغيب الخمسة التى ذكرت فى خاتمة ما قبلها

فضل هذه السورة :

جاء فى فضلها أخبار كثيرة : منها ما أخرجه أبو عبيدة فى فضائله ، وأحمد ، وعبد بن حميد والدارمى ، والترمذى ، والنسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن جابر قال : « كان النبى – صلى الله عليه وسلم – لاينام حتى يقرأ : الٓمٓ تنزيل ... السجدة » ، و « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ » وكان – صلى الله عليه وسلم – يقرؤها هى وهل أتى فى صلاة فجر الجمعة ، أخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى ، والنسائى ، وابن ماجه عن أبى هريرة قال : « كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : الٓمٓ تنزيل : السجدة ، وهَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ » .

ما تشتمل عليه السورة :

بدأت هذه السورة بما بدأت به سور كثيرة من القرآن الكريم بسرد حروف من المعجم ، وإتباع ذلك بالحديث عن القرآن ، ببيان أنه تنزيل من رب العالمين لامجال فيه لشك ،

ولا مدخل لريبة ، ويرفض مزاعم المشركين أنَّ رسول الله افتراه من عنده ، وبيان أنه الحق المنزل عليه من ربه لينذر به قومه الذين لم يسبق لهم إنذار قبل بعثته ؛ لأنه أول رسول أُرسل فيهم ، فإن إسماعيل – عليه السلام – كان قد أُرسل إلى قبيلة جُرهُمَ وهم من العرب العاربة ، وقد نشأت العرب المستعربة من ذريته مع جرهم ، وفيهم أُرسل محمد – صلى الله عليه وسلم – فهو أول رسول للعرب المستعربة .

ثم تنتقل الآيات بعد تقرير إرسال الرسول وإنزال القرآن عليه إلى ذكر دلائل من قدرة الله المتمثلة فى خلق السموات والأرض ، واستيلائه على عرشه ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ليعرج إليه يوم القيامة ، وهو العالم بكل شيء الذى أحسن كل شيء خَلَقه ، وبدأ خلق الإنسان (آدم) من طين على وجه بديع ، وفطرة عجيبة ، ثم نسل منه ذريته ، ونفخ فيها من روحه ، وجعل لها السمع والأبصار والأفئدة لتتيسر لها وسائل الحياة فتشكر نعمه – تعالى – وتحمد فضله ، ولكنها قليلا ماتؤدى شكر ذلك .

ثم تعرض لحال المشركين واستبعادهم البعث بعد أن يموتوا وتتحلل أجزاؤهم ، وتتيه فى التراب وتضل فى أجزاء الأرض ، وتقرر أن الموت حق عليهم تتوفاهم الملائكة الموكلون بهم ، ثم يرجعون إلى ربهم ، ويبعثون ليوم عظيم يقفون فيه بين يدى الله خزايا يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا مافات ، وهيهات هيهات ! ! ! !

ثم تذكر الآيات حكمة الله السامية فى اختلاف أحوال الخلق بالإيمان والكفر – ولوشاء لآتى كل نفس هداها – ليكون لجهنم عمارها من الجِنَّة والناس أجمعين ، وليذوقوا عذاب الخلد بما كانوا يعملون ، من الإشراك بربهم ، ونسيان لقائه وجحد جزائه .

ثم تشيد الآيات بذكر المؤمنين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وما أُعد لهم من نعيم مقيم : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ثم تقرر الآيات أن إرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم شأن قديم ، وسنن طبعى لا يحتمل ريبة ، وقد أُنزل التوراة على موسى وكانت هدًى لبنى إسرائيل ، وكان منهم أئمة يهدون بأمر الله ،

ويوقنون بآياته ،وسوف يفصل الله بين الأنبياء وأممهم بما فعلوه معهم ، ثم تتجه الآيات إلى تبصير النفوس الغافلة ، والاتعاظ بالأمم السابقة التى يعيشون مكانها ، ويمشون فى مساكنها ، وإلى الانتفاع بآيات الله وقدرته التى تسوق الماء إلى الأرض الجُرُز ، أى : الجدباء التى لا زرع فيها ، فتخصب وتنبت ، وتحيا وتعمر بالإنسان والحيوان ، أليس ذلك بقادر على إحياء الموتى وبعثهم كما أحيا الأرض الجرز بعد موتها وقحطها ، وبعث فيها الحياة والجمال .

وتختم السورة بتبكيت المشركين على استبعادهم ليوم الفتح الذى ينتظره المؤمنون ليفصل بينهم وبين المشركين ، ويتوعدهم بأن هذا اليوم آت لا محالة، وسيلاقون فيه جزاءهم ولا ينفعهم إيمانهم ولا هم ينظرون ، وتطلب من الرسول – صلى الله عليه وسلم – الإعراض عنهم ، وانتظار النصرة عليهم وهلاكهم الذى ينتظرونه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(لَا رَيْبَ فِيهِ) : لا شك فيه .

(افْتَرَاهُ) : اختلقه من عنده .

(لِتُنذِرَ) : لتخوف وتحذر .

التفسير

١ - الٓمٓ :

هذه الآية ابتداءُ سورة السجدة ، وهى سادسة ست سور بدئت بهذه الأحرف ، وقبلها سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة لقمان ، ثم هذه السورة ، وقد تقدم الكلام عليها مبسوطاً فى سورة البقرة وفى غيرها من هذه السور .

٢ - (تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

الكلام فى هذه الآية يجرى على نمط الكلام الذى فى السور المشاركة لها فى البدء بالحديث عن القرآن الكريم ، ومن ذلك أنه الكلام المنزل من رب العالمين الذى لامجال فيه لشك ، ولا مدخل لريب ، كما فى قوله - تعالى - : (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) . و (الٓمٓ) إن جعل اسما للسورة أو القرآن فهو خبر لمبتدأ محذوف ، و (تَنزِيلُ) خبر ثان ، و (لَا رَيْبَ فِيهِ) خبر ثالث ، و (مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) خبر رابع ، والتقدير : هذا الٓمٓ تنزيل الْكِتَابِ لا ريب فِيهِ مِن رَّبِّ العالِمين ، والمراد من التنزيل اسم المفعول ، أى : مُنزَّل الكتاب ، وهناك إعرابات أخرى فارجع إليها إن شئت .

والمعنى : هذه السورة التى تسمى الٓمٓ لاشك فى أنها - كسائر القرآن - منزلة من رب العالمين الذى يعلم مصالح عباده ، ولكن المشركين يمارون فى الحق ويجادلون فيه ويزعمون أن هذا القرآن من عند محمد كما حكى الله عنهم بقوله :

٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) :

أثبتت الآية الأُولى أن هذا القرآن تنزيل من رَّب الْعَالَمِينَ لا سبيل فيه إلى شك ، بل هو أبعد شيء عنه ، ثم أضرب - جلَّ وعَلَا - عن ذلك إضراباً انتقالياً مشوبا بالإنكار بقوله : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أى : بل أيقول المشركون افترى محمد القرآن على الله من عنده ، وأعانه عليه قوم آخرون ، وقوله : (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) إضراب إبطالى عن دعواهم الاختلاق ، وتسفيه لعقولهم ، وإثبات أن هذا القرآن هو الحق الصادق

الثابت المنزل من ربك لتنذر به ، وتخوف قريشاً قومك الذين لم يسبق لهم إنذار بمثله قبل بعثتك إليهم ؛ لأنهم لم يرسل إليهم رسول منهم قبلك فقد كان إسماعيل – عليه السلام – غير عربى ، أرسل لقبيلة جرهم التى هى من العرب العاربة ، أما قريش فمن العرب المستعربة . التى هى من ذرية إسماعيل وجرهم ، أو أنهم لم يباشرهم وآباءهم الأقربين إنذار ، وإنما كان الإنذار لآبائهم الأقدمين ، وقد طال عليه العهد ، وبعد به الزمن ، فلم يسمعوا شيئاً منه ، ولم يعرفوا شيئاً عنه ، وقد بعثك الله إليهم ، وأنزل عليك الكتاب لتنذرهم به (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) أى : رجاء أن يهتدوا ، فهو على الترجى من رسول الله ، كما جـاء الترجي من موسى – عليه السلام – فى قوله – تعالى – : « لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »[1] أو على التعليل بمعنى : ليهتدوا .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ[2]) أى : قام وحده بتدبير سمواته وأرضه بعد خلقها ، ولهذا قال بعد ذلك : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » .

(مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ) : من ناصر ينصركم ولا وسيط يشفع لكم .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : يريده على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة ، والمراد به هنا : أمر الدنيا وشئونها .

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة طه .

(٢) سبق بسط الكلام على آراء العلماء فى تفسير مثل هذه الآية فى سورة الأعراف .

التفسير

٤ - (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . .) الآية :

لما ذكرت الآية السابقة الرسالة بعنوان الإنذار بينت هـذه الآية ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد ، وإقامة الدليل .

والمعنى : الله الذى جلت قدرته وتعاظم سلطانه خلق السموات : ورفعها بغير عمد ترونها ، وأحكم نظامها ، وبسط الأرض ، وجعل فيها جبالا رواسى ، وأجرى فيها أنهارًا ، وأنبت بها زرعاً وأشجارًا ، وخلق بينهما كائنات وأجراما لا يعلم كنهها ولا يحيط بحقائقها إلَّا الله الواحد القهار .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) :وذللهما وسيرهما على أبدع نظام وأدق إحكام لايختل لهما مدار ، ولا يختلف لهما مسار ، وخلص من هذا كله فى ستة أيام من أيامه تعالى : « وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ[1] » . ويقول فى هذه السورة : (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) وهى الآية التالية .

(ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) : ثم دبر ملكه بعد تمام خلقه ، لم يعنه فى ذلك أحد ،ولم يحتج إلى نصير أو شريك ، فقدِّروا قدرته واشكروا نعمته .

(مَالَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ) ينصركم إذا جاوزتم طاعته ورضاه ، وما لكم من وسيط يشفع لكم ،ويدفع عنكم عذابه ،أو يجيركم من بأسه . (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) أى : أتسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها كفرًا وعنادًا ؟

٥ - (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) :

أصل التدبير : النظر فى دابر الأمر ، والتفكير فيه ليجىء محمود العاقبة . وهو فى حقه تعالى مجاز عن إرادة الشئ على وجه الإتقان والحكمة .

والمعنى : يريد الله الأمر على وجه الحكمة والإتقان بأسباب تقتضيه ، نازلة أحكامها وآثارها من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة .

---

(١) سورة الحج من الآية : ٤٧

(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) أى : ثم يصير إليه خبر ذلك الأمر ويصعد إليه ليعلمه - جلَّ شأنه - موجودًا كما أراده - جل وعلا - قال الآلوسى : والمراد بعروج الأمر إليه بعد تدبيره - سبحانه - وصول خبر وجوده بالفعل كما دبَّر - جل وعلا - بواسطة الملك ، وعرضه ذلك فى حضرة قد أعدها الله للإخبار بما هو - جل وعلا - أعلم به ، إظهارًا لكمال عظمته وعظيم سلطنته ، وذلك كعرض الملائكة عليه أعمال العباد الوارد فى الأخبار : اهـ . بتصرف يسير .

ومعنى قوله - تعالى - : (فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) أى : فى زمن متطاول يبلغ فى حساب دنياكم ألف سنة مما تعدون من السنين التى تقيسون بها آجالكم وأعمالكم ، وإن كان الملك يقطعه فى زمن يسير كشأنه فى الوحى وفى رحلة الإسراء والمعراج ، وقيل معناه : يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملك ، ثم يعرج بعد الألف لألف آخر .

وقيل : المعنى أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه فى يوم كان مقداره ألف سنة ، نقله القرطبى .

واعلم أن أيام الله ليس فيها ليل ولا نهار ، وإنما هى أزمان تحت مشيئة الله - تبارك وتعالى - وقد يقدر اليوم مرة فى كتاب الله بألف سنة مما يعده البشر ، وقد يقدر بخمسين ألف سنة كما جاء فى بعض الآيات ، وكل ذلك من باب ضرب المثل لطول أيام الله - تعالى - وقد يطول اليوم عن ذلك كله وما يعلم شئون ربك إلا هو .

(ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠)

المفردات :

(الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) الغيب : ما غاب عن الخلق وخفى ، والشهادة : ما شاهدوه ورأوه .

(الْعَزِيزُ) : القوى الغالب .

(الرَّحِيمُ) : البالغ الرحمة واللطف .

(الْإِنسَانِ) : آدم – عليه السلام – .

(نَسْلَهُ) : ذريته .

(سُلَالَةٍ) سلالة الشيء : ما استل منه ، وسلالة الإنسان : النطفة .

(مَهِينٍ) : مبتذل لا يعتنى به .

(ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ) : خفينا وتحللت فيها أجزاؤنا .

التفسير

٦ – (ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : ذلك الموصوف بما مرّ من خلق السموات والأرض وما بينهما وتسخير الشمس والقمر ، والاستواء على العرش ، وتدبير أمر الكائنات – ذلك الموصوف بهذا كله (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أى : عالم كل ما غاب عن المخلوقات وخفى ، وما شاهدوه من أحوالها وشئونها ورأوه رأى العين . (وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أى : وهو القوى الغالب على كل شيء . (الرَّحِيمُ) : الواسع الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شيء .

٧ – (الَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ) :

أوصاف جارية على الله – تعالى – بعد وصفه بالأوصاف السابقة ، والمعنى : الذى أتقن كل مخلوق خلقه ، ووفّر له ما يليق به على وفق الحكمة والمصلحة ، وبدأ خلق الإنسان –وهو آدم عليه السلام– من طين على وجه بديع تحار فيه العقول ، وجعله بحيث يكون مستتبعاً لخروج كل فرد من ذريته ، خلقاً بعد خلق ، وجيلا بعد جيل ، وذلك ما حكاه بقوله :

٨ – (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ) :

أى : ثم جعل ذرية آدم المخلوق من طين - جعلها - مخلوقة من خلاصة من ماء مبتذل لا يُعْبَأُ به عند الناس وهو المنى ، فإنهم يتخلصون منه بغسل موضعه ، وسميت الذرية نسلاً لأنها تنسل من الإنسان ، وتنفصل عنه .

٩ - (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) :

أى : ثم قوّمه وعدّله بتكميل أعضائه ، وتنسيقها فى الرحم ، وتصويرها على ما ينبغى (وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ) أى : أدخل فيه الروح المملوكة له ، وأجرى فيه الحياة . وقوله - تعالى - : (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) معناه : خلق لكم هذه الأعضاء الكريمة لمنفعتكم ، فتستعينون بها على حياتكم ، وتيسير أموركم الدينية ، والدنيوية المختلفة ، وإن أيسر ما تقابل به هذه النعم هو الشكر عليها ، وصرفها فيما خلقت له ، ولكنكم قليلا ما تشكرونها ، بأداء حق الله فيها .

١٠ - (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) :

هذه الآية استئناف كلام جديد مسوق لبيان أباطيلهم وأنه لم يقف أمرهم عند عدم الشكر ، بل جاوزه إلى الكفر وإنكار البعث . (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ) أى : أئذا خفينا فى الأرض التى دفنت فيها أجسامنا ، وتحللت أجزاؤنا ، وصرنا تراباً مخلوطاً بترابها ، أيعقل أن نبعث ونعود إلى خلق جديد ؟ (بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) أى : إن أمر هؤلاء المشركين لا يقف عند إنكار البعث بل يتجاوزه إلى كفرهم بلقاء ربهم ، والمراد من لقائه - تعالى - : لقاء ملائكته وما يكون بعده من حساب وجزاء فهم يكفرون بالبعث وكل ما يتصل به من شئون الآخرة .

* (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١))

المفردات :

(قُلْ يَتَوَفَّكُمْ) أصل التوفى : أخذ الشيء وافياً تامًّا ، ثم غلب فى قبض الروح ، يقال : توفاه الله ؛ أى : استوفى روحه وقبضه .

(مَلَكُ الْمَوْتِ) : اسمه عزرائيل ، ومعناه – كما قيل – عبد الله ، وهو موكل بقبض أرواح جميع الخلائق .

التفسير

١١ – (قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) :

لما ختمت الآية السابقة ببيان كفرهمْ بالبعث والنشور ، أتت هذه الآية للرد عليهم بياناً للحق ، وإبطالا لما زعموه من إفك وبهتان .

والمعنى : قل لهم – أيها الرسول – : يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم ومعرفة انتهاء آجالكم ، بحيث لايترك منكم أحداً دون أن ينتزع روحه على أشد ما يكون ، حيث إن الملائكة – وهم أعوانه – يضربون وجوهكم وأدباركم كما قال – تعالى – : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ »[١] .

فأعوان ملك الموت يعالجون قبض الأرواح ، وملك الموت يقبضها ، والله يزهقها ، وهذا هو الجمع بين قوله – تعالى – : « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا »[٢] ، وقوله هنا : (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ) وقوله – تعالى – : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »[٣] . ا هـ بتصرف من القرطبي .

ولما كان ملك الموت يتولى ذلك عن الله – تعالى – أضيف التوفى إليه هنا .

(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) بالبعث والحساب والجزاء ، وهو تهديد لهم ووعيد .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٥٠ .

(٢) من الآية ٦١ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية ٤٢ من سورة الزمر .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ) : مطرقوها من الخزى والندم فى موقف الحساب ، من النكْس : وهو قلب الشيء على رأسه ، كالتنكيس ، وفعله : من باب نصر .

(لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) أى : رشدها وتوفيقها إلى الإيمان .

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا) أى : بما تركتم ذكر لقائه ، فالنسيان مشترك بين الغفلة والترك العمد .

(إِنَّا نَسِينَاكُمْ) أى : تركناكم فى العذاب .

التفسير

١٢ - (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ) :

الخطاب للنبى ، وخطابه - صلى الله عليه وسلم - خطاب لأمته ، أو خطاب لكل أحد ممن تصح منه الرؤية .

والمعنى : ولو ترى حال منكرى البعث يوم القيامة ، أوحال كل مجرم باعتبار الجنس ومن جملتهم هؤلاء ـ لو ترى حالهم ـ لرأيت أمرا فظيعاً ، وصورة عجيبة ، حيث تراهم مطرق الرءوس من الندم والخزى والذل والغم عند محاسبة ربهم إياهم وجزائهم على أعمالهم ، يقولون فى ضراعة وإقرار بالتقصير : ربنا أبصرنا ماكنا نكذب به ، وسمعنا ماكنا ننكره ، فقد أبصرنا صدق وعيدك ، وسمعنا قول الرسل سماع تصديق وإذعان ، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة ، والآيات المسموعة ، وكنا قَبْلُ صماً عمياً لاندرك شيئاً . أو يقولون : أبصرنا قبح أعمالنا التى كنا نراها فى الدنيا حسنة ، وسمعنا قول الملائكة : إن مَرَدَّكم إلى النار فارجعنا إلى الدنيا بعد أن أبصرنا وسمعنا لنتدارك مافاتنا ، ونعمل عملا صالحاً وفق ما ترشد إليه آياتك ، لأننا الآن موقنون بالبعث والحساب ، وزالت عنا الشكوك ، يقولون ذلك ادعاء منهم بصحة الأفئدة ، والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بما توجبه ، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا ولا يتدبرون ، ولكن أنَّى لهم أن يجابوا إلى تحقيق أملهم ، وقد علم الله منهم أنهم كاذبون ، وأنه لو أعادهم إلى الدنيا لعادوا كما كانوا كفاراً ، كما قال ـ سبحانه ـ : «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»[1] .

١٣ ـ (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) :

أى : ولو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بأن نعطى كل نفس : برة أو فاجرة ما تهتدى به قَهْرًا فى دنياها لفعلنا ، ولكن حق القول منى أن أجازى كل امرىء على ماكسبت يداه باختياره ، فلأملأن جهنم من كفار الجن والناس أجمعين بما كانوا يكسبون .

فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى لكل نفس ، بل منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم ، حيث صرفتم اختياركم إلى الغى والضلال بتزيين الشيطان وإغوائه ، ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها المعلوم لنا أزلًا ، فلما لم تختاروا الهدى

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

واخترتم الضلالة لم نشأ إعطاءه لكم ، وإنما أعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة لنقاء نفوسهم ، وكمال استعدادهم ، وهم المعنيون بما سيأتى من قوله – تعالى – : (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا . . .) الآية . وفى تخصيص الجن والإنس فى قوله – سبحانه – : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) إشارة إلى أن الله عصم ملائكته من عمل يستوجبون به جهنم .

١٤– (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

الأمر للتهديد والتوبيخ ، وهو مرتب على ما يُعْرِب عنه ما قبله من نفى الرجع إلى الدنيا ، أو على قوله – تعالى – : (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى . . .) الآية :

والمعنى : فذوقوا العذاب الدائم يا أهل النار بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم العظيم ، وترككم التفكر فيه ، والتزود له بما ينجيكم من شدائده وأهواله ، والنسيان بهذا المعنى اختيارى يوبخ عليه حيث أريد به ترك الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح ، ويعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساسها بذوق الطعام .

(إِنَّا نَسِينَاكُمْ) : استئناف ، للإشعار بتشديد الانتقام منهم والسخط عليهم ، أى : تركناكم فى العذاب ترك الشيء المنسى بالكلية .

وقوله – سبحانه – : (وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : تكرير لتهديدهم بذوق العذاب للتأكيد والتشديد ، وتعيين المفعول المطوى فى الذوق الأول وهو « عذاب الخلد » الذى لا انقطاع له ، والإشعار بأن سبب العذاب ليس مجرد ما ذكر من النسيان ، بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا ، ولما كان ختام الآية فيه زيادة عن صدرها حصلت بها مغايرته له استحق العطف عليه ، ولم ينظم الكل فى سلك واحد ، للتنبيه على استقلال كل من النسيان وأعمالهم من فنون الكفر والمعاصى فى استيجاب العذاب .

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا
وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ
عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(خَرُّوا سُجَّدًا) : المراد به السجود المعهود ، وعليه أكثر العلماء ، أى : سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لله ، وخر : من باب ضرب .

(وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) أى : جمعوا بين التسبيح والحمد فى سجودهم ، فقالوا : سبحان الله وبحمده . والتسبيح : التنزيه .

(تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) أى : ترتفع جنوبهم عن مواضع الاضطجاع ، كناية عن ترك النوم للعبادة .

(خَوْفاً وَطَمَعاً) أى : خوفاً من عذابه - تعالى - وطمعاً فى ثوابه ، وأكثر ما يستعمل الطمع فيما يقرب حصوله ، وقد يستعمل بمعنى الأمل ، ومن كلامهم : طمع فى غير مطمع .

(مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) : مما تسر به قلوبهم ، يقال : قرت العين قُرَّة - بالضم - وقُروراً : بردت سروراً ، وقر من باب : تعب .

التفسير

١٥ - (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) :

استئناف مسوق لتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - ولتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى ، وتعيين من يستحقه فى الآية بطريق القصر .

والمعنى : إنّما يؤمن بآياتنا الذين إذا وعظوا بها أقبلوا عليها وتفهموا معانيها ، من غير تردد ولا تسويف ، وهَبَطُوا على وجوههم فوضعُوا جباههم على الأرض بحمد الله تعظيماً لذاته العلية ، وخوفاً من سطوته وعذابه ، وشكرًا على ما رزقهم من نعمة الإسلام ، وتنزهوه عما لا يليق به من الأُمور التى من جملتها العجز عن البعث ، وأثنوا عليه لنعمائه ــ جل وعلا ــ التى أجلُّها الهداية إليه عن طريق آياته ، والتوفيق إلى الاهتداء ، فخلطوا بذلك التسبيح بالتحميد ، وهم فى كل أحوالهم لا يستكبرون عن عبادته وإخلاص الإيمان له ، والثناء عليه ، لا كما يفعل من يصر مستكبرًا كأن لم يسمع الآيات .

أو : لا يستكبرون كما استكبر أهل مكة عن السجود ، ويرى ابن عباس أن المعنى : خروا رُكعاً ، وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة . قاله المهدوى ، وقال أبو حيان : هذه السجدة من عزائم سجود القرآن .

والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم فى قوله ــ جل ذكره ــ : (وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) للإشعار بعلة التسبيح والتحميد ، من حيث إنهم يفعلونها بملاحظة ربوبيته لهم .

١٦ ــ (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) :

أى : تتنحى وتتجنبُ جنوبهم الفُرُش ومواضع النوم ، وهذا التعبير كناية عن ترك النوم وعدم الاستسلام له ، ومثله قول عبد الله بن رواحة يصف النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

نبيٌ تجافى جنبُه عن فراشه إذا استَثْقلَتْ بالمشركين المضاجع

وفى المراد من تجافى الجنوب عن المضاجع أقوال ، والمشهور أن المراد به : القيام لصلاة النفل ليلاً ، قاله جمهور المفسرين ، وهو قول مجاهد ، والأوزاعى ، ومالك بن أنس ، والحسن ابن أبى الحسن ، وأبى العالية وغيرهم ، لأن أفضل النفل ماكان فى الأسحار ، وفى الحث على قيام الليل أحاديث كثيرة ، منها حديث معاذ بن جبل : أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال له : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنَّةٌ ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىءُ الماءُ النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » قال : ثم تلا : (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ . حتى بلغ : (يَعْمَلُونَ) .

أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، والقاضى إسماعيل بن إسحٰق ، وأبو عيسى الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقال أنس : إن المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة لأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل ، قال أنس : نزلت فينا – معاشر الأنصار– كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى – صلى الله عليه وسلم – قال ابن عطية : كانت الجاهلية ينامون من وقت الغروب ومن أى وقت شاء الإنسان ، فجاء انتظار وقت العشاء غريباً وشاقاً . اهـ .

وقال الضحاك : تَجَافِى الجُنُب : هو أن يصلى العشاء والصبح فى جماعة . وقاله أبو الدرداء .

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعاً) أى : يسألونه – تعالى – : خائفين من غضبه وعذابه وعدم قبول عبادتهم ، وطامعين فى ثوابه وحسن جزائه .

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) أى : ومن المال الذى أعطيناهم إياه ينفقون فى وجوه الخير ، وقيل : معناه الزكاة المفروضة [1] ، اهـ : القرطبى .

١٧ – (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

يخبر الله – سبحانه – أنه أعد لهؤلاء الذين ذكرت محاسنهم ثواباً عظيماً من النعيم المقيم الذى أُخفى لهم ، فلا تعلم كنهه نفس من النفوس ، لا مَلك مقرّب ، ولا نبى مرسل ، فضلا عمن عداهم بهذا النعيم الذى تَبْرُدُ أعينهم سروراً به وتبتهج قلوبهم له ؛ جزاءً وفاقاً لما أخفوه من أعمالهم الصالحة فى الدنيا ، فإن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن : أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم مالم ترعين ، ولم يخطر على قلب بشر . رواه ابن أبى حاتم .

وفى معنى هذه الآية ما خرجه مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « يقول الله – تبارك وتعالى – : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،

---

(١) وقيل: مما رزقناهم من المعارف وأنواع الفيوضات ينفقون ، إشارة إلى تكميلهم لغيرهم بعد كمالهم فى أنفسهم .

ولا خطر على قلب بشر ، ذخرا بَلْه[(١)] ما أطلعكم عليه » ثم قرأ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) والإبهام فى لفظ « أعين » للتعظيم وإعلاء الشأن ، قال ابن عباس : الأمر فى هذا أجل وأعظم من أن يعرف تفسيره ، وفى إضافة القرة إلى الأعين على الإطلاق لا إلى أعينهم تنبيه على أن ما أخفى لهم فى غاية الحسن والكمال فلا تشذ عن استحسانه عين مَّا ، ثم بيَّن أن من كان فى نور الطاعة والإيمان لايستوى مع من هو فى ظلمة الكفر والعصيان فقال ـ سبحانه ـ :

(أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(كَمَن كَانَ فَاسِقاً) : أريد بالفسق الذى اتصفوا به : الخروج عن الطاعة وأحكام الشرع ، وأصله وفق الاشتقاق : الخروج مطلقاً ، من فسقت الثمرة : خرجت من قشرها .

(١) بله: من أسماء الأفعال ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ، فالذى لم يطلعكم عليه أعظم ، كأنه أضرب. عنه استقلالا له فى جنب ما لم يطلعهم عليه . ا هـ : شرح النووى .

(فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا) أى : الجنات التى فيها مساكنهم جعلت لهم نزلا ضيافة وثواباً على أعمالهم ، والنزل فى الأصل : ما يعد للنازل من الطعام والشراب ، ثم عمَّ كل عطاء .

(فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) أى : ملجؤهم ومنزلهم .

(الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ) : عذاب الدنيا من قحط وقتل وأسر .

(دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) : قبل عذاب الآخرة .

(ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) أى : تولَّى بترك التدبر والقبول .

(مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) أى : من أذنبوا مُعَاقِبون ، يقال : جرم فلان : أذنب ، كأجرم ، وانتقم منه : عاقبه .

التفسير

١٨ — (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ) :

قال ابن عباس وعطاء بن يسار : نزلت الآية فى علىّ بن أبى طالب ، والوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، وذلك أنهما تلاحيا[1] ، فقال له الوليد : أنا أبسط منك لسانا وأحدّ سنانا ، وأملأُ فى الكتيبة جسدا ، فقال له على : اسكت ، فإنك فاسق — فنزلت الآية — قال ابن عبد البر : لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أنها نزلت فيه : انتهى كلامه . ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والاستفهام فى قوله — تعالى — : (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ...) . للإنكار والنفى ، ولذا عقّبه — سبحانه — بقوله :(لَّا يَسْتَوُونَ) .

والمعنى : أيستوى الناس فى جزائهم ، وقد اختلفت أعمالهم ، فمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً ؟ لا يتوهم ذلك بعد وضوح ما بينهما من التباين ، فهما لا يستويان جزاءً كما لم

---

(١) تلاحيا ، أى : تخاصما .

يستويا عملا ، حيث إن المؤمن له جنة الخلد يتمتع بنعيمها ، والكافر له جهنم يتجرع غصصها خالدًا فيها أبدًا .

والتعبير بقوله : (لَا يَسْتَوُونَ) بواو الجمع مع أن الضمير عائد على اثنين وهما المؤمن والكافر . لأن الاثنين جَمْعٌ لُغَةً ، لأنهما واحدٌ جُمِعَ مع آخر .

١٩ - (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

تفصيل لمراتب الفريقين فى الدار الآخرة ، بعد ذكر أحوالهما فى الدنيا .

والمعنى : أن المؤمنين الذين صدقت قلوبهم آيات الله ، وعملوا الصالحات بمقتضاها جعلت لهم جنات المأوى ، أى : التى فيها يأوون ويسكنون ، نزلا ، أى : ضيافة لهم ، وثواباً على أعمالهم الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

وإضافة الجنات إلى المأوى إشارة إلى أنها هى المأوى والمسكن الحقيقى ، وأن الدنيا منزل مُرْتَحَلٌ عنه لا محالة .

٢٠ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) :

المعنى : وأما الذين خرجوا عن الإيمان إلى الكفر فمسكنهم ومقامهم النار ، فى مقابل جنات المأوى التى أعدت للمؤمنين ، هؤلاء الكافرون كلما دفعهم لهيب النار إلى أعلاها فشارفوا الخروج منها وقربوا منه رُدوا إلى موضعهم فيها ودفعوا إلى قعرها ، قال الفضيل : « والله إن الأيدى لموثقة وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهيب ليرفعهم والملائكة تقمعهم »[1] وقيل لهم على لسان الخَزَنَة تقريعاً وتشديدًا زيادة فى غيظهم : (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) فى الدنيا مستمرين على تكذيبكم بعذابها ، وهذا دليل على أن المراد هنا بالفاسق : الكافر ، إذ التكذيب يقابل الإيمان .

---

(١) تقمعهم: تضربهم بالمقمعة - بكسر الأول - وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذل ويهان. ا هـ: المصباح وفى القاموس : المقمعة - كمكنسة - : العمود من حديد يضرب به رأس الفيل ، وخشبة يضرب بها رأس الإنسان، والفعل كمنع ، ويقال : قمعه ، وأقمعه .

٢١ – (وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

ونقسم لنذيقن الكافرين فى الدنيا العذاب الأدنى وهو الأقل أو الأقرب ، وذلك ما أصابهم من القتل والسَّبْى يوم بدر ،كما روى عن عبد الله بن مسعود ، وعن مجاهد : القتل والجوع ، وأخرج ابن المنذر ،وابن جرير عن ابن عباس أنه قال : هو مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها ، وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف ، وعن أبى عبيدة أنه فسره بعذاب القبر ، وحكى عن مجاهد أيضاً .

لنذيقنهم هذا العذاب قبل أن يصلوا إلى العذاب الأكبر ، وهو عذاب الآخرة الذى به يخلدون فى النار لعلّ [١] من بقى من المعذبين بالعذاب الأدنى يتوبون عن الكفر بعد مشاهدتهم إياه ، ويعودون إلى الإيمان .

وفى الآية لم يقل : الأصغر فى مقابلة الأكبر ، أو الأبعد فى مقابلة الأدنى ؛ لأن المقصود هنا : هو التخويف والتهديد ، وذلك إنما يحصل بالقرب لا بالصغر ، وبالكبر لا بالبعد ، قاله النيسابورى .

٢٢ – (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) :

بيان إجمالى لحال من قابل آيات الله – تعالى – بالإعراض عنها بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد .

والمعنى : لا أحد أظلم لنفسه ممن ذكَّره الله بآياته الواضحة النيرة التى ترشد إلى الصراط المستقيم ، والفوز بالسعادة العظمى والنعيم المقيم ، ثم كان منه بعد التذكير بها ما يستبعد عقلا وهو الإعراض عنها بترك التدبر فيها ، وتناسيها كأن لم يسمعها ، ولم يعلم عنها شيئاً ، وتشير كلمة (ثمَّ) إلى الاستبعاد العقلى للإعراض عن الآيات مع وصفها بما ذكر من الأوصاف العظيمة ، وختمت الآية بتهديد كل من اقترف الإجرام والأفعال المذمومة ، حيث قال – سبحانه

(١) لعل الترجى الحاصل من المخاطبين كما فسرها بذلك سيبويه ، وعن ابن عباس تفسيرها هنا: بكى ، وكأن المراد : كى تعرضهم بذلك للتوبة .

وتعالى - : (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) ولم يقل : (منه) أى : من الأظلم (منتقمون) لأنه إذا جعله أظلم من كل ظالم، ثم توعد المجرمين جميعاً بالانتقام منهم ، فقد دل بذلك على إصابة الأظلم بالنصيب الأوفر من الانتقام ، ولوقال : (منه) لم تحصل هذه الفائدة .

وجوز أن يراد بالمجرمين الأظلم المذكور ، وقد أقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى (مَنْ) باعتبار معناها ، وكأنه قيل : إنا منهم منتقمون ، واختير هذا التعبير ليؤذن الإتيان بالمظهر أن علة الانتقام ارتكاب هذا المُعْرِض مثل هذا الجرم العظيم .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ) أى : فلا تكن فى شك من لقائك الكتاب مثله ، والمرية : اسم من امترى فى أمره : شك .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) أى : قادة يقتدى بهم فى دينهم .

(وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) أى : يعلمون التوراة علماً لا يداخله أى شك ، واليقين : العلم الحاصل عن نظر واستدلال ، ويَقِنَ الأمرُ من باب تَعِب : إذا ثبت ووضح ، ويستعمل أيضاً متعدياً بنفسه وبالباء ، فيقال : يقنته ويقنت به .

التفسير

٢٣ ، ٢٤ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) :

المعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب (أى : التوراة) فلا تكن - أيها النبى - فى شك من لقائك كتاب القرآن مثلما لقى موسى كتاب التوراة ، ونهيه - عليه الصلاة والسلام - عن الشك فى لقائه المقصود منه نهى أمته ، وجعلنا الكتاب الذى أنزل على موسى هاديا لقومه - بنى إسرائيل - من الضلالة ، ويشير ذلك إلى أنه لم يتعبد به أحد من ولد إسماعيل ، ولذلك خُصّ به بنو إسرائيل ، وجعلنا من بينهم قادة يقتدى بهم فى دينهم سوى الأنبياء - عليهم السلام - جعلناهم يرشدونهم ، ويدعونهم إلى سلوك الطريق القويم ، وَفْق مافى تضاعيف الكتاب من الحِكَم والأحكام ، وذلك بأمرنا إياهم بأن يهدوا الخلق إلى طاعتنا ، وكان هؤلاء أئمة حين صبروا على مشاق الطاعة ، ومقاساة الشدائد فى نصرة الدين ، وفى ذلك إشارة إلى أن الصبر ثمرته الإمامة للناس ، وكان هؤلاء الأئمة يصدقون بآيات التوراة تصديقاً يقينيًّا لا شك فيه ، لحصوله عن نظر واستدلال ، وكذلك لنجعلنَّ الكتاب الذى أوتيته هدى لأمتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون تلك الهداية ، وفيه تعريض بكفرة أهل مكة ، وأجاز بعضهم أن يراد من أئمة بنى إسرائيل أنبياؤهم .

٢٥ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

المعنى : إن ربك هو يحكم ويقضى بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فيميز بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه من أمور الدين ؛ حتى يكون الجزاء لكل بما يستحقه قسطاً وعدلا ، وفق العمل الذى عمله .

وقيل : يقضى بين الأنبياء وأممهم . حكاه النقاش .

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ) : أوَ لَمْ يبين لهم ، والواو عاطفة على مقدر يقتضيه المقام ، والتقدير : أغفلوا ولم يهد لهم ، وفاعل (يهد) ضمير يشير إليه ما بعده .

(كَمْ أَهْلَكْنَا) : و (كَمْ) فى محل النصب بأهلكنا ، ولا يصح أن يكون فاعلاً ليهد ، لأن اسم الاستفهام . لا يعمل فيه ما قبله عند الجمهور، وأجازه الفراء ، وهو رأى ضعيف ، ومفعول (يهد) مقدر ، والتقدير : أو لم يبين لهم الحق كثرة من أهلكنا ... إلخ .

(مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ) : جمع قرن وهو الجيل من الناس .

(إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ) : وهى اليابسة التى لانبات فيها ؛ لأنه جُرِز نباتها ، أى : قُطِع ، إما لعدم المطر ، وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتى لا تنبت ، كالسباخ جمع سَبْخة ، لا يقال لها : جرز ، والسبخة ـ مسكنة ومحركة ـ : أرض ذات نَزٍّ [1] وملح : ا هـ .

التفسير

٢٦ـ(أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) :

الهمزة للإنكار ، والمعنى : أتركوا الاتعاظ ، ولم يبين لهم الحق كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون الكافرة المعروفة لهم كعاد وثمود وقوم لوط ، أهلكناهم بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل ، فلم تبق منهم باقية ، كما قال ـ تعالى ـ : « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » [2] وهؤلاء المكذبون من أهل مكة يمرون

(١) النز : ما يتحلب من الأرض من الماء : قاموس .

(٢) الآية ٩٨ من سورة مريم .

فى أسفارهم للتجارة بديار وبلاد أولئك المكذبين المهلكين . ويشاهدون آثار هلاكهم . وعشون فى مساكنهم فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها « كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا »[1] وكان عليهم أن يعتبروا بهذه القرون المعاقبة قبلهم .

إن فيما حل بأولئك الطغاة من هلاك ودمار بسبب تكذيبهم الرسل إغفال ماجاءهم من الآيات البينات ، وهى عظيمة فى نفسها ، كثيرة فى عددها (أَفَلَا يَسْمَعُونَ) أى : أصموا فلا يسمعون آيات الله وعظاته وأخبار من تقدم من الأمم سماع تدبر واتعاظ . ليثوبوا إلى رشدهم . ويقبلوا على طاعة ربهم ؟

٢٧ — (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) :

المعنى : أعموا ولم يشاهدوا كمال قدرتنا بسَوْق السحاب الحامل للماء . أو بسوق نفس الماء بالسيل أو بإجرائه فى الأنهار . نسوقه إلى الأرض الجرز وهى اليابسة التى لانبات فيها لانقطاع الماء عنها أو لرعيه أو إزالته . نسوق الماء إليها لنحييها بعد موتها ، فنخرج بالماء زرعاً — ويراد به النبات مطلقاً مزروعاً أو غير مزروع — نخرجه به ليكون غذاء تأكل منه أنعامهم كالكلأ[2] والعشب والتبن والحبوب الخاصة بها ، وتأكل منه أنفسهم ، كالبقول والحبوب التى يقتاتها الإنسان والخضراوات والفواكه « أَفَلَا يُبْصِرُونَ » هذا بأعينهم ، وينظرون إليه نظر تَفَكُّر وتدبر ، فيستدلوا به على كمال قدرته — تعالى — على إحياء الموتى بالبعث ، وعلى فضله وإحسانه إلى خلقه ؟ ! .

وقدم الأنعام فى الآية على أنفسهم لأن انتفاعها مقصور على الزرع ، وأما الإنسان فقد يتغذى بغيره ، وجعلت الفاصلة هنا (يبصرون) لأن ما قبلها مرئى ، وفى الآية السابقة يسمعون لأن ما قبلها مسموع ، وقيل : ترقيًا إلى الأعلى فى الاتعاظ مبالغة فى التذكير ورفع العذر : ذكر ذلك الآلوسى .

---

(١) الآية ٩٢ من سورة الأعراف .

(٢) الكلأ : العشب رطبه ويابسه .

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(يَوْمَ الْفَتْحِ) الفتح : الفصل ، ويوم الفتح هو يوم القيامة ، فهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ، وقيل : يوم بدر ، أو فتح مكة .

(وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) أى : يؤخرون ويمهلون للتوبة .

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) أى : عن سفههم ، ولا تجبهم إلا بما أمرناك به .

(إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ) أى : منتظرون هلاككم ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

التفسير

٢٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

المعنى : كان المشركون من أهل مكة يقولون للنبي وللمؤمنين على وجه التكذيب والاستهزاء : متى هذا الفتح ؟ إذا سمعوهم يقولون لهم : إن الله سيفتح لنا عليكم بالفصل بيننا وبينكم فى الخصومة فيثيب المحقين ، ويعاقب المبطلين .

وهذه الآية مرتبطة بقوله -تعالى- : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »[1] .

٢٩ - (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) :

المعنى : قل لهم -أيها النبى تقريعاً لهم ، وبياناً للحق الثابت- : يوم الفتح ، أى : يوم

(١) الآية ٢٥ من هذه السورة .

القضاء والفصل بين المؤمنين وأعدائهم فى القيامة إذا حل بهم لا ينفع نفساً إيمانها لفوات وقته ، ولا هم يمهلون ويؤخرون من العذاب الذى يستحقونه ولو لحظة .

٣٠ ـ (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ) :

المعنى : فأعرض ـ أيها النبى ـ عن سفه هؤلاء المشركين ، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر النصر عليهم وهلاكهم ؛ فإن الله سينجز لك ماوعدك ، وسينصرك على من خالفك نصراً عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فهو ـ سبحانه ـ لا يخلف الميعاد .

وهم منتظرون أن تدور بكم الدوائر ، وتصيبكم حوادث الزمان كقوله ـ تعالى ـ : « فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ »[1] ، وسيجدون غِبَّ ما ينتظرون فيك وفى أصحابك من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم مالا قبل لهم بدفعه .

وفى الآية إشارة إلى أنه ينبغى الإعراض عن المنكرين المستهزئين بالدعاة والمرشدين والمُضِىُّ فى وعظهم وإرشادهم لعل الله يهديهم .

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة التوبة .

« سورة الأحزاب »

مدنية ، وآياتها : ثلاث وسبعون

مقاصدها :

بدأ الله هذه السورة بأمر المؤمنين فى شخص نبيهم بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وباتباع الوحى ، والتوكل على الله – تعالى – وعقب ذلك ببيان أن الأزواج لاحق لهم فى تحريم زوجاتهم كتحريم أمهاتهم ، وأن التبنى غير مشروع فى الإسلام ، وأن النبى – صلى الله عليه وسلم – أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق بالميراث من المهاجرين والأنصار ، ناسخاً بذلك التوارث بالتآخى فى الإسلام بينهم فى أول الهجرة ، ثم بين للمؤمنين فضله عليهم فى الانتصار فى غزوة الأحزاب ، حيث أرسل على أعدائهم الأحزاب ريحاً وجنوداً لم يرها المسلمون ، ففر الأحزاب منهزمين ، وأنقذ المسلمين بذلك من حصارهم من فوقهم ببنى قريظة ، ومن أسفل منهم بالأحزاب، ونعى على المنافقين تخاذلهم ومعاذيرهم الكاذبة التى اخترعوها للفرار من المعركة ، وأثنى على المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا مع رسولهم فى المعركة حتى جاء النصر من عند الله . . (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا. وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا) ثم أتبع ذلك تخيير النبى لزوجاته ، وأمر الله إياه بنصحهن ، وختم ذلك بقوله – تعالى – : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا) . ثم أتبع ذلك نصائح للمسلمين والمسلمات ، وذكر قصة الخلاف التى وقعت بين زيد ابن حارثة وبين زوجته زينب بنت جحش ، وانتهت بطلاق زيد لها وتزوج النبى – صلى الله عليه وسلم – إياها ، تأكيداً لنسخ التبنى وآثاره .

وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد تبنى زيد بن حارثة ، وكان يدعى زيد بن محمد فلما نسخت شرعة التبنى أصبح يدعى زيد بن حارثة ، ونزل فى ذلك قوله – تعالى – : « مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً » .

ثم بين الله عدم وجوب العدة على المرأة إذا طُلقت قبل الدخول بها ، وبين ما أحله لنبيه من الزوجات ، وذكر طائفة من الآداب نحو بيوت النبي – صلى الله عليه وسلم – وتحريم الزواج بزوجاته بعده ، وبين وجوب لبس الثياب الساترة للمسلمات عند خروجهن ، حتى لا يَتعرضن للأذى ، وهدد المنافقين والمرجفين بسوء المصير إن لم يرجعوا عن إرجافهم ، وأمر رسوله أن يذكر لسائليه عن الساعة أنه لايعلمها إلّا الله ، ولعلها تكون قريباً ، وبين أن الكافرين خالدون فى النار أبدًا ، ونهى المؤمنين عن إيذاء الرسول كما آذى بنو إسرائيل موسى ، وحثهم على أن يتقوا الله ويقولوا قولًا سديدًا وأوصاهم فى ختامها بأداء الأمانة ، لأن مسئوليتها عظيمة عند الله – تعالى – .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(اتَّقِ اللهَ) : دم على تقواه ، أو زد على ما أنت عليه من التقوى .

(وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) : ودم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم .
(عَلِيماً حَكِيماً) : واسع العلم عظيم الحكمة . (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) : فوّض الأمر إليه .
(وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً) : وكفى به حافظاً ومعيناً .

التفسير

١ - (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) :

خاطب الله نبيه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - بقوله : (يأيها النبى) ولم يخاطب غيره من الأنبياء بوصف النبوة كقوله - تعالى - : « يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ » وقوله : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ » وذلك لتشريف نبيه محمد وتكريمه ، وليرتب عليه ماهو من أبرز آثاره وأقوى لوازمه ، وهو وجوب التقوى منه لله - تعالى - وعدم طاعته للكافرين والمنافقين .

وسبب نزولها - على ما ذكره الثعلبي والواحدى - أن أبا سفيان بن حرب ، وعكرمة ابن أبى جهل ، وأبا الأعور السلمى قدموا على النبى - صلى الله عليه وسلم - فى زمن الموادعة[١] ، وقدم معهم من المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس ، فقالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ارفض ذكر آلهتنا ، وقل : إنها تشفع وتنفع ، وندعك وربك ، فشق ذلك على النبى - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين وهموا بقتلهم .

وروى أن عمر بن الخطاب لما سمع قولهم هذا قال : يا رسول الله ائذن لى فى قتلهم ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنى قد أعطيتهم الأمان » فقال لهم عمر : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه ، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخرجوا من المدينة ،

وقيل : نزلت فى ناس من ثقيف قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطلبوا منه أن يمتعهم باللات والعزى سنة ، يأخذون نذورها على أن لايعبدوها ، لتعلم قريش منزلتهم عنده - صلى الله عليه وسلم - فأبى عليهم ذلك . ومعلوم قطعاً أن النبى أشد الناس

(١) أى : زمن الهدنة التى كانت بين النبى ﷺ وبين قريش فى صلح الحديبية .

تقوى لله ، وأبعدهم عن طاعة الكافرين والمنافقين ، وإنما أمره الله بذلك تأييدًا له فى موقفه منهم ، وتثبيتاً له فى مواجهة الكافرين والمنافقين ، لكى ييئسوا من موافقته لهم بعد أن تلقى هذا الأمر من مولاه — جل وعلا — كما أن فيه أمرًا ضمنيّاً للمؤمنين بذلك ، فإن النبى إمام أمته ، فإذا كان الله قد أمره بذلك — وهو من التقوى والبعد عن طاعة الكافرين والمنافقين بالمحل الأرفع — فغيره من أمته أولى بذلك .

والتقوى — كما قال طَلْقُ بن حبيب — : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله — ذكره القرطبى .

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها النبى دُمْ على ما أنت عليه من تقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، فيما يعود على الدين بالضعف ، وازدد فى ذلك قوة على قوة ، وليقتد بك المؤمنون فى امتثال أمر الله ونهيه ، إن الله كان — منذ الأزل ولا يزال — واسع العلم بالمصالح والمفاسد ، عظيم الحكمة ، فلا يكلفكم إلا ما تقتضيه الحكمة ، مما يعود عليكم بالخير فى الدنيا والآخرة .

وبين الله لنبيه سبيل التقوى فقال :

٢ — ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ :

أى : واتبع فى كل ما تأتى به أو تتركه من أمور الدين والدنيا ما يوحى إليك من ربك من الآيات والأحكام التى من جملتها ما جاء بالآية الكريمة السابقة ، وليقتد بك المؤمنون فى ذلك ، إن الله كان بما تعملون خبيرًا ، فيرشدكم إلى ما فيه صلاح أعمالكم وحسن المثوبة عليها .

٣ — ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ :

واعتمد على الله — تعالى — فى القيام بأعباء الوحى وتكاليفه ، وكفى بالله موكولاً إليه الأمور كلها ، فلا يهمنك معاصاة الكافرين ومناوأتهم ، فإن الله ناصرك ومؤيدك .

(مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(فِى جَوْفِهِ) : فى صدره .

(تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ) الظِّهار : قول الرجل لزوجته : أنت علىَّ كظهر أمى ، يريد بذلك تحريم مباشرتها تحريماً أبدياً كما هو شأنه مع أمه ، وهو مأخوذ من الظَّهر ، باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك .

(أَدْعِيَآءَكُمْ) : جمع دعىّ ، والمراد به هنا : الابن بالتَّبَنِّى . (السَّبِيلَ) : الطريق .

(ادْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ) : انسبوهم إلى آبائهم اللذين ولدوهم .

(هُوَ أَقْسَطُ) : هو أعدل .

(وَمَوَالِيكُمْ) : جمع مولى ، ويطلق لغة على : المعتق ، والعتيق ، وابن العم ، والناصر ، والجار ، والحليف ، والمراد به هنا : الولى فى الدين - أى : الصديق فيه - ويقابله العدو .

(جُنَاحٌ) : إثم .

(فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ) : فيما فعلتموه مخطئين جاهلين قبل النهى .

(وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) : ولكن الجناح والإثم فيما تعمدتموه وقصدتموه من ذلك بعد النهى .

التفسير

٤ - (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) :

نزلت هذه الآية لرد ماكان مزعوماً أو متبعاً قبل الإسلام ، فقد زعمت العرب أن الأريب اللبيب القوى الحافظة له قلبان ، ومن ذلك قولهم لأبى معمر الفِهْرى - أو جميل ابن معمر الجمحى - له قلبان ، لأنه كان داهية قوى الحفظ لما يسمع ، وكان يزعم أن له قلبين يفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ، وقد كذَّبه الله قولاً فى هذه الآية ، وفعلا يوم بدر ، وذلك أنه انهزم فى هذا اليوم ، ولقى أبا سفيان فى العير فى طريقه إلى مكة وهو معلق إحدى نعليه بيده ، والأخرى فى رجله ، فسأله أبو سفيان : مابال إحدى نعليك فى رجلك والأخرى فى يدك ؟ فقال : ما ظننت إلّا أنهما فى رجلى ، فعرفوا من يومئذ أنه لوكان كما زعم لما لبس نعله فى يده ، والقلب : قطعة من اللحم صنوبرية الشكل ، خلقه الله - تعالى - لضخ الدم فى الشرايين لتغذية الجسم ، وجذبه ثانياً من الأوردة لإيصاله إلى الرئتين لتطهيره من « ثانى أكسيد الكربون » الناتج من عملية الاحتراق فى داخل الجسم ، وبعد تطهيره يستعيده القلب ليعيد قذفه فى الشرايين ، وقد جعله الله مناطاً للحفظ والعلم ، إما لأنه يمد الأجهزة الحافظة فى المخ بغذائها - فهو سبب للحفظ والعلم - وإما لأن الحفظ والعلم من وظائفه .

وكان من عادة العرب أن يحرم الرجل زوجته على نفسه كتحريم أمه عليه ، بأن يقول لها : أنتِ علىَّ كظهر أمى أو نحوها ، فلا يباشرها كما لا يباشر أَحَدٌ أُمَّه ، وكانوا يعتبرون الظهار طلاقاً فى الجاهلية ، وسيأتى حكمه فى الإسلام فى سورة المجادلة بمشيئة الله - تعالى - .

كما كان من عادتهم أن يتبنى الرجل ولد سواه فيرث ماله من بعده كما يرث الولد من أبيه النَّسَبِىّ ، وتحرم عليه زوجته كما تحرم عليه زوجة ابنه من صلبه ، فنزلت الآية لِرَدِّ هذا كله ، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد تبنَّى غلامه زيد بن حارثة بعد أن أعتقه ، وفقاً لما كان عليه العرب ، ولهذا كان يدعى زيد بن محمد ، فلما نزلت هذه الآية نسبه

إلى أبيه حارثة ، قال القرطبي : روى الأئمة أن ابن عمر قال : ماكنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزلت : (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ).

وكان زيد – فيما روى عن أنس بن مالك وغيره – مسبياً من الشام ، سَبَتْه خيل من تهامة ، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ، فوهبه لعمته خديجة ، فوهبته خديجة للنبى – صلى الله عليه وسلم – فأقام عنده مدة ، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان فى فدائه ، فقال لهما النبى – صلى الله عليه وسلم – وكان ذلك قبل البعثة : خيِّراه ، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء ، فاختار الرق مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وآثره على حريته وقومه ، فقال محمد – صلى الله عليه وسلم – : « يامعشر قريش ، اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه » فرضى بذلك أبوه وعمه . ا هـ : من القرطبى بتصرف يسير .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظرفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان ينسب إليه فيقال : فلان ابن فلان . ذكره القرطبى .

والمعنى الإجمالى للآية : ماخلق الله لرجل من قلبين فى صدره ، بل خلق له قلباً واحداً يعيش على نبضاته ، ويعى أصناف العلم بسببه ، وماصير أزواجكم فى حكم أمهاتكم من حرمة المباشرة ، حتى تجعلوهن مثلهن فيها ، وما جعل الغرباء من عتقائكم وغيرهم أبناء لكم ، حتى تعطوهم حكمهم فى الميراث وحكم عدم نكاح زوجاتهم ، ذلك الذى تزعمونه فى شأن هؤلاء جميعاً هو قولكم بأفواهكم ، دون أن يكون له نصيب من الصحة ، والله يقول الحق فى شأنهم وفى كل أحكامه ، وهو يهدى بشرعه إلى الطريق المستقيم .

٥ – (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

فى هذه الآية زيادة بيان لحكم التبنى فى الإسلام ، قال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنى ، وهو من نسخ السنة بالقرآن : ا هـ . وبيان ذلك أن النبى سن

للناس جواز التبني الذي كان معمولاً به في الجاهلية قبل نسخه بهذه الآية وما قبلها ، ولوخالف الإنسان هذه الآية ، فدعا غيره إلى أبيه بالتبني ، فإن كان على جهة الخطأ ، بأن سبق لسانه إليه فلا إثم عليه ، لقوله – تعالى – : (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ ، وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) ولا يجرى هذا المجرى من غلب عليه اسم المتبنى ، كما هو الحال في المقداد بن عمرو ، فقد غلب عليه لقب المقداد بن الأسود ، فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبناه في الجاهلية وعرف به ، فلما نزلت الآية قال المقداد : أنا ابن عمرو ، ولكنه لصق به لفظ (ابن الأسود) بعد نزولها ، وكذلك سالم مولى أبي حذيفة فإنه كان يدعى لأبي حذيفة بعد نزولها ، وغيرهما ، ولم يحكم أحد بإثم من كان يقول هذا لغلبته على صاحبه.

وذلك غير ماحدث لزيد بن حارثة ، فإنه لما نزلت الآية قطع الناس نسبه إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – بالبنوة ، وعزوه إلى أبيه حارثة ، فإن نسبه أحد بالبنوة إلى محمد بعد نزولها متعمدًا كان آثماً ، لقوله – تعالى – : (وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) أي : فعليكم الجناح والإثم ، قاله القرطبي ، ثم قال في المسألة السادسة : روى الصحيح عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة ، كلاهما قال : سمعته أذناى ووعاه قلبي ، محمداً[1] يقول : « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » .

أما قول الكبير للصغير : أنت ابني على سبيل التحنن والشفقة فلا حرمة فيه ، ولكن بعض العلماء يرى كراهته ، لمافيه من التشبه بالكفرة .

وحكم التبني بقوله : (هو ابني) عند الحنفية ، أنه إن كان عبدًا عتق عليه ، ولا يثبت نسبه منه إلا إذا كان مجهول النسب ، وكان بحيث يولد مثله لمثله ، وعند الشافعية : لا عبرة بالتبني لافي العتق ولا في النسب[2] .

المعنى الإجمالي للآية : انسبوا من تبنيتموهم إلى آبائهم الحقيقيين ، فإن لم تعلموا آباءهم يقيناً فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه ، فقولوا : هذا أخي ووليي في الدين ،

---

(١) « محمداً » بدل من الضمير المنصوب محلا في قوله : « سمعته أذناى » .

(٢) انظر الآلوسي .

أى : صديق فيه[1] ، وليس عليكم إثم فيما قلتموه مخطئين قبل النهى ، أو بعده نسياناً أو سبق لسان ، ولكن الإثم فيما قلتموه عامدين قاصدين البنوة وأحكامها بقلوبكم ، وكان الله غفوراً فيغفر للعامد إذا تاب ، رحيماً برفع الحرج والإثم فيما كان قبل النهى ، أو كان خطأ لسان أو نسياناً بعده .

(ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾)

المفردات :

(أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) : أحق بهم من أنفسهم .

(وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) أى : مثل أمهاتهم فى التحريم واستحقاق التعظيم.

(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) أى : أصحاب القرابات بعضهم أحق ببعض فى التوارث .

(إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا) : إلا أن تعطوا حلفاءكم من المهاجرين والأنصار برًّا معروفاً كالتوصية .

(كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً) أى : كان ماذكر من الأحكام فى الآيات السابقة مسطورا فى اللوح المحفوظ .

---

(١) من الولاء ضد العداء ، ويجوز أن يكون بمعنى عتيق إن كان كذلك .

التفسير

٦ - (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ..) الآية :

هذه الآية نسخ الله بها بعض الأحكام التى كانت فى صدر الإسلام ، وبيانه ما يلى :

(١) أنه - صلى الله عليه وسلم - كان لا يصلى على أحد وعليه دين ، فلما فتح الله عليه الفتوح ، قال : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالًا فلورثته » أخرجه الصحيحان ، وروى البخارى بسنده فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « مامن مؤمن إلّا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرأوا إن شئتم قول الله - تعالى - : (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) فأيما مؤمن ترك مالًا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضَيَاعًا فليأتنى فأنا مولاه » أخرجه البخارى فى تفسير سورة الأحزاب .

والمراد من عصبته : قرابته ، والضَّياع : مصدر ضاع جعل اسما لكل ماهو عرضة للضياع ، منْ عيال لا كافل لهم ، ومال لا قيِّم عليه ، وسميت الأرض ضيعة لأنها معرضة للضياع ، وتجمع على ضياع - بكسر الضاد[١] - وقال بعض العلماء : هو أولى بهم من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة ، ويؤيد هذا المعنى حديث مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعْن فيها ، وأنا آخذ بحُجزِكم وأنتم تقتحمون فيها » قال العلماء : الحُجْزة للسراويل والمعقد للإزار ، فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه ، أخذ بذلك الموضع منه .

وهذا مثل لاجتهاد النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نجاتنا ، وحرصه على تخليصنا من المهالك التى بين أيدينا ، بدافع شهواتنا ووسوسة الشيطان الرجيم ، فهو أولى بنا من أنفسنا .

وفسرها بعضهم بأن المراد بأولويته بهم من أنفسهم أنه إذا أمر بشىء ، ودعت النفس إلى غيره ، كان أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أولى ، وشرعه أحق من هوى أنفسهم ،

(١) انظر القرطبى فى تفسير (الضياع) بفتح الضاد - ومن كسر الضاد - (ضياعاً) فالمراد بهم العيال الضائعون الذين لاكافل لهم ، جمع ضائع .

فينفذ حكمه لا حكمهم قال تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً »(١)

واستنبط بعض الفقهاء من هذا الحديث - تفسيرا للآية - أنه يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دين الفقراء ، اقتداء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فى قوله : « فعلىَّ قضاؤُه »

(٢) ومنها أنها جعلت زوجات النبى - صلى الله عليه وسلم - أمهات المؤمنين ، حيث صيرتهن فى حكم الأُمهات فى وجوب التعظيم والنفقة وحرمة النكاح على الرجال ، ثم إن هذه الأُمومة لاتوجب ميراثاً ، ولا تمنع من زواج بناتهن .

واختلف فى كونهن أمهات النساء ، فمنهم من قال بذلك قياساً على الرجال ، ومنهم من منع رعاية للنص ، ولما رواه الشعبى عن مسروق عن عائشة - رضى الله عنها - : أن امرأة قالت لها : يا أُمَّه ، فقالت لها : « لست لك بأُم ، إنما أنا أم رجالكم » قال ابن العربى : وهو الصحيح .

واستظهر القرطبى أنهن أمهات للرجال والنساء ، فكما شملت أولوية النبى - صلى الله عليه وسلم - الرجال والنساء بقوله - تعالى - : (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) . فكذلك قوله - سبحانه - : (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) ويحمل الأثر المروى عن عائشة - رضى الله عنها ، إن صح - : (لست لكِ بأُم إنما أنا أم رجالكم) على أنه رأى لها فى الآية . ا هـ : بتصرف .

واختلف فى النظر إليهن على وجهين : (أحدهما) أنهن كالمحارم فلا يحرم النظر إليهن . (وثانيهما) أن النظر إليهن حرام ، لأن تحريم نكاحهن إنما هو لحفظ حق الرسول فيهن ، ومن حفظ حقه فيهن حرمة النظر إليهن ، وأما اللاتى طلقهن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فنى ثبوت حق الأُمومة لهن خلاف . ولا يجوز أن يسمى النبى

(١) سورة النساء ، الآية : ٦٥

ـ صلى الله عليه وسلم ـ أباً للمؤمنين ، لقوله ـ تعالى ـ : (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) ولكن يقال : إنه مثل الأب لهم ، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم . . . » . الحديث أخرجه أبو داود . وصحح بعضهم جواز إطلاق الأبوة عليه ؛ لأنه سبب للحياة الأبدية ، كما أن الأب سبب للحياة ، بل هو أحق بالأبوة منه ، وبهذا الرأى أخذ معاوية ،وعكرمة ، ومجاهد والحسن ، بل قال مجاهد : كل نبى أب لأمته ، ومن هنا قيل فى قول لوط : (هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِى) إنه أراد النساء المؤمنات من أمته ، وأخرج غير واحد عن ابن عباس أنه كان يقرأ : (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَّهُمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) .

(٣) أن قوله ـ تعالى ـ : (وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ) ناسخ لما كان فى أول الهجرة من التوارث بالهجرة ، حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل فى سورة الأنفال « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا[1] .. » . فتوارث المسلمون بالهجرة ، فكان لا يرث الأعرابى المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئاً حتى يهاجر ، ثم نسخ ذلك فى هذه السورة بقوله :(وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) . .

كما أنه ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة فى الدين ، روى هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام فى تفسيرها قال: « إنا ـ معشر قريش ـ لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ، ثم قال : حتى أنزل الله هذه الآية فرجعنا إلى مواريثنا » وثبت عن عروة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخى بين الزبير وبين كعب بن مالك ، فارْتُثَّ كعب يوم أحد[2] ، فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته ، فلومات يومئذ كعب عن الضِّح والرِّيح[3] لورثه الزبير ، فأنزل الله ـ تعالى ـ

(١) الآية : ٧٢ .

(٢) الارتثاث : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح .

(٣) الضح ـ بكسر الضاد ـ ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض ، أراد أنه لو مات كعب عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح ، وكنى بذلك عن كثرة المال .

(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ[1] ...) فبين الله – تعالى – أن القرابة أولى من الحلف ، فتركت الوراثة بالحلف وورثوا بالقرابة . ويرجع ذلك إلى أن المسلمين لما توالدوا فى الإسلام وكثروا عدل بهم إلى التوارث بالقرابة بعد قطعه بسبب الكفر .

والمراد من كتاب الله : اللوح المحفوظ ، أو القرآن الكريم ، والمراد من لفظ (المؤمنين) الأنصارُ ، ومن لفظ (المعروف) فى قوله : (إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا) : الوصية ، ومن (الأولياء) الأصدقاء من المؤمنين ، ويدخل فيهم المهاجرون والأنصار ، فإن الوصية تصح لكل مؤمن ومؤمنة وتقدم على الميراث بالقرابة والمصاهرة ، لقوله – تعالى – فى سورة النساء : « مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ[2] » بشرط أن تكون لغير وارث ، لقوله – صلى الله عليه وسلم – : « لا وصية لوارث » ومن العلماء من عمم المعروف فى كل بر وخير ، فيشمل الوصية وغيرها من أنواع البر كالهبة ، ومنهم من عمم الأولياء فأجاز الوصية لليهود والنصارى إذا كانوا موالين ، وبه قال محمد بن الحنفية وغيره ، ومنهم من قصر المعروف فى غير المسلم على الأقارب منهم كالوالدين والأولاد ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى المطولات .

والمعنى العام للآية : النبى أحق بالمؤمنين من أنفسهم ؛ لأنه أكثر منهم رعاية وعناية بمصالحهم ، فحبه مقدم على حبهم لأنفسهم ، وتنفيذ أمره وشرعه مقدم على تنفيذ رغباتهم وشهواتهم ، فهو أعرف بمصلحتهم الدنيوية والأخروية منهم ، وأزواجه – صلى الله عليه وسلم – كأمهاتهم فى الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام ، والبر والإعظام فلا يحل الزواج بإحداهن بعده ، ولا التفريط فى أى حق من حقوقهن ، إعظاماً لمقام نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وإجلالاً لقدره فى أمته ، وهن فيما عدا ذلك كالأجنبيات ، فلا تجوز الخلوة بهن كما تجوز

---

(١) وقيل : النسخ كان بآية آخر الأنفال ، وقيل : بالإجماع .

(٢) سورة النساء من الآية : ١١

بالأُمهات ، ولا تحرم بناتهن ولا أخواتهن كما تحرم بنات الأُمهات وأخواتهن ، وأَصحابُ القرابات - وقد انتشر الإسلام بينهم - أحق بميراث قريبهم من المهاجرين والأَنصار ، لزوال الكفر الذى كان سبباً فى حرمانهم من الميراث ، ونقله منهم إلى المؤمنين من المهاجرين والأَنصار ، وهذه الأَولوية لا تمنع من أن تقدموا لأَوليائكم من الأَنصار والمهاجرين وغيرهم معروفاً وبراً سوى الميراث كالوصية والهبة والهدية والصدقة ، كان ما تقدم فى هذه السورة من الأَحكام فى كتاب الله (اللوح المحفوظ ، أو القرآن) مسطوراً واجب التنفيذ والامتثال .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾)

المفردات :

(وَإِذْ أَخَذْنَا) : واذكر - أيها النبى - حين أخذنا .

(مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ) : من النبيين عهدهم بالدعوة إلى دين الله .

(مِيثَاقاً غَلِيظًا) : عهدًا عظيم الشأْن ، أو قوياً متيناً ؛ لتأْكيده باليمين .

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ) : ليسأَل النبيين عن الصدق الذى بلغوه لأَقوامهم ، وعُبِّر عن النبيين بالصادقين لملازمتهم للصدق ، وعما بلَّغوه بالصدق ، لأَنه من عند الله ، وقد جعل نفس الصدق على سبيل المجاز .

التفسير

٧ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً) :

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة بعض ما أبلغه رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - لأمته من الأحكام الناسخة لما كانوا عليه قبلها ، جاء بهذه الآية لبيان أن تبليغ أحكام الله وشرائعه أمر مفروض على النبيين جميعاً ، وقد أخذ عليهم العهود والمواثيق بتبليغها ، سواء أكانت ناسخة لما قبلها ، أم مؤكدة لها ، أم جديدة لم يسبق مثلها .

والتصريح بذكر هؤلاء الأنبياء الخمسة - مع اندراجهم فى عموم الأنبياء قبلهم - لكونهم مشاهير أرباب الشرائع ، وأولى العزم من الرسل ، وقدم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - على سائر أولى العزم ؛ تكريماً له وتعظيماً لشأنه ، لعموم نبوته وبقائها إلى قيام الساعة ، فهو سيد ولد آدم ولا فخر ، ورتب بعده باقى الأنبياء حسب ترتيبهم فى الوجود والبعث ، وإعادة أخذ الميثاق فى الآية لتأكيده ، ووصفه بكونه غليظاً تعظيماً لشأنه .

ومعنى الآية : واذكر لقومك - أيها النبى - حين أخذنا من جميع النبيين ميثاقهم أن يبلغوا شرائعنا لأممهم ، ويخصونى بالعبادة وحدى ، وأخذنا هذا الميثاق بخاصة على أولى العزم منهم ، حيث أخذناه عليك وعلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم بذلك ميثاقاً مؤكدا عظيماً ، ثم بين المقصود من أخذ هذا الميثاق بقوله - سبحانه - :

٨ - (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً) :

أى : أخذنا الميثاق بتبليغ شرائعنا على جميع النبيين المعروفين بالصدق عندنا وعند أقوامهم منذ نشأتهم ؛ ليسأل الله هؤلاء الأنبياء المتصفين بالصدق عما قالوه وبلغوه من شرائعه الصادقة ، وبماذا أجابهم أقوامهم ، فيؤدوا الشهادة أمام الله عما قوبلت به دعوتهم كما قال - سبحانه - : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ »[1] ويرتب على شهادتهم ما يستحقه أقوامهم من ثواب أو عقاب ، وقد أعد للمؤمنين ثواباً كريماً ، وأعد للكافرين عذاباً أليماً .

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١٠٩

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا
شَدِيدًا ﴿١١﴾)

المفردات :

(إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ) : من قريش ومن تحزب معهم فى غزوة الأحزاب .

(وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) المراد بهم : الملائكة .

(مِن فَوْقِكُمْ) : من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وهم بنو غطفان وبنو قريظة :

(وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ) : من أسفل الوادى من جهة المغرب ، وهم قريش وباقى حلفائها .

(زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) : مالت عن مستوى نظرها .

(وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) أى : خافوا خوفاً شديداً ، فالكلام على التمثيل أو الكناية لا على الحقيقة ، لأن القلوب لا تفارق أماكنها من الصدور ، ولكنها تضطرب رعباً والحناجر : جمع حنجرة ، وهى الحلقوم حيث مخرج الصوت .

(هُنَالِكَ) : ظرف مكان وقد يستعمل فى الزمان حقيقة من قبيل المشترك ، أو مجازًا ، والمراد به هنا : الزمان ، أى : فى ذلك الحين ابتلى المؤمنون .

(وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) : اضطربوا من الفزع اضطراباً عنيفاً .

التفسير

٩ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) :

تحكي هذه الآية والآيات التي بعدها قصة غزوة الخندق ، وتسمى غزوة الأحزاب وكانت - كما قال ابن إسحاق - : فى شوال من السنة الخامسة الهجرية .

والمراد بالجنود الذين جاءوا لحرب المؤمنين : الأحزاب الذين تحزبوا لحرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم قريش يقودهم أبو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن - وكان الرسول قد أقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمه حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود قومه لحرب من أنعم عليه - وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمى ، وبنو النضير يقودهم رؤساؤهم حيى بن أخطب وأبناء بنى الحقيق ، وبنو قريظة برياسة سيدهم كعب بن أسد .

وكان بين بنى قريظة وبين النبى - صلى الله عليه وسلم - عهد فنقضوه بسعى حُيَىّ ابن أخطب ، وكان عدد جنود الأحزاب اثنى عشر ألفاً[1] .

وسببها : أن يهود بنى النضير كانوا قد خانوا عهد الرسول - عليه السلام - وذلك أن النبى وبعض أصحابه كانوا فى ديار بنى النضير ، فائتمروا على قتله ، بأن يأخذ أحدهم صخرة فيلقيها على النبى - صلى الله عليه وسلم - من علو ، فأطلع الله نبيه على قصدهم فرجع مع أصحابه ، وبعث إليهم أن اخرجوا من بلادى فقد هممتم بقتلى ، فتحصنوا بحصونهم ، فحاصرهم النبى ست ليال ، فسألوا أن يكف عن قتالهم ، على أن يخرجوا من ديارهم ومعهم ما حملت الإبل غير آلة الحرب ، فأجابهم النبى إلى ما طلبوا ، فذهب فريق منهم إلى خيبر وعلى رأسهم حيى بن أخطب وآل أبى الحقيق وذهب آخرون إلى أذرعات ، فلم يقر لهم قرار بعد تركهم ديارهم ، وعزموا على الأخذ بالثأر

---

(١) وقيل : عشرة آلاف ، وقيل : خمسة عشر ألفاً .

ليستردوا بلادهم ، فذهب جمع منهم برياسة حييّ بن أخطب إلى قريش لتحريضهم على قتال النبى – صلى الله عليه وسلم – ووعدهم أن يقاتلوه معهم ، ثم حرضوا غطفان فاستجابوا لهم ، فخرجت قريش مع أحابيشها وبنو غطفان ، فلما علم الرسول بخروجهم فى حشدهم الكبير برياسة أبى سفيان ، استشار أصحابه : أيمكث بالمدينة أم يخرج لقتالهم خارجها ؟ فأشار عليهم سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة من الحرّة الشرقية إلى الحرة الغربية ، فإنها هى الجهة التى تعتبر عورة ومدخلا للمدينة ، أما بقية حدودها فمشغولة بالنخيل والبيوت ، فيصعب على العدو القتال من ناحيتها ، فأعطى النبى – صلى الله عليه وسلم – لكل عشرة أربعين ذراعاً ليحفروها ، وقاسى المسلمون شدائد وصعاباً فى حفرها ، حيث لم يسبق لهم حفر الخنادق فى حروبهم ، ولم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم النبى – صلى الله عليه وسلم – فكان ينقل التراب متمثلا بشعر عبد الله بن رواحة :

اللــهم لولا أنت ما اهتـدينا ولا تصدقنا ولا صلينـا
فأنزلَــن سكــينة علينــا وثبت الأقدام إن لاقينــا
والمشركون قد بغوا علينــا وإن أرادوا فتنة أبينــا

ثم خرج – صلى الله عليه وسلم – بثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب بعسكره فى الجهة الشرقية ، مسنداً ظهره إلى جبل سلع المطل على المدينة ، أما قريش وأحابيشها فنزلوا بمجمع الأسيال ، وأما غطفان فنزلت جهة أُحد ، وكان الخندق فاصلا بين الرسول وبين أعدائه .

وقد أمر النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يقيم النساء والذرارى فى الآطام[1] ، واشتد الخوف عند المسلمين ، وتجلى نفاق المنافقين فى هذه الغزوة ، فانسحبوا من المعركة معتذرين بأن بيوتهم عورة (وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا) وكانوا يقولون : (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) .

---

(١) جمع أطم : وهو المكان العالى من حصن أو جبل أو قصر .

وفى أثناء هذا الخطر الداهم ، نقضت قريظة عهدها مع النبى – صلى الله عليه وسلم – فأصبح المسلمون بين نار من فوقهم ونار من أسفل منهم ، وقد هرب المنافقون بأعذارهم المكذوبة ، فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر من الخوف ، ومضى قريب من شهر دون حرب بين الفريقين سوى الرمى بالنبل والحجارة من وراء الخندق ، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عَبْدِوُدّ – وكان يعد بألف فارس – وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب ،وهبيرة بن أبى وهب ،ونوفل بن عبد الله ، اقتحموا الخندق بخيولهم من مكان ضيق ، فجالت خيولهم فى السبخة بين الخندق وسلع ، فخرج على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – فى نفر من المسلمين ، وأخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها ، فأقبلت الفرسان معهم ، وقتل علىٌّ عَمْرَو بنَ عَبْدِ وُدٍّ فى قصة مشهورة ، فانهزمت خيله حتى اقتحمت هاربة من الخندق ، وقتل مع عمرو منبه بن عثمان بن عبد الدار ، ونوفل بن عبد العزى ، قيل : إنه وجد فى جوف الخندق ، فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة فقال لهم : أجمل من هذه ينزل بعضكم أقاتله ، فقتله الزبير بن العوام ، وذكر ابن إسحاق أن علياً طعنه فى ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات فى الخندق ، وبعث المشركون إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال : «هولكم ،لا نأكل ثمن الموتى » .

وقد هيأ الله للمسلمين بعد ذلك أسباب النصر ، فقد جاء نعيم بن مسعود الأشجعى من غطفان – وهو صديق قريش واليهود – فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت وقومى لا يعلمون ، فمرنى بأمرك حتى أساعدك ، فقال – صلى الله عليه وسلم – : أنت رجل واحد ، وما ذا عسى أن تفعل ، ولكن خَذِّلْ عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة ، فتوجه إلى بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم مع النبى – صلى الله عليه وسلم – وقال لهم : أنتم تعرفون ودى لكم وخوفى عليكم ، وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى ، فوعدوه بكتمانه فقال : لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا إلى بلادهم وأما أنتم فتساكنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه وحدكم ، فأرى أن لا تدخلوا هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم ، بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم ، فاستحسنوا رأيه ، ثم توجه

إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال :أنتم تعرفون ودى لكم ، ومحبتى إياكم ، وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى ، فوعدوه بذلك ، فقال : إن بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوا مع محمد ، وخافوا أن ترجعوا وتتركوهم معه ، فقالوا له : أيرضيك أن نأخذ جمعا من أشرافهم ونسلمهم إليك ، وترد جناحنا التى كسرت - يريد بنى النضير - فرضى بذلك منهم ، ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثـل ما أخبر قريشاً ، فأرسل أبو سفيان وفدا لقريظة يدعوهم للقتال غدًا - وكان يوم سبت - فقالوا : إنا لا نقاتل يوم السبت ، ولم يصبنا ما أصابنا إلا بالتعدى فيه ، ولن نقاتل حتى تعطونا رهائن منـكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم ، فتحققت قريش وغطفان مما قاله نعيم بن مسعود الأشجعى ، فتفرقت القلوب وخاف بعضهم بعضاً ، وأدى نعيم بن مسعود بهذه الوقيعة أعظم خدمة للإسلام فى هذا الخطر المحدق به .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد ابتهل إلى ربه قائلا : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم » فكان هذا الدور الذى أداه نعيم جزءا من إجابة الله لدعوته ، وأرسل الله على أعدائه ريحاً باردة فى ليلة مظلمة شاتية ، كفأت قدورهم ، وأطفأت نيرانهم ، وقلعت خيامهم ، وأرسل عليهم جنودًا من الملائكة لم يروها ، كبّرت فى جوانب العسكر ، فماجت الخيل بعضها فى بعض ، فقال طليحة بن خويلد الأسدى : أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ، خوفاً من أن تتفق يهود مع المسلمين فيهجموا عليهم فى تلك الليلة المدلهمة ، وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم : ليتعرف كل منكم أخاه ، وليمسك بيده خوفاً من أن يدُخل بينكم عدو ، وبدأ بالرحيل ، فقال له صفوان بن أمية : أنت رئيس القوم فلا تتركهم وتمضى ، فنزل من فوق بعيره وآذنهم بالرحيل ، فرحلوا مهزومين .

والمعنى : ياأيها الذين صدقوا بالله ورسوله ، اذكروا نعمة الله عليكم حين جاءتكم جنود كثيرة من الأحزاب ، مجهزون بمختلف أنواع السلاح ، فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة كفأت قدورهم ، وقلعت خيامهم ، ونشرت الرعب بينهم ، وأرسلنا عليهم أيضاً جنودًا من الملائكة لم تروها ، وكان الله بما تعملونه من حفر الخندق والاستعداد للقتال بقدر وسعكم ، وأنه لا يكفى فى رد هؤلاء الأعداء المحيطين بكم ، كان الله بذلك كله خبيرا ، فلذلك نصركم بالريح والجنود التى لم تروها .

١٠، ١١ - (إِذْ جَاءُوكُم[1] مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) :

المعنى : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم حين جاءكم جنود الأحزاب (مِن فَوْقِكُمْ) من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تبعهم من أهل نجد وبنو قريظة وبنو النضير (وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ) من أدنى الوادى من جهة المغرب - وهم قريش ومن تابعهم من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة[2] - وحين مالت الأبصار عن مستواها ، وانحرفت عن طريقتها[3] حيرة ودهشة ، وخافت القلوب خوفاً شديداً ، كأنها من خوفها بلغت الحناجر ، وتظنون بالله مختلف الظنون ، فالمؤمنون الصادقون يظنون أن ينجز الله وعده بنصر نبيه وأوليائه وإعلاء دينه - أو أنه يمتحنهم فيخافون أن تزل أقدامهم فلا يتحملون ما نزل بهم ، ويظن المنافقون والذين فى قلوبهم مرض أنهم مهزومون فيقولون ما يليق بحالهم مما سيحكيه الله - تعالى - : (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ) : على اختلاف درجاتهم بهذه المحنة ، واضطربوا اضطرابا قويًّا من شدة الفزع ، وظهر على لسان كل فريق ما يليق بحال إيمانه من صدق أو نفاق .

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾)

(١) بدل من (إذ جاءتكم) بدل كل من كل .

(٢) وقيل : الجائى من فوق بنو قريظة ، ومن أسفل قريش وأسد ، وغطفان ، وسليم ، وقيل غير ذلك .

(٣) وقال الأخفش : حين مالت عن كل شيء ، فلم تلتفت إلا إلى عدوها .

المفردات :

(فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ): ضعف اعتقاد . (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) : من النصر .

(إِلَّا غُرُوراً): إلا باطلا من القول (يَا أَهْلَ يَثْرِبَ) : يا أهل المدينة .

(لَا مُقَامَ لَكُمْ) : لا مكان لكم فى أرض المعركة تقيمون فيه وأنتم مطمئنون للنصر .

(فَارْجِعُوا): إلى منازلكم . (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) : غير حصينة[1] .

(مِنْ أَقْطَارِهَا) : من جوانبها . (ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ): الردة وقتال المسلمين .

(لَآتَوْهَا) : لفعلوا الفتنة .

(وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيراً) : وما مكثوا بإتيانها إلا زماناً يسيراً مقدار السؤال والجواب .

التفسير

١٢ - (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً) :

فى هذه الآية وما بعدها يحكى الله موقف المنافقين ومرضى القلوب من وعد الله بالنصر فى غزوة الأحزاب ، وتخذيلهم للمجاهدين من أهل المدينة ، وفرارهم من المعركة بأعذار واهية ، والتعبير بلفظ (يقول) بدلا من (قال) للدلالة على تكرار قولهم : (مَاوَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً) واستحضاراً لصورته لمزيد التشنيع عليهم .

روى النسائى بسنده عن البراء قال : لما أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فألقى ثوبه وأخذ المعول وقال : « باسم الله » فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال : « الله أكبر أعطيتُ مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها الحمراء الآن من مكانى هذا » قال : ثم ضرب أخرى وقال : « باسم الله » فكسر ثلثاً آخر ، ثم قال : « الله أكبر . أعطيت مفاتيح فارس ، والله

(١) وعورة فى الأصل : مصدر ، بمعنى الخلل ، وصفت بها البيوت المبالغة ، ويوصف بها المفرد والمثنى والجمع مذكراً أو مؤنثاً بلفظ واحد كما هو شأن المصادر .

إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض » ثم ضرب الثالثة وقال : « باسم الله » فقطع الحجر ، وقال : « الله أكبر . أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر باب صنعاء[1] » وقد تحقق كل ذلك ، ولكن المنافقين لا يفقهون ، فوصفوا هذا الوعد بالغرور .

وجاء فى حديث آخر أنه - صلى الله عليه وسلم - كلما ضرب ضربة أضاءت له مملكة من هذه الممالك .

والمعنى الإجمالى للآية : واذكر - أيها النبى وكل مؤمن - حين يقول المنافقون ومرضى القلوب مكررين : ما وعدنا الله من النصر والاستيلاء على الممالك إلا وعداً باطلاً لا نسبيل إلى تحقيقه .

١٣ - (وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا) :

المراد بالطائفة هنا عبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه - كما قال السدى - وقيل : هم أوس بن قيظى وأصحابه بنو حارثة - كما قال يزيد بن رومان .

ويثرب هى المدينة ، وسميت يثرب باسم رجل من العماليق نزلها من قبل - كما قاله السهيلى - ولها عدة أسماء ، منها : طابة ، وطيبة ، وقد كره بعض العلماء إطلاق لفظ يثرب عليها ؛ لحديث رواه أحمد بسنده عن البراء قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله » تفرد به أحمد ، وفى إسناده ضعف كما قال ابن كثير .

ومعنى قولهم : (لَا مُقَامَ لَكُمْ) : لا مكان لكم فى أرض المعركة تقيمون فيه ، فأنتم عرضة للفناء من الأحزاب الكثيرة العدد والعُدَدِ ، ويصح أن يكون المعنى : لا إقامة لكم ، أى : لا يمكنكم الإقامة ، أولا ينبغى أن تقيموا هنا والحال على ما ترون . أو : لاإقامة لكم فى دين محمد ، فارجعوا كفارا ، وتحللوا بذلك من بيعتكم إياه وأسلموه .

ومعنى الآية : واذكر - أيها النبى وكل مؤمن - حين قال جماعة من المنافقين وضعفاء الإيمان لجنود المسلمين الذين خرجوا مع الرسول للدفاع عن المدينة : لاينبغى أن تقيموا هنا على شفير الخندق فى مواجهة الأحزاب ، فارجعوا إلى بيوتكم ، يريدون

---

(١) ذكره القرطبى فى آخر المسألةالثالثة من مسائل قوله - تعالى - : « يا أيهاالذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ... » الآية التاسعة من هذه السورة .

بذلك ترك النبى مع المهاجرين ، حتى إذا انتصرت عليهم الأحزاب كان لهم بذلك يد عندهم تنجيهم من بطشهم ، ويستأذن جماعة منهم النبى فى العودة إلى بيوتهم ليحرسوها قائلين : (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) أى : ذليلة غير حصينة يخاف عليها من السراق ، وما هى بعورة - كما زعموا - ما يريدون بهذا الاستئذان إلا فرارًا من أرض المعركة .

١٤ - (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا) :

ولو دخل الأعداء المدينة أو البيوت من جوانبها على هؤلاء المعتذرين عن القتال بخلل بيوتهم ، ثم سألهم هؤلاء الأعداء الحرب فى صفوفهم ضد محمد وأصحابه لأعطوها وخاضوا غمارها ضده ، ولم يتلبثوا فى بيوتهم إلا زمناً يسيرًا بقدر ما يأخذون سلاحهم فطلبهم الإذن فى الرجوع إلى بيوتهم ليس راجعاً إلى اختلالها وعدم حصانتها - كما زعموا - بل لنفاقهم وكراهتهم نصرة رسولهم .

وفسر بعضهم الفتنة بالكفر ، والمعنى عنده : ولو سئلوا الردة عن الإسلام لأعطوها وما مكثوا بإعطائها إلا زمناً يسيرا بمقدار السؤال والجواب ، والمعنى الأول أولى ، وهو اختيار ابن عطية ، وقد دخل فيه هذا المعنى ضمناً .

(وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾)

المفردات :

(لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ) أى : لا يفرون ، والفار يُوَلِّى دبره .

(مَسْئُولًا): مطلوباً الوفاء به .

(لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً) : لا تنتفعون بالبقاء إلا زمناً قليلاً .

(يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ) : يمنعكم من قضائه خيرًا كان أو شرًا .

التفسير

١٥ - (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا) :

قال يزيد بن رومان : هم بنوحارثة همّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم مانزل عاهدوا الله على أن لا يعودوا لمثل ما فعلوا .

وهذه الآية الكريمة تعيب عليهم نكوصهم فى عهدهم فى غزوة الخندق ، حيث كانوا ضمن المنافقين المستأذنين فى الرجوع من المعركة لحفظ بيوتهم من الأعداء ، بحجة أن بها عورة وخللاً ، وتُذكّرهم بوجوب الوفاء بالعهد .

والمعنى : ولقد كان هؤلاء المنافقون المعتذرون عاهدوا الله أمام رسوله من قبل هذه الغزوة أن لا يعودوا للفشل الذى هموا به يوم أُحد، فلا يولون الأدبار فى حروب الرسول مع الكافرين ، وكان الوفاء بعهد الله مطلوباً ، فما بالهم يستأذنون فى العودة إلى بيوتهم فى أصعب أحوال الحرب بين الإسلام والكفر .

١٦ - (قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً) :

قل - أيها الرسول - لهؤلاء المعتذرين الفارين من المعركة : لن ينفعكم الفرار من الموت حتف أنوفكم إن قضى الله بذلك ، أو من القتل إن قضى الله أن تقتلوا وإذا فررتم من أحدهما فسيدرككم ما قضاه الله عليكم منهما ، وإذًا لا تمتعون بالفرار إلا زماناً قليلا مهما طال ؛ فإن متاع الدنيا قليل مهما طال الأجل .

١٧ - (قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) :

قل لهم - أيها الرسول - : من هذا الذى يمنعكم من قضاء الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله - عندما يحل بهم السوء - قريباً ينفعهم ولا نصيراً يدفع الضر عنهم .

* (قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾)

المفردات :

(الْمُعَوِّقِينَ) : المثبطين الصادين الناس عن رسول الله ، وهم المنافقون .

(هَلُمَّ إِلَيْنَا) : تعالوا إلينا وأقبلوا علينا .

(الْبَأْسَ) : الحرب والقتال ، وأصل معناه : الشدة .

(أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ) : بخلاء بالمعاونة .

(كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ) : كنظر المغشى عليه.

(مِنَ الْمَوْتِ) : من معالجة سكرات الموت .

(سَلَقُوكُمْ) : آذوكم بالكلام وبالغوا فى شتمكم وذمكم .

(بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ) : قاطعة سلطة .

(أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ) : بخلاء على الإنفاق فى سبيل الله .

(أَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ) : أبطلها .

التفسير

١٨ - (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة بعض صور النفاق وصفات المنافقين ، فهم الذين يستأذن فريق منهم النبىّ فى الرجوع إلى المدينة فى غزوة الخندق متعللين بأن بيوتهم غير محصنة ولابد من حراستها ، وما يريدون إلا الفرار مع أن بعضهم عاهدوا الله فى غزوة أحد لا يولون الأدبار ، ولن ينفعهم الفرار من الموت أو القتل ، ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيرًا .

وفى هذه الآية الكريمة يبين الله صورة من صور هؤلاء المنافقين .

وقد نزلت هذه الآية الكريمة - كما قال ابن السائب - فى عبد الله بن أبى ، ومن رجع معه من المنافقين من الخندق إلى المدينة ، كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك اجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم في جيش الرسول أن : ائتونا فإنا ننتظركم .

والمعنى : يعلم الله على سبيل التحقيق المثبطين سرًّا عن رسول الله ، وهم فريق من المنافقين يصدون الناس عنه ، ويمنعونهم من شهود الحرب معه ، ومشاركته فى الذب عن دين الله ، وقتال أعداء الإسلام ، وهم الذين يقولون لإخوانهم فى النفاق وكراهية الرسول وبغض الإسلام : هلم إلينا ، أى : انضموا إلينا وقربوا أنفسكم منا ، وتعالوا ودعوا محمداً فلا تشهدوا معه حرباً ، فإنا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه . وكانوا لايباشرون الحرب والقتال إلا قليلا لعدم إخلاصهم ، فهم لا يشهدون القتال إن شهدوه إلَّا تقية دفعا عن أنفسهم .

وقيل : إن قوله - تعالى - : (وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا) من تتمة كلامهم ، ومعناه : ولا يأتى أصحاب محمد حرب الأحزاب ، ولا يبقون فيها إلَّا زماناً قليلا تدور بعده الدوائر عليهم ، والظاهر المعنى الأول .

١٩ - (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا) :

لايزال النظم الكريم يعرض صور المنافقين . ومعنى الآية : بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة وبكل مافيه منفعة لكم ، فإذا جاء الخوف من العدو ، وتُوُقِّع أن يُستأصل أهل المدينة ، رأيتهم ينظرون إليك فى تلك الحال تدور أعينهم فى أحداقهم حائرة ، كحال المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرًا وخوفاً من الحرب .

فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن وحيزت الغنائم ووقعت القسمة نسوا تلك الحال واجترأوا عليكم ، وضربوكم بألسنة ذَرِبَةٍ فصيحة وقالوا : عظموا نصيبنا من الغنيمة فإنا ساعدناكم وقاتلنا معكم ، وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم .

ولقد سأل نافع بن الأزرق ، ابن عباس - رضى الله عنه - عن « السلق » فى الآية فقال : الطعن باللسان ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ، فقال : نعم ، أما سمعت قول الأعشى :

فيهم الخصب والسماحة والنجـ ـدة فيهم والخاطب المسلاق

وفسره الزجاج بالمخاطبة الشديدة البليغة ، قال : معنى سلقوكم : خاطبوكم أشد مخاطبة وأبلغها فى الغنيمة ، يقال : خطيب مسلاق إذا كان بليغاً فى خطبته .

(أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ) أى : بخلاء على كل خير ، فلا يعاونونكم فى الحرب ولا ينفقون فى سبيل الله ، ولا غير ذلك من فنون الخير ، أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء لم يؤمنوا إيماناً صحيحاً نابعاً من قلوبهم ، فإنهم المنافقون الذين أظهروا الإيمان ، وأضمروا فى قلوبهم الكفر وتظاهروا بالإسلام ، ولم يستبطنوه فأحبط الله أعمالهم ، أى : أذهب أجرها وأظهر بطلانها ، لأنها باطلة مذ عملت ؛ إذ صحتها مشروطة بالإيمان الصادق ، وكان ذلك الإحباط على الله يسيرا هينا سهلا ، لايبالى به ولايخاف اعتراضا عليه ، لأنه عادل

يقول العلامة الزمخشرى : وفى هذا بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح الإيمان كالبناء على غير أساس وأنها مما يذهب عند الله هباءً منثوراً .

(يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ) : كائنون فى البادية مع الأعراب .

(مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا) : رياء وسمعة وخوفاً من التعيير .

التفسير

٢٠ – (يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا) :

ومن صفات المنافقين أنهم يظنون أن جيوش الأحزاب لا تزال مكانها تحاصر المدينة وأنهم لم يرحلوا ولم يشتت الله شملهم ، وذلك لما مسهم من الجزع ، وأصابهم من الدهشة والهلع ، وإن يأت الأحزاب كرة ثانية يتمنوا أنهم خارجون إلى البدو ومقيمون بين الأعراب يتسقطون أخباركم ، ويسألون كل قادم من جانب المدينة عما حدث لكم وجرى عليكم من الأحزاب ، وهكذا يتعرفون أحوالكم بالاستخبار والسؤال لا بالمشاهدة والعيان فرقاً وخوراً .

واختيار البادية ليكونوا سالمين من القتال ، بعيدين عن أرض المعركة ، ولو كانوا فيكم فى هذه الكرة المفروضة ، وظلوا فى معسكركم ، وحدث قتال ، والتحم الجيشان

ما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً رياء وسمعة وخوفاً من التعيير ، وهو قليل لا يجدى نفعاً ، ولا يسوق نصرا ، ولا يدفع ضررا لأنه رياء ، ولو كان لله لبالغوا فى القتال لتحقيق النصر .

(لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) : قدوة طيبة .

(لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) أى : يأمل رضا الله ، وثواب اليوم الآخر .

(مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ) من الابتلاء والنصر .

(وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ) أى : ظهر صدق خبر الله ورسوله فى الوعد .

(وَتَسْلِيماً) : وانقياداً لأوامره وطاعة لرسوله .

التفسير

٢١ - (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) :

هذه الآية أصل كبير فى التأسى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أقواله وأفعاله وأحواله ، ولقد أمر الله - تبارك وتعالى - الناس فيها بالتأسى بالنبى - صلى الله عليه وسلم - يوم الأحزاب، فى صبره ، ومصابرته ، ومرابطته ، ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه

وقال معاتبا للذين قلقوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب وللمتخلفين: لقد كان لكم[١] فى رسول الله أسوة حسنة فهلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ والآية وإن سيقت للاقتداء به - عليه السلام - فى أمر الحرب من الثبات فى القتال ونحوه ، فهى عامة للاقتداء به فى كل أفعاله « ما لم يُعلم أنها من خصوصياته ».

أخرج الشيخان والنسائى وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر: أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة؟ فقال: لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين ، وسعى بين الصفا والمروة ثم قرأ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ أى: لمن كان يأمل رحمة ربه ورضوانه ، ونعيم اليوم الآخر وهو يوم القيامة أو يخاف الله واليوم الآخر ، فالرجاء هنا بمعنى الأمل أو الخوف ، وقرن - سبحانه وتعالى - بالرجاء كثرة الذكر لأن المثابرة على كثرة ذكره - عز وجل - تؤدى إلى ملازمة الطاعة وبها يتحقق التأسى والاقتداء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وصرح بعض الأجلة كالإمام النووى أن ذكر الله المعتبر شرعاً ما يكون فى جملة مفيدة كسبحان الله ، والحمد لله ، وأجمعوا على أن الذكر المتعبد بمعناه لا يثاب صاحبه ما لم يستحضر معناه ، فالمتلفظ بنحو: سبحان الله والحمد لله إذا كان غافلا عن المعنى لايثاب إجماعاً .

٢٢ - ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً ﴾ :

هذا بيان لما صدر عن خلص المؤمنين وصالحى المسلمين عند اشتباه الشئون ، واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم .

---

(١) فى الكلام فن التجريد ، وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة آخر مثله فيها مبالغة فى الاتصاف بها ، نحو: لقيت منه أسداً ، وهو كما يكون بلفظ من يكون بلفظ فى ، كقول الشاعر :

أراقت بنو مروان ظلما دماءنا وفى الله إن لم يعدلوا حكم عدل

أى : لما شاهد المؤمنون الأحزاب وعاينوا جموعهم المحتشدة ، قالوا مشيرين إلى ما شاهدوه : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذى يعقبه الفرج القريب والنصرة على الأعداء ، أو الجنة .

قال ابن عباس : يعنون قوله ـ تعالى ـ فى سورة البقرة : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»[1] وفى البحر عن ابن عباس قال : قال الرسول لأصحابه : «إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا» أى : بعد تسع ليال أو عشر من وقت إخباره لهم ، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك . وكذلك قول الرسول : «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم» وتتبعه ابن حجر بأنه لم يوجد فى كتب الحديث .

وصدق الله ورسوله فى الوعد حيث ظهر صدق خبر الله ورسوله فى مجىء الأحزاب وفى النصرة عليهم ، ومازادهم مارأوه من الضيق ، وما كابدوه من الشدة إلا قوة إيمان بالله ، وحسن انقياد لأوامره ، وطاعة لرسوله .

وفى الآية دليل على أن الإيمان يزيد ويقوى لزيادة التكاليف وزيادة الأعمال ، وكما يزيد لذلك ينقص بنقصه ـ كما قال الجمهور.

(مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾) .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٤ ، أخرجه ابن جرير والبيهقى وغيرهما .

المفردات :

(صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ) : من الثبات فى القتال مع الرسول حتى الاستشهاد أو النصر ، ووفوا بذلك .

(فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ) : وفاء بنذره بأن قاتل حتى استشهد .

(وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ) : ومنهم من بقى حيا ينتظر ذلك الشرف .

(وَمَابَدَّلُوا تَبْدِيلاً) أى : وماغيروا عهد الله ولانقضوا شيئا منه .

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَآءَ) : بأن يميتهم على نفاقهم فيعذبون بكفرهم .

(أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) أى : أو يوفق المستعد منهم للتوبة .

التفسير

٢٣ - (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) :

لما ذكر - سبحانه وتعالى - عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لايولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وجماعة عن أنس قال : غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله غبت عنه ! ! لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله فيما بعد ليرين الله - تعالى - ما أصنع ، فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واها لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية : (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ . . . .) الآية . وكانوا يرونها نزلت فيه وفى أصحابه .

وفى الكشاف : نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، أى : نذر الثبات التام والقتال الذى يُفضى بحسب العادة إلى نيل الشهادة أو النصر .

والمعنى : من المؤمنين المخلصين رجال ، أى رجال ؟ ! رجالٌ عاهدوا الله أن يكونوا فداءً للدعوة وقربانا للإسلام ، ومنارات على طريق الإيمان بالثبات مع الرسول فى القتال ، والاستبسال فى الذود عن دين الله حتى يفوزوا بإحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ، وصدقوا فى هذا العهد بأن وفوا به وحققوه بما أظهروه من أعمالهم ، ومن وفى بعهده فقد صدق فيه .

وهؤلاء الصادقون منهم من قضى نحبه ، أى : وَفَّى بنذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزةَ أسد الله ورسوله ، قتل وهو يصول ويجول كالأسد الهصور فى الميدان ، ومصعب ابن عمير استشهد وهو يحمل لواء المؤمنين إلى الجنة ، وأنس بن النضر الذى تقدمت قصته ، ومنهم من ينتظر بأن بقى حيًّا يتشوف إلى ذلك الشرف وينتظر يوما فيه جهاد فيقضى نحبه ويؤدى نذره ويفى بعهده كعثمان وطلحة ، روى أن طلحة ثبت مع رسول الله يوم أحد حتى أصيبت يده ، فقال الرسول : «أوجب طلحة» .

وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ـ تعالى ـ : (قَضَىٰ نَحْبَهُ) فقال : أجله الذى أجل له ، فقال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول لبيد :

ألا تسألون المرء ماذا يحاول أَنَحْبٌ فيقضى أم ضلال وباطل

وأخرج جماعة عنه أنه فسر ذلك بالموت ، وروى نحوه عن ابن عمر .

والمعنى الأصلى للنحب ـ على ماقرره الراغب والبيضاوى والكشاف ـ : النذر ، يقال : قضى فلان نحبه ، أى : وفى بنذره ، واستعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان ، كما يطلق ـ أيضا ـ فى اللغة على الأجل والنفس وغيرهما .

(وَمَابَدَّلُوا تَبْدِيلًا) : وما غيّر هؤلاء الصادقون عهدهم ، ولانقضوه ولابدلوا تبديلا ، لا أصلا ولا وصفا ، بل ظلوا على ماعاهدوا الله عليه ، وثبتوا راغبين فيه مراعين لحقوقه صادقين فى تحقيقه ، وفى الكلام تعريض بمن بَدَّله من المنافقين ، فكأنه قيل : وما بدلوا تبديلا كما بدل المنافقون .

٢٤ـ (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

المعنى : إنما يختبر الله عباده بالخوف والشدائد والزلازل والمحن ليميز الخبيث من الطيب فيظهر أمر هذا وذاك بالفعل ، ليجزى الله المؤمنين الصادقين بصدقهم فى إيمانهم ووفائهم وصبرهم على تحقيق ماعاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ومحافظتهم عليه ، ويعذب المنافقين الناقضين عهد الله ، المخالفين لأمره إن شاء إن لم يتوبوا ، أو يتوب عليهم بأن يوفق المستعد منهم للتوبة .

ولما كانت رحمته ـ تبارك وتعالى ـ بخلقه هى الغالبة قال : (إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا) : يقبول التوبة (رَّحِيمًا) : بالعفو عن المعصية .

والمراد من تعليق تعذيب المنافقين بالمشيئة : أنه ـ تعالى ـ إن شاء عذبهم فى الآخرة لبقائهم على نفاقهم فى الدنيا ، وإن شاء ـ سبحانه ـ لم يعذبهم بأن يسلب عنهم وصف النفاق بالتوفيق إلى التوبة والإخلاص فى الإيمان والعمل .

ومثل ذلك قول السدى : المعنى : ويعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم لبقائهم على نفاقهم ، أو يتوب عليهم بنقلهم من النفاق إلى الإيمان بالتوبة فيعفو عنهم .

وللعلامة الآلوسى كلام طويل فى هذا الموضوع فليرجع إليه من أراد .

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : الأحزاب .

(بِغَيْظِهِمْ) الغيظ : أشد الغضب والحنق .

(لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) : غير ظافرين بشىء من مرادهم .

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) : بجنوده من الريح والملائكة .

التفسير

٢٥ـ (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) :

رجوع إلى حكاية بقية القصة ، وتفصيل لتتمة النعمة المشار إليها إجمالا بقوله ـ تعالى ـ : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا)[1] .

يقول الله ـ تعالى ـ مخبرا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية : ورد الله الأحزاب الذين كفروا ، بما أرسله عليهم من الريح والجنود ، فلم ينالوا خيرا من غزوهم للمؤمنين ، فقد ألقى الله الرعب فى قلوبهم فولوا مهزومين مدحورين ، وكفى الله المؤمنين القتال ولم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله المؤمنين قتلهم وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده بجنوده من الريح والملائكة .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : «لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شئ بعده» أخرجه الشيخان .

وفى قوله ـ عز وجل ـ : (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) : إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش وحلفائها ، قال محمد بن إسحق : لما انصرف أهل الخندق قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنا : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم» فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، وكان رسول الله يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله ـ تعالى ـ مكة ، وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحق صحيح كما قال الإمام أحمد ، وروى مثله الإمام البخارى فى صحيحه ، (وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا) على تنفيذ مايريد ، (عَزِيزًا) لايغلبه غالب .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٩

(وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ) : عاونوا الأحزاب وساعدوهم .

(مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) : يهود بنى قريظة .

(مِن صَيَاصِيهِمْ) : من حصونهم ، جمع صِيصِيَة ، وهو : ماتُحصِّن وامتُنِع به .

(وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) : وألقى فى قلوبهم الخوف الشديد .

(وَأَوْرَثَكُمْ) : وملككم إياها وجعلها لكم .

(وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا) بعد وهى خيبر ، أُخذت بعد قريظة ، وعن عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة .

التفسير

٢٦ - (وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) :

سبب النزول :

روى أن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صبيحة الليلة التى انهزم فيها الأحزاب ، ورجع المسلمون إلى المدينة فقال : يارسول الله ، إن الملائكة لم تضع السلاح ، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ، وأنا عامد إليهم فإن الله دَاقُّهُمْ[1] دقَّ البيض على الصفار ، وإنهم لكم طعمة ، فأذن فى الناس أن من كان

(١) دقه : كسره ، أو ضربه فهشمه ، فاندق . ص ٢٢٢ ج ٣ قاموس .

سامعا مطيعا فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة ، فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «تنزلون على حكمي ؟ ! » فأبوا ، فقال : «على حكم سعد بن معاذ » فرضوا به ، فقال سعد : حكمت فيهم أن يقتل مقاتلهم ، وتسبي ذراريهم ونساؤهم ، فكبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال : «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة »[1] ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقا وقدمهم فضربت أعناقهم ، وروى أن النبي جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت الأنصار في ذلك ، فقال : «إنكم في منازلكم » وقال عمر - رضي الله عنه - : أما تخمس كما خمست يوم بدر ؟ قال : «لا ، إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس » قال : رضينا بما صنع الله ورسوله - ا هـ : الكشاف بتصرف .

والمعنى : وأنزل الله الذين عاونوا الأحزاب المخذولة وساعدوهم على حرب رسول الله من أهل الكتاب ، وهم بنو قريظة - من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل - كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل «فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ »[2] وانتزلهم من قلاعهم التي تحصنوا بها ، وحصونهم التي امتنعوا خلفها ، وألقى في قلوبهم الخوف الشديد ، لأنهم مالأوا المشركين على حرب الرسول ، وهم يعرفون صفاته في كتبهم ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليكون لهم العز والغلبة والشوكة ، فرد الله عليهم كيدهم في نحرهم ، انهزم المشركون ورجعوا بصفقة المغبون ، وتركوا حلفاءهم من بني قريظة لنصيبهم المحتوم ، وراموا استئصال المؤمنين فاستؤصلوا ، ولهذا قال - تعالى - : (فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) : فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسرى هم النساء والذراري .

٢٧ - (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) :

---

(١) في الصحاح : الرقيع : سماء الدنيا وكذلك سائر السموات .

(٢) سورة البقرة من الآية : ٨٩

وأورثكم مزارعهم ، وملككم حصونهم ومنازلهم وأموالهم : نقودهم ومواشيهم وأثاثهم ، انتقل إليكم ملكها بعد قتلهم ، وأصبح مِلْكُكُم إياها مِلْكًا قويا ، ليس بعقد يقبل الفسخ أو الإقالة ، وأورثكم أيضا أرضا لم تطأُها أقدامكم من قبل ، قال عروة : لا أحسبها إلا كل أرض فتحها الله -تعالى- على المسلمين ، أو هو فاتحها إلى يوم القيامة ، وبذلك قال عكرمة واختاره فى البحر .

(وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) : فقد شاهدتم بعض آثار قدرته فى هزيمة الأحزاب وتشتيت جموعهم ، والانتصار العظيم على بنى قريظة وأورثكم أرضهم وأموالهم ، وهو - سبحانه - قدير على أن يملككم ماشاء .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(قُل لِّأَزْوَاجِكَ) : وكن تسعا وطلبن منه شيئا من زينة الدنيا .

(إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا) أى : السعة فيها والتنعيم بها .

(وَزِينَتَهَا) : وزخرفها ومتعها .

(فَتَعَالَيْنَ) : أقبلْنَ بإرادتكن واختياركن .

(أُمَتِّعْكُنَّ) متعة الطلاق .

(وَأُسَرِّحْكُنَّ) : أطلقكن .

(سَرَاحاً جَمِيلاً) : طلاقا حسنًا لا ضرار فيه .

التفسير

٢٨ - (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً) :

جاء فى البحر : أنه لما نصر الله نبيه ، وردَّ عنه الأحزاب ، وفتح عليه النضير وقريظة ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله وقلن : يارسول الله ، بنات كسرى وقيصر فى الحلىّ والحُلَل والإماء والخَوَل[1] ، ونحن على ماتراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف – عليه الصلاة والسلام – بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ، فأمره – تعالى – أن يتلو عليهن مانزل فى أمرهن من تخييرهن فى فراقه ، وذلك قوله – تعالى – : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ... الآية) وبدأ بعائشة فقال لها : « إنى ذاكر لك أمرا ما أحب أن تتعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت : ماهو ؟ فتلا عليها قوله – تعالى – : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ . . . الآية) قالت : أفيك أستأمر أبوىّ ؟ بل أختار الله ورسوله ، ثم تتابعن كلهن على ذلك فسماهن الله أمهات المؤمنين ، تعظيما لحقهن ، وتأكيدا لحرمتهن ، وتفضيلا لهن على سائر النساء ، وقصره عليهن إذ قال : (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) [2] . اهـ : آلوسى .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم مثل ذلك ، ومما سبق يتضح مناسبة هذه الآية لما قبلها .

وفى خبر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة والحسن : أنه لما نزلت آية التخيير كان تحته – عليه السلام – تسع نسوة ، خمس من قريش وهن :

(١) عائشة (٢) وحفصة (٣) وأم حبيبة بنت أبى سفيان (٤) وسودة بنت زمعة (٥) وأم سلمة بنت أبى أمية .

ومن غير قريش : (٦) صفية بنت حُيَىّ الخيبرية (٧) وميمونة بنت الحارث الهلالية (٨) وزينب بنت جحش الأسدية (٩) وجويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وكان هذا التخيير كما روى عن عائشة وأبى جعفر بعد أن هجرهن – عليه الصلاة والسلام – شهراً « تسعة وعشرين يوما » وكان درسا قاسيا ، وموقفا حاسما – وقفه رسول الله أمام نسائه حين أردن زخارف الدّنيا وزينتها – بأمر من الله .

والمعنى : يا أيها النبى قل لأزواجك ناصحاً مبيناً لهن وحى الله وأمره : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، والسعة فيها ، والتنعم بها ، فاقبلن بإرادتكن واختياركن لخصلتين

(١) أى : الخدم .

(٢) سورة الأحزاب : الآية : ٥٢

أعطيكن متعة تخفف عنكن وحشة الطلاق ، وقسوة ومرارة الفراق ، وأطلقكن طلاقاً جميلا لا إساءة معه ولا ضرار فيه .

وفى مجمع البيان : تفسير السراح الجميل بالطلاق الخالى عن الخصومة والمشاجرة ، وقدم التمتع على الطلاق إيناساً لهن ، ولأن الإسلام يقدم الخير قبل الشر ويسوق النفع قبل الضر.

٢٩ - (وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً) :

وإن كنتن تُؤثرن حب الله - سبحانه - وحب رسوله - عليه الصلاة والسلام - والدار الآخرة ونعيمها الباقى الذى لايدانيه شىء فى الدنيا وما فيها ، وترضين بما أنتن فيه من شظف العيش ، وخشونة الحياة ، فإن الله هيأ ويسّر للمحسنات منكن أجرًا عظيماً ، جزاء إحسانهن باختيار الله ورسوله على دنيا الناس .

و (مِنْ) للبيان لا للتبعيض ؛ لأن كلهن كن محسنات فى أعمالهن آثرن الله ورسوله واليوم الآخر .

ويستدل الكاتب الإسلامى المرحوم مصطفى صادق الرافعى بهذه القصة على أنه - عليه السلام - لم يكن زواجه رغبة فى متعة ، ولا طلباً لشهوة ، ولا حبًّا لجسد ، ولو كان الأمر على ذلك لما كانت هذه القصة التى أساسها نفى الزينة ، وتجريد نسائه جميعاً منها ، وأمره من قبل ربه أن يخيرهن بين تسريحهن ، فيكنّ كالنساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمساكهن فلا يكنّ معه إلا فى طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهى الدنيا وزينتها .

ولم تقتصر القصة على نفى الدنيا وزينتها عنهن ، بل نفت الأمل فى ذلك إلى آخر الدهر ، وأماتت معناه فى نفوسهن ، بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : الله فى أمره ونهيه ، والرسول فى شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة فى تكاليفها ومكارهها . اه « ملخصا من كتاب وحى القلم للرافعى ج ٢ ص ٦٣ وما بعدها » .

حكم المتعة :

المتعة للمطلقة التى لم يُدخل بها ولم يُفرض لها فى العقد واجبة عند الإمام أبى حنيفة - رضى الله عنه - وأصحابه ، ولسائر المطلقات مستحبة .

وعن الزهرى متعتان : إحداهما يقضى بها السلطان ويجبر عليها من طلّق قبل أن يفرض لها ويدخل بها .

والثانية : حق على المتقين بعد ما فرض لها ودخل بها .

وخاصمت امرأة إلى شريح فى المتعة ، فقال لزوجها : متعها إن كنت من المتقين ، ولم يجبره .

وعن سعيد بن جبير : المتعة حق مفروض .

وعن الحسن : لكل مطلقة متعة إلّا المختلعة والملاعنة .

تخيير الرسول لنسائه :

اختلف فيما وقع من التخيير ، هل كان تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أو لا ؟

فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم -ومنهم ابن الهمام- إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق ، وإنما كان تخييرًا لهن بين الإرادتين ، على أنهن إن أردن الدنيا فارقهن النبى - صلى الله عليه وسلم - كما ينبئ عنه قوله - تعالى - : (فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ) .

وذهب آخرون : إلى أنه كان تفويضاً إليهن بالطلاق ، حتى أنهن لو اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقاً .

ولقد ذكر الإمام الرازى فى الكلام على تفسير هذه الآية عدة مسائل :

الأولى : أن التخيير منه -صلى الله عليه وسلم- كان واجباً عليه بلاشك ، لأنه إبلاغ للرسالة .

الثانية : أنه لو أردن كلهن أو إحداهن الدنيا ، فالظاهر أنه يجب عليه التمتيع والتسريح ، لأن الخلف فى الوعد منه - عليه السلام - غير جائز .

الثالثة : أن الظاهر أنه لا تحرم المختارة على غيره - عليه السلام - بعد البينونة ، وإلّا لا يكون التخيير مُمَكِّناً من التمتع بزينة الدنيا .

الرابعة : أن الظاهر أن من اختارت الله - تعالى - ورسوله يحرم على النبى طلاقها « نظرًا لمنصبه الشريف » .

(يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(بِفَاحِشَةٍ) : بكبيرة .

(مُبَيِّنَةٍ) : ظاهرة القبح .

(ضِعْفَيْنِ) أى : ضعفى عذاب غيرهن ، أى : مثليه .

التفسير

٣٠ - (يَانِسَآءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا) :

المعنى : يا نِسَاء النبى من ترتكب منكن كبيرة من الكبائر ، أو تقترف ذنباً من الذنوب القبيحة ، كعصيان الله ورسوله ، ومشاقته فيما ليس فى طاقته ، يضاعف لها العذاب ضعفين ، أى : تعذب ضعفى عذاب غيرها ، أى : مثليه .

وإنما ضوعف عذابهن لأن ما قبح من سائر النساء ، كان صدوره منهن أقبح ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وعلو المنزلة ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - لذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم أشد منه للعاصى الجاهل .

ولما كانت مكانتهن رفيعة ناسب أن يجعل عقاب الذنب لووقع منهن مضاعفاً ، صيانة لشرفهن الرفيع ، وكان تضعيف العذاب عليهن يسيرًا هيناً لا يمنعه - جلَّ شأنه - عنهن كونهن نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - بل هو سبب له .

وروى عن زين العابدين - رضى الله عنه - أن رجلا قال له : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله - تعالى - فى أزواج النبى ﷺ من أن نكون كما تقول ، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب ، وقرأ هذه الآية والتى تليها - والله أعلم .